Powered by UITS

بوهيميا الخراب

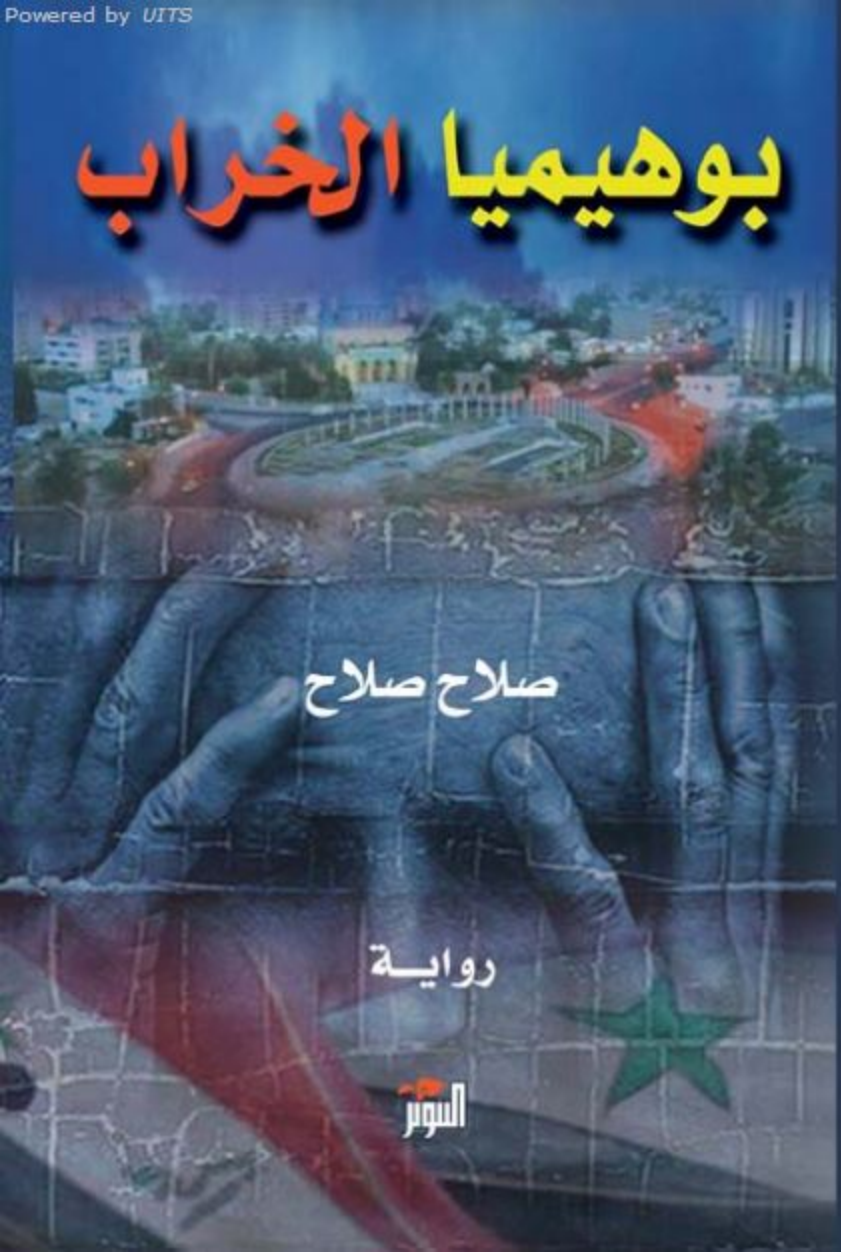

صلاح صلاح

رواية

السوسن

صلاح صلاح

بوهيميا الخراب

السوسن

بوهيميا الخراب

رواية

صلاح صلاح

2007

The devastation`s Bohemi

SALAH SALAH

A NOVEL

2007

إلى: روح حياة شرارة.. طبعاً

أي تشابه بين الأسماء الواردة في هذه الرواية مع أسماء حقيقية هو محض صدفة.

من رأى كأن الخليفة نكحه نال ولاية.

تفسير الأحلام

ابن سيرين

الفصل الأول

كان النهر شحيحاً. ضفافه تدفع العطر إلى مسافات هائلة وبعيدة. العطر هو الرمز السري في الذاكرة وحينما تتنسم الرائحة تنداح بعيداً جداً. هناك ممالك سرية وأجنحة موشاة وهناك أيضاً ذكرى السهروردي وابن جريح والسقطي ضمنهم طبعاً الجنيد البغدادي. على ضفة النهر كنت أحلم بالملائكة وهي تمنحني سلوى الله على هيئة نقاط دوائية. لكن الدواء يختفي مثلما يظهر فجأة وكان النهر عظيماً جداً. كبيراً ورهيباً وهو يلتف على مدينة بعقوبة ومنارات الحسينيات والجوامع وكأن هناك لغة مشتركة بين الله وروح الإنسان.

لا أعرف على نحو محدد كيف هي العلاقة بين كل هذه الأشياء لكني كنت مقتنعاً أن الله الحبيب والملغز والسري للغاية، يرمي إلينا دائماً بالأسرار. كنت أفكر وأنا أتلمس النهر والضفاف وخريسان المنحدر من الثلوج. هو كيف خلق الله كل هذه الدنيا وهذا العالم دفعة واحدة وبكلمة واحدة وبضحكة واحدة ومن لا شيء. لم أجد دليلا قويا على وجود الله في الكتب لكني أدركته من خلال نغمات الطيور ومن خلال الوجع الساكن في قلوب المجروحين.

أن تحب فهذه مشكلة عويصة. ربما من أحببته لا يعيرك الأهمية،

وربما من أحببته غارق في تكوينات الشمس ويصنع البرد في أعالي السماء. قد يبدو الحب شيء غريب لكن الكره أيضاً هو شيء غريب. كنت أحلم بالنهر، أحلم بخريسان وهو يشق المدينة العائمة. بعقوبة، سحر عفوي ومثالي لممارسة الأحلام وتصفحها وفي النهاية ترمي كل أحلامك إلى النهر ثم تشرب نخب الحب الميت والأصدقاء والدروب والمضاجعات الانية، كيفما تكون..

هكذا عشقت النهر. إنه سكين تنحرني إلى الأبد. حتى الشمس حينما تلتف على بعقوبة تكون قد سقطت في وهم المتخيل والمناكفات الهسترية والمائعة على الضفاف. لست ملغزا إلى هذا الحد، لا، قطعا، لكن الضباب الشحيح والمتمرد والذي يندفع مثلما تندفع الغرانيق يجعل من بوابات العالم شيئاً سحريا حيث تنتظرك الزوجة والأطفال وهم ينظرون إليك بنظرات مشوهة وكأنما يريدون أن يعرفوا هذا الجنوح.. هل قلت الجنوح. اللعنة لم أكن اقصد هذا بتاتا، لكنهم كانوا يقفون هناك بعيداً عن الضفة وثمة أشجار تنبثق من الضباب، مثل كل الأشياء في حياتي.

لا أعرف كم مضت من السنين. سنون طويلة، هائلة ومبرقشة بالوسخ والازبال. هذا على أقل تقدير ما المحه الآن وأنا أنحني لأغترف من النهر فيما زوجتي وأطفالي ينظرون الي بروح مودعة وكأني سوف افارقهم إلى الأبد.

عين زوجتي دامعة وعيون أطفالي فيها اسئلة كثيرة لكني كنت اغرق في الضباب ومن الضباب كان ثمة مشهد يتكون هو عبارة عن نخيل وجذوع ورؤوس وعيون مختلطة بالوجع. لم أكن أريدهم أن يأتوا. لقد هربت منهم لكن زوجتي استطاعت أن تعرف الطريق لنياحتي وجاءت مع الأطفال وكأنما لتلقي النظرة الاخيرة. ضحكت وأنا أغترف

من النهر. انهم لايفهمون شيئاً مما يحدث في هذا العالم الذي خلقته صدفة بأصابعي وذهني. مساكين. أطفال يضيعون في العاصفة السماوية حيث الرب هناك يعزف على قيثارات الهواء اجمل واكمل واروع لحن هائم.

المطر ينزل وأنا أنظر باتجاههم. عيني كانت تلاحظ ابتسامتهم الملغزة والمطر. لقد مت لكني لم أعرف أن للموت هذه الروعة الخيالية والعارمة والجموح يمدني إلى النهاية. ازهار الكاردينيا والدفلة والشبو ليلي تتأرجح في الريح. الريح تدفعك نحو أماكن بعيدة ونائية جداً.

ذبت في الهواء الرطب والمحمل بشقائق النعمان. الذوبان شيء غريب فعلا، يدفعك إلى تأمل الحياة والأصدقاء والعاصفة. كنت ابكي بصمت. كنت اضيع كل لحظة في هذا الهواء والضباب. لم تكن زوجتي تومئ لي ولا الأطفال و لا محمد الاحمد ومصعب أمير وامير الحلاج. ثمة شيء غريب كان يسري بيننا. أنا وهي. هم وأنا. في العاصفة والندى ورائحة الأشجار والشمس التي تخرج من مدار السرطان إلى مدار المريخ.

قال لي برجي، ستسافر إلى الممالك الحزينة وأن الحياة سوف تتحول إلى غمامة كبيرة،مثل الله قبل الخليقة. أما أنت فلا يعرف المنجمون أين ستكون نهايتك. أنظر إلى سماء بعقوبة واحاول استنطاق الريح كما يفعل السحرة والمخدوعين بتأويل الليل والنهار. خريسان يمتلك سحراً خاصا بالرغم من انه نهر صغير، ساقية متوهجة لكنه يمنحني نوعاً من التواصل مع الاقمار والنجوم العشرية والهواء.

بيت أبو ريحة يقع في نهاية الأشجار وكاتدرائية كريم حسن علو تضيع في المطر. كنت أتخيل سقيفة الخياطين وأنا ألامس النهر، الساقية.

العاصفة وهي تمخر بعجالة ظاهرة لتمنحنا ضوء القمر الساقط على الوجوه. هيهات أن أموت، هكذا كنت أقول لنفسي وأنا اذرع السماء واتوسل القمر أن يسقط على وجوهنا معاني الحلاوة والذوق الرفيع ومصعب أمير يسير عميقا مثل نبي في دربونة الدجاج متجها إلى اللاشئ.

ليس للنهر ذلك الهوس، وليس للحب غير التفاتات عقيمة. زوجتي تحاول أن تمنح الريح ابتسامة. كنت أنظر باتجاهها. مهموما باللالم. الألم الغريب والعبثي وهو ينثر الصباح على قارعة الطريق. كنا شلة من المتعبين، الهائمين. أمير الحلاج ومصعب أمير ومحمد الاحمد والبهاء القدري وهو ينزاح عميقا لتخرج وردة ليلكية من تعميد النهر لصلاح زنكنة وهيام عصفور جريح أيضاً.

تعرفت على الأصدقاء صدفة. كنت أقرأ في ندوة بعض الاقاصيص عندما تحمس مصعب أمير لافتا إلى أن الزمن ليس عبارة عن دقائق وماكنات صغيرة. إنما هو الوهم. الوهم؟. نعم ولم الاستغراب؟ لا ادري فعلا. قرأت في تلك الامسية اربعة قصص قصيرة جداً. - هل تتذكر يا مصعب أمير - في منتدى الادباء الشباب ثم امتدت السهرة حتى الزمن الاخر.

مصعب أمير اثناء القراءة، كان يضيع في تهويمات العالم. وكذلك السماء، تمنحنا القا غريباً. قاعة المكان كانت توراتية بعض الشئ. ملحفة بالنور والظلمة والاشباح. معا الأشياء كانت تتأسى. شوارع بعقوبة بعد الامسية السحرية حيث القمر ينزلق متاخما الحدود. تضاء من نور داخلي مسحور. صوت مياه خريسان. شدة التدفق اللاعج والمصباح والترنيمية الدنيا، تفوح في الأماكن. كنت أقرأ التورد والسحر في عيونهم. لم

يتحركوا قيد انملة. كانت زوجتي وكأنما تخشى هذا الوحش المعتكف أمام النهر.

أنا، بكل معاني الانحطاط. أموت واحيا ضمن ديماغوجية الحياة.. دائماً كنت مرتبطا ببعقوبة. بالشوارع الكسولة والمياه الدافئة وزهر الرمان والبرتقال والقداح الوحشي للأشجار. الزمن والعطر في بعقوبة عبارة عن مباهج درامية تتكون في السماء ثم تنزل إلى الأرض. بين نخيل بعقوبة، تتدفق المياه بغرابة الأشياء. كثيراً ما كنت ازور النهر - خريسان-. امكث هناك اعوام ودهور محاولا فك الالغاز والترانيم السحرية والمدافن الغريبة للبشر. مرتبطا ببعقوبة منذ الصغر، كنت. ولم ازل أحمل في القلب، توهجات مصنوعة من العطر والناردين والمر وكل ما يحرق أمام الآلهة. آلهة بعقوبة غريبة. الجميع كان يلتف على المكان والزمن. الناس واللالهة والله نفسه كان يحي المهرجانات والكرنفالات باعياد ومدن الضياع.

في ارتعاش المكان تستطيع أن تقرأ ابجديات جديدة دائماً. هل يسمعني حسين المحروك. لا، لا تقول هذا الشئ أبداً. اسكت، اصمت. اغلق فمك بحجر الكريستال والزمرد.

عشقت الضباب هنا مثلما عشقته في بغداد. كنت اذهب دائماً في الصباح الباكر إلى نهر دجلة. اجلس إلى مسنايات النهر واقرأ دائماً في تاريخ المكان. الامكنة في بغداد مزدحمة دائماً. ليس بالاشخاص إنما بالتاريخ. كل قطعة أرض سار عليها قبلك، الزنج والعباسيون والبابليون وزبيدة والشطار وحرامي بغداد وجنون الف ليلة وليلة والمتصوفة والمجاذيب. كنت أعشق كهرمانة وجرارها. أعشق الهوس الفنطازي بالمكان. عندما تزوجت رحلت ابديا إلى بعقوبة. لم الاحظ

فرق، بين كهرمانة بغداد وبساتين الاس وزهور الجوري والياس في بعقوبة.

هناك دلالات كونية على كل شيء يحدث. الدلالات هي متغير في معادلة الاحساس المكاني. فقدت في بغداد الصداقات، لكني اكتشفتها في بعقوبة مع تأصيل زمني. بغداد ضاعت في الجموع النازحة اليها. لم يبق سحر في بغداد بعد أن تحول الباب المعظم إلى خبال من بائعات اللبن والروبة والقشدة والقيمر وسمك الزوري والدجاج والعباءات السوداء الكالحة.

ضاعت بغداد إلى الأبد بين اللهجات ولهجتها المميزة اختفت فيما يبدو انه مؤامرة محكمة وشائهة وملعونة. اف. اف. اختنق ويطير طائر غريب، فخاتي تمر ويغلق المكان بوجه دجلة الذي يضمحل ويتفجر في ترانيم الوقت والساعة والدهر.

****

عندما اتذكر اليوم الاول لوعيي، ارتعش. تكون الوعي الاول لي هنا في بعقوبة. واذا كانت بغداد شهدت ولادتي الكونية الاولى من كارما سابقة، فإن الالهة منحتني تعويضا سخيا في بعقوبة. تقدمت إلى خطبة المرأة هنا. مسحت نوافذ المكان والكواكب العشرية ونقلت مسقط رأسي الجديد إلى المدينة الهائمة بين النخيل. خلفي تركت بغداد، مدينة موجوعة بكثرة المرتحلين اليها من ضفاف الانهر الشرقية.. ضاع كل شيء في بغداد. ما عادت هناك بغداد أصلا ثم غزتها عقابيل البدو المدوية ومسحت اخر الابتسامات عن شفتيها. كنت مألوما جداً على بغداد.

حزينا حزنا عميقا وأنا اشاهد الخراب المؤلم وهو يجتاح الشوارع والتكايا. كنت اهرب غالباً وقبل السكن في بعقوبة. إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني.

في ضريح هذا المتصوف الكبير كنت أقرأ تعاويذي واورادي الاصيلة. في حضرة الشيخ كان يمكن أن تقرأ عناوين واسماء بغداد القديمة. عيون الناس المتعطشة إلى هواء بغدادي صرف. دشاديش بيضاء من الصين. عطور زيتية من مدغشقر، بخورمن الهند. عيون نسائية جميلة تحمل إليك التلوين الفسيفساي لواجهات زجاجية وشعوب مرت من هنا. صحيح أن بغداد مدينة كونية. لكن هذا لم يمنع أن تكون بغداد مكونة من اهلها فقط، بلهجتهم، بامراضهم. باحبائهم، بنذورهم لخضر الياس وزيارات الجنيد البغدادي والشيخ معروف وكنيسة الارمن. هل قلت الشيخ معروف أو الجنيد. اه، يجب أن لا انسى الصراع القائم بين الاحياء البغدادية الصرفة وانت تذوب فيها مثل قطعة من القند الهش.

الكاظمية، بالرغم من انها تقع ضمن بغداد إلا انها مدينة هشة وقوية. هشاشتها أو قوتها متأتية من أن لها لهجة ثانية. لهجة هي مزيج حر متألف مع الفارسية والأحلام الغريبة لاهلها في ضوء نهار غائم. كنت اشرق في بغداد. اهتز مثل انية زجاجية صرفة مملوءة بالياسمين وعطور السيدة زبيدة. كثيراً ما كانت جدتي تقول وهي تصف الملاعين من اصدقائي – هل هم من فرج زبيدة وعضو هارون. كل الامثال البغدادية تدور حول زبيدة وهارون وانثيالات الزمن وكأننا لم نغادر عصورنا الذهبية يوم كان نهر دجلة يفصل الكرخ عن الرصافة مروراً بجسور خشبية وعاصفة من الحب. ضربت الحب، سكرت في الزمن الغريب،

ثم درت بزوايا اجتراحية، لامحى واتلاشى في الشيخ عمر. كل الزمن المذهل يتبقى أمامي.

كثيراً ما أهرب إلى النهر، إلى دجلة. الجلوس إلى دجلة يمنحك توأصلا غريباً مع المكان والفينوميلوجيا. كنت أعشق بهاء الاسطورة المتكونة على الضفاف. غالباً ما استقل زورقا واهرب من الرصافة إلى الكرخ. إلى البيوت االمصنوعة من طابوق اصفر عريض هو من بقايا مدارس التاريخ والمستنصرية وجلسات المتصوفة في شارع المتنبي. التصوف كان شيئاً لصيقا ببغداد. شيء غريب ومذهل. جامع الوزير وكل شبر من بغداد، يمنحك تناذراً عميقا للمادة السحرية. حتى القحاب وصراخهن في الحواري والدرابين. يعطيك التماثل. في تلك المقصورات الهجينة والمتاخمة للحجر الطيني الاصفر، تنام القحاب مع المتصوفة والمتصوفة مع الولدان والولدان مع الفرخجية، و نذوب كلنا في بهاء الامكنة والاصوات والريح والمطر، ثم انبثاق الزمن على غيبية الجنون الصرف.

درابين بغداد من عقد النصارى حتى الازرملي تفوح برائحة غريبة، ليست رائحة الامكنة فقط، إنما رائحة القصدير والمياه الاسنة وشي الكباب والريحان والتكة والمعلاق والجوع وصابون السدر والمجارير. حاولت في العديد من المرات أن افك الرموز، أن افك أحجية الشهوة الغيبية الجامحة لكني فشلت.

الصالحية، يا الهي، كمكان يمحضك ويغرقك في تلافيف الحداثة الاسية ودرابين الشواكة تضفي عليك هالة عجائبية من الذوبان. ثم انحدر إلى العالم والضفاف وطيور الخضيري وعجيمي الماء والنوارس. دجلة ليس نهراً اعتباطيا في ملحمة دورانه المتشاهي. هو شيء جنوني اخر

يدخل بغداد من الشمال ليضيع في الازقة والدرابين. حياة متشاكلة ومعقدة وانهار من المياه تخترق مسنايات وارخبيلات النهر. كل جزء من النهر له حكاية خاصة. حكاية عن المغول والمعتصم وهارون الرشيد والسيدة زبيدة والمتوكل وجلسات الدروس الغيبية.

حينما تدوس بقدمك على ظاهر الأرض يجب أن تتذكر أن الجنيد البغدادي والسمري والشيخ معروف الكرخي وبشر الحافي ووكلاء المهدي المنتظر كلهم، غرقوا مثلك في الأماكن والزمن والقراءات والادعية والتسابيح.

جامع الوزير كان شيئاً مذهلا في بنائه وتصوفه وحجره الطيني ومياه الأرض واستراحات النقشبندية وصولات الحلاج وتسابيح عبد القادر الكيلاني. شيء غريب يتولد في ذاكرتك وانت تضع خطوتك متجها إلى الداخل. بغداد شيء يتوارى مع روح التصوف. لم أشعر ببغداد عميقة الجذور إلا حينما دخلت خانات اليهود وحلقات الدروس الصوفية والمزارات والمراقد وروح المكان وقنبر علي، الضريح الغيبي وشحاذ يوقد الدموع والشموع على الضريح الصغير.

جلست في حضرة قنبر علي. مسدت الحجر والمدر والصوف والملاءات الخضراء التي تغطيه. كنت ابحث عن جنوني الشفهي في هذا الزمن والخراب المتأتي من انسحاقي الكلي. خارج الضريح الضئيل والصغير المساحة ثمة شرطة عسكرية، لكني لم اهتم بهم. لم اعيرهم الأهمية المثلى الواجب تشغيلها بمجرد رؤيتهم. هناك اسباب عديدة لعدم الاهتمام، واحد منها أني لم ازل أحمل هوية الجامعة. كنت امارس نوعاً من الغيبية مع حياتي. حياتي المتشققة والحاملة لرمس الجنون الشفاف والهائل والمتمرد. في داخلي كان هناك شيء مذهل لم أعرفه هو مزيج من رائحة

البق والبراغيث والمورفين اللزج الذي يسيح على عقلي في رابعة النهار.

استغل الآن الفترة السيميائية لروحي وأنا ادور في بغداد بعد أن فصلت من الجامعة. الهوية الجامعية كانت مهمة جداً للتخلص من الشرطة والرفاق الحزبيين ودوريات الجيش الشعبي. بالاضافة إلى الهوية، كنت لم ازل ارتدي ملابس الجامعة. بنطال رصاصي اللون وسترة زرقاء غامقة.

شعرت بالرغم من الألم الشديد أني حر واشبه كوكباً انفلت من مساراته الاهليلجية. الطرد من الجامعة، منحني نوعاً من الحرية الشخصية. هكذا اخذت ادور في بغداد تائها، لكني أجد اقدامي تسحبني إلى المكتبات. في الباب الشرقي دخلت مكتبة النهضة. والتحرير. كنت ابحث عن كأبتي الحادة والمرضية. كنت امارس الفضيلة باعلى درجاتها. لم اتحرش بالنساء في باصات النقل العام. تحولت إلى شئ. مخصي هائم. في المكتبات كنت اغرق بهوس غريب من الرضا مع الكتب. أكثر الأشياء الحميمية في هذا العالم هي حينما تمسد وجه كتاب، تفتحه، تلقي عليه نظرات متسرعة وهشة. تتحاور مع ذاتك الموسقة. تبضه باصابعك وكأنما هو مؤخرة صبي بغدادي جميل.

التناغم الغريب بيني وبين الكتاب ليس له حدود عقلانية. هو هوس ديني. كثيراً ما اشتري كتاباً وارجع بلا نقود إلى البيت. حتى اجرة الباص لم أكن اوفرها. بعد شراء اي كتاب تكون اجراءات الطقس على وشك الاكتمال وما أحتاجه هو الذهاب فقط إلى حسن عجمي أو مقهى البرلمان للتصفح.

في حسن عجمي تلتقي بوجوه غريبة. وجوه كأنها خارجة من

اعناق قناني زجاجية. دائماً تشاهد هناك موسى كريدي أو جمال السوداني أو نصيف الناصري وهو يشحذ كأس بيرة أو قدح عرق مستكي. نصيف بملابسه الحقيرة والمهلهلة، ربما هو أكثر غنى من الجميع لكنه يتواضع ويمزق ملابسه ويكون رثا دائماً تيمنا بجان دمو وجان دمو بحسين مردان وحسين مردان بالزهاوي وهكذا إلى نهاية السلسلة. استهل جلوسي في مقهى حسن عجمي بانتظار شوقي كريم – يهوذا الاسخريوطي – لاعرض عليه اخر ما كتبت. كنت أعرف انه شخص هيبي وشاذ ويعيش في عوالم شيطانية، لكني كنت أشعر بالقرب منه رغم غائطه وكذباته الكبيرة.

لا أعرف لماذا عشقت جمال السوداني، دائماً كنا نسير في الحيدرخانة ثم نصل إلى الوزيرية سيراً على الاقدام. اثناء رحلتنا الغريبة في الشوارع كنا نلتقي الكثير من الأصدقاء والوحوش. كل الأصدقاء بالنسبة لجمال عبارة عن وحوش همجية بمن فيهم نصيف الناصري وجان دمو وحسن النواب. الرعشة التي تصيبني مع شوقي كريم تكون دائماً ذات ابعاد استثنائية. اترك المقهى واذهب مع شوقي إلى شيء يسمى بيته. هناك أجد كولالة نوري كتمثال من الشمع المضرج بلون الدم.

لم ازل اتذكر رعشة الخصية وهي تتراقص أمام تقرفصها في صالة البيت. تستقبلنا أحلام منصور زوجة شوقي بغائية عالية. في الغالب لا تعيرنا اهتماما – لستم إلا كلاب – فنذهب إلى المطبخ، أنا وشوقي ونسخن ما نجده من الصمون والبيض وفتات العمبة.

بعد وجبة العشاء اترك شوقي يغرق في كتابته واخرج إلى الظلال الغائمة في الاعظمية. اتسلق وأنا أسبر، ذهني واحاول أن استذكر وجه كولالة نوري التي تشبه حيوان اليف أمام مقصلة و..... أحلام منصور

بالنسبة لكولالة ام وثنية تعمد دائماً إلى تمحيضها الاصالة والقوة والدفع نحو الابداع. شخصيا أشعر أمام أحلام بتهاوي رجولتي وانحطاطها إلى الدرك الاسفل.

في بيت شوقي وأحلام يزورنا صلاح زنكنة. كنت معجباً جداً بطريقته في التهام الطعام والتي تشبه طريقة الشحاذين. بعد يوم أو يومين من المعيشة في بيت شوقي افاجأ وأنا في مقهى حسن عجمي، أن شوقي قد اشاع، انه راودني عن نفسي. اللوعة الهمجية في المقهى تطردني فاخرج غاضباً لانزوي في مقهى البرلمان قريباً من شارع الكتب. الايام التي اصرمها دون تذكر، تعيدني إلى الضياع النهلستي. تعيدني إلى الدونية الحيوانية وأنا امتص سوائل العري فوق غيمة ساكنة إلا من تفجرات مريمية.

إحساسي بالضياع كان هشا ومائعا. فكرت أن اذهب إلى الجامعة بصحبة حسين الصعلوك المدمن. في الطريق كنت ارتعش. اعايش هيام جهنمي. مدمن كنت على الأحلام. حسين الصعلوك كان انتشائيا. همجيا في ذوقه الخرتيتي وهو يبعد الغيوم بتلويحة يد خشبية، يا للضياع.

وصلت، وحينما دخلت من بوابة الجامعة التكنولوجية اصابني المغص والاحساس بالألم. اردت التوجه إلى القسم الدراسي لكن الخيبة كانت تطلق نيرانها علي. شاهدني مسؤولي الحزبي. عيناه كانتا متورمتان. ببشاعة غريبة كانت نظراته توجه لي شخوصها الهمجية. منذ اليوم الذي تم تبليغي باعتقال امي حدث شيء كبير في اصقاع روحي وكل المحيطين بي. اردت تقديم استقالتي من الحزب لكنهم رفضوا طلبي. اصروا أن ابقى في الحزب – هم أشبه بمافيا امريكية، حزبهم هو الوحيد في العالم الذي لا تستطيع الاستقالة منه –. حباً بالموت والامعان في اذلالي. في

الاجتماعات الحزبية كنت محط انظار الجميع. الاخرون ينظرون إلى وجهي بملاقط نارية وأنا أشعر بالانسحاق والتيهان في بركة من الزيت المحروق باخشاب متفحمة.

اخذت أشعر أني عبارة عن عار. الاخرون كانوا يتجنبون الحديث أو شرب الشاي معي في مقهى الجامعة، خشية اتهامهم بالتعاطف معي. ثمة وحدة مدمرة اخذت اعشقها واغرق تلقائيا فيها. حتى روز كانت تتجنبني وتهرب في المتاهات العليا لغمام ابيض ينتعل حذاءا طويلا. اردت أن أعرف سبب هروبها. بالرغم من معرفتي بالعار الذي اغرق فيه. كنت مصراً أن اسمع منها كلمات رفضي. هل أنا جائف وخايس وخائن إلى هذا الحد. إلى النقطة الجوهرية في جنون وهستريا العالم. بصقت على وجه الاخرين وبصقوا هم بدورهم. ذهبت مع حسين الصعلوك إلى القسم الدراسي.

وجدت في لوحة الاعلانات الإخطار بفصلي لم يزل معلقا. امتدت يدي بارتعاش لتمزق الانذار الهش. اللعنة عليكم. شعرت بالانتصار فجأة كما ينتصر حسين الصعلوك أو شوقي كريم على امرأة زانية. خرجنا من القسم مسرعين واردت أن ارى روز. ذهبنا إلى قسمها الدراسي مع رغبة تحيطني بالبكاء المر. كنت أريد أن اغتصبها. شعرت أني تواق إلى مضاجعات مفاجئة. منذ اليوم الذي اعتقلوا فيه امي، أصبحت هشا ومظلما وليس مثل غيمة شهية تنفث امطارها في الارجاء.

لم اعد مع الاعتقال أشعر برغبة الاستمرار في الدراسة. كنت اختنق كلما اتوجه إلى القسم فقررت أن اهرب. الحزب بقي يلاحقني. لم أكن أريد الاستمرار لكنهم التصقوا بي مثل قاتل الفئران. الهشاشة والاضطراب الذي شعرت به بعد اعتقالها محضني نوعاً من الألم الغريب.

الاحساس بالفقدان كان عظيماً متأتيا من انك اضعت فجأة بوصلة الدم. كنت اتصور لحظات اعتقالها، مرارته، الألم. أكثر الأشياء التي اخافها في حياتي هي الألم. ثمة توجس وانطباق للمفاهيم البيولوجية كانت تنتحلني فاتصور آلام امي وارتعش من الشهوة الموتية. اردت الانتحار لكني ابتعدت عنه.

روز كانت الهشاشة والعمق الاخر في حياتي. كانت تعلم باعتقال امي لكنها لم تحدثني عن الموضوع. كلانا كان يعرف الاخر ويعرف نوع الألم، لكننا كنا نتحاشى الفضيحة. منذ الاعتقال. أصبحت أكثر اضطراباً. لمحت في مرات كثيرة أن شفتي ترتعش واصابعي تتمرد على الاوامر الحزبية وأنا اكتب محضر الاجتماع. عندما كنت اتوقف كان المسؤول الذي يضع مسدسه على الطاولة يرمقني بنظرات مليئة بالخشونة الذكورية فأنهار في الحال. المسوؤل يصرخ في الاجتماعات، يحملق في وجوهنا، يرعد، يزبد. كنا مثل النعاج المسكينة وكان مطلوباً منا أن نحشد الطلاب باية وسيلة للاشتراك في الجيش الشعبي.

كان صعباً ومؤلما أن القي القبض على الطلاب من أجل تسجيلهم في فصائل الجيش الشعبي. كان الطلاب مثل الحيوانات والحلزونات والعصافير. كلنا كنا مثل حيوانات نافقة. حيوانات تهرب من المقصلة إلا أن الموت كان عظيماً وتطوافيا. بحثت عن روز في قسمها الدراسي وحينما لم اجدها توجهت أنا وحسين الصعلوك إلى مقهى الجامعة. اخذنا شايا وجلسنا. شاهدت روز من بعيد وهي تسير مع أحد اعضاء منظمة الأمن.

اقتربت وشعرت بالارتباك حينما شاهدتني. أنا أيضاً لسعتني أشياء مقلقة. نوع من البق أو برغوث الفراش اخذ يدور أمامي

ويلحسني بألسنة باردة. شعرت برغبة عارمة في التبول، القشعريرة وصلت إلى رقبتي بعد أن اكتسحت ظهري. كنت بحاجة فعلية للبكاء، كنت أريد أن التقي بها. بالرغم من خوفي منها وابتعادها عني إلا أني بقيت راغباً في الجلوس معها واحتساء شاي ساخن لأوقف اضطرابي.

حسين الصعلوك كان منشغلا بالنظر إلى الطالبات. كان يبحث عن لقطات جنسية تخرج فجأة حينما تضع النساء ارجلهن واحدة فوق الاخرى. كان يلكزني بين اللحظة والأخرى ليريني مشهدا فضائحيا. كان يخزن الصور في ذهنه ليمارس العادة السرية بعد ذلك في مرحاض مقهى البرلمان. أنا أيضاً كنت أشعر بالاضطراب حينما اشاهد مشهدا عاريا أو افخاذا تبرز فجأة لتختفي فجأة أيضاً. مشهد تشعر معه بخفقان الروح والقلب والتلاشي والوضاعة. كنت أشعر بأني كلب مريض بداء النباح.

قبل القاء القبض على امي كنت غالباً ما اذهب إلى المراحيض العمومية لامارس العادة السرية. لم أكن استطيع التخلص منها. التوهج الجنسي كان كثيفا ومباغتا. لم أعرف ثمة وسيلة لايقافه. إحساس الدناءة الجنسية يحطمني فأمارس العادة السرية مرتين إلى ثلاث مرات في اليوم الواحد ثم اخرج بعد ذلك مهزوزا ومرتبكا برغم الراحة العمياء التي تجثم علي.

بعد اعتقال امي حدث تغير كبير، تغير باتجاه لا أعرف أن كان سيئا أو حسنا. المقاييس كانت تضيع مثل الدرب الذي اتيه فيه الآن. عندما استلمت خبر الاعتقال شعرت بهزة عميقة. اخذت أتخيل المشهد أمامي. كانت تسحل من شعرها. و تنام تحت التعذيب الشرس. كنت أعرف همجية رجال الأمن عندنا وحينما فكرت انها ربما تعرضت إلى

الاغتصاب، انهرت ودخلت في نوبة قاتلة من البكاء والانزواء.

منذ يوم الاعتقال اصابتني هشاشة مرة وفي أحيان كثيرة كنت أشعر بالاضطراب والهلع المفاجئ فأهرب من المحاضرة وابقى ساكنا في نادي الجامعة. بمرور الوقت، غدوت أكثر سوداوية. ذهبت إلى طبيب نفسي وقال أني اعاني من اعراض الذعر والاكتئاب وهناك ثمة شيء اخر هو انك تقترب سريعا من الشيزوفرينيا. اخطأت عندما رويت كل هذا لشوقي كريم الذي اخذ يشهر بي في المقهى وفي بار اتحاد الكتاب. بالرغم من وضاعة شوقي إلا انه يبقى هناك امل ولو صغير في إصلاحه.

في بعض الاحيان يتحول شوقي إلى إنسان بكل معنى الكلمة لكنه في كثير من الاوقات يبدو تائها في الوضاعة. اخذت أنظر من خلال كتف حسين الصعلوك إلى الطلاب الجالسين أمامي. هناك الكثير من الذين استعملت القسوة لاجبارهم للانتماء للحزب. كان الكثير من الطلاب – البعثيون – يساقون إلى الاجتماع الحزبي مثل بهائم. كنت أحس بانهم يلعنونني. كنت امارس نوعاً من الفاشية الداخلية وأنا انتظرهم أمام ابواب القاعات الدراسية من أجل جلبهم للاجتماعات.

لم يكن يهم المسؤول الحزبي، إن كان الطلاب يكرهون هذه الاجتماعات ام لا. كان يريد دائماً عددا كبيراً من الحضور ونسبة كبيرة من الاشتراكات. كثيراً من المرات كنت اتعرض للنهر أمام الرفاق الاخرين ويتم التشهير بي أمام الجميع بأني لست اهلا لتسلم المسؤولية والقيادة. اردت أن اخرج من الحزب لكن هذا يعني شيئاً واحدا، هو الاعتقال والدخول في دوامة التحقيقات، وربما الضرب. كنت أشعر أني ضعيف للغاية أمام الضرب. كنت شيئاً زجاجيا اخاف أن يتحطم أمام اول ضربة فأكفر بالحزب أو اتوسل بصدام حسين من أجل ايقاف التعذيب.

الذاكرة منبعجة وهي تتذكر غرفة همجية في البناية رقم اربعة. هناك كان مقر مندوب أمن بغداد. غرفته مزينة بالملفات الكثيرة. بالاضافة إلى ادوات تعذيب. هناك خرق لتعصيب العين وكلبشات وعصى رفيعة وأشياء أخرى تلهم المشهد نوعاً من اليوتيبيا الحلمية عن أماكن خيالية. رائحة الغرفة دائماً هي مزيج من ثاني اوكسيد الكاربون والميثان والتبغ مضافا لها رائحة البول العتيق. عندما استدعاني ضابط الأمن إلى هذه الغرفة أحسست بتشوه طولي ومقطعي لوجهي. كنت ارتعش وقدمي تتراخى في انبهار المشهد. لم استطع الصعود. ثمة إحساس بالخراب كان يهيمن على روحي. جلست على السلالم أكثر من مرة. قميصي الجامعي تبعثر في الهواء والعرق والانثيال والوحشة.

كان استبدادا كبيراً وعميقا. ضرب من الجنون التائه. تمددت على السلالم. غفوت بأرق كبير. وحينما نهضت كانت سترتي ملوثة بالغبار، كنت شبيها باللذين يخرجون من الحرب. حتى وجهي كان يتلون من اضمامات الحزن الابدي. دخنت على السلم أكثر من سيجارة. اردت أن اغادر القلق برعب اللحظة الوثنية. اردت أيضاً أن امارس العادة السرية. نهضت وبحثت عن مرحاض وحينما وجدته عصرت عضوي بقوة مستلهما افخاذ روز السمراء.

أكثر ما يجرح أحاسيسي هو الدخول إلى عالم التوحش، الهمجية والرعب الحاصل من مشاهدة رجال الأمن. منذ أن علمت باعتقال امي بدأت الدهشة تواتيني في كل الامكنة سواء المغلقة أو المفتوحة. مع اعتقالها كان هناك نوع من الجنون والاكتئاب الخفي الممزوج بلعنات قادمة من أماكن مجهولة. في اليوم الاول الذي علمت فيه باعتقالها شربت قنينة عرق كاملة. تقيأت في الشارع. نمت على الرصيف ثم

القت دورية للشرطة القبض علي ووضعتني في زنزانة مع لصوص وتجار مخدرات ومأفونين. كلما كان يقترب مني أحد اللصوص كنت اهرب في حلم طويل. ابتلعت هناك حبة ارتين وحبة أخرى من التافرانيل، ناولني اياها أحدهم ثم فقدت في ذلك المكان عذريتي الاولى.

لم افهم الشرف على انه مجرد ادخال حياء في است. مع اغتصابي الاول. تهت في فلك بحري ومخرت الجداول والضفاف وأنا ابحث عن سم قاتل لامرره إلى جسدي دفعة واحدة. خرجت من المرحاض وفخذاي ترتعشان. تمددت على السلم مرة اخرى. وحينما شعرت أني استطيع النهوض وقفت ذائباً مع قلق مغادر واكملت صعودي إلى التابوت الوثني مردد الصلوات لالهة سومرية.

طرقت الباب ودخلت. كان ضابط الأمن ضخما، هشا، متصلباً، يشبه كلب البودل، انفه افطس وجهه عبارة عن كتلة من اللحم الاحمر والاخضر. تستطيع أن تراه تبعا للحالة النفسية لك. شخصيا وجدته هائلا وبعيدا وقادما من ممالك سوداء، تلك التي كتب عنها محمد خضير. لم أعرف لماذا كان هناك صفير يحدثني عن وثنيات وعن ارتباكات. اومأ لي الضابط أن اجلس، ارتميت على كرسي معدني، متهالكا. منذ الوهلة الاولى كنت ارتعش في ضباب كثيف والرؤية غائمة. كنت اشاهده بعيداً جداً وصوته قادم وكأنما من افق مهول وبدائي. بدائيتي كانت تتقمص شكل الأرض والكلبية العميقة تتراخى دائماً على وجهي. لم يتحدث قط. كان ينظر إلى وجهي فقط وكأنما يريد استقراء جفافي وانهيار مقاوماتي الصخرية. لم يعرف أني كنت هشا للغاية ومضرجا بالالام. كنت ازحف وأريد أن اتحول إلى لا شيء في تلك الجلسة المعلنة والسرية والموحشة. بقينا عشرة دقائق وربما أكثر غارقين في الصمت. كان ضخما للغاية.

كثيف الشعر، نوع من الحيوانية والبوهيمية تنطلق من رائحة جسده التي اتشممها عميقة وكريهة.

اردت أن اتقيأ من مغص مفاجئ. لم استطع ايقاف راحة كفي عن التنمل والدهشة والعرق والافرازات الحية. تشوهي كان معلنا. ضحك الضابط وناولني سيجارة. عندما تناولت السيجارة انكشف عريي كاملا ونسيت توالد الزهور على فمي وجسدي. انتبهت إلى وحشة المكان. كان يملأه بالثاليل، البحر خلفه مكون من سواد عميق. بين انفاس السيجارة كنت ارتجف. لم استطع ايقاف يدي عن الارتعاش. وبادرني بأن استرخي وانه ليس ثمة داع للقلق. لم استطع الاصغاء لنصيحته. اردت أن اهرب إلى النادي واحتسي اكواب عديدة من الشاي. اردت أن اهرب إلى روز وأن نسير في شارع ٧٢ ونأكل الكباب في مطعم ججو المقابل للجامعة. كل العوالم المتباطئة كانت تجول أمامي. الزمن غريب في التأمه وتبعثره فجأة. اردت أن ينطق بسرعة كلماته. اردت أن يطلق علي الرصاص دفعة واحدة، أصبحت جثة غير متحركة ومعدنية تستطيع أن تسمع ايقاعاتها المضطربة إلى الأبد. فكرت في تلك اللحظات بالجنون. بالعاصفة عندما تقتلع اخر الجذور من فمك، تبدو ضائعا تماما. يمد ضابط الأمن كفه، ذراعه الموشاة بمهامز شركية وكأنما تريد أن تفتك بالضحية. أنا الضحية. قال

- اسمع يا رفيق... نريد أن نكلفك بواجب حزبي وامني. حاول أن تقنع روز بالعمل معنا. أحسست أني انتفض باداة كبيرة.
- لا استطيع، قلت باحساس مفاجئ بالقوة.
- تستطيع. انهض الآن يا قواد وابحث عنها. هذه اوامر الأمن والحزب.

خرجت بعد أن طردني بوحشية. هويت وحدي وأنا اهبط السلالم.. خرجت من البناية واثر المطر يعمق إحساسا بالدهشة. إحساس الهزيمة كان عميقا. تخيلت روز وهي تجلس معه. كنت أعرف انه يريد اغتصابها. روز تشبه شيئاً مجنوناً أمام العاصفة. لا املك إلا أن اقبل خصلات شعرها البوهيمي. في مرة سابقة طلب بضعة معلومات عنها.

شككت انه يريد اغتصابها.. تلعثمت وأنا امنحه المعلومات. كنت خرتيتا كبيراً وجبانا. كشفت له عن ميولها وحبها للببسي والشكولاته والعطور والاحذية. اردت أن أعرف منه سبب اهتمامه بها. كنت غبيا للغاية وأنا اسأل وحش همجي عما يريده من فتاة بابلية. انتحار فيزيقي وبعثرة لدماغي الاسن. كنت أعرف انه وضعها في مخه، لكن كيف استطيع الهروب منه. معاملته لي تغيرت. الآن هو في موضع القوة والحيوانية بعد اعتقال امي. لم امنحه ثمة أشياء أخرى أكثر سريرية مما قلته. لم امنحه لون مشدها ولباسها الداخلي واوقات دورتها الشهرية. كنت أعرف بنوع معين متى تفاجئها الدورة الشهرية. كنت أعرف التوقيتات وغالباً ما كنت أحمل لها علبة المحارم النسائية. كنت مخصيا لدرجة كبيرة وجعلها هذا ترمي لي بلباسها الداخلي اثناء ما كنا نراجع مادة الميكانيكا سوية إلا أني هربت وارتبكت وتعثرت وبوغت بشكل مقزز.

كان لباسها همجي، يمثل قمة واسى ورعب الحالة الحيوانية. امتصاص اللباس والافرازات والبثور الجنسية كان يمنحني القا اخاذا و غريباً حتى أني كنت أتخيل نفسي عبارة عن حيوان خنثي ينكح نفسه احتفظت بلباسها الداخلي على هيئة تذكار عار من صحة العقل ومقترب

إلى حدود ممغنطة من الجنون. لم استطع بعد ذلك أن اعيش دون لباسها وكنت اتشممه كل يوم برعونة وأنا اتوجه إلى الجامعة.

هل تعرفين حامد ضابط الأمن؟. اهتزت يدي بعرقها السائل مثل مادة حامضية قاتلة. حسنا، قلت، ولم انتظر جوابها. انه يريد رؤيتك.. انفعلت. ضربتني بمحفظة الكتب. كتاب المعادلات الكيميائية كان يذوب في وجهي، حتى شعرها كان خائفا. خوفها وصلابتها معا ادهشاني. مع السير خطوات، خف انفعالها لكني استطعت أن المح زغب وجهها وقد اقشعر. ارتكبت اذن الأشياء المحرمة.

بقينا نسير في ممرات الجامعة لكنها اخذت تنظر إلي بحقارة. احتقارها لي هشمني واردت أن اهرب. لم أكن اتصور انك بمثل هذه السفالة. كانت تقول وبارتجاف، اردت أن اشرح لها أني لست إلا ساعي بريد.. قواد إن صح التعبير.

❋❋❋❋

دخلنا النادي أنا ورز. لم نجلس مع حسين الصعلوك. اخترنا مكانا بعيداً. اردت أن ابعدها عن اخر المشوهين سايكلوجيا في هذا الكون. جئنا بالشاي واخذنا نرتشف دون كلام..

قلت. ساترك الجامعة.

- هل ستزورنا؟.

نظرت إلى عينيها التي اشاحتها بعيداً باتجاه مجهول. لم أكن استطيع أن انهي الحلم الاكثر ديماغوجية في حياتي. أعرف أن ذكرى

حامد ضابط الأمن بقيت شيئاً سيئاً. أعرف بمخيلة مرهقة أني كنت السبب في اثارة حيوانية ضابط الأمن الذي جندها أو عبث بها لاول مرة.. من المؤكد انها تكرهني. فكرت دون أن أحول وجهي عن شفافية الحزن الغامق اللون والمتكثف في انحناءات وجهها الغريب.

كنت المح نوع خفي من الارتجاف يحيط زوايا فمها. كنت مذنباً بذنب خرافي، لقد مهدت لها السبيل لأن تصبح عاهرة، عشيقة ضابط الأمن واداته الشوكية التي يوخز بها الاخرين. كنت أعرف بالهام كبير انه يوجهها لتجنيد اخرين. تذكرت في تلك العوالم الخفية، سلوى، الرائعة، الفتاة التي جعلني حبها مخصيا وملعونا إلى الأبد حينما اعترفت لي في لحظة انهيار انها وكيلة دائرة المخابرات.

بقينا فترة طويلة دون كلام. كنت أشعر بالعار من نفسي وأنا أمام روز. كنت أريدها أن تغفر لي لاني جبان لم استطع أن ادافع عنها، لابل دفعتها وتأمرت على طهارتها. الكثير من الأحلام كنت اشاهدها. أحلام وكوابيس دائماً كنت فيه الجانب السلبي من المعادلة. ضابط الأمن، كان غالباً ما يغزو أحلامي بادوات التسجيل السرية. يبعثرها، يحشر فيها مخادع وكمائن لاصطيادي. كنت مخذولا واعتقال امي بعثرني إلى الأبد فأصبحت سلبيا للغاية. لم اقل، لا، لأكثر الواجبات الحزبية شراسة ووضاعة.

تم تحويلي بعد اعتقال امي إلى حلقة حزبية خاصة تسمى النشاط الوطني. كنا مجموعة بائسة و نكرات. لقد لفظنا الحزب لكن ليس إلى خارج الجسد الحزبي إنما إلى مكان اخر يضم المشوهين فكريا والشيوعيين واصحاب السوابق والمفعول بهم. علاقتنا بمسؤولنا الجديد كانت علاقة خرائية. لم يكن مسؤولنا، إنما سوط مسلط على رقابنا. هذه الحلقة ترتبط

أيضاً بحامد ا – ضابط الأمن – لذي كان يشـرف عليهـا. كنامشـبوهين وهذه الشبهة سلبت اجمل الأشياء في حياتنا ومن ضمنها روز طبعاً.

❊❊❊❊

بعد اشهر من علاقة روز مع ضابط الأمن. هجست فيها التحول. أصبحت تتغيب كثيراً عن المحاضـرات ودائما تنتظرها سـيارات فخمـة خارج الجامعة. عشت أكثر الايام خراباً. الاكثر غرائبية. الاكثـر فحشـا، الاكثر سلبية. لم اعد استطيع الاستمرار في حضور المحاضـرات. في اليوم الذي استلمت فيه قرار الفصل تحولـت الجامعـة فجـأة إلى شيء غريـب. اخطبوط كبير وصـراصـر بلوامس كثيرة وكثيفة كلهـا تلحسـني وتزيـل العظام عن جسدي.

أن تعيش الخراب فتلك مصـيبة لكن أن تساهم فيه فتلـك شـناعة أكبر. هذا الذي حولني في ايـامي الاخـيرة في الجامعـة إلى نكـرة. كتبـت تقارير عن كل الطلاب دون استثناء. دفعت الضمير إلى الخلف. عطلـت الادوات المعرفية لجنون قادم ودفعة واحدة ليزيل كل شئ. كنـت اكتـب عن الذين يريدون التهرب من الجيش الشعبي. ليس هناك عذر لاحد أن لا يحضـر تدريبات الجيش الشعبي ولا المشاركة في الجبهة.

بعض الطلاب كانوا حاقدين، لم يتكلموا لكني كنت أعـرف انهـم اقوياء. قوتهم كانت اداة سلبية بالنسبة لي فانتصـرت عليهم بكتابة تقرير يقول انهـم كـانوا يطلقـون النكـات السـياسـية. اعتقلـوا أحـد هـؤلاء الطلاب. وفي يوم اخر تـم اعتقـال مجموعـة اخـرى. بعـد ذلـك ظهـرت كتابـات سـياسـية معارضـة عـلى جـدران مـراحيض قسـم المدرسـين

الصناعيين. تم استدعائي وكل الحلقة الحزبية وتم التحقيق معنا ثم وجهت الاتهامات لنا باننا لم نكمل واجباتنا على الوجه الصحيح.

كنت أريد المزيد من هذه الشعارات، في كل مكان. أريد الانتقام لكن حياتي كانت تتأرجح بأني ضد رجال الدين في طهران، ثم ضد الحزب الذي حول الجامعة إلى وكر بوليسي وتجسسي. في الصف الدراسي الذي اقبع فيه هناك اربعة من الأمن العام واثنان من الاستخبارات العسكرية وفرد من رئاسة المخابرات وثلاثة من أمن بغداد وثلاثة من حلقة الحزب الأمنية بالاضافة إلى الحلقة الحزبية الخاصة.

كانت اعداد هذه العيون كبيرة وكان مستحيلا أن تضرط ضرطة واحدة دون أن تصل إلى الحزب والى الأجهزة الأمنية. كنت أعرف كل هؤلاء وأعرف المشوهين خلقيا الذين يكتبون التقارير والمدسوسين. لكن رغم هذا كان هناك طلاب يصرون على أن لا ينتموا إلى الحزب وهناك أيضاً طلاب معادون. كل شيء كان يكتب في سجلات الحزب.

إحدى الطالبات لها ابن اخت في حزب الدعوة. كل الانظار موجهة لها. كنا نعرف حتى موعد عادتها الشهرية ونوع المحارم النسائية التي تستعملها. في غالب الاحيان وبمجرد شك بسيط كانت الأجهزة الأمنية تنصب المجسات والمايكروفونات في غرف الطلاب المشبوهين وتتنصت عليهم. لم تكن هناك كلمة واحدة يمكن أن تفلت من الرقابة المكثفة. الطلاب المستقلين والذين ليس لهم انتماء إلى حزب البعث مراقبين بكل صرامة وحرفية. كنت مبهوراً من هذه السيطرة الغريبة وعرفت أن كل المراحل الدراسية في الجامعة مشابهة لما يجري في مرحلتنا الدراسية.

بعد وصول الطالب إلى الجامعة يبدأ الحزب بإرسال استمارات طلب المعلومات إلى المناطق التي يسكن فيها الطلاب وبعد فترة بسيطة يكون لكل طالب سجل امني تقيد فيه حتى انفاسه وكامل السلسلة العائلية ويبدأ الذبح والمراقبة والتوسل والخوف والرعب والبوهيمية الحيوانية التي تتفشى. الطالبة التي كان أحد اقرباؤها من حزب الدعوة عاشت في حجر تام وصمت سكوني ومقاطعة. كنا نخاف أن نسلم عليها، أن نصافحها، أن نجلس قربها. المسكينة كانت تعيش مجبرة على التوحد واي زميلة تسير معها ولو لخطوات كانت تخضع للمراقبة والتقصي والاستفسار وطلب المعلومات الجديدة والتحقيق والمتابعة وتفتح صفحة جديدة في سجلها الأمني متضمنا نقطة سوداء كبيرة وبقعة من التساؤل والتوجس والريبة.

كنا نعيش أو بالاحرى نجعل الطلاب يعيشون في دائرة هي دائرة الخوف وبالرغم من هذا كان هناك طلاب لايعيرون اجراءاتنا أهمية. كانوا يحاولون دائماً التمرد على قوانين الجامعة وعلى قانون الزي الموحد. المسؤولون وضباط الأمن كانوا يتصورون أن تمرد الطلاب جاء من الرغبة في ارتداء ملابس جديدة غير الزي الرسمي لكن الحقيقة كانت شيء اخر.

منظمة الحزب الأمنية تناقش كل اسبوع سجلات الطلبة الأمنية. هذا له اخ اعدم، الآن يبدو انه سيتحول إلى مضاد للحزب والثورة والرفيق القائد. طالب اخر له علاقة بطالبة ابن اختها شيوعي هارب، تجب مراقبته من قبل الرفيق (س) كونه مشروع عميل قادم ضد الحزب. طالب اخر شوهد وهو يقرأ كتاب سياسي اصدار بيروت، على الرفيق (س) الاتصال بضابط الأمن والتنسيق معه للتزود بجهاز تسجيل

صغير وتسجيل كلام الطالب بعد استفزازه. بخصوص الاكراد. على الرفيق (س) التنسيق مع اللجان الأمنية في بقية كليات الجامعة لمراقبة هؤلاء العصاة. بخصوص دس عنصر امني بين الاكراد يجب الاتصال بالرفيق حامد وتنسيق الامر معه وترشيح عنصر امني للقيام بالمهمة. التعليمات الأمنية الجديدة. على كافة الرفاق في الحزب الانتباه وأن يكونوا في موقع الحذر الشديد واليقظة والحيطة لاقتراب مناسبة عاشوراء. على الرفاق الحزبيين كافة اذا ما شاهدوا اي عميل يكتب على الحائط، يطلق عليه الرصاص فوراً دون الرجوع للحزب. بخصوص الحالة الأمنية في الجامعة، توضع حراسات بالاضافة إلى الحراسات التي يقوم بها مسؤول الأمن في الجامعة على بوابات الدخول. أيضاً يجب تركيز المراقبة على جميع الطلاب في كافة المراحل والابلاغ عن اي شيء مشبوه بالسرعة الممكنة.

تقرير المنظمة الأمنية. شوهد الهدف ٢٠ يسير مع طالبة كردية، هناك احتمال أن يجري تنسيق بين الخونة. الهدف ١٢ اكل شوربة في مطعم ججو بصحبة الهدف ١٣. الهدف ١٥ دخل المرحاض وهو في حالة اضطراب ذهني من المحتمل انه يعاني من القلق النفسي لاقتراب مناسبة موقعة الطف. الطالبة ايمان شوهدت وهي تعطي إحدى الطالبات مغلف وبعد الاتصال بالرفيق حامد والتنسيق معه واعداد خطة متكاملة القي القبض على ايمان ونتيجة التحقيق كشف أن الرسالة التي اعطتها إلى طالبة أخرى كانت عبارة عن محارم نسائية تستعمل للعادة الشهرية. تم بعون القائد وهمة الغيارى من شباب الحزب الانتهاء من اعداد الجرد الشامل عن الطلاب في قسم هندسة المكائن والمعدات وكانت النتائج كالتالي. المرحلة الاولى تتكون من ٣٠ طالب. ١٥ طالب

تابع للاجهزة الأمنية. ٥ طلاب لهم اقارب معدومين ٥ طلاب لهم اخوة واباء شهداء. ٥ طلاب تجب ملاحقتهم امنيا لتصرفاتهم المريبة وكونهم يلتقون جماعيا في القسم الداخلي.

المرحلة الثانية، عدد الطلاب ٣٠. عدد الرفاق من الأجهزة الأمنية ١٠. عدد من لهم اقارب معدومين ٦. عدد من لهم اقرباء خونة حتى الدرجة الخامسة ٧. البقية من محافظات النجف والديوانية وكربلاء والسليمانية ويمكن تصنيفهم على انهم ضد الحزب والثورة طالما انهم ليسوا بعثيين. المرحلة الثالثة، عدد الطلاب ٣٠، عدد الرفاق من الأجهزة الأمنية ٨ عدد الخونة ٦ عدد الذين يشك فيهم ٩. عدد الطلبة العرب ٧ اثنان منهم خونة من اتباع الجبهة الديمقراطية. ٣ من اتباع جبهة النضال الشعبي الفلسطيني. المتبقي اثنان هم من اتباع ياسر عرفات.

المرحلة الرابعة. عدد الطلاب ٤٠ عدد الرفاق من الأجهزة الأمنية ١٠ عدد الطلبة العرب ١٠ عدد الخونة ٥ المتبقي هم من اتباع الجبهة الشعبية وياسر عرفات، الذين يشك فيهم ٨. المتبقي هم أصحاب ميول دينية ويمكن اضافتهم إلى الخونة ومراقبتهم بصرامة.

كل شيء يتفجر. يتمرد. كنا نقضي ساعات الدوام الطويلة ونحن نتابع الشبكة المهولة من المخبرين من اعضاء الحزب. لم نكن نجلس في مكان واحد. كان اهم شيء هو الأمن والسيطرة والمراقبة. تم اعتقال العديد من الطلاب بواسطة الرفيق حامد وتم تجنيدهم للتجسس على الاخرين. تحولت الجامعة إلى هاجس كبير من الأمن والاضطراب، وكر من اعشاش الدبابير ما أن تقترب حتى تلسع.

كنا نأتي إلى الجامعة ليس للدراسة لكن من أجل انجاز واجباتنا الحزبية. كنا قلقين ومرتبكين. غالباً ما نحمل أسلحة الجيش الشعبي أو المسدسات التي زودنا بها الحزب لقتل المعارضين في حالة قيامهم بأي نشاط. كل شيء في الجامعة كان خاضعا لاجهزة الأمن والمخابرات. الطلاب العرب تراقبهم المخابرات والطلبة الاكراد وابناء المحافظات الأمن العام أما طلبة بغداد فتتم مراقبتهم من قبل مديرية أمن بغداد، الطلبة العسكريين تتم مراقبتهم من قبل الاستخبارات العسكرية. كان نادراً ما تستطيع التحدث إلى إنسان مستقل تماما وهكذا كانت روز.

إلا أن كل شيء انهار الآن وتم تجنيد روز للعمل لمديرية الأمن العام. في العام الذي تلى التجنيد تم استدعائها إلى دائرة المخابرات العامة وتم تجنيدها للعمل معهم بدل مديرية الأمن العام. تغيرت روز كثيراً. أصبحت بمرور الوقت أكثر حدة في الحديث معي. لا بل انها كانت تعاملني وكأنني عبارة عن خراء. كانت زوايا فمها متعبة واثر من شقوق وجروح وتجاعيد ضئيلة بدأت تظهر على وجهها الاسمر المائل إلى لون الحنطة والأرض. أكثر من مرة كانت تتهرب من الحديث معي وبحس امني كنت اتابعها حينما تخرج من الجامعة وبهرت حينما شاهدتها وهي تصعد سيارة حديثة مع رجل كبير في السن وبهرت بعد ذلك حينما علمت أن الرجل كان عضوا في مجلس قيادة الثورة.

صعود السيارات الفارهة أصبح بالنسبة لروز شيء عادي جداً. وفي أكثر الايام برودة من تلك التي مرت على بغداد لمحتها مرة وهي تصعد سيارة عدي صدام حسين فيما رجال الحماية يتراكضون على الجوانب. لم اعد قادراً بعد تعرفها على عدي من الجلوس معها في نادي الجامعة، اضافة إلى أن كل الجهاز الحزبي والمسؤولين الكبار في الحزب

أصبحوا يهتمون بها بشكل مرعب.

تحولت روز في غضون عام إلى الهة تقدم لها القرابين. حتى رئيس الجامعة الذي هو أحد اقرباء نائب رئيس الجمهورية اخذ يتودد لها طالباً أن تحيطه بعطفها وسحرها وجبروتها من أجل أن ينقل إلى جامعة اخرى. امين سر المنظمة الحزبية في الجامعة يتقدم بكل التبجيل والفخامة والعزة إلى حضرتها الكريمة من أجل أن تفصل نائب رئيس الجامعة لانه كلب وابن كلب بالاضافة إلى انه دودكي.

رئيس مكتب سكرتارية الجامعة التكنولوجية للاتحاد الوطني لطلبة العراق يتقدم من جنابها العظيم بكامل الاحترام ويود لو يمنح فرصة صغيرة جداً من أجل أن يتحدث معها بموضوع خاص جداً وهو أن خاله سرق ثلاثة ملايين دينار ويود أن تتوسط له في السجن حيث يقبع الآن. عضو في الهيئة التدريسية لقسم الهندسة المعمارية وعضو عامل في الحزب يتوسل لها وهو على استعداد أن ينزع بنطلونه أمام الطلاب من أجل أن تتوسط له عند الاستاذ عدي للسماح له بالسفر إلى بريطانيا لرؤية زوجته وأطفاله.

رئيس قسم المدرسين الصناعيين وعضو مجلس النواب يتقدم بالتبريك وكل عام وهي بعز ويطلب منها بتوسل أن تعفيه من الانخراط في الجيش الشعبي كونه بخصية واحدة. السيد رئيس المجموعة الهندسية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي يشاركها افراحها بمناسبة عيد ميلادها المجيد ويتوسل أن تتصل بالاستاذ عدي وتعفيه من دعوة الالتحاق بالجيش العراقي القابع الآن على خطوط المواجهة مع الفرس. سكرتير وزير التعليم العالي يتوسلها أن تمنحه دقائق من وقتها الثمين من أجل أن تساعده للحصول على موعد مقابلة من وطبان

التكريتي اخ الرئيس للمثول أمامه وطرح مشكلته التي تتعلق بتحرش ابناء برزان بزوجته الاستاذة في المدرسة الخاصة بالقصر الجمهوري.

****

جنون، جنون وعواء. قيئ في كل مكان. اردت أن اتكلم مع روز لكنها كانت تحلق في أمكنة نائية هي حتما غير أمكنة الولوج الهستيري لانبعاثي وموتي المسيحي. اردت أن اتوسل اصابعها، خصلات شعرها، العري الخفي لروحي لكنها كانت تجلس أمامي ببهاء اخاذ يعادل السلطة التي تمتلكها.

لم استطع توسلها لتساعدني في الغاء فصلي من الجامعة. شعرت بعري خفي أمامها مضافا إلى شعور حقير اخر هو أني كنت السبب في تحولها إلى عاهرة وإن كان ذلك وفق مستوى اخر لا من مستويات العهرالعادي. كانت أمامي قحبة لكنها قحبة خاصة جداً. توسلت اخفاقي الروحي أن يمد اصابعه ويلمس الكوثر والسندس وجلدها التي تمرغ على افرشة الرجال. لكني فشلت، تنحيت. شعرت بالقيئ من المكان وكل الامكنة الاخرى.

قلت. هذا ربما اخر لقاء معك. زغب فمها ارتجف. كنت أدرك انه بالرغم كل شيء فثمة مكان لم يزل مفتوحاً لاصابعي. كانت تريد أن تضاجعني لكني كنت جبانا جداً. خراء منبعث من الماضي والحاضر. شعرت أني أريد البكاء في حضرتها. كنا نسير في الممر الخارجي للجامعة قادمين من مطعم ججو حينما قالت انها تشتهيني. شعرت بعضلات وجهي تتقلص. صعقت، ارتبكت ولم اعلق. في المرة التالية، كنا نجلس إلى مقاعد السينما عندما امتدت اصابعها إلى يدي،

وعصرتها، شعرت بالرعب وسحبتها بسرعة، بعد ذلك ذهبت إلى مرحاض السينما ومارست العادة السرية مرتين متتاليتين.

كنت امارس العادة السرية في الكثير من الاوقات. لكني قررت في سري أن اتوقف عن هذا الشيء الملعون. تركتني روز، قالت قبل أن تغادر، إن لديها موعدا خارج الجامعة مع إحدى الفتيات التي اعجب بها وطبان حينما شاهدها في بحيرة الحبانية. حملت حقيبتها وتوارت خلف الاصوات والضباب والريح والعاصفة والبحار والخلجان. عدت إلى طاولة حسين الصعلوك. اكملت شرب قدح الشاي وشعرت أني لم ازل ضبابيا وتائها.

كانت تسحرني في مشيتها العارمة والتي تضيع دائماً وتبقى مؤخرتها وحدها تتلجلج في ذهني. خرجنا من الجامعة ودخلنا على الفور أحد البارات. كنت اكره أن اتذوق الخمر مع منيوك مثل حسين الصعلوك، كان يتحول إلى حيوان مع اول ربع عرق. شربنا في المقصف زجاجة بيرة وكالعادة سكر حسين واخذ يتقيأ فطردنا النادل وبقي حسين يسب ويشتم فيما أنا اسحله سحلا. انتقلنا بعد هذا المقصف إلى الحانة التي يسكر فيهاجان دمو. لاحظت تحول حسين أمام قامة جان الغارقة في المخاط والعادة السرية والبصاق - إلى تلميذ نجيب وإنسان مهذب.

تناولنا نحن الثلاثة كؤوس متعددة من العرق ثم قررت أن انهض فجأة وبعد أن اخذ حسين يهذر ويصدر اصوات حيوانية تمثل جذوره العائلية. تركت الجماعة واتجهت إلى الشارع حيث كان الهواء باردا وشعرت أني بحاجة إلى التبول على العالم. لم أجد مكانا أتبول فيه باستثناء انعطافة في الشارع تخلو من المارة فأخرجت العضو الذي تحول إلى

سحلية صغيرة وبدأت ارسم تماثيل ووجوه منها ما هو شبيه بشوقي ومنها ما هو مقارب لحسين. الاحساس بالحرية بعد خروجي من الجامعة كان عظيماً. كنت أشعر أني تركت خلفي العالم كله وهو ينحدر نحو الجحيم. دخلت إلى مطعم التكامل وتقيأت في المرحاض، بعد ذلك شعرت أني أحسن حالا. في المطعم كانت أخبار الهجوم الجديد تذاع على الفور وبصوت حيواني. الكل في المطعم كان يستمع إلى الراديو. النزاحون والخياطون وبعض الجنود والقوادون من أصحاب الشوارب الكبيرة.

قررت بعد الانتهاء من الطعام الذهاب إلى مجلة الطليعة الادبية لرؤية عبد الستار ناصر. في الطابق الثاني للمجلة وجدت في غرفة المحررين لطفية الدليمي وعبد الستار ناصر قلقا. ارتميت على الاريكة قبل أن ادعى للجلوس. لاحظت أن لطفيه كانت تنظر تجاهي بامتعاض واضح. كانت لا تريد أن يأتي لمكتبها سكارى ومعتوهين. لم اهتم وكنت أشعر أني في مكان امين برغم ارتعاش يدي. عبد الستار ناصر كان هو الاخر يشعر بامتعاض ظاهر من وجودي. في الحقيقة كانوا لا يريدوننا أن نأتي إلى المجلة ونحن بحالة بائسة.

قلت إني فصلت من الجامعة. الخبر حرك مشاعر لطفية. كانت هي وعبد الستار يشكلان حالة استثنائية في الاهتمام بالكتاب الشباب. قالت لطفية ما الذي سوف تفعله ونظرت إلى عبد الستار الذي وقف وهو يريد سماع الخبر كاملا. لا ادري قلت. أفكر في الانتحار. هزت كلمةا لانتحار لطفية فيما ابتسم عبد الستار، كان عبد الستار ناصر يعرف خرائياتنا أكثر من لطفية. لا تقل هذا، الفصل من الجامعة ليس نهاية الأشياء. دائماً يستطيع المرء ايجاد نقاط للبدء قالت لطفية. لكنها الحرب. علقت.

لم استطع أن اتكلم. كنت أشعر باهتزاز روحي. جمالية مكان الكتابة كان يرحل بي بعيداً. كنت أعرف أن لطفية تعطف علينا نحن الجيل القذر في معادلة الحياة. اخذ عبد الستار ناصر يدخن وهو يحاول أن يلج افكاري. لكن الافكار كانت مضطربة.. نهضت وأنا أشعر بنشوة العداء للحياة، للاضطراب الذي جعلني مجنونا. تسللت من الغرفة وفوجئت بايمان، المصممة، منحنية لالتقاط مقص. كانت رائعة بثوبها العريض. رائعة إلى الدرجة التي لم أكن اتصورها امرأة عراقية تحب الباجة والتكة والمعلاق. كان العز على وجهها. على شفتيها، بين اناملها الرخوة وهي تخيط المجلة طولا وعرضا.

كنت أحب ايمان بكل جنون. عبد الستار ناصر لايعرف أني كنت ازوره بسبب ايمان. لايعرف أني كنت غارقا إلى لابد في قصة مدوية وعبثية تدعى ايمان برغم هشاشة موقفي المالي وبرغم أني لم ازل سلبوحاً اسود في عالم الكتابة. كنت أنظر دائماً إلى ايمان بتلك النظرة المندهشة متخيلا رائحة اقدامها وهي تنزلق في الجوارب ومندسة في حذاء اسود أو شحاطة رمادية. أكثر من مرة فكرت أن اضرب راسي بحذائها الشتوي. كل شيء من أجل النصر والتحرير والمعركة والانتصار على الفرس المجوس. كنت أتخيل نفسي وأنا اشم رائحة اقدام ايمان ثم امتصها بعوق دماغي. أمامها كنت ارتعش دون أن تدري ويحدث لي ليس انتصاباً إنما وعكة جنسية وحكة في المنطقة الشرجية من الدماغ..

من شارع الجمهورية توجهت إلى مقهى حسن عجمي. في الطريق شاهدت شوقي كريم الذي هرب من وحدته العسكرية، يسير متخفيا. جلسنا في أحد المقاهي المنتشرة خلف عمارة الضمان. كان شوقي جائعا ولايملك فلسا واحدا، اشتريت له اقراصا من الخبز وجلسنا نلتهم الخبز

مع الشاي. قال شوقي انه لم يستطع الذهاب إلى البيت ورؤية زوجته أحلام منصور. في الحقيقة كان يخاف من أن يشي به أحد ما. توجهنا بعد أن تناولنا الخبز إلى الاعظمية وذهبت بمفردي إلى بيته. عندما طرقت الباب ظهرت كولالة نوري وقالت إن أحلام غير موجودة.

وجه كولالة كان شهيا واستطعت أن اشاهد ثديها الصغير وهو يدفع الدشداشة إلى الأمام. قلت لها إن شوقي بحاجة إلى ملابس داخلية وتحديدا يريد لباس داخلي لانه فعلها دون ارادته. جاءت كولالة بكومة من الملابس التي تفوح منها رائحة زنخة، تناولتها على عجل. بحثنا في الاعظمية عن مكان آمن يستطيع فيها شوقي تغيير ملابسه ولباسه الداخلي وبصعوبة استطعنا الاستدلال على مقبرة العائلة الملكية حيث استطاع هناك تغيير ملابسه. اقترحت بعد تغيير الملابس أن نأخذ سيارة اجرة ونذهب إلى مقهى حسن عجمي. وافق شوقي وتوجهنا على الفور إلى المقهى.

كان المقهى دافئا ورائحة النارجيلات تفوح. شاهدنا في المقهى بعض الصعاليك وموسى كريدي ونصيف الناصري. كان نصيف هارباً أيضاً من وحدته العسكرية وحينما شاهدنا هرب من المقهى خشية أن يشي به شوقي أو يفضحه أمام الاخرين. جلسنا في المقهى قرابة ساعة كاملة وجاء جمال السوداني، الإنسان الوديع والذي اصطدم مباشرة مع شوقي مطالباً اياه أن يسدد ماعليه من الديون. اخذ شوقي يعربد في المقهى وقال إنه سيبلغ الانضباط العسكري عن كل المناويك الهاربين من الجبهة. ارتعش المقهى وتجمع الصعاليك حول شوقي فيما جمال السوداني أصبح بحالة عصبية.

استطعنا تخفيف الموقف وتهدئة جمال إلا أن شوقي استمر في

الزعيق والتهديد ووجدت أن افضل شيء هو أن يخرج جمال من المقهى. قلت لجمال أن عليه أن يخرج إلا انه قال إن شوقي ليس إلا عاهرة من عاهرات باب السيف والحيدرخانة وانه اديب فاشل (ومتزلف ولوكي). عندما قال جمال كلمة اللوكي، ثارشوقي مرة أخرى واخذ يعربد وهو يقول إن جمال واحد طايح حظ وفراشة. كلمة الفراشة كانت مؤثرة جداً ويقصد بها شوقي أن جمال ليس بشاعر إنما شويعر وانه غبي لانه يكتب قصائد للأطفال. أصبح الصراخ والشتم مدويا وظهر حسين الصعلوك فجأة حاثا شوقي على تلقين جمال درسا في الشعر والادب والاخلاق.

حسين الصعلوك كان دائماً عبارة عن حشرة ضارة، يظهر فجأة حينما تكون هناك مشادة ليؤلب الاطراف على الصراع. بعد المشادة المدوية وانزواء جمال في أحد الاركان. دخل صلاح زنكنة إلى المقهى فجأة مصحوباً بنصيف الناصري. قفز حسين الصعلوك وهو يريد تقبيل يد صلاح. ابعد صلاح، حسين عن طريقه وتوجه إلى شوقي مباشرة. اخذ نصيف يتوسل صلاح أن يمنحه ربع دينار لشراء قنينة عرق لكن صلاح كان منشغلا مع شوقي بموضوع كتاب جديد يريد أن يمرره على الرقابة دون شطب. شوقي تعهد من جانبه أن يساعد صلاح في الموضوع ويدعو اللجنة إلى عشاء في مقصف الاتحاد. اخذ شوقي بعض الاتعاب مقدما ورمى صلاح بدينار إلى نصيف الذي هرب وهو يمسك الدينار بكلتا يديه.

❊❊❊❊

وصلت مقصف اتحاد الادباء مساءا. توجهت على الفور إلى طاولة عبد الستار ناصر الذي كان قد ابتدأ السكر. انشغلت مع ستار بالحديث عن قصص الحرب حينما سمعنا جلبة خلفنا ثم سقط بالقرب منا كرسي وتهشم على الأرض. التفتنا بسرعة وشاهدنا حسن النواب يشتبك مع أحدهم وفي يده قنينة عرق فارغة. كان حسن النواب مصاباً في رأسه والدماء تسيل على وجهه. استمرت المعركة دقائق سريعة وتدخل اخرون في المعركة وازدادت اعداد الكراسي المنهمرة على رؤوسنا. تحول المقصف إلى خراب كبير وبرغم الهرج والمرج بقي بعض الادباء ملتصقين إلى طاولاتهم وهم يتجرعون العرق. خرجت من المقصف وشاهدت حسن النواب قرب المطبخ يئن ويتوجع فيما الدماء شكلت خرائط على وجهه. لم أحاول معرفة سبب المعركة وخرجت إلى العالم وأنا أشعر أني ارتجف من برودة عميقة تغمر جسمي كله.

وصلت البيت في ساعة متأخرة وما أن دخلت حتى قالت جدتي أن الفرقة الحزبية تطلب حضوري حالا. شعرت بالخوف اذ انها المرة الاولى التي استدعى فيها إلى ذلك المقر الموحش والمليئ بالسعالي. غسلت وجهي ووضعت اصبعي في فمي وتقيأت. ارادت جدتي أن تحضر لي طعاما لكني طلبت منها أن لا تنشغل بي. غسلت وجهي مرة أخرى وتوجهت على الفور إلى مقر الفرقة.

بعد نصف ساعة من المسير وصلت واستقبلني اعضاء الجيش الشعبي بالاسئلة. وقفت خارج البناية ريثما يتم الاتصال بالرفيق آمر مجموعة الحماية ومن هذا إلى معاون الرفيق الخفر ومن الرفيق الخفر إلى امين سر الفرقة. بعد ساعة ونصف من الانتظار في البرد دخلت واجلسوني على كرسي خشبي. كنت أشعر وقتها أني هش للغاية وعبارة

عن حيوان حقير وكريه تنبعث منه رائحة الخراء وكل جيف العالم. البوابة التي اجلس أمامها ، يجلس بالقرب منها أيضاً، شيوخ ورجال من مطر. رجال مفعمون بالضياع والخوف من أن يتم شحنهم إلى الجبهة كجيش شعبي. تخيلت الذئاب وهي تنهش في اللحم وما بعد مرحلة العظام. وجوه الرفاق كانت مطهمة، ملتاعة، تبعث على القشعريرة. كنت انتظر قراري بالموت في غابة الرياح التي تضرب وجهي كل لحظة.

بعد ساعات من الانتظار أحضرت نعوش مغطاة بعلم عراقي. كنت اكره الحرب لكني أعشق العلم. حبه غائر في ملامحي وفي انثناءاتي وفي تمردي الخفي على كل شئ. الموتى كانوا معلبين مثل اجساد مهترئة. قالوا لا تفتحوا النعوش. يصمت البرد عندما يلوح في غيمات السماء، حمل بعض الشيوخ موتاهم. لم يكونوا يحملون موتا بالصيغة المتعارف عليها، لكنهم يحملون الفكرة والانبعاث من هاجس الخوف ثم الانتقال إلى دينونة العالم الاخر..

الجثامين تمر أمامي بصعوبة الحياة. بقيت بضعة أخرى من النعوش، بلا اعلام. كنت ارتعش وساقي تهتز واردت أن أتبول على المكان. لم يسمحوا لي بالتحرك. اخذوا بضعة من الرجال وزج بهم في شاحنات الجيش الشعبي. النساء خارج المقر الحزبي بكين. عويلهن الطويل يذكرني بمشهد الموت شنقا.

اقترب المسؤول الحزبي مني وردد اسم امي. نزل الدم فجأة إلى ساقي. أحسست فجأة بالعار والدهشة والخوف وهبوط ضربات قلبي. لم استطع التحرك، خطوة واحدة. كنت أحسب انهم استدعوني من أجل الحراسة أو التحقيق أو أن هناك انذاراً ما. تقرفصت بوجع كبير. وجع لم أعرف مكانه. تلقائية الخبر افرغت في جسمي اوزانا من الرصاص.

اصابعي تجمدت. كنت أعرف انهم قتلوها، لكني لم استلم جثتها بعد.

في غرفة جانبية كتبت ورقة تعهد بأن لا اقيم مناحة ولا انصب عزاء. مراسيم الجنازة كانت أن ابكي وحيداً، ثم أن لا افتح النعش. باصابعي المتجمدة والليلكية وقعت التعهد واستلمت النعش بعد أن دفعت ثمن اطلاقات الاعدام.

❊❊❊❊

خرجت من مقر الفرقة الحزبية وساعدني أحد الشيوخ في حمل النعش. وصلت البيت وجلست أمام التابوت. كان لون الخشب مسودا من كثرة الاستعمال. وحدة التلقي والاستعداد في الجسم كانت ميتة. كل أحاسيسي والمشاعر والانسيالات والوجع والمرارة واللؤم والخراب كان يتجذر أمامي أشبه بغابة من المجهول. خارج الدار كانت السماء تمطر بغزارة، بقوة مدوية.

خرجت إلى الطارمة وجلست أمام انحناء خيوط المطر النازلة. بللت وجهي في لا نهائية السماء. منذ هذه اللحظة تحولت امي إلى جزء من التاريخ. كان هناك انفصال روحي ودهشة. فتحت التابوت والقيت نظرة عميقة على الوجه. كانت تنام باغفاءة عميقة. تخيلت انها ربما سوف تستيقظ فجأة اذ أن الألم سوف يحرك اطرافها. تفحصت الوجه الملوث بالدم. خمسة اصابات في الوجه المشوه. جزء من فروة الرأس كانت شاغرة من الشعر. اكتافها كانت مدماة. لم اقدر أن استمر في تفحص الجسد، كنت مذهولا وأنا أدرك الآلام الوجع المخبوء في العظام المهشمة. كانت ترقد بسلام لكن الدهشة كانت عارمة على وجهها. لم

افهم الموت في تلك اللحظات.. بقيت في ذلك المساء أتأمل الجثة طويلا. لم ارد الاعتراف انها قد أصبحت في الزمن الاخر.. دفعت يدي تحت عنقها. مسدت بقايا الشعر. ازلت الادران وثواليل سود غير مفهومة. كانت متخشبة وفقدت كل مرونة روعتها. وضعت كفا تحت العنق وبالكف الأخرى اردت تنظيف الرموش. في لحظة الرغبة الميتة اردت أن ارفع الاجفان. كنت اتصور انه لم يزل هناك المزيد من الكلام لم يتسرب إلى الحلم بعد. لم اصدق أني لم اعد اشم رائحة ابطها ودسست انفي بعيداً باتجاه ثنية لحم. اردت أن اتنشق رائحة العرق والنمش الاحمر الخفيف. لم تعد هناك غير رائحة الموت والنزيف وتجلطات الدم الاسود. هل فعلا أن كل شيء انتهى. قالت جدتي وهي تمسح اخر خصل الشعر المقدس عن وجهي. قم وادسس الجثة في التراب.

حينما انتهى بكائي. اخذت اسكب الكافور فوق ملابسها المهلهلة. ذهبت جدتي إلى الجيران. جاء الاخرون بدافع الدهشة. سحبوني مثل قرد تسلق أعالي أشجار اليوكالبتوس وتحت ساقي. زهرة بريئة شائكة تضرب العنفوان لتخرج الكاربون الملغز والمختبئ في الأرض. سحبوني من الجسد. من اخر الأشياء الجميلة في حياتي. سقطت على الأرض وأنا انشج وقلت لروحي كم أنت مسكينة في هذا الزمن الخرائي.

****

بعد ليلة مليئة بالكوابيس والضياع، استيقظت وأنا أشعر بخيبة امل مرعبة. كل جسمي يئن بأمثولة الطيران المنفرد ووحيداً في الظلمة العاتية. الدهشة من الاستيقاظ كانت تمثل لي حلما غريباً نحو الموت

زحفا إلى حافة قبر حبيبتي. اغتسلت ووضعت عطراً قويا وتوجهت إلى خارج المنزل. كانت جدتي لم تزل ترتعش من مذاق الليلة الماضية التي قضيناها سوياً في المقبرة. توجهت بعد خروجي إلى لا مكان، إلى مقهى عاديا يقع في علاوي الحلة واخذت اتشمم رائحة المكان مثل اي كلب جريح.

لم استطع بالرغم من اللغو والهرج في علاوي الحلة من نسيان الليلة المريرة. رائحة التراب منحتني فعلا نوعاً من الصبر والخشية والابتعاد عن مأتم الامومة المدوية. بعد ساعة من الجلوس في المقهى توجهت إلى مقهى حسن عجمي. وصلت المقهى واتخذت مكانا قصيا في أحد الاركان. كان في المقهى نصيف الناصري وضياء سالم وبعض المتملقين لقصيدة النثر.

اردت أن اخرج من المقهى وأنا تحت تأثير غريب مشابه للموت لكن (خ) اقترب مني وعرض علي أن اشتري منه كتباً مسروقة. اعتذرت. اخذ (خ) يلح وأنا أتأمل مؤخرته الجميلة. طلبت منه أن نخرج سوية و نتوجه إلى محلة السيفين، هناك طلبت منه أن يسلفني ثمن مضاجعة قحبة. دخلنا أحد البيوت الايلة إلى الخراب واستقبلتنا القوادة بكثير من الشفافية الشعرية. كان (خ) أحد الذين تمتعوا بعوق ولادي ولذلك السبب لم يساق إلى الحرب. لم يدخل معي (خ) مخدع القحبة وبقي خارجا ينتظر. كانت القحبة واقفة بالقرب من فرشة موضوعة على الأرض وحينما بدأت بخلع معطفي وتمسيد اشيائي من أجل الانتصاب. تمددت ورفعت ثوبها الذي تفوح منه رائحة السمك المقلي.

بعد محاولات عديدة لم يحدث لي انتصاب. نهضت و ضربت القحبة بحزامي وبكيت منهاراً على الأرض ثم اخذت اتقيأ سائلا اصفر.

قامت القحبة على الفور بأستدعاء القوادة التي جاءت مسرعة وضربتني بنعالها الاسود. اعترضنا أنا و(خ) وطالبنا بالمبلغ الذي دفعته إلا انها اخذت تصرخ وقالت إن لها علاقات بوطبان وانها سترينا الويل والثبور. خفنا واندهشنا من جرأة القوادة وقلت لـ (خ) لنخرج بسرعة.

عرض علي (خ) أن نذهب إلى أحد اقربائه ويعمل خياطا في الدربونة المجاورة. سرنا بضعة خطوات ثم توقفت واقدامي ترتعش من اثر المشادة وحاولت تدخين سيجارة وامتصاصها بقوة. بعد مسيرة عشرة دقائق وصلنا إلى دكان الخياط واستطعت أن المح خادما صغيراً يعمل في الدكان وينظف الأرضية بمكنسة ايلة إلى التمزق. قال (خ) أن اسم الخادم عمر وهو فرخ عمي الذي يفضله على زوجته. تفو، قلت ورحت أنظر إلى الفرخ فيما اصابعي تتعرق. انتظرنا في الدكان نصف ساعة كاملة ثم جاء عم (خ).

كان خياطا مهما في الشارع. زبائنه هم مزيج من سكان الفضل وبعض النساء ويوجد في المحل (طبكة) لممارسة الجنس مع الصغار. سلمت على عم (خ) ورمقني الحقير بنظرة استشففت منها انه يريد أن يضاجعني أن توفر لي الوقت والزمن والمكان و النقود. اخذ العم يتحدث عن انواع الفروخ بعد أن قال له (خ) إني اهتم بدراسة السلوكيات الجانحة. جلس العم على الاريكة وراح يبربر بكلامه ويحاول أن يشرح لي المتعة المستحصلة من وطئ الفروخ عوض النساء. في نهاية الكلام قال العم إنه يحب أن يقرأ لعبد الستار ناصر الذي يصف في قصصه الحب كشكل اخر لممارسة الحياة والـ..... حسنا. قلت له إنه صديقي وإننا نقضي اوقاتا جيدة في مقصف الاتحاد.

بعد حديث طويل عن عبد الستار ناصر انتبهت إلى أن العم كان يستخدم في حديثه مفردات شيوعية. سألت (خ) وقلت له هل أن عمك شيوعي. ارتبك وأمام اصراري اعترف انه شيوعي قديم من جيل فهد وأن نصف التنظيم الشيوعي العراقي كان تحت تصرفه. أما الآن فهو مستقل ويعيش حياته كما ترى. اشعلنا سجائرنا وطلب منا العم أن نبقى ونشاركه طعام الغداء. وافقت وفيما كان العم منشغلا بالقص والتفصيل والدرز. اخذت أنا اتابع الفرخ وهو يتحرك ذات اليمين والشمال. كان جميلا جداً وله مؤخرة تروتسكية تستطيع أن تنسف الشخصية الروائية نسفا. شعرت بشيء يتحرك ويحاول أن يدفع البنطلون إلى الأمام. اثناء تناولنا للطعام اصطدمت اصابعي مراراً باصابع عمر واحسست برعشة مدوية تضرب جسدي كله وحدث لي مرة أخرى انتصاب وهمي وعلى السليقة.

انتهينا بعد التجشوء من الطعام وقررنا أنا و(خ) أن نأخذ الباص إلى منتدى الادباء الشباب. كان هناك اجتماع لعقد ملتقى القصة القصيرة ودورها في الانتصارات على الفرس المجوس. بعد رحلة مليئة بالاضطراب وصلنا إلى بناية المنتدى. وجدنا هناك عاهرات وسكارى ومن ضمن الحضور شوقي كريم ولؤي حقي واعضاء من المسرح القومي والفرقة الشعبية. لفت نظري، أكثر من الأشياء الاخرى، تزلف شوقي للؤي وملاحقته اياه مثل عاهرة في خضم الهلوسة المدوية للحضور كان النقاش يدور حثيثا عن عمل فني مشترك بين الجميع. اقترحت في نفسي أن يشترك شيئي ضمن الفعاليات. كان سبب وجودي أنا و(خ) هو الحصول على دعوة لحضور المهرجان بأي ثمن ومن ثم التمدد في فندق المنصور ميليا أو الشيراتون والسكر إلى الأبد على حساب وزارة الثقافة.

لم تتاح الفرصة، وسط الخراب الهائل للحديث مع لؤي واستطاع جواد الحطاب الحصول لنا على بطاقات دعوة رغم أن الدعوات وجهت حتى إلى الكناسين في الشوارع من أجل الاحتفال بالانتصارات. كان الشغل الشاغل للاجتماع الموسع هو وضع جدول بقراءات الادباء خلال جلسات الاحتفال وكالعادة احتل الديناصورات الأماكن الاولى وتبعهم المتطفلون. اول مرة أشعر بأني عبارة عن عار ومتطفل، لكني وجدت ثمة مواساة من علي السوداني حيث كان يجلس في نهاية القاعة ذليلا رغم انه مشوه حرب سابق ويفكر بالزواج. لا أعرف لماذا كنت أشعر دائماً بالتعاطف مع علي رغم انه كان يتمتع بنظرات غريبة وعميقة تستطيع أن تكشف بقوة ما تفكر به، حتى لو كان الامر يتعلق بكفر أو مضاجعة مع فرخ صغير.

كان منتدى الادباء الشباب يشغل منزلا مصادراً من عائلة إيرانية تم تسفيرها إلى ايران. اثناء التجمع والكلمات حدثت مشادة حادة بين حميد المختار وشوقي كريم. حميد المختار كان يشبه عصفور شرس وهو يناول شوقي سباباً أما شوقي فقد لجأ إلى التهريج كعادته وفي خضم الصراع ضاعت علينا رؤية اعضاء فرقة الفنون الشعبية وهم يغادرون المنتدى فيما لؤي حقي يلاحق الراقصات بفم مفتوح ومسدس متدل ودون أن ينسى بالطبع توزيع ارقام تلفوناته، - كان ممسوسا بداء العظمة-. خرجت من المنتدى وأنا أشعر أني حققت انتصاراً بالحصول على دعوة المهرجان.

اصابعي كانت تؤلمني وشعرت بفقدان غريب للطاقة. طيلة تواجدي داخل منتدى الادباء الشباب، كنت أشعر بشئ غريب يسري في عروقي. دم متجمد، قشعريرة غريبة ثم رغبة في التبول. عالية طالب

كانت تجلس أمامي في الكرسي المقابل. مجرد وجودها كان يعني أني لست على ما يرام، وفيما كانت عالية تناقش مسودات التغطية الصحفية لجلسات كنت أنا اتوسل عقارب الساعة أن تمنحني بعض الفرصة. بعض التوسلات والبكاء. كنت انهار فجأة مثل المصروع وعلي السوداني يغرق في تهوياته دون أن يعرف أني كنت أموت موتات متعددة أمام الافخاذ الملساء وهي ترتفع كل لحظة وأخرى لتكشف عن مناطق مظلمة وعميقة وجهنمية.

الاحساس بالدفء والعجز عن التمتع به كان يقذف بي بعيداً وبعيدا جداً عن الامكنة المسكونة بالغانيات والراقصات والشاعرات، وامل الجبوري. يا الله. كانت تنزف اخر قطرات الجمال الرهيب وتقتلني وهي تقرأ بعض قصائدها على مسامع جواد الحطاب الذي يلوح (بسكسوكته عاليا معلنا انتهاء الاوقات الجميلة)، والان يجب علينا أن نغادر. واخرج، متعثراً ومبهوراً. كان الديناصورات يتحركون في المنتدى أشبه بقياصرة روس. حركاتهم موزونة وامل الجبوري بينهم. قلت بيني وبين نفسي، أن كولالة نوري اشرف منكم جميعا، حتى عندما تدخل الحمام دون مئزر فيما شوقي يمارس دعارته في غرفة مجاورة. بعد النقاشات الحامية والتي بدأها لؤي واستولى على عقول امل وعالية وتركنا مثل كومة من النفاية لا لزوم لها. انصرف وأنا تحت هاجس أني كنت عبارة عن قملة مفروكة بين هذه القامات الكبيرة المشمولة برعاية السيد الرئيس.

اول مرة في حياتي أشعر أني لست بعثيا واني بين مناويك يتملقون كل شيء من أجل الحصول على حب القائد والحزب وعبر كتابة القصائد والقصص التي تمجد الحرب رغم انهم هاربون من الخدمة العسكرية

ومن جبهات القتال. ابصق عليكم، باستثناء علي السوداني. وفيما أنا أسير مرتبكا في الشارع تسيطر علي كآبة قوية وحادة وأشعر بانهيار كلي لجسمي وتشنج عضلات وجهي. وانهار في الشارع ويحملني الناس ويغسلون وجهي بماء فاتر ولاول مرة أحس أني اعيش بين البشر. يا لحقارتي الميتة والمرشوشة مثل بولة على حائط الزمن.

بعد أن انهض من السبات. اخرج من العائلة التي غسلت وجهي ويضربني الهواء البارد. اقرر أن اذهب إلى مقصف الاتحاد لاشاهد هناك عبد الستار ناصر الذي سيدعوني حتما إلى وجبة من الزرازير المشوية. وفيما أنا اكل، اعاني من اثار لوثة امل الجبوري. اللوثة الاكبر والاجمل في العالم رغم أن الاذن نافرة قليلا إلى الأمام ثم تبدوا واضحة أكثر حينما تضع شعرها خلف الاذن. بعد شرب قنينة بيرة مع عبد الستار، أشعر أني في حالة سكر. قنينة واحدة يا ابن الكلب. واضرب راسي وأنا أسير نحو الحمامات واتقيأ هناك والمح شوقي يتحاور مع رعد بندر بصوت مسكون بالهزيمة. ونتقيأ نحن الثلاثة على بعضنا.

كل واحد منا يخرج من فمه بركان ثائر من القيئ والدم والهستريا. أعود بعد أن اغسل شعري في المغسلة وافاجأ أن عبد الستار ترك المائدة ويتوجب علي أن ادفع الحساب. تفو عليكم. لقد خانني هذا الغندور وارتعش واهتز ثم اجلس وحينما أعرف أن الموضوع كله لا يزيد عن الضرب في مركز الشرطة، أطلب قنينة أخرى واتعشى ثم عندما يحاولون أن يغلقوا المقصف، يبول جان دمو وسط الصالة وتفوح الرائحة وتصل رئيس الاتحاد ثم ينفرج كل شيء عن غمامة الدم. يتدخل حسن النواب ويحطم الكراسي ويثور ويعربد ويضربه أحدهم بقنينة على راسه واثناء الهرج والمرج استطيع الخروج من المقصف دون أن ادفع فلسا..

في الخارج، الليل عميق وداكن. لا شوارع في الشوارع. فقط رجال الشرطة والأمن والمخابرات والجيش الشعبي. اجلس متوحدا في ساحة الاندلس، بضعة من الوقت. لاأعرف كم، لكنها ساعات طويلة. أتأمل حياتي والهوس وأفكر في كتابة رواية عن الخونة وابناء القحبة والمناويك. إلا أنت يا كولالة نوري. قلت بفم متهدل وبلا اسنان ثم امسد قط هلع بجانبي و(نباح) الخراتيت يملأ المكان باوامر عسكرية.

❋❋❋❋

كل شيء ذائب في أحماض قوية من الرغبة الدفينة والبول. لم اشأ الذهاب إلى البيت وأنا في حالتي المنهكة والباكية. اختار طريقا مغايراً واتوجه سيراً إلى القسم الداخلي للجامعة. في الطريق أتبول اربع أو خمس مرات وفي إحداها، يمسكني شرطي وأنا متلبس بالحالة البولية. يأخذني الشرطي إلى مفرزة من الأمن العام في الشارع ويبدأ التحقيق. اسمك، هويتك. مكان الاقامة. هل أنت عميل أو لا. أنت مدسوس وتريد تدمير بغداد وتشويهها. اقسم لهم أني لست كذلك وتأتيني صفعة من الخلف. أشعر أن متعة السكر تغادرني فجأة واساق إلى أحد مراكز الشرطة بشكل محموم. في السجن أو النضارة، اشاهد الهاربين من الجبهة وهم يرتعدون ويتناولون المخدرات وكبسولات الراحة العميقة.

اشاهد أيضاً أحد الهاربين وهو يمسد ظهر صبي بدشداشة مقلمة وقذرة. يقترب مني أحدهم ويمنحني سيجارة صغيرة، ارفضها. ينادون بأسمي للتحقيق. في الغرفة الجرداء مع المحقق الشاب اضرب ضربات كثيرة ويسيل الدم من الانف والفم دون أن اتفوه بكلمة. ارجع مرة

أخرى إلى الزنزانة واتمدد على الأرض. الشئ الوحيد الذي اخافه هو البقاء طويلا في السجن اذ ربما يغتصبني البعض.

اثناء فترة النوم وفيما المصباح الوحيد ذي الاربعين واط مطفأ أحس بزحف أحدهم ثم اسمع هسيسا وصوتا يشبه المواء وأتلمس وجهي واحاول أن اكتشف ما يجري لكني افشل ثم اسمع صوت حركة مستمرة وغطيطا واهات عميقة صادرة من ركن الزنزانة. في الصباح اخرجوني من السجن وتركوني بعد أن تأكدوا انني بعثي وامتلك هوية الجامعة. اخرج من السجن دون غسل وجه وأشعر بأني منهك. أصل إلى القسم الداخلي للجامعة واتدثر في فراش أحد الأصدقاء ثم اغرق في سبات طويل.

❊❊❊❊

عندما استيقظت كانت الآلام لم تزل تسري في عظامي. وقفت ثم شاهدت من خلال عيني المرهقة وعبر النافذة المطلة على ساحة الجامعة ومن خلال الأحلام. الرفاق وهم يحملون بنادقهم وهرولة عجلى وصرخات واوامر عسكرية. غسلت وجهي وفتشت ثلاجة صديقي التي لم أجد فيها غير قطعة خبز صغيرة. التهمتها ونزلت إلى الجامعة.

كان الرفاق لا يزالون يهرولون باتجاهات مختلفة. لم افهم الاوامر. الشمس الوارفة والواسعة كانت تمنحني نوعاً من الامل. شاهدت مسؤولي الحزبي الذي نهرني على عدم تواجدي في مقر الحزب. فهمت بصعوبة أن أحد الخونة من حزب الدعوة كتب عبارات منددة بالحرب على حائط مرحاض. فتشوا كل المراحيض في الجامعة والأسلحة

مشـرعة. لم نكتشف كتابات اخرى.

بعد ساعة ونصف تم القاء القـبض عـلى الطالـب. اشـبع ضـــرباً أمـامي. ضـــرب دون رحمـة، الجميـع سـاهم في هـذه النـزوة الدنســية، أحسست بتعاطف كبير مع الطالب. الدم يسـيل على وجهه وهو يتوسل. اخذوه إلى بناية الفرقة الحزبية وبدأ هناك تحقيق حزبي قطعه ضابط الأمن الذي اخذ الطالب بســيارته الميتسوبيشــي ثـم اختفـى كـل شيء. بقينـا مرتبكين، لكن الأسلحة في اليد ووجوهنا لم تزل تتعرق بقوة.

عندما شاهدني مسؤولي الحزبي مرة أخرى بدا عصبيا واراد ضـربي بحذائه. قال لي حضـر نفسك للتحقيـق. لم افهـم لمـاذا ارادوا أن يحققـوا معي. شعرت بالادانة وأنا ادخل بناية الفرقة الحزبية. اول مرة أشعر بهذا الخوف. كنت أريد أن اوجه لبناية الفرقة الحزبية قذيفة ار بي جـي وانهـي كل شئ. عندما عقدت اللجنة الأمنية والتحقيقية اجتماعهـا كنـت انتظـر خارج الغرفة وأنا أشعر أني أريد التبول في بنطلوني. جاءت الرفيقة امـال مسؤولة لجنة الحزب الأمنية وهي تحمل في يدها ملفـات بـالوان مختلفـة. الرفيقة امال ضئيلة الحجم لكنها شـرسة للغاية، ليست امرأة. لا أعـرف كيف يمارس زوجها الجنس معها.

بعد انتظار تم استدعائي. دخلت بارتباك شـرس ورددت الشعار. جلست مرعوباً وأنا أحس أني ضـائع في دوامـة مـن الاحاديـث ودخـان السجائر واللغو والملفات المفتوحة واعضـاء اللجنـة يدرسـون كـل شيء عني. الرفيقة امال هي التي تدير دفة الحديث، وجهت لي اسئلة لم استطع الاجابة عنها. كنت مرتبكـا، موبـوءاً. مهانـاً. مرعوبـاً. السـنتهم كانـت تعربد بالمسامير التي تسقط على رأسـي.

حولوني في دقائق صغيرة إلى خائن يتوجب التخلص منه وفق الطريقة الستالينية. شعرت باسهال مقزز يضربني. قلت لهم أريد الذهاب إلى المرحاض. وافقوا وفي المرحاض، تأملت حياتي البائسة وجدتي وقدر طبخها الألمنيومي. تذكرت سلوى أيضاً التي استمرت علاقتي معها اربعة اعوام قبل دخولي الجامعة ثم اكتشفت بعد ذلك انها وكيلة لرئاسة المخابرات العامة. اللعنة. أيضاً مرت صورة روز في ذهني. فكرت أن استنجد بها لتنقذني من مصير اسود لم أكن قادراً على تحديده. لكنها الآن تكرهني. كنت محاصراً، مثل دجاجة وسط حلقة من الثعالب. دجاجة مسكينة وبلا ريش لأن الريش سقط من امد بعيد، منذ اعدام امي. أتأمل النافذة في اعلى المرحاض. الشمس تنعكس بزاوية قاتلة وتميتني أنا أيضاً. نزعت بنطلوني واخذت اعصر بطني. لم استطع التغوط. الغائط اللعين كان لا يريد أن يخرج وكنت بأمس الحاجة والتوسل لخروجه، لارتاح قليلا من هذا الوجع. البطن كانت تقرقر ووجه روز أمامي والطلقات الفائرة تخرج من البنادق والطلاب يرتعدون والطالبات يبكين وأنا أحمل بندقيتي واحذر الطلاب من أن الذي لا يلتحق بالجيش الشعبي، خائن، وسيعتقل وامسك باحدهم. طالب هش وضئيل الجسم ووجهه مكتئب، كان اسمه ستاراً.ثم ادفعه دفعا إلى صعود الحافلة المتوجهة إلى معسكرات التدريب.

ينهار الاخرون أمام مشهد ستار الذي له اخ معدوم بتهمة الانتماء إلى أحد الاحزاب الدينية وآخر شهيد. ستار هو الوحيد الذي بقي من العائلة ويريد أن يعمل في العطلة الصيفية لاعالة عائلته. لكني ادفعه واصرخ بوجهه، خائن، الوطن في خطر والمجوس على الحدود. كانوا يريدون أن يهربوا. كل الطلاب يريدون الهروب، لكننا اغلقنا باب القسم

ووضعنا الحافلات ملاصقة للباب واخذنا الذكور إلى مقصلة الحرب. تشوهي المعرفي في الحرب كان مديدا. نسينا الايدلوجية الثورية ونسينا اقوال القائد المؤسس وجدلية المادة وانشغلنا بالتعئبة والحرب. لم أكن افهم لماذا كان الطلاب يريدون الهروب. انه وطننا الوحيد على هذه الأرض وليس لنا وطن اخر.

ضوء الشمس العابر من النافذة يمنحني نوعاً من الجدل عن مصيري. اتحول في زمن خرافي قصير إلى متهم وتبدأ الخطايا بالظهور والاعتوار والملاحقة. عدي صدام حسين يلعب البولينغ والدمبلة ويلاحق النساء في الشوارع ونحن نأكل الخراء ونحارب. كنا نأكله دفعة واحدة ونموت من أجل أن يحيا الحزب والوطن الجميل. وجه روز لا يريد المغادرة كان يتشكل أمامي. واحدة من خطاياي الكثيرة وهي معمدة بالمني والنيك والمضاجعات وافتضاض غشاء البكارة والألم والمتعة الرخيصة. كنت أفكر انها يمكن أن تكون حبيبتي لكن الحزب والأمن حطموا هذه الهشاشة. حطموا اجمل مشاعر يمكن لإنسان أن يمنحها لانثى. كانت في بعض الاحيان تأتي وهي تحمل في فمها قصص المضاجعات. الليلة السابقة نامت مع وطبان وبالامس نامت مع أحد ضباط الجيش الكبار، بعد تلك الليلة اعدم الضابط لافشاءه أسراراً عسكرية أمامها. كلهم ملعونون. لكن الوطن بحاجة إلى شراسة وقوة وأنا هش للغاية.

تحولت الآن إلى متهم. شعور غريب. عندما تتحول إلى متهم يبدأ المكان باكلك. ببصقك، بكرهك. ما الذي افعله وصورة امي أمامي موثقة إلى الجدار والطلقات تنهمر على جسدها الحي. يتحول كل شيء إلى فقاعات غير ذات قيمة ويطلب مني أيضاً أن ادفع ثمن الرصاص.

صدر قرار اللجنة الحزبية التحقيقية. وضعوني بين الموت على ارصفة الموانئ العابرة وبين اللاحب. أكثر الأشياء سخافة في هذا الكون أن تموت مكبلا بالسلاسل وكانت السلاسل من العمق والشدة بحيث أني اردت الموت عرفانا بالجميل إلى الآلهة التي بثتني في هذا العالم الخرائي والملولب والمنيوك. لم يفصلوني من الحزب. ارادو اذلالي اكثر. موتي بدفق الغيم المنهمر على الأرض رذاذا. قالوا لا فصل من الحزب و ستحول إلى لجنة النشاط الوطني الثانية. وبصقت على روحي. بصقت على الاردية المموهة لهذا العالم الوسخ. سأكون في هذه اللجنة عبدا مأساويا يصارع عبوديته إلى الأبد. لجنة النشاط الوطني هي لجنة خاصة بالخونة من البعثيين. وضعوا مسؤولا شرسا لقيادة هذه المنظمة.

لم أحضر المحاضرات في الجامعة اطلاقا. تهت في الخرائب وحيداً، ناسكا، ملتاعا. أصبح نادي الجامعة هو مكاني الاثير. اتي إلى الجامعة لكن لا أحضر المحاضرات، بل انزوي في النادي المربع الاضلاع. هنا حيث اجلس إلى طاولتي مع قدح شاي دائماً، يمكن أن اشاهد الطلاب الاكراد يجلسون على طاولة واحدة. الاشوريون، أيضاً يتجمعون ويجلسون إلى ضلع خرائي من اضلاع المربع.

كل فئة من المعوقين فكريا كانت تتخذ لها مكانا خاصا دون تجاوز على أماكن الخريات الاخرى. بعد انتهاء إحدى المحاضرات جاء صديقي محمد الراوي. كان طويلا للغاية وسخيفا ودائما يحمل في يديه كيس. سألته عما يحمله داخل كيسه، اجاب بخفوت، انه أحدث فيلم خلاعي. اردت أن اخذه منه لكنه قال انه ليس له لكن للدكتور عبد الستار مدرس مادة الثقافة الوطنية. دائماً كان محمد يحمل للدكتور افلاما جنسية. اردت في فترة سابقة أن أعرف نوع العلاقة التي تربطهما لكني فشلت.

نهضنا من الطاولة وقال انه يريد أن يعرفني على عاملة الاستعلامات. سرنا في الباحة الخارجية وشاهدنا الدكتور عبد الستار الذي رمقني بنظرة غريبة. هرع محمد نحوه وسلمه الكيس ثم تركناه وسط ذهول وتوجهنا إلى الاستعلامات. عندما وصلنا طلب مني محمد أن انتظر في الخارج بالقرب من ممثل الأمن العام. عاملة الاستعلامات كنت أعرفها وأعرف زوجها الذي وقفت قربه. كان قصيراً وابلها. زوجته أكثر ذكاءا منه، لكنها قحبة. دخل محمد دقائق ثم خرج وهو يطلب مني أن ادخل، شعرت بالخوف من زوجها رجل الأمن لكن الحمار كان يبتسم. دخلت الاستعلامات وفوجئت برائحة حيمن منتشرة في كل مكان.

كانت موظفة الاستعلامات حاملا وممدة على الاريكة وثوبها الاسود والاخضر ببقعه الحمراء يلمع في ألق الشمس. قال لي محمد. اهجم اذا اردت. فجر ذكوريتك أن استطعت. يا له من جبل مهيب وغار عميق وانت تتعبد فيه يا ابن القحبة. ترددت وقلت أن زوجها يقف في الخارج. ابتسم محمد وقال لا تخف. وننزلق مثل سمكتين بلا زعانف إلى الشق والدهشة والمشهد الداعر كما في قصص عبد الستار ناصر مرة واحدة والى الأبد. لم أشعر أبداً برغبة في ممارسة الجنس خاصة مع هذه المرأة التي كان شكلها كفيلا باماتة اي انتصاب.

تعرقت وأنا اجلس قربها على الاريكة. مثل ثور مخصي. مثل باخرة بلا ربان ونوتية. مثل جبل شهد مولد النور والشجرة المباركة تنعق على الغربان. دهشة من اللحم الاسمر والمسود الحافات ثم فرج له ازهار شوكية تعض وتلتقط الذباب. كانت تنظر إلى وجهي مثل اخطبوط. طويلة ورفيعة وعظام فكها ناتئة و..... تفوح منه رائحة الثوم مخلوطا بالبصل والمني.

مددت يدي وعبثت بحديقتها. بالشجرة الكونية حيث مصائر البشر والالهة والملائكة مدونة على الاوراق الصغيرة. ثم دفعت باصبعي عميقا. اخذت تتلوى مثل سحلية وتمد اصابعها نحو يدي وتدفعها بصورة اعمق. فراشات حديقتها ملونة بالسواد ومضمخة بروائح الطبخ. لم ينهض شيئي من غفوته وكان مشغولا بزوجها الغبي. زوجها الذي يشبه برميلا مبتسما ولحية كثة وعصافير تلغو فوق رأسه. استمرالعبث ربع ساعة. زمن مخصصي ومقتطع من الدينونة العامة للمصائر البشرية. اردت أن اقلبها لكن بطنها المنفوخ كان يدفع بأصابعي إلى الخلف.

مسدت فتحت الدبر وعبثت بشعيرات سوداء تنبت متفرقة بين الحشرات الطنانة. محمد يتركني ويقف بالقرب من الباب يلغو مع الزوج فيما أنا مستمر في البحث عن الزمن الاخر. عندما توقف أحد الطلاب أمام الاستعلامات شعرت بهزة عميقة تضرب كل جسمي. هزة تشبه الارتعاش اللحظي وانت تسير في شوارع بغداد الانية بدون حذاء فيما الشمس تزيل عن وجهك اخر المكياجات الدنيئة. وقفزت إلى الزمن الاخر. إلى الخارج بسرعة فيما العرق يتفصد من جسمي وصدغي. سرنا أنا ومحمد دقائق واصابعي لم تزل تحمل رائحة الفرج وجلست على مقعد ارتجف وعضلات وجهي متقلصة. ذهب محمد إلى محاضرته وبقيت وحيداً تحت سماء مكشوطة.

الفصل الثاني

سـرت في ساحة التحرير بغربة عميقة. تركني حسـين الصـعلوك دون رحمة. سماء بغداد كانت واهنة. ضعيفة. واطئة إلى الحد الذي غذيتها من روحـي والامـي وأوجـاعي. وانـت تسـير في سـاحة التحريـر بـين السـيارات المتلجلجة والناحرة والمشوهة تأتيك رغبة التبول. ابحث عن مكان لأبول فيه لكني افشل. ثم.... ابول في الشارع، بجانب دكان مغلق لبيع الساعات.

دخلت مكتبة النهضة. سـرت بين رفوف الكتب. كل شيء يتحول إلى بوهيميا عمياء وأنا أنظرالى اوراق فصلي من الجامعـة. عقـلي متجمـد لكنه يحمل في كينونته فكرة الموت على الطريقة الامريكية. سوف يطلقون عليك الرصاص يوما أيها الغبي. أفكر في هذه الجملة واحاول أن اصـيغ منها قصة صغيرة. اتسـرب مـن المكتبـة بعـد أن اشـتري كتـاب قصـص قصـيرة جديدة لعبد الستار ناصـر تتحدث عن الحرب. ثم لمحت ممراً إلى أحزان الرجال للطفية الدليمي.

اردت أن أقرأ في مقهى جانبي وأن اشـرب الشـاي. لكـن المقهـى كان يعيش فوضى واصوات الرجال تشبه مقصـلة ايلـة إلى المـوت وغـير

مزيتة. تركت ساحة التحرير وتوجهت إلى مقهى البرلمان. شربت قهوتي وغرقت في عالم لطفية الدليمي. كنت بحاجة إلى الحديث والتفكير في هذا العالم المتمرد الذي لا يمنحنا السعادة بالرغم من اننا بسطاء تماما ومنحوسين.

لم يعد معي المزيد من النقود. شعرت بالجوع والاهتزاز. قلت لنفسي إن قدح جديد من القهوة سوف يمنحك سلاما دائماً. طلبت المزيد من القهوة والماء. ممر الى أحزان الرجال منحني فرصة ضائعة للتشبث بحلم الليالي الباهتة وأنا اتضور جوعا في القسم الداخلي. فكرت أن اخذ نقودا اضافية من جدتي لكني شعرت باللعنة تطاردني. شيء قذر للغاية أن تكون مفلسا وجائعا. العالم يتحول ساعتها إلى هم واحد هو كيف تقضي على هذه الاساطير المنحوسة. اساطير الجوع والعري والبرد والملاحم الغذائية.

قضيت في المقهى ساعات طويلة. ساعات لم أعرف كيف كانت تسير وتضمحل وتتهادي وتتسرب. ساعات مصنوعة من الرمل الاصفر الجاف ثم تتيه على ضفاف الدجلة. بالرغم من الم الفصل كنت أشعر للمرة لاولى انني سيد نفسي. سيد الزمن الماورائي واللحظة المعاصرة لارهاصي. هل كنت ارهص مثل حصان وضعته المكننة الحديثة في عالم النسيان. كل خطوة على الطريق كانت تشير إلى الموت. تركت المقهى وتوجهت إلى نهر دجلة. انسللت من بين البنايات المتأكلة لشارع الرشيد ودخلت في صومعة التوحد معه النهر. الوحدة قاتلة حتى لوكانت مع نفسك. لم استطع أن أحيا مثل الاخرين. الزمن بالنسبة لي والمكان، ثيمة عدمية. كلنا كنا نتيه. النهر وأنا وطيور الماء والسحالي والانتانات المهبلية. جلست على حافة النهر. تقرفصت. تذكرت تقرفص

كولالة نوري وسط غرفة في بيت شوقي كريم وتناولها الطعام من القدر مباشرة وبلا ملاعق. هل هناك حاجة فعلية للملاعق. تفو، كان الافضل أن لا اشاهدها بمثل هذه الصورة المؤلمة. هذه الذكرى تمنحني نوعاً معقدا من الشيزفرينيا.

الوحدة القاتلة لا تمكنني من التواصل مع الله. فقدانه كان علامة خرائية على موتي الاكلينيكي. اترك النهر وعذاباته واتوجه تحت هاجس التوحد إلى مقهى حسن عجمي. سفينة الحمقى كلها كانت متواجدة، بمن فيهم حسن النواب وصلاح زنكنة وخضير ميري الذي يشبه عضاءة ذات الوان متنافرة و.. اه، نسيت عبد الامير جرص الذي كان دائماً يشحذ سجائره. اجلس في المقهى وشعور الوحدة يرغمني أن أموت ميتات متتالية. وجود صلاح زنكنة بعث في نفسي شيئاً من الامل للقضاء على الجوع. سلفني صلاح بضعة دنانير والتهمت فولا عند المصري الذي افتتح مطعما مكان مرطبات الحاج زبالة.

الجوع كافر. ملعون، بعد وجبة الفول اردت أن اخري. لم أجد إلا مكانا مظلما في عمارة جانبية. أكثر الأشياء الملفتة للنظر في بغداد هي قلة المراحيض. بعد التغوط عدت إلى المقهى. كنت أشعر براحة عميقة وجذرية. المعادلات الجسمانية لجسدي الكاربوني تم تغذيتها وكل شيء مثل الة مزيتة يسير من حسن إلى جيد. صلاح زنكنة كان لم يزل في المقهى وسلف الجميع نقودا على امل أن يستعيدها في يوم ما. لكن هذه كذبة، هو يعرف جيدا أن كل شيء مع الادباء يذهب هباء بما فيها اعمارنا الواهنة واللحم والعظام والمفاصل والأمعاء. كل شيء يتحول إلى ديدان طويلة برؤوس شيطانية. كل شيء حتى الفرج الذي يلهمنا التقوى والصلاة والمحنة والامل والتأمل والبلوى والمعرفة والأسرار والبلاء والقضاء والقدر.

ذهب صلاح زنكنة بصحبة مجموعة من الادباء للسكر والعربدة في نادي الاتحاد. بقيت وحيداً في ظلمة المقهى مع مزق اوراق معلقة على الحائط لفرق مسرحية. كنت اصاب بين كل ساعة وأخرى بكتلة من الوجع والاختناق والانثيال.

أنا مفصول من الجامعة، كنت اردد، فألتصق إلى الحائط واحاول أن ابكي كل الايام. جو المقهى المظلم والاضاءة الضعيفة وصوت الخشب المحترق والفحم والشاي الايل إلى السواد والمخطان على الحيطان. كل شيء يمنحك عزاءا امثل. عزاءا ومنحة من أجل البكاء. جو المقهى يضيف إلى سوادك الداخلي هاجس الخوف والتلاشي إلى الأبد. يمر على المقهى ويمد راسه إلى الداخل، بضعة من المناويك، ينظرون إلى اشخاص بلا ملامح. أنظر إلى سقف المقهى. اخر غروب هش للشمس يتجذر عميقا. سواد الفئران والتراكض الحر للذباب يتحلق في المكان. سقف المقهى عبارة عن سعف نخيل وخشب وقماش ثخين وظلمة قاتمة. اشاهد اشباحاً تتراقص وخوف جذري يحيطني من الاعلى إلى الاسفل.

جو المقهى في الصباح مشرق. تمنحك الواجهات الزجاجية له نوعاً من طقس التأمل. لكن كل شيء يتغير حينما تتحول الشمس إلى الخفقان ثم الرحيل. يمر من أمام المقهى جمال السوداني. اقفز وادعوه إلى الجلوس. يسأل أن كان المناويك هناك، أقول له اطمئن ولا منيوك. بحقيبته الجلدية التي تشبه حقيبة ختان الذكور ينزلق جمال إلى المقهى. دائماً يبتسم حتى وأن كانت الحرب تجري على الابواب وفي الشوارع والمزاغل والسطوح. كل العالم لا يشكل بالنسبة غائية واحدة. وحده يبتلع سم العالم ويقذف نحوه السونيتات والمدن الخربة، رعاف الدم

والمسيل الازرق للدهشة. قلت لجمال إني أشعر بالاختناق والموت. ابتسم ثم ضحك ضحكته المصطنعة والتي لا افهم منها شيئاً. طلب شايا واخرج لي قصائد أطفال. قال إن قراءاتها تبعد الكآبة والألم وتعيد إلى العالم بعضا من براءته.

اتشمم جمال مثل كلب سلوقي. رائحته تذكرني بموجات الجنون في اوربا وسفن الحمقى والمجانين. يده دائماً نظيفة على عكس يد جان دمو المليئة بالقذارة والمخطان وروائح الباقلاء والمزة والمني. نشرب الشاي وأفكر في استلاف بعض المال منه، إلا أن نظراته الذئبية تمنعني. يقول بعد تدخينه غليون قديم. انه يكره حسن عجمي. لا يريد الجلوس في مقهى الداعرات والقحاب والمناويك هذا ثم يطلب مني أن نترك المكان. نتوجه إلى الوزيرية.

في الطريق اشكو له محاولات البعض في منعي من النشر. وبابتسامة دائمة يقول انه يعرفهم واحدا واحدا. كلهم متسولون وعملاء للبوليس السري وكتبة تقارير. اخذ يعدد لي الاسماء. لم اصدق لكنه اقسم. ثم روى لي كيف تأمروا على إحدى قصائده وقالوا انها ضاعت ولم تنشر. وصلنا المقهى في الوزيرية. طلبنا مرة أخرى شايا واخذ جمال يتحدث عما يعانيه، هو أيضاً من المناويك ورؤساء الاقسام الادبية في الجرائد. بعصبية يتلو جمال مزاميره. يقول لماذا تسير مع نصيف وشوقي؟، انهم قذارة وسقط متاع. لقد لسعوه أكثر من مرة في مقهى حسن عجمي وتآمروا عليه. لا يستطيع أن ينسى كذلك محمد تركي النصار ولؤي حقي ومحمد اسماعيل وخضير ميري. يدخن جمال بشراهة حينما يتذكر هذه الاسماء. وادخن أنا أيضاً.

المقهى الذي نجلس فيه عبارة عن دهليز طويل ومظلم. بغداد

تكتسي في المساء مسحة من الحزن. قلت هذا لجمال وقال انه الموت. طعم الموت والاكتئاب. لذلك هو يفكر بالسفر، بالهجرة. لم يعد هناك أماكن نظيفة. مثل اتام بلعام يتحدث جمال عن الوجع المر الذي يتربصه ساعة يقولون له أن قصيدته ضاعت. هو يعرف انهم يكذبون. يكذبون من أجل أن يبقى في الدهليز وصوت الفئران والافاعي والخفافيش فوق رأسه. هم لايكتبون الشعر. يضيف جمال. الشعر عندهم عبارة عن غائط يريدون فقط التخلص منه وقبض المكأفأة.

اترك جمال وهو يدخن غليونه العاشربعصبية واقرر الذهاب إلى الاتحاد. لم ازل أشعر أني ارقص في الوقت الضائع قبل التحاقي إلى الجيش. قال لي جمال انه يجب أن تفكر بالسفر إلى الخارج. اخرج فقط وسترى أن العالم يفتح ذراعه لك. هو شخصيا يعمل الآن على ترجمة شهاداته وعندما يحين الوقت سوف يرفس الجميع بمن فيهم شوقي كريم. فكرت. شيء توقد فجأة في ذهني. السفر ومفارقة البيئة الموبؤة بالنكرات. إلى الأبد. هكذا يجب أن تتحرك. إلى الأبد أيها الوغد.

في الطريق إلى نادي اتحاد الكتاب مررت على المقبرة التي ترقد فيها امي.. مسدت القبر ووضعت ياسا وشمعة استلفتها من قبر مجاور. المقبرة والظلمة، وحشة ابدية. صمت عميق لا يبزه شئ. وضعت كفي على الشاهدة. جلست أمامها مباشرة حالما انها لم تمت لكنها اختارت أن تكون تحت التراب. الإنسان عبارة عن ذاكرة فقط وحينما يموت المرء تبقى ذكراه الحية مبثوثة في العقول. لم أجد وأنا أمام القبر كلمات أقولها لكن صدري منقبض. ثمة شيء داخله يموت كل لحظة. وجدت نفسي فجأة في عالم الوحدة التامة ووحدة الوجود والليل والرعشة التي تتسرب إلى جسمك كله بدءا بالرأس وانتهاءا باصابع القدم. كيف

يمكن لي أن اهاجر واترك انثيالاتي هنا. حتى لو حطمني المناويك في هذا العالم، سابقى مشدودا إلى القبر والذكرى والتراب والشموع.

خرجت من المقبرة ودخلت إحدى الكنائس. وجدت الراهب يقرأ في الاناجيل كلها إلا انجيلي أنا. اخذت شمعة من أحد الرفوف واوقدتها ثم وقفت أمام المذبح بجانب الراهب الذي لم يتحرك من جيفتي ونتانتي. كنت أعرف أن المسيح سوف يقبلني في عالمه الخاص، الملكوت استطيع دخوله دون اذن مسبق. لم تزول حالة الحزن التي أشعر بها رغم توسلي يسوع. الحزن عميق وغامر ومتلو ومفروض علي من السماء السابعة.

خرجت من الكنيسة وسرت في شوارع بغداد. مررت على أحياء المربعة حيث المصريون يلعبون الطاولة والورق والدمينو بلا حزن. في المربعة يمكنك أن تشاهد مصر بجلالة حبها وبهاءها. يمكن لك أن تضحك وأن تستمر بالضحك إلى ما لا نهاية. المصريون اناس ضد الحزن والألم. أما نحن فمخلوقون للنكد والاكتئاب والوجع والمرارة والالام. بعد تسكعي في المربعة وصلت إلى الاتحاد، تسللت بهدوء إلى النادي. كان صلاح زنكنة يجلس إلى طاولة ملتصقة بطاولات اخرى، حوله تجمعت شلة المناويك والصعاليك وكل من يريد أن يسكر ولا يدفع.

جلست أنا ضمن الطاولة بالقرب من حسن النواب. لم يزل وجه حسن ملطخا باثار جروح، يبدو أن لم يغتسل منذ ما يقارب العام. رائحته تشبه رائحة النساء في يوم زيارة الأمام الكاظم. محمد تركي النصار يجلس هو الاخر إلى طاولتنا الكبيرة. رائحته دائماً عبارة عن خيسة متنقلة وقصائد غير مكتملة ومشاريع للنميمة. نصيف

الناصري، البهلوان، فوق رؤوسنا ورائحته تشبه رائحة مدينة الثورة وحميرها. حسين الصعلوك، الزهرة التي جفت قبل اوانها ونشف ماؤها ونام عليها القراد. محمد اسماعيل، طويل جداً و يشبه رمحاً مكسوراً، تفوح منه روائح الروث البقري والقمل وكل الامراض المستعصية، التي تنفث بخاراً قاتلا، حتى شوقي كريم بملابسه الخرتيتية كان أشبه ببؤرة لرائحة كلاب تفوح وتضرب كل الدراويش في هذا العالم.

اغلقت انفي كي لا اشم روائح الموت والجيف المتنقلة. لكني اخذت اتشمم رائحتي التي تعفنت قبل اوانها بفعل الماخور الدنس الذي نجلس فيه. رعد بندر كان يجلس على طاولة رئاسية. كل القوادين والندلة يخدمونه بتلك الحفاوة المميتة والكريهة. حسن النواب بعد تناوله القنينة الاولى من البيرة، يزبد والرغاء يخرج من فمه. ثم ينهض ويقرأ سطوراً من قصيدة مدوية.

نصيف الناصري وبخبث مجنون يقول إن حسن افضل شاعر موجود في هذا الكون. كلمات نصيف اطربت حسن فنهض رعد بندر معترضا وقال إن حسن ليس إلا جيفة وقواد. حسن النواب ينفعل. يقف في زاوية من المسرح. الانارة ضعيفة، حسن يرتدي لباسا داخليا كان ابيض في يوم ما. لم يعلق حسن النواب على كلام رعد بندر. العاصفة في الافق. كنت اراقبها هلعا وأعرف أن شيئاً ما سوف يحدث. ينهض صلاح زنكنة ويطلب قنينة عرق لحسن. حسن يقرفص على الأرض ونصيف في وضع مأساوي ويقول إن الديناصورات سوف تموت بفعل حرارة كوكب الأرض أو عاصفة من السماء.

ننهض مشكلين حلقة من الرائحة الروثية ونحيط حسن النواب. شوقي يجرع اخر ما تبقى في قنينة البيرة ويجلس أمام حسن النواب ومثل

حالة مأتمية يبكي شوقي ثم يرتفع هسيسه إلى صراخ. يتدخل الندلة ويحاولون رفع شوقي من الأرض إلا انه ينام على حجر حسن النواب.

حسن مثل ام في مشهد سريالي. يبكي هو أيضاً ثم نجلس كلنا على الأرض ونمارس البكاء بقوة جهنمية وروعة. الاضواء خافتة والمسرح صغير. انحشر بين النظارة ورعد بندر. يطلب رعد قنينة بيرة مجانية لحسن النواب لكن حسن يرفض هذه المكرمة الرئاسية ويأخذ بالعربدة والصراخ قائلا أن امه تموت كلما ذهب إلى الجبهة. ينطلق الصراخ من المسرح. حسين الصعلوك يسحب نعاله ويريميه باتجاه الاضواء. يعم الظلام فجأة ونسمع صراخ وعربدة وتختلط الاصوات وكراسي تتطاير في الجو. النظارة يهربون وصوت سكاكين ترتفع في الظلمة ثم ضربات تنهال على رؤوسنا. ينهض صلاح زنكنة من وسط الفوضى ويسحب حسن النواب إلى الخارج مثل جريح في المعركة فيما نحن نحاول ايجاد الباب والهروب دون دفع الحساب.

بعد هذه الحادثة منعونا من دخول النادي وممارسة السكر. اخذنا نلتقي في مكان اخر. تحديدا في البار الذي يسكر فيه جان دمو. جان الجميل، اخر قديس في العالم. العالم الذي لا ينتهي من الحروب والموت. في بار جان. كنا نشرب بخفوت، نشرب حتى نعري انفسنا من السفلس. جان، يضحك على نفوسنا ويهدينا إلى الصراط المستقيم، مثل اله رحيم يحب مخلوقاته الباكية. محمد تركي النصار صار يختفي ولايظهر مع الجوقة الصعلوكية. سمعنا بعد ايام من حادثة رمي الكراسي في نادي الاتحاد أن محمد اسماعيل يتزلف رعد بندر من أجل السماح له بدخول النادي من جديد والسكر على حساب الاخرين. جان المقدس لا يعلق على هذه الأخبار، إنما يحلق بعيداً في زواياه الشمسية ويقرأ انظمة

الابراج الموسقة لحياتنا القادمة.

في الاوقات التي لا اتواجد فيها مع جان دمو، أكون مع جمال السوداني. اخذت تتشكل بيني وبين جمال خيوط وهمية من الحب واللااكتراث بهذا العالم. ثمة حقد مقدس كان يجوس في الادغال بعيداً عن عيون الاخرين السحرية والتي تكتب التقارير وترفعها إلى القيادات الثقافية. كنت أموت غالباً من الجوع وغالباً ما كان جمال يمنحني بعض الوجبات المجانية.

كان صديقنا المصري صاحب مطعم الحاج زبالة يعد لنا دائماً صحن فول مميز. وكنت ارتعد كلما اكلنا في مطعمه، ليس خوفا من الفئران والجرذان التي كانت تدور في المطعم. إنما من فلسفة الفول والفلافل التي اعتبرها مقياسا لبؤس الوطن. كلما ازدادت مطاعم الفول والفلافل يعني اننا ننحدر إلى الدرك الاسفل والاقتصاد ينهار.

تمر ونحن في المطعم امرأة شبقة، من خلال العباءة السوداء يبرز جسدها الذي يهزني ويرتعش. اترك جمال البارد الذي لا تثيره اية امرأة والحق المرأة. تصعد هي باصا وأنا أيضاً، ثم اجلس أمامها. أحاول مع الضوء الاصفر النازف من مصابيح الباص الاستدلال اللامنطقي عن جسدها. كبر النهدين، محيط الخصر، كمية اللحم. امد ساقي والامس حذائها. ملمس الحذاء الجلدي يبث في نوعاً من الاضطراب. تنهض المرأة بعد نصف ساعة وتغيب في الظلام. أصل البيت وبسرعة اذهب إلى المرحاض واستمني هناك.

الاسترخاء بعد ممارسة الاستمناء هو اجمل الأشياء في حياتي. اذهب إلى المطبخ وتعد لي جدتي بعض الرز الاحمر. اتناول وجبتي بنهم

واحاول الخلود إلى النوم. بعد مسيرة اعوام من الخيال والخيال المضاد، اعيد قراءة كتاب الفصل من الجامعة. جدتي تنام معي في المطبخ. أنظر إلى وجهها الباهت واليائس. اليأس يضرب وجوهنا كلها. لم أحاول تجاذب الحديث معها. كانت تحاول أن تغفو. ثم فجأة تلتهمني افكار الموت وأشعر بنفاد الطاقة من جسدي وكأنما هناك ثقب كبير.

اضع البطانية على وجهي واتنفس داخل الوكر فيها رائحة القلي معلقة بالبطانية والفراش. في لحظة الخوف المفاجئ والحزن والروئ الخيالية شعرت أني عبارة عن صرصار مسكين ايل إلى الانحطاط. حاولت وأنا تحت البطانية أن اشهق بصوت مكتوم. بكيت لعشرة دقائق ثم أحسست أن العالم اشد استرخاءا.

في صباح اليوم التالي ازدادت حالتي سوءا. كنت أريد أن اكتب، لكن شعوراً بالموت كان يخنقني. لم أعرف لماذا يهاجمني الحزن بهذه الكثافة. اردت أن اتذكر ماحلمت به الليلة الماضية لكني وجدت ذهني مضطرباً بصور بساطيل عسكرية وجنود بلا وجوه. كنت مفلسا وأشعر بخجل كبيرمن أن أطلب من جدتي بضعة دراهم. لكن الدراهم ضرورية لي. حتى الآن لم تعرف جدتي بأمر الفصل. وجدت انه ليس من الضروري أن اجعلها تحزن مرة اخرى. قلت انها سوف تفاجأ حين تشاهدني اقرعا ومرتديا الملابس العسكرية. خرجت من البيت دون افطار ولمحت في اللحظات الاخيرة وجه جدتي اليائس.

قررت بعد مسير عشوائي التوجه إلى مقهى البرلمان وأنا في حالة خوف من شيء مجهول وحزن عميق. مذاق الشاي والهدوء والوحدة كان رائعا، شعرت بتحسن حالة الحزن. اخذت قبل الشروع في الكتابة قراءة كتاب الجنون في العصر الكلاسيكي.

حالة القراءة والاسترخاء منحتني بعض العزاء عن التفكير في المرحلة القادمة من حياتي. كنت أتخيل الجيش كما لوانه عبارة عن ماكنة ضخمة سوف تدعسني وتعتصرني ومن ثم تشرب اخر قطرات دمي. الدخول في مرحلة جديدة من الكره والضياع يخيفني. كنت أشعر أني سوف اسقط إلى هوة عميقة بلا قرار. تركت الكتاب جانباً واخذت أتأمل الزمن الذي مضى. الازمنة السرية وشعرت بالعار من وجودي في الجامعة وأنا الهب الطلاب بسوط الحزب والجيش الشعبي. قررت الكتابة وفعلت، اخذت الافكار تتوارد إلى ذهني. بعد الانتهاء من الكتابة اعدت قراءة النص من جديد. أحسست أني القيت كل همومي والامي.

الكتابة كانت شيئاً سحريا يمنحني الامل في الحياة. حملت اوراقي وذهبت إلى جريدة الجمهورية. واجهني هناك (خ) وعرض علي التوسط بيني وبين إحدى موظفات الاستعلامات للنوم معها مقابل مبلغ مالي يكفي لشراء كيلو لحم. قلت له أني مفلس تماما، لكنه لم يكتف واخذ يلح في طلبه ويقول لي، صدقني انها حامية جدا. حسنا قلت لكني لا امتلك مكانا. بسرعة اجاب، لا تهتم ستتولى هي توفير المكان، في بيتها. كررت قولي له أني حقيقة مفلس ويجب أن يصدقني. قال إن بامكانه أن يسلفني نقودا اذا اردت. ادفع (بعدين) ليست هناك مشكلة. المرأة جميلة وسحبني من يدي، نزلنا السلالم وهو يثرثر حول قدراتها الجنسية. ستفعل كل ما تريد. بصعوبة استطعت التخلص منه. مررت على الاستعلامات اثناء الخروج وبحثت بنظري عن المرأة، وجدت إحداهن وهي في حالة تتنيح ومؤخرتها الرشيقة تتلوى وهي تعبث بجهاز الفاكس.

بعد خروجي من الجريدة لحقني (خ) وطلب مني أن ادفع ثمن وجبة غذائه – على الاقل –. سرنا سوية وساومني على نشر القصة، وحينما وصلنا المطعم، تركته واقفا في الباب وهو في حالة انبهار وأنا اركض بسرعة جهنمية. البرد لم يزل قارصا. لاسعا، مكهرباً ويبث في الروح قشعريرة قوية تجعل الاقدام ترتعش وتتقلص. سرت قريباً من باب المعظم. كل اصابعي كانت زرقاء من البرد. أحسست بعضوي باردا أيضاً ويريد التبول على اي شئ. دخلت شارعا فرعيا وتبولت راشا الجدران بحلقات دائرية من البول المتبخر. أحسست براحة واخذت أسير بهدوء عميق.

قررت الذهاب إلى حسن عجمي علي اشاهد محمد تركي النصار وأطلب منه أن ينشر قصتي القصيرة في جريدة الثورة. في الطريق لمحت شوقي كريم وهو يثرثر مع طفل صغير من ابناء محلة الحيدرخانة. شعرت فجأة أني يجب أن اتبع شوقي لاشاهد النهاية. سرت خلف شوقي دون أن يلاحظني. اثناء دخول شوقي إلى بيت خرب في الحيدرخانة لمحني ضياء سالم واخذ يلوح لي بأن هناك مفاجئة جميلة تنتظرنا. منذ زمن طويل لم اسمع بأية مفاجئة سعيدة.. اقترب ضياء وقال بسرعة أنه علي أن اجهز مجموعة قصصية بسرعة لأن هناك امكانية لأن تطبع وتنشر. مستحيل. قلت، لا بد انك تحلم. عزيزي ضياء ارجوك كن عاقلا ولو لمرة واحدة. لا تصدقني، صحيح. قال ضياء بانفعال. عليك أن تسأل فاضل الخياط. هو لا يكذب مثلما تعرف. ارجوك. قلت. هز ضياء رأسه اسفا. أنا أقول الحقيقة دائماً لكنك لا تصدقني. الخياط اتصل بخالد المعالي وهو الآن يحضر مجموعته لإرسالها. فلتذهب الديناصورات إلى الجحيم. اخذني ضياء من يدي وقال، فاضل الخياط في المقهى الآن فلنذهب بسرعة.

تركت المنزل الذي دخل اليه شوقي مع الطفل وعبرنا الازقة الضيقة للحيدرخانة، من هناك وصلنا إلى المقهى. وجدنا الخياط جالسا مع حسين الصعلوك. منظر حسين جعل نفسي تنقبض. قلت لضياء إن وجود حسين لا يبشر بخير. استغرب ضياء كلامي ثم جلسنا قرب فاضل. بدأ ضياء بالكلام مع الخياط مستفسراً عن الامر بشكل اوثق. قال فاضل إنه صحيح ما سمعته، وعلينا أن نحضر مجاميعنا الشعرية والقصصية ونرسلها إلى عنوان خالد المعالي في المانيا.

اخيراً سوف نستطيع النشر ونتخلص من القوادين في دائرة الشوؤن الثقافية وروايات جاسم الرصيف التي تفوز كل عام بجائزة الدولة. سنفوز بالجوائز من كل مكان. اكد فاضل أن علينا أن نستعجل ثم مد يده إلى جيبه واخرج ورقة عليها عنوان خالد. سجلنا العنوان فيما حسين الصعلوك ينظر إلى وجوهنا بنظرات تشبه نظرات يهوذا الاسخريوطي. بعد أن اخذت العنوان جلست بعيداً عن فاضل وحسين وضياء. كنت أفكر بقلق واضح في أمر المجموعة القصصية - لايمكن أن يكون هذا إلا حلما - اعصابي مشدودة تماما وارتعش داخليا. قبل أن يخرج ضياء اقترب مني وقال احرص أن لا يصل الامر إلى الديناصورات في الاتحاد. بارتباك قلت لماذا؟. وقف ضياء ينظر إلى وجهي بحيرة. هل الامر سري إلى هذا الحد. قلت. لا ليس سريا، قال لكنه ليس علنيا أيضاً، اذا ما وصل الخبر إلى المناويك في الاتحاد أو الوزارة أو دائرة الشؤون الثقافية سيخربون المشروع.

بعد هذه الكلمات غادر ضياء المقهى وهو في حالة ارتباك وتبعثر. أنا أيضاً اخذت أشعر بخوف وقلق. اردت أن أعرف حجم الدعوة إلى النشر ومدى انتشارها ثم جديتها. لايمكن أن يكون الامر بهذه

السهولة. هناك شيء دفين، شيء غريب وملتو. الالتواء هو الشئ الاكثر اثارة ورعونة، أكثر رعونة من شوقي كريم وحسن النواب المدمى دائماً والهارب الابدي من جبهات القتال.

اجهز المسودات واختلس الزمن والزمن ينزاح عن الوجع. اجلس في المطبخ المضاد للرصاص اربعة ليال متصلة واحرر كل شئ، الاوراق والحيطان والطارمة والمدفئة وعيون جدتي المسكينة التي تتصور انني حينما اخرج فإني اذهب إلى الجامعة ولم تنتبه إلى أني كنت تائها وضائعا واتغيب عن البيت غالباً وادور في الشوارع مثل طفل صغير اضاع بوصلة الايام.

أنظر إلى المخطوطة بعين الخوف والقلق والارتعاب. انها لذة النشر والانزياح الكوني لهموم، أنت تطلقها مثل الرصاص على الاخرين والاخرون اموات. الموت ينتشر مثل السرطان، مثل الاميبيا. المخطوطة أمامي. ها هي تتكلم بكلام الافواه الاخرى. اتذكر وأنا اعيد الكتابة، ابطالي المساكين. ابطالي المولعون بالموت والجبن والارتخاء والهروب من جبهات القتال لاننا مللنا من الموت دون طائل. دون مواساة، دون اطلاق رصاص فوق رؤوسنا. نحن اموات ونسكن في تابوت خشبي مستلف من جامع الشواف. ليس لنا حتى التابوت. حتى الجدث ولان الأرض لم تعد تكفينا. فكنا ندفن فوق الاموات. فوق القبور القديمة وتتضح المأساة ويضيع منكر ونكير وتبدأ كوميديا الهية. أين الموتى يا ابناء القحبة. الموتى هنا وهناك، مبثوثون في الارجاء والاصقاع. فوق كل أرض العراق المقدس. لأن الموتى لا يعرفون طعم التفاح ولا طعم القداح ولا طعم الغرغرينيا. ثم نموت موتات أخرى ونشعل الفوانيس ويتقدم شوقي كريم يحمل بين ذراعيه اخر نتاجه

الفكري. ملحمة ارخبيلية عن الموت والتصحر الروحي والانوف المجدوعة والقحاب وعالم خضير ميري الملوث بالفلسفة والابهة المقدسة والضائعة في فندق المنصور ميليا حيث يسكر عبد الستار ناصر مع ابطاله كل يوم. أحمل المجموعة القصصية وأسير في الحيدرخانة. أسير بين لافتات الشهداء.

بالامس حدث هجوم على الفكة وعلى بحيرة الاسماك وعلى كل أرض العراق العظيم. شهداء بالالاف ، شهداء بالملايين، شهداء بلا اكتراث. يا له من موت مجاني. يا له من وطن غريب ووطن رهيب يبتلع الملايين في كل حقبة زمنية. الحيدرخانة التي أحببتها كثيراً كانت تموت وترتفع اللافتات. لافتات كبيرة وسوداء. هذا كل ما نحصل عليه ونحن نشاهد زوجات الشهداء وهن يمارسن العادة السرية في الحمام وفي الأماكن المغلقة.

الهجوم على الفكة تزامن مع الانتهاء من تنقيحي المسودة. الخوف جذري وعميق ورجال السلك الأمني والمخابرات في الشوارع. أحمل مخطوطتي وأسير. شهداء في كل مكان. لم تعد لدينا حيطان تكفي النعي واللافتات. أتأمل الموتى والشهداء والصرعى والمخبولين والممسوسين والمعوقين. أتأمل العالم الكامل الدسم الذي ينزاح عن شمس باهتة ومجروحة. شمس مخدوشة بنعم سيدي، حاضر سيدي. سوف تنتقل بعد قليل إلى عالم الخرائب والموت. ستعلق مثل هؤلاء الشهداء المناويك الذي قتلوا من أجل شهوة رعناء. شهوة إنسان خرف.

مخطوطتي في يدي وأنا أسير في طرقات الحيدرخانة وزواياها وآلامها وشهدائها. شهداء منحونا فرصة أخرى للحياة. فرصة من أجل الموت براحة وعلى اسرتنا بهدوء يشبه هدوء الموت ساعة الحقيقة الكلية

والنظرية الاجتماعية والنقدية الحديثة. أصل إلى مكتب البريد وأطلب من الموظفة إرسال هذه الرسالة الكبيرة. الكبيرة بكل شيء. بالأوجاع والآلام والموت والجذرية والانحطاط والتبعثر والغثيان. نعم الغثيان المنبلج من غيمة عابرة ومشحونة بالدزنتري وامراض المفأصل والعظام. يا له من حزن شفيف، كنت أقول. يا له من ايداع للأمعاء في حقل محروث حديثاً وانت تسير متعثراً بحذائك العسكري السميك والثقيل.

وتنظر موظفة الاستعلامات إلى وجهي نظرتها إلى حيوان قديم، متكلس، بائس، مريض باللوعة، أقول أيها الحب المتطاير إلى المانيا حيث خالد المعالي سيمسح الدموع والآلام والامراض. خالد اليسوعي، الناصري، عيسى الزمن الحديث الذي يقول للأشياء اهربي إلى الجحيم وتتداعى السقوف والحيطان. حتى محمد الاحمد لا يعرف مصير الحيوانات النافقة مثلي ولا صلاح زنكنة. صلاح حينما يدس في يدي مبلغ البريد، يقول ، فقط ارسل كتابك أيها المجنون، إلى نهاية العالم. كم تمنيت لو أني اتضاءل وأصبح عبارة عن حشرة. ذبابة، بؤس شفيف ومتراص ومتولد من الأمعاء الغليظة.

سوف أسافر إلى المانيا حيث خالد يكسر البندق بلعبة جندي الماني وينثر الزهور العشرية والدفلة والشبو ليلي والقرنفل على طرقات العالم. نظرة موظفة الاستعلامات كانت هزيلة وصارمة. قالت ما هذا. تلعثمت، اضطربت، ناورت لكنها أصرت على معرفة المحتوى وفي النهاية قلت لها انه مشروع كتاب. كتاب في طور التكوين. وتدفع الظرف إلى يدي وتقول تحتاج إلى موافقة دائرة الرقابة في وزراة الثقافة. ماذا؟ قالت الموظفة بعصبية واضحة وكأنما تريد أن تهاجمني.

أنا لست الخائن الوحيد على الأرض. لست خائناً أيها المناويك.

واذهب بالحزن المتولد داخلي إلى حسن عجمي. اجلس هناك وحيداً، مثل شجرة قديمة. مثل نخلة متوحدة. قامتي المديدة تتضائل، تتقصف، تضمحل واذوب مثل بولة في شط الوقت والزمن والخراب. لن يمنحوني فرصة اذن. قلت. سوف يرفضون. يا للحصار الوحشي. القبضة البوليسية الشنيعة.

ويجيئ فاضل الخياط مرتعباً ومتوتراً كعادته، ويجلس أمامي مثل تمثال شمع، باهت وخفي. اصابعه طويلة واثار نهشها واضحة. يقول ماذا فعلت بحق الجحيم؟. واستغرب سؤاله وأقول لا شئ. لقد اعتقلوا فيصل عبد الحسن، يتمتم ، انهم يبحثون عنا. توارى عن المكان. اهرب في غيمة عابرة وتسلل إلى الأحلام واخرج من الأرض إلى المسيل الدموي للشرطة السرية. وننهض.مسرعين. أتيه في الشوارع. أتيه في كل مكان. كنت أشبه بجرذ كبير ضائع وسط مجموعة المجارير ولا يعرف أين يتجه، إلى عالم البشر أو إلى عالم الخنق والظلمة. أين يمكن أن اهرب وكل الأماكن مليئة بالشرطة السرية.

عندما توجهت إلى البيت، إلى كوخنا الصغير وجدت أحد الأصدقاء في الطريق وقال لي، لا تذهب إلى بيتكم. وأقول له بشحوب الموت لماذا؟. اللعنة عليك يقول، الشرطة السرية كانت في بيتكم وضربوا جدتك على وجهها. واحترق، والعن خرائي وبنطلوني يتسرب مني إلى الأرض. أشعر أني أتبول لا إرادياً. مزيج من السواد أمامي. كل شيء باهت ومضطرب وأشعر بالذعر. وأعود مرة أخرى إلى حسن عجمي وأشاهد شوقي كريم الذي لمحني من بعيد. وجوه الصعاليك في المقهى تنظر بريبة إلى وجهي فأفر خارجاً وملتاعاً.

ادخل مكتبة حسين الفلفلي واقلب الكتب، لكني لا أقرأ. فيصل

عبد الحسن يجري معه التحقيق الآن، حتما. كيف استطاعوا أن يلقوا القبض عليه؟. من وشى بنا إلى السلطات؟. ثم لماذا أصلا أمر الاعتقال؟. كيف سأدبر اموري؟. بغداد بملايين الطرقات والدرابين والازقة الموحشة ضيقة، ضيقة للغاية وتعتصرني. محمد حسين الفلفلي، الضابط السابق في الشرطة والمتقاعد الآن. ينظر إلى وجهي ويستقرأ الأفكار. يقترب مني وأشعر أني أداس بآلاف الأحذية. يقول الفلفلي. أنت هارب. وافزع واقسم له أن لا. يقول لا تخف. ويدخلني إلى غرفة داخلية ضيقة.

****

من الغرفة الجانبية كنت اسمع محمد حسين الفلفلي وهو يتعامل مع الزبائن. جلست فوق المتنبي واردشير والملك لير ومرة واحدة والى الأبد. جلست على أحزان الرجال والف ليلة وليلة وزرادشت والحب في زمن الكوليرا. فكرت في الموت المتراقص على الجنبات مع (غرف نصف مضاءة) لموسى كريدي و (مكابدات عبد الله العاشق) زرت الزمن في رحلات الخيال وتمردت على قصائد السياب والبريكان ثم تحولت إلى مدن محمد خضير وجليل القيسي وشارع الاميرات وصيادون في شارع ضيق وغالب هلسا في ترجمته العظيمة لسالنجر. محوت الورق والخشخاش.

كل الأحلام كانت تنهار. تنهار إلى الجحيم والوردة الوحيدة في هذا العالم المضطرب والمليء بالحرب تنام إلى الأبد في عش الغربان. كنت اكرهها واستعيذ منها وجلا وخفة. كنت اتناغم مع عبد الستار ناصر

ولطفية الدليمي وكل العظماء في هذا العالم المليء بالخطايا. خطايا الموت على الجبهة. خطايا التجمهر في ساحة العلاوي والنهضة والطيران وساحة سعد. مرهون ومكبل إلى الوراء. أريد أن أكون بدويا من جديد واغرب مرتحلا عن هذه الفجيعة. كنت أتساءل لماذا كنت كاتباً ولماذا اردت أصلا أن أكون كاتباً متبوعا بالملاعين والسوقة والعربنجية والشحاذين. عالم من التويتاء وماء اسن يجري في مجاري الشوارع الخلفية للشواكة حيث الزمن غائب ومغلف بالعمارات الدموية. اردت أن التمس الحب عند خضر الياس ومحي الدين زنكنة وصباح الانباري واحمد خلف ولكن ليس أمام لؤي حقي ولا أمام عربنجية اخرين تطفلوا على الادب من كل الابواب.

اردت أن اخرج مؤخرتي واتبرز مثل الكلاب أمام وجوههم الملعونة، وجوههم المائلة إلى الحمرة بسبب الخمرة والعرق والبيرة والويسكي. الويسكي العزيز الذي لم اتذوقه منذ مايقارب المائة عام وأنا اجول في ابدية الشوارع والريح والعاصفة والزمن الخرف. ليس أمامك إلا الموت على قارعة الرصيف، مثل كلب سخيف. مثل دعلج مستفز مثل طائر يرتدي الجوارب ويطير في زمن خال من الموت والرحمة. اردت أن ابكي بقوة الالهة التي منحتني مكانا اختفي فيه لكني كنت اشك في مقدرتي الدونية على البكاء.

كلهم كانوا اولاد قحبة ومناويك بدءا من رعد بندر الجميل وانتهاءا بلؤي والشلة المحيطة به. كانوا يصرخون دائماً، يحيى الحزب ونموت من أجل وصايا القائد ولكن في داخل نفوسهم يعيش الخوف منها. كلهم كانوا جبناء لانهم ليسوا مثل شوقي كريم ولا صلاح زنكنة وليسوا أيضاً مثل نصيف الناصري الجميل، الذي يشبه برغوثا طائراً

يحط على انفاس الاخرين من أجل قنينة بيرة وزرازير مشوية في مقصف الاتحاد.

أعرف تماما ما يؤلمكم أيها المناويك. أعرف الزمن وخلاصته البائسة وانتم تأكلون اللحم كل يوم، بل كل ساعة فيما أنا أموت من الجوع واذا ما وجدت شيئاً اكله فهو مثل ما يأكله علي السوداني، ودائما الفلافل المهيجة للضراط. كنت اضرط دائماً ولم يكن محمد الاحمد يسمعني. الاحياء لا يسمعون الاموات والاموات لا يسمعون المناويك وكلنا لم نكن نسمع كلنا في موجة عاتية من الخراب المتناثر. ويجئ محمد حسين الفلفلي ويقول لي هل أنت جائع. واشكره. أجل اشكره لاني كنت شبحاً وظلا شفافا مرمي على قارعة الطريق البائس. اللعنة التي اصابتني هي لعنة الكتابة. فكرت مررا بلماذا اختارني القدر لأكون هذا النهلستي المشبع براحة الخراء والضراط والجوع.

جاسم الرصيف يقول لقد قرضتنا مهنة الادب. أجل نحن عبارة عن أشياء زائدة في هذا الزمن. نكتب ونكتب وليس هناك من يرفع القلم ويقول هؤلاء المناويك يكتبون، فلننشر لهم. وحين يصدر القرار الرئاسي بالسماح لنا بالنشر يخرج ابناء القحبة ويقولون للحزب. ماذا تفعلون، انهم خونة. أنا وعلي السوداني وحسين الصعلوك ومحمد الاحمد ومصعب وكريم حسن علو ونصيف الناصري وشوقي كريم وجمال السوداني. كلنا خونة وسقط متاع ليس لنا إلا الله. لكن الله لا يعيرنا اهتمامه القليل.

شاركنا أنا وعلي السوداني في ملتقى القصة القصيرة. في عشية امسية مصنوعة من الهباء، جعنا، نثرنا ملابسنا فوق اسيجة العالم واختلسنا ربع دينارمن ميزانية الملتقى، اكلنا بيضتين وقليل من الدهن.

كنت اتوقف خارج الزمن في ذلك المهرجان.. بعد قراءات لقصص ميتة ولها رائحة الحرب. خرجنا من القاعة. كان المناويك يسكرون فيما نحن نتضور من الجوع. لامطعم لفلافل قريب ولا امسية حزينة يمكن لها أن تسعف الجوعى. كنا أشبه بمقتربات جسر الاعظمية. باهتة ملابسنا وصوتنا مشحون بالجوع. اقترح علي علي أن نسرق خزينة الحفلة الراقصة. لكن الخزينة فارغة. افرغها رعد بندر ولؤي حقي وخالد مطلك.

ونمنا ليلتنا فوق اسمال العالم. كل واحد منا كانت تكفيه بيضة وقطعة صغيرة من الصمون أو الخبز. الجوع كافر ورهيب. ينام لؤي حقي مع الاف الدنانير الذهبية وننام نحن على طواويس الحلاج. الحلاج هو الوحيد الذي يحمله علي السوداني ويدور به في العالم. يدور في مقهى البرلمان وحسن عجمي و البرازيلي، يغرق في متاهات الموت المزروع على جنبات العالم، حيث لا امراة يمارس معها الجنس أو بقرة يمكن أن تشفي الولد الجميل، الولد الذي ناكته حروب العالم مجتمعة فوق تلال بغداد الجديدة. كان زمن توراتي نجس.

بعد ساعات من جلوسي اختنقت بعبد الستار ناصر فقررت أن اترك الغرفة. محمد الفلفلي قال، العالم يموج على بحار الابتلاءات وانت ولد صغير لم تعجنه الحروب. ابق هنا واترك السماء تدير شؤونها بنفسها. شعرت بالخجل من أن اثقل على الفلفلي اكثر، فقررت الخروج. حينما تركت الغرفة. وجدت نفسي فجأة في عالم اخر. عالم ملئ بالضجيج والحركة. وضع محمد في يدي ربع دينار اكلت فيه كبة السراي المفعوصة. التهمت الكبة مثل مشوه حرب ينهمر على انثى.

بعد أن شبعت درت في الشوارع تائها. كان المطر ينهمر من شفافية

الغيم. مطر غبي تنبعث بسببه رائحة الشوارع. كنت أسير ضارباً الأرض بحذائي القديم وصوت الحذاء يبتلع من قبل الاسفلت. سرت في شارع المتنبي، بين صفوف الكتب. الوهم كان يطاردني. رأيت الشرطة العسكرية (الانضباط) في نهاية الشارع. تقلصت واردت أن اتقيأ الطعام. كل شيء ممكن له أن يحدث لكن أن اتقيأ الطعام فهذا ما يجب أن لايكون. المطر النازل على الأرض منحني سورة من الوجع. الوجع من اثر الاحساس بالظلم والتيه. كنت تائها. دخلت مكتبة المثني وسرقت كتاباً لا على التعيين. بعد ذلك ذهبت إلى مقهى حسن عجمي وبعت الكتاب لجمال السوداني ثم شربت شايا مطعما بالبرودة. الشاي الساخن منحني بعضا من الاستقرار النفسي بالرغم من الخوف المتجذر. قال لي جمال لا تبقى في المقهى. اخرج بسرعة لأن المناويك سوف يبلغون الشرطة السرية. خرجت بسرعة وشعرت مرة أخرى بالتيه. لم أكن أعرف إلى اي مكان يمكنني التوجه، ليس هناك مكان أصلا.

درت في شارع المتنبي مرة ثانية وثالثة ثم ذهبت من هناك إلى جامع الوزير. دخلت الجامع القديم. تنسمت الخراء والتاريخ ممزوجا. الاخيلة المهيجة للذاكرة كانت تعمل بطاقتها القصوى. قرأت على حجر البوابة تاريخ الجامع. ازرب على التاريخ القديم كله والتاريخ المعاصر أيضاً. دخلت المرحاض ثم توضأت لاول مرة في حياتي. اردت النوم في المكان، ووجدت أن التاريخ كان يلحسني مثلما يلحس الكلب مؤخرته. لكن لا مؤخرة لدي. نمت في الجامع اثناء الصلاة واثناء الصلاة حلمت بتاريخ المكان. حلمت بالدراويش والمتصوفة والمجذوبين والمجانين وكل تاريخ بغداد من الزمن الماضي وحتى الزمن الحاضر. وفي التاريخ الملعون هذا وجدت انه كان تاريخا محاطا بالعار. محاطا بالموت. كل تاريخ

بغداد كان حروباً وموتا ودكتاتورية وارهاب وقتل وسحل في الشوارع. المقصلة كانت لا تكفي، لا تشبع، انجح عمل يمكن للمرء ممارسته هو أن يكون لصا وقاتلا، جزاراً وبهيميا.

شاهدت النساء وهن يمتن من الرغبة والاولاد في الشوارع والموت فظيعا. قلت في نفسي لماذا كتب الله علينا هذا القدر. لماذا ننام ونصحو مع الموت والسحل والتعذيب والغرف والممرات السرية تحت الأرض. لماذا كتب في لوح القدر أن نجلس على القناني ونصرخ متوسلين القائد وعدي وقصي وننسى الله ، يا للكارثة. تاريخ مؤسس على الغدر دائماً ودائما كان أهل بغداد يدفعون الثمن، منذ أن مارست الخليقة فعلها التكويني الاول. السقطي البغدادي والشيخ معروف والشيخ التستري والحلاج وعدي بن مسافر ووزير الدولة البويهي والاتراك والعجم والايرانيين. كلهم ابناء قحبة، كانوا يريدون افتضاض بغداد وبغداد كانت ولم تزل اجمل النساء في العالم برغم القبح والموت والحروب و فتنة العجم.

شاهدت وفيما أنا اغرق حتى الثمالة في اليوتيبيا، أحلامي وكأنما كنت أموت ميتات متوالية والتاريخ يقرصني. كنا نموت وهاهو الموت الجديد قادم.

شاهدت وأنا مستلق في منائر الجامع والقبة المرمرية المزينة باشعاعات الشمس المنيفة والبرد ورطوبة دجلة وهو يجري من تحت الجامع، أن الموت هو الشئ الوحيد في هذا العالم القصديري الذي يمر في بغداد دائماً وأطفال هذه المدينة يمحوهم الوجل وتتلاقفهم الكآبة. لكن بغداد تنمو في كل مرة. تنمو من الموت والامال والمرض والشوك والجدري والفيضان والدزنتري وعلي حسن المجيد ووطبان وبرزان ومشعان وزربان.

كم من مصيبة حلت على أهل بغداد، رغم هذا يخرج الصياد إلى دجلة كل يوم ويعود بسمكة كبيرة وتحتفل كل يوم بغداد بنهرها وموتها وحياتها. حتى النهر في بغداد وكما حلمت به. كان يروي لي قصصه المدوية. قصصه الخالية من التأسيس على الحاضر، ويغرق في الماضي وكأنما يقول لا تهتموا يا ابناء الكلب فأنا النهر، امسح الآلام والوجع وامسح الاكتئاب وافيض على العالم بنور التصوف والتوحد. دجلة ليس مكانا ولا نهراً، إنما حكاية طويلة تمتد من الأعالي وتسير إلى الجنوب وكل يوم يمر يمسح النهر وجناتنا ودموعنا وياسنا من أجل حياة جديدة. هكذا تتجدد بغداد وتتجدد العمائر ويذهب القوادون إلى النار وتستمر نساء بغداد في اضاءة شموع خضر الياس وتدور النذور على قبور الاولياء والصالحين. كل شيء عندنا مقدس. الخراء والمتصوفة واي شيء تجده في الشوارع يحمل تاريخ المدينة منذ ما قبل هارون الرشيد وحتى اليوم مروراً بالموت والقتل وهولاكو ونكبة البرامكة في تاريخهم الطويل للسيطرة على بغداد.

بغداد هي كائن حيوي. ليست مدينة من الطابوق والحجر واليوكالبتوس. بغداد ليست عبارة عن مدينة تائهة في تاريخ البلاد للبلاذري، وابن ماجه والحلاج. تاريخ الحلاج ليس تاريخا صرفا لدرويش ومتصوف من الزمن الغابر. من زمن الافتراضات الاولية للموت. تاريخ بغداد دائماً معمدا بالدم والموت والقتل. لكن هذا الموت دائماً ما يحمل القتيل إلى الصعود إلى مراتب الالهة والاولياء. هكذا صعد ذو الكفل اليهودي وخضر الياس والحلاج وصدام وعبد الكريم قاسم والعائلة الهاشمية. كل من اراد ببغداد سوءا كان ينزل من مرتبة القداسة إلى درجة القوادين والسماسرة والمنحطين. هكذا كان رئيس العجم

وهذا ما كان مع تيمورلنك وهولاكو. أين السر في كره بغداد وحبها. لم أعرف أين السر لكن ملامح الاحداث تشي بالشيء الكبير والكثير.

غرقت في التهويمات وأنا ممدد على سجادة الجامع. وبعد انتهاء الصلاة جاءني الخادم وكان يتصور أني ربما واحدا من اتباع الطريقة النقشبندية حيث يجتمعون هنا كل شهر. لذلك فإنه لم يمد يده إلى مؤخرتي ويقرع ناقوس الصلاة. نمت غارقا في الابتلاءات. لكن الأحلام كانت تمر سريعة.. استيقظت في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، على موسيقى الاذان السحري. الاذان الذي تنصت له ليس كما في الامكنة الاخرى. اذانا عميقا وجذريا ويبث في الروح تناغمات التوازن المتوجعة. قلت في نفسي هاهو الاذان ومن بعده الصلاة وجلست في نهاية الصالة. دخلت مجموعة من الدراويش المهلهلة الثياب وجثوا أمام المذبح. أمام الله مباشرة. وتأملت المؤخرات المرتفعة، تأملت النهوض والركوع والدموع السائحة على اللحى المخضبة بنبات الأرض. ثم انتهت الصلاة وبقي الدراويش هائمين في الله.

كنت أريد أن ادخل إلى حلقتهم وهم يرددون الايات والتراتيل، اردت اقتحام الاوراد. و أن أقول لهم ها أنا المشرد والضائع والتائه في حلقة زمنية مصنوعة من شعر الكلاب. توجهت اليهم، منهم، عليهم، فيهم، نحوت إلى الداخل وفي داخل الحلقة شاهدت الانوار. شاهدت الله وهو يمسد شعور حيواناته الاليفة والناعمة. المخلوقات الغارقة في انين وبكاء قديم ليست له بداية ونهاية. كان الله مضيء ويكاد النور يتسع للعالم.

خرجت واستقبلني خادم الجامع الاعرج ودعاني إلى الطعام. كان يحسبني تائها وخارجا من حلقة الله ثم اخذ يتوسل النور المتقد في وجهي

أن امنحه البركة، ومنحته من وجعي الكثير ومن الائي اقواس خرافية وشموعا وبخوراً هنديا لمدائن البحر اللجلاج. جزر عامة في الغمر العظيم والنور يدفعها إلى الأمام. خرجت من الجامع وأنا أشعر أني دخلت عالما غريباً. عالما موحشا مليئا بالبصاق والجوع والعطش والشهوة المتوقدة لمرآى النساء ومؤخراتهن الجميلة. توجهت بعد أن تناولت كبة السراي إلى مقهى حسن عجمي وشاهدت قبل أن ادخل شوقي كريم.توسلته أن يمنحني فرصة البقاء في منزله ليوم أو يومين. وافق بصعوبة وتلجلج واستنكار.

اتجهنا إلى الاعظمية. عند باب ما يدعى بيته وقفت أحلام منصور وهي تحمل المكنسة. أحلام بالرغم من كآبتها الحادة كانت إنسانة لطيفة. تتقيح الكآبة الحادة من عينيها. هناك سور من أشجار الاجاص والكمثرى يرتل أمام فمها موسيقى النواح. النواح الرفديني الطويل والمجبول بعرق الالهة. دائماً أتخيل أحلام منصور مثل شجرة دراق فاتها الزمن والضراعة. شوقي المجنون تزوجها ليضيف لها كآبة أخرى زائدا أحزانها.

اتذكر أحلام يوم نامت على غصن الدالية العتيق في منزل الاسرة. كنا مثل القطط الصغيرة وهي ابنة الملوك العشرة المتتالية اورادهم في اسفار التكوين الاولى. أحببت أحلام بارهاصاتها المتولد من الغيوم ولم أكن املك في هذا الألم غير خشبة اضرب بها نفسي واحيانا شوقي كريم. ارادت السلطة ترحيل أحلام إلى إيران لأنها كردية ايرانية، لكنها ستموت. ستموت اذا ابتعدت عن اقيانوس حب العراق. ماذا قال الوقت على السنة المهجرين في غابة موتنا. هم سافروا ونحن اكلتنا الحرب وفي النتيجة نعيش سوية على قارعة الوقت.

ابتسمت أحلام حينما شاهدتني. كانت ابتسامتها ملغزة مثل الجوكندة ومثل لوحات جواد سليم حيث تختفي الافراس وتبقى المخيلة هشة ومضطربة. لم تقل أحلام شيئاً حينما شاهدتنا نلحس الطريق بارجلنا الموشاة بالزمرد والطين. قالت لشوقي خذ المكنسة وهناك اطباق في المطبخ، اغسلها ونظف الثلاجة وافتح بالوعة الحمام – المطبخ. ابتسم شوقي مبربراً ولاهثا ولسانه يخرج من فمه امتاراً. ثم حملني كل شئ. غسلت الاطباق وفتحت البالوعة وطردت الاشباح والفئران وكنست الطارمة ومسحت الحيطان التي تنام عليها الزواحف. كانت كولالة موجودة في البيت الذي هو عبارة عن ممر طويل. اخذت أحلام كولالة وصعدت بها إلى الغرفة الوحيدة في المنزل. بقي شوقي وحيداً معي. صرخت أحلام أن موعد الحصول على منتجات الالبان اليوم. يستغل شوقي وجودي ويجعلني اقف في الدور بدلا عنه للحصول على القيمر والزبدة. عندما عدنا مساءا إلى الدربونة – البيت – الممر – الشق القتالي – المتراس، مثل كلاب صيد عائدة من معركة عنيفة. صرخت أحلام بوجهنا قائلة، انها تكتب وجائعة وكولالة تموت من الجوع أيضاً وهي في حالة هيام شعري.

❋❋❋❋

دخل شوقي المطبخ والحمام ومغطس الصحون. دعاني، حيث استجبت له. ثم اخذ يصرخ وأحلام تنفعل وتحول الممر – البيت إلى ماكنة صراخ واصوات. أحلام تقول لشوقي أن عليه أن يسرع ويعد الطعام وشوقي يصرخ أن عليه اولا أن ينتهي من غسل الملابس وسقي العصافير وترتيب الصالة ذات المقعد الوحيد. كولالة نوري في الهوس

الشعري لها كانت مثل طائر جريح تضمها أحلام تحت سقفها. بدا شوقي مثل اله هندي باذرع كثيرة.

استطعت معه وبملامسات طيزية مكثفة بسبب ضيق المكان، أن نعد تشريباً أو شيء يشبه التشريب والباقلاء وطبعا دون لحم لأن شوقي خزن اللحم في وعاء خاص وحفظه بعيداً عن عيني. كان يقول أن اللحم اخطر الأشياء في الحياة وأن أحلام مريضة وبحاجة دائماً إلى شوربة اللحم. لم اعترض رغم أني كنت الحس اصابعي وفمي مثل قطة لمرأى اللحم. شوقي كريم على اية حال ليس سخيفا جداً كما انه ليس بالبخيل وهذا جزء من شخصيته الالهية وروحه روح مقاتل بابلي يحاول دائماً أن يمد يد العون إلى الاخرين.

أنا واحد من اللذين استفادوا من بركات شوقي ونزواته في اتحاد الادباء واماكن اخرى. لكن شوقي محطم تماماً رغم انه لا يحزن حتى لو ضربته بقبضتك. سوف تسمعه يقول لك. افعلها ثانية وثالثة ورابعة. ليس للالم معنى في روحه. دائماً هو شخص اخر. ودائما هو شخصية ملتزمة رغم انه هرب حتى الآن عشرة مرات من جبهات القتال في بنجوين ورأس البيشة وكردمند والفكة. كان يحمل على صدره اثار المعارك وكنت اعجب انه يتسلى بالموت مثلما يلعب طفل بطائرة ورقية لكن رغم هذا، فيه جانب اخر هو الجانب المظلم من شخصيته والذي دائماً يطفح واذا طفح يدمر كل شئ.

أحلام منصور بكردياتها الحزينة استطاعت أن تروض هذا الاسد القديم. الاسد الذي وضعوا ذيلة بين ساقيه وقالوا له، أيها الولد. أنت ضبع ولست اسدا وفي النهاية صدق ما قالوا له. خبأني شوقي في بيته. خمسة ايام. لم اخرج فيها إلا حينما يتم توزيع البيض والزبد والقيمر.

كنت اقف عوضا عنه فيما هو يجلس في البيت للكتابة. كان يقول لي يجب أن تخرج، لا استطيع أن اكتب وانت موجود. أما كولالة فكانت تبقى في البيت مع أحلام. كن ينزوين في الغرفة العليا. قريباً من الهة الفرس والهنود ويحاولن كتابة مقاطع عن ابجدية الموت في جبهات القتال.

كولالة نوري عشقت شعرها. عشقت نهدها العارم وقصائدها المترعة باليومية إلى درجة الوهم. كانت تشكل لي شيئاً متكاملا من صدرها البراق واعجوبة التماهي مع زرادشت. نهدها كان مرعباً، كبيراً ومتوفزا. كنت اتخيله عبارة عن حصان شامخ يراد له الركوب والامتطاء وكنت مستعدا لهذا المجهول. في الايام التي قضيتها في بيت شوقي وأحلام حلمت بكولالة مراراً، ليس مثلما يحلم رجل بامرأة، إنما حلمت بها مثل ذئب حينما يصادف ضحيته وهي موثقة إلى عمود والعمود تائه، متناثر، والحقل اليباب فيه ضباب كثيف واغاني الساحرات والعرافات والمسالك البولية. كنت اشتهي ما بين الفخذين، و كنت أحمل مجدافا أريد به الابحار والتوسل.

كولالة كانت تغسل اردیتها الداخلية في المطبخ، حينما يكون شوقي موجودا. اتشمم الرائحة، اتشمم رائحتها الكردية العنيفة والفضاء الوارف المتسع والمنفلت على البرد والفحولة. انوثتها تشبه دودة كبيرة، تقرصك، توغزك وانت مسكين. موثق إلى شوقي ورائحة العرق والبيرة تفوح في كل مكان. أحلام كانت تكره بسبب كآبتها الحادة رائحة شوقي المتكونة دائماً من رائحة العرق المغشوش والفلافل وكبة الاتحاد والبيرة. كانت تعرف انه لايستطيع أن يسكر على حسابه. إنما هناك دائماً من يدفع له.

في بعض الساعات كانت تهبط علينا - كلنا - ساعة الالهام. الالهة

تريدنا أن نكتب. فننحشر كل إلى زاوية. كولالة في الحمام – المطبخ. أنا على الأرض. شوقي على الكرسي، أحلام في الغرفة العليا، تبتلع دواء الكآبة واوراقها منثورة. كانت لحظات من الرعونة الكتابية. كل يكتب عن عالم مخبول وجانبي. نحن المترفون براحة المطبخ وفتحة البالوعة وفجأة تصرخ كولالة وتقول مرتعشة وهلعة، ان المجرى فاض بماه الكفاية. واندفع تاركا اوراقي التي لم اكتب فيها شيئاً وامسك العصا واعبث بالمجرور. اشاهد كولالة وقد نكأت نهليستي وعبثي.

كتبت عن طائر الحناء وزرادشت حينما تزوج ملكة الظلام. ويصعد الماء ويرتفع واستنجد بشوقي وكلما تكتب كولالة بيتا شعريا ترتفع المياه وأعود مرة أخرى وانبش البالوعة. اخرج بأصابعي شعر العانة والحمص والباذنجان والخيار والخبز العفن والخيسة المشكلة من أشياء لا أعرفها. فقط كولالة نوري تعرفها وتفيض البالوعة مرة أخرى وتندفع الصراصر وفي هذه الاثناء يدخل صلاح زنكنة ويبتسم الجميع وتتحاور كولالة مع صلاح بالكردية. أما أحلام فلا تفهم كردية صلاح زنكنة لانه من كركوك وهي من خانقين والمسافة التكعيبة بين المدينتين شاسعة.

بعد اليوم الخامس يطلب مني شوقي أن اغادر بيت المجانين، أرضخ وكلي اسف لأن أحلام تزوجت شوقي. لم أشعر بالاسف كوني سأغادر، لكن شعور الحزن والضياع ضربني مرة اخرى. ضربني بضربات تشبه ضربات الالهة حينما لا تقدم له العطايا والمحرقات. حزنت وأنا التهم اخر وجبة غذائية مع صلاح زنكنة. صلاح كان يأكل التشريب باصابعه العشرة وحينما ينتهي من الاكل يتجشأ ويمسح يده بالستارة. قبل أن اخرج قال لي صلاح انه مستعد ليخبئني ايام اضافيه في

بعقوبة. قلت له أني مفلس تماماً ولا امتلك حتى ثمن السجائر. اشترى لي صلاح علبة سجائر وانطلقنا إلى بعقوبة في سرعة جنونية لاتشبه إلا جنون شوقي وهو يكتب سيناريو اذاعي للتلفزيون.

وصلنا بعقوبة مساءً. اقترح صلاح أن نتناول شيئاً خفيفا قبل النوم. كنت جائعا بشكل كبير والخمسة ايام الماضية في قبو شوقي كانت مهلكة. جاءت زوجة صلاح بطبق الكوارع (الباجة) وانقض صلاح مثل المشوه وهو يلتهم الرأس.. اصابع صلاح تنغرس في الرأس ويخرج العيون ويزلقها في فمه. اردت أن اتقيأ على الباجة. وبالرغم من الاحساس بالهذيان تناولت قطع اللحم. كانت وجبة كردية اصيلة. شعرت بالتخمة لاول مرة في حياتي وبعد الاكل غفوت على الاريكة ولم أشعر إلا والصباح يدخل من النوافذ.

بيت صلاح كان افضل من بيت شوقي. هناك صالة منفصلة للضيوف وغرفة نوم مثالية. أطفال صلاح كانوا مدهشين للغاية، أما الزوجة فكانت مضيافة جداً وشرسه و تشبه لبوة غير مروضة. في الايام التالية التي قضيتها في بعقوبة. استطعت الخروج من المنزل والتعرف إلى الجار المقابل لمنزل صلاح. كانت له فتاة ادهشتني بمخالبها المتنمرة ودقة ملاحظاتها. جار صلاح سألني أن كنت صحافيا. قلت له نعم أني صحافي واعمل في جريدة الجمهورية في قسم الاستعلامات. لم يكن يعلم ما هو قسم الاستعلامات ولو سألني لقلت له دون تحفظ انه قسم القوادة والمناويك واني زميل محمد اسماعيل.

كان جار صلاح إنسان امي. ابنته الوحيدة والكبيرة رائعة ورائعة جداً. لا بل إنها ملهمة. تصورتها على الفور أنها يمكن أن تكون الزوجة. لا ادري على وجه التحديد لماذا فكرت بزوجة رغم أني مطارد ولا امتلك

حتى ثمن السجائر ووجبات الاكل. كنت أشعر أني اعمى وبدأت اسرد قصصا للجار عن مغامراتي في الكتابة واني أعرف عبد الستار ناصر ولطفية الدليمي واحمد خلف وكل الاخرين بدءا بشوقي كريم وانتهاءً بجان دمو.

هذا الجار كان معجباً بإحدى قصائد جان دمو التي يقول فيها إن الحصان الكهربائي رفسه فسقطت الاسنان ومن الاسنان نبتت الحياة. لا اتذكر القصيدة على نحو واضح. لكن الجار يكمل القصيدة واعترف انه لا يعرف الكتابة ولا القراءة لكنه يعشق ويتمنى أن يلتقي بادباء العراق العظام والكبار من امثال جان دمو وحسين الصعلوك وليث الصندوق وابرهة الحبشي ومحمد اسماعيل وضياء سالم و سعد جاسم وسالم قنديلة وذو النون ايوب وخضير عبد الامير وجاسم الرصيف ونصيف الناصري واديرا غاندي وقلت له مصححاً إن انديرا غاندي ليست عراقية إنما هي من بورتريكو. طلب مني الجار أن ابيت ليلتي عنده وشكرته، ثم جاءت المدام وشربت مثل خضير ميري.

كانت البيرة تملأ المائدة وصلاح زنكنة بجانبي يقول لي يا ابن القحبة ما الذي قلته للرجل. وبعد انتهاء الشرب على نخب مرسيليا الياد وبوشكين وتورجنيف وأمام صلاح الذي اخذ يهتز ويتمايل، جاء العشاء الذي كان عبارة عن (باجة) رائعة اعدتها الحرمة وغرقنا في الاكل وكنت التهم مثل حيوان مفترس، مثل حيوان طريد يعرف أن لا طعام بعد هذه الوجبة، وأن صلاح سوف يقلبها مناحة وربما يضرب صاحب الدعوة بقبضته أو انه يفضحنا ويقول إن السيد ليس صحفيا ولا شيء اخر وإنه ليس إلا قواد من قواووويد الفضل في بغداد وهارب من وجه العدالة وأن الأمن يطارده.

اثناء السكر والعربدة والقصائد والفضائح والموالات والاغاني والتعتعه والكوؤس المتطايرة بصحة كل شئ. اختلس النظر لرؤية الابنة. الابنة الوحيدة والجميلة والقصيرة والمائلة إلى الصفرة بسبب الجوع، ربما. كانت تتمايل في مشيتها. تتمايل إلى الحد الذي كنت اتصور انها سوف تسقط إلى هذا الجانب اوذاك. عرفت أن اسمها مي وانها انهت دراستها المتوسطة مؤخراً. كنت أحاول كلما تدخل الغرفة التي نجلس فيها، أن اعتدل وأن امنحها انطباعا متتاليا بأني شيء مهم، إلا أن صلاح وهو يتمايل ويلعن ويزبد كان يخرب الجلسة ويمسح بكبريائي الأرض. حاولت أن ابتعد عن صلاح إلا انه كان يحمل قنينة العرق ويصر على أن اسكر أنا أيضاً. المصيبة الكبيرة التي أعرفها عن نفسي هي أني اذا سكرت فسوف اتقيأ في اي مكان وليس في المرحاض والشئ الاخر هو أني اذا ما سكرت فإنه سوف اغني وارقص مثل اله هندي. الجمال والسكر والشبع والابتذال والتمسح في الأرض والتعتعة والكلام البطئ. كل هذا يشكل مزيجا غريباً بالنسبة لي لكنه شيء جميل.

في أحد المرات سكرت مع حسين الصعلوك في أحد بارات الباب المعظم وما أن سكرنا حتى بدأت بالغناء بصوت مرتفع أما حسين فأخذ يتقيأ على الأرض واراد النادل ايقافه عن التقيؤ وأنا على السكوت إلا أن الثورة الجمالية كانت من الكبر بحيث لم نستطع التوقف، فانهالت علينا الكراسي من كل مكان وضربنا بالاحذية وطاسات الجاجيك والنعل واليشاميغ واخرجونا من البار.

ذهبنا بعد أن اخذنا غفوة في الشارع، إلى غرفة محمد تركي النصار في الفندق، بقينا هناك حتى الفجر، حسين الصعلوك يتقيأ وأنا اغني والقمر بدراً والنجوم تمسح أرضية الغرفة الشاحبة والتي تشبه غرفة

الاموات. بعد حفلة السكر في بيت مي. عدنا إلى بيت صلاح. كانت زوجة صلاح بانتظارنا وفي يدها نعال اسود وما أن دخلنا البيت حتى انهالت علينا ضرباً. كان صلاح قد اختلس محفظة زوجته ولم تعرف هي إلا في وقت متأخر وما أن عدنا من الجلسة النورانية حتى نشبت المعركة. صلاح يتوسلها وهي ترطن باللغة الكردية ولم افهم من كل المعركة إلا كلمات (ورى) ونعالها والشعر المنفوش والوجوه المتقلبة.

بعد أن انتهى الشجار خررت إلى الحشية التي وضعها لي صلاح في الصالة وبدأت وفيما تدور الدنيا أمام عيني أن اتذكر مي وعينيها ونظراتها المتساءلة والمولعة بكل ما هو مجهول. بقيت في منزل صلاح اسبوعا كاملا. استطعت بعد خروج زوجته أن أحاول الكتابة. كنت اجلس على الأرض واوراقي أمامي وقنينة توسيرام مملوءة بالكامل. كنت اشرب التوسيرام الذي نصحني به صلاح لادامة الثورة الكتابية وما أن اشرب حتى يجيء شيطان الكتابة. كان مفعول التوسيرام رائعا واخذت أتخيل نفسي الاله براهما ولم استطع الكتابة فقط، إنما الرقص والصلاة والتهجد والمواساة لمصير العالم.

بعد اسبوع كامل في بيت صلاح تعرفت إلى ادباء بعقوبة. اول شخص تعرفت عليه كان مصعب أمير ثم محمد الاحمد وحسين المحروك وابراهيم حيدر صاحب معمل الورق وقريش وابراهيم البهرزي الشاعر المدهش الذي لايكتب إلا ويكون قد انتقل إلى عوالم الدهشة والغربة واللامعقول. ثم هناك أيضاً، سالم قنديلة بنظاراته السميكة جدا. وكريم حسن علو الذي يشبه البابا بندكت الثالث والذي يقف دائماً أمام قيصرية الخياطين. وفاضل (أبو رنا)، وامير الحلاج الصيدلي.

كان بالاضافة إلى الشعر طبيب المجموعة، نذهب اليه كلما مرضنا

ويمنحنا الدواء المدهش. اذا كانت بطوننا تؤلمنا فإنه يوصف لنا دواء لوجع الرأس ونأخذ الدواء ونشفى ونصبح بقوة الخيول والافراس. دائماً كان يقول لنا إن الرأس هو العلة الوحيدة في هذا العالم التي ليس هناك من سبيل إلى أصلاحها. هناك أيضاً ام محمد، المرأة العنيدة والمدهشة والتي تدير العالم من وراء فوطتها وتنظر إلى الأشياء دائماً بنظرة المعرفة الكونية. امرأة بسيطة المظهر لكنها شيء خرافي ومهول اجبرها الزمن الخرب بعد استشهاد زوجها تاركاً لها جيش من الأطفال. أن تغزو السوق وتنير العالم المظلم بنيران التوحش المعيشي. في دكان ام محمد كنا نلتقي دائماً، ودائما نذهب في مساجلات طويلة عن العدم وقوة الفراسة والدهشة والزمن والبعد الثالث ونظرية الاكوان والاله.. ادهشتني في تلك الجلسات على قارعة الطريق أما م الاسواق المركزية وفي دكان ام محمد، قدرة الزمن الخرب على التشيؤ، على الملاحقة الانية للموت والرغبة في الجوع والدهشة من الموت.

كل النقاشات السرمدية كانت تجري ونحن وقوفا أو أمام عبثية ام محمد، نهز الحاضر ببوصلة واداة الماضي ونفي النفي والدهشة من الباراسايكولوجية التي تتفنن في اعطاء العقل قوة الموت واللاتناظر والامتاع والمؤانسة وموت الحلاج وامير الحلاج وبضعة من الزمن الخرب الذي.... يموت على قارعة الوقت. من منا لم يشهد وقائع الموت الغريب في ساحة جانبية. كنا جنودا في جيش غريب، جيش مجنون يأتمر بامر الشيطان وكانت الملائكة تنبعث من القمقم السحري والجنود يتناثرون مثل الكرات الزجاجية.

الموت الذي كنا نناقشه ونحن في دكان ام محمد كان يكتسب فرضيات غريبة. مصعب أمير كان يفلسف دائية الموت، سببيته وانبعاجه

وموتـــه. مـــوت المـــوت وانبعـــاث قـــوانين الجـــدل والميكروميـــديا والكومبيوترات والدهشة من الانبهار بعالم اخر. عوالم غريبة جداً قـادرة على جعل الإنسان غريباً في زمنه التالي. من دكان ام محمد كنا ننحدر مثل قطعان الماشية لنسكر عند ابراهيم الخياط. كنا نشـرب البيرة والويسـكي وكل امسـية يشتري لي كريم حسن علو قنينة فودكـا. الفودكـا الروسـية من زمن الاشتراكية. ثم نجلس في محيط القـدر والانثيـال والتـوجس، في معمل الورق التابع لابراهيم الخياط مقابـل جـامع الفـاروق. كنـت أنـا وابراهيم الخياط ومصعب أمير وكـريم حسـن علـو وابـراهيم البهـرزي واحيانا صلاح زنكنة وبعض الحاضـرين من غير المجموعة المقدسة، مثل محي الدين زنكنة، نشـرب بحيوانية.

برعونة الحرمان الايدلوجي وفي بعض الاحيان كنا نصل إلى حافـة الموت وحينما نصل إلى الدرجة الوضعية من التوأصـل الـدراماتيكي مـع المشـروب نروح نغني للديمقراطية، ونغني بصوت خافت للزمن الرديء والحرمان والتناظر والتوأصل والجيوش والحروب الدراماتيكية، محققـين اقصـى درجة من التكامل مع العرق والفودكا. كانـت الفودكـا تخـدعنا، تذلنا، تنهينا عن الجلـوس والوقـوف فنكـون معلقـين بخـيط رفيـع مـع الواقع. وعندما نزحف زحفا، إلى حد الثمالة والى حـد اننـا ننـام عـلى اي شيء كان قدر التشـريب يئـز فـوق موقـد الغـاز، في الـزمن، في الحديقـة الخلفية للمعمـل. أحيانـا نتقيـأ وكـريم حسـن علـو يغنـي أو ينـام مثـل عصـفور الكنـاري عـلى اي شـيء. كنـا نمـوت ونحيـا موتـات متعـددة وحيوات متناحرة وصلبة وغازية.

ليس للموت معنىً راديكالياً. ليس له معنا غير معنى أن نتقيأ على الأرضية وسالم قنديلة حيـنما يسـكر يصـبح أشـبه بطفـل صـغير وجـائع

وعاري، يريد التبول على الحيطان. لكني اشهد بشهادة يسوع المسيح أن اكثر الاشخاص رزانة هو سالم قنديله. انه عبارة عن شخصية دينية كبيرة. شخصية متصوفة اقوى من الجنيد البغدادي والشيخ مفتاح، ذلك الشيخ الضئيل الجسم والقميئ والذي يملأ الاباريق بالماء في حضرة عبد القادر الكيلاني. كان يعسوب الدين والدنيا. حشرة فطرية تعيش على النظارات والويسكي المزور الذي يدعى ويسكي بعشيقة وغالباً ما كان كريم حسن علو يشتريه لنا. نحن الحشرات الطيارة. كنا ننحو منحاً سفسطائيا وديماغوجيا في معمل ابراهيم حيدر ونحن نشرب بقايا القناني ونمتصها إلى الدرجة التي يتحول فيها كريم حسن علو إلى شيء غريب. شيء ليس بإنسان كما انه ليس بحشرة إنما يعسوب يسير على اربع في الحياة الفانية.

كنا نسكر بالعرق المزور أما ابراهيم حيدر البروليتاري فكان يشرب من قنينة خاصة هي الويسكي الاسكتلندي، لأن البروليتاريا تستحق أن تعمل كل شيء وأن تنام على أحسن الطاولات. بعد الساعة الثالثة صباحاً، اي فيما يسمى الوقت الحرج، نكون قد سكرنا جميعا لكني كنت امتلك وعي الخاص فأروح اشرب بقايا الانخاب ومعي سالم قنديلة. وبعد الثالثة ننام لا على التعيين.

محمد الاحمد على الأرضية وسالم قنديلة فوق دفاتر الاكياس وأنا على طاولة المدير وابراهيم حيدر يخرج لالتهام الفلافل في كراج بغداد. كان يتركنا مثل الصراصر في المقر الرسمي للبروليتاريا الرثة نعالج قداسة المكان ولغو الحاضر وضراط المدفعية النمساوية في جبهات القتال. حتى الزمن الغريب حينما كان يسير كان يصطدم بمعالجاتنا الانية للثقافة وتأثير خضير عبد الامير وعبد الامير جرص ونصيف

الناصري وشمران الياسري على الادب عموما والادب العراقي على وجه التحديد. عند الرابعة صباحاً يؤذن مؤذن جامع الفاروق وينتشر باعة الدجاج والسمك والخضراوات. يتحول الزمن إلى زمن غريب يمكن أن تلاحظ فيه نوعان من الناس. اناس يخرجون من الجامع مع تقبيل يد الشيخ اسامة ومجموعة أخرى تخرج من البيوت الخفية وهي سكرى بروعة العالم مع قنينة عرق. عرق مستكي وعرق بعشيقة الثوري الذي ينفث فينا أنا وسالم قنديلة ومحمد الاحمد نيران التشوه الفطري لعالم غريب ومختلف. المصلون يخرجون من الجوامع ونحن نتبول في الطرقات، زرافات ووحدانا، كل يسعى إلى شيئيته وخواصه الفلسفية. كنا ننثال مثل عصافير، مثل مطر بلا ماء وننساب في المدينة التي بدأت بالصحو حيث المخبرون والأمن الخاص والجهاز الحزبي والانضباط العسكري، يسيرون في الشوارع مثل كومات من النحل اللاسع وهم يفتشون المارة وباعة الخبز والشلغم والباقلاء والطماطة والدجاج والبيض وقيمر العرب ومن أجل أن يحظوا بجندي هارب من جبهات القتال.

نمر ونحن في غمامة السكر عل كراج بغداد ونشاهد الأجهزة الأمنية وهي تسحب اخر دورياتها من الشوارع. عالم من التوجس والخوف والرصاص والبنادق. الشهداء اكرم منا جميعا، وتنصب خيم الموتى والشهداء في الشوارع. كنا نرى كل شيء بعين الموت المتجذر والمتناهي الصغير والحيوي ونشعر بالاختناق. سكر الليلة السابقة، الساعات الماضية، كل شيء ينفع في نسيان العالم، لم نستطع أن نخرج إلى الهواء المتبلور بسخام الجيش في الشوارع ورجال المخابرات وهم يهجمون على البيوت مع الرفاق من أجل إلقاء القبض على هارب

مسكين أعيته الحيلة في الاختباء فألقي عليه القبض. كنا نشاهد بعين سكرنا سيارات الانضباط العسكري وهي مملوءة بالموتى الاحياء. وبالاحياء الموتى، بالوجوه المتكورة والمتقلصة والمرتعبة. نمر من أمامهم ويمسك سالم قنديلة قلبه ويسير بتماهل من أجل ألا يثير حفيظة الرفاق ويستطيع الذهاب إلى قنديلة – امه – سالما، غانما، منتصرا، لانه اجتاز سيطرات الأمن والرفاق والمخابرات والاستخبارات العسكرية.

ونحن أيضاً. ننسى اننا سكارى ونسير متوازنين ولا نبول في الشوارع ونحترم القوانين ونذهب إلى اقرب مطعم باذنجان مقلي ونلتهم الطعام الوسخ والقذر باصابع مرتجفة وراعشة ومنتهكة. يصر ابراهيم حيدر أن أعود إلى المعمل. أعود من أجل الاختباء لايام اخر. لكن ابراهيم نفسه هارب من الجيش. وأعود إلى المعمل بعد أن طردتني زوجة صلاح ورمت باوراق قصصي إلى المزبلة وقالت خرائي على كل كتاب القصة من هذه الشاكلة.

في المعمل انام على الأرضية الاسمنتية حيث لاضوء يتسرب من اي مكان وأشعر أني في بطن حوت كبير وهناك دائماً رائحة الاسفنيك النفادة وهي توجج كل الأشياء القذرة في الأحلام والإنسان. الليلة الاولى التي نمت فيها في المعمل، بين اكداس الكتب قرأت لاحمد خلف كتاب كان معدا ليعمل منه اكياس. المعمل الصغير كان مملوءا بالكتب التي ستتحول إلى ورق ومن الورق تتحول إلى اكياس حب (بزر) للمناويك في هذا العالم. سيكون حب عباد الشمس أكثر أهمية من هيجل ورأس المال وعبد الستار ناصر ولينين وماركس والتستري وشمس المعارف الكبرى ومجريات الإمام الغزالي.

في معمل حيدر للورق يحول ابراهيم العالم إلى اكياس فقط أما

الكلمات فسيرميها العالم إلى مجاري المياه والازبال. الشوارع مليئة بالورق، مليئة بحب عباد الشمس، مليئة باكياس معمل ابراهيم حيدر. في صالة المعمل الصغير كانت رائحة المرحاض شنيعة ولم استطع النوم. كان علي أن اعتاد الرائحة. اعتاد أن اتشمم رائحة الخراء والشاي المعد على (الجولة) والبرد. لم أجد مدفأة في المعمل المكون من صالة ومرحاض فقمت باشعال ورق الاكياس. اشعلت لطفية الدليمي ومسرحيات قديمة وجديدة كلها تحولت إلى نار بطيئة ومن الارجاء كانت الصراصر تسير بخفوت وبقوة جبروتية.

كنت اسكر كل ليلة حيث يقوم ابراهيم بتزويدي بالعرق المغشوش، وبعد أن اسكر اعد لي على الجولة تشريب عظام التقطها من سوق القصابين القريب. اعتدت لاسبوع كامل على تناول التشريب حتى أصبحت أشبه بخرقة ناشفة تغوط بها أحدهم. بعد الاسبوع المجيد الذي قضيته في المغارة المقدسة وتقيؤ ابراهيم حيدر كل يوم وهو يتناول الويسكي الاسكتلندي وأنا العرق المغشوش. بعد هذا الاسبوع جاء ابراهيم البهرزي وقال انه سمع من اتحاد الكتاب أن عفوا صدر عنا وأن بالامكان الآن الخروج الى العالم.

خرجت إلى النور وحينما وقفت أمام باب المعمل شعرت أني اغرق حتى الموت باشعة الشمس. اخذت اسمع الاصوات بدل النخر والشمس بدل الظلمة والهواء البارد بدل الرطوبة. تذكرت وأنا استحم في لون الشمس رواية عبد الستار ناصر (تلك الشمس كنت أحبها) الرواية التي اغرقتني مع الشمس بلهيب فضفاض.

لم أعرف كيف عشت لاسبوع كامل بين صراصر ابراهيم حيدر. القبو، المتراس، الحفرة العميقة. كنت بحاجة إلى الشمس والحرية

والتحرر العبثي من الاوزار. انطلقت في طرقات بعقوبة، بين باعة الشلغم والباقلاء واللبلبي والخضراوات. سرت في الطين وبين الاوساخ. زرت الشمس في سوق القصابين. مي التي اشاهدها مثل الخرافة الابدية في الشمس المرتعشة.

وقفت أمام باب جامع الفاروق. شاهدت مؤذن الجامع الذي كان يفركش جلساتنا كل يوم بندائه إلى الله. كنت أريد مشاهدة الله. اجل، الله، والمشاهدة غير سماع الصوت حيث أن الصوت كان يهاجمنا كل عشية بانتهاك خصوصياتنا. الرؤية هي غير السماع واكتشفت أن صاحب الاذان كان اعوراً وضريراً. إحدى العينين مصابة بالعمى أما الأخرى فنهشتها شظية في الحرب اللعينة مع المجوس.

المؤذن كان مدهشا. شيئاً غريباً حقا حيث كان يسير في طرقات بعقوبة ويدخل السوق وهو لايرى شيئاً ولم يكن يصطدم باي شئ. يمر بين عربات الباقلاء والشلغم دون أن يمسها والانكى من هذا انه كان يعرف أين وصل وأمام اي دكان يتوقف الآن. لقد منحه الله أشياء كثيرة. منحه الرؤيا والانتصاب الكامل حيث كان متزوجا بثلاثة نساء يمارس الجنس معهن كل ليلة. كنت مبهوراً بالميثالوجيا التي يمثلها هذا الاعمى. الميثالوجيا الخاصة بالعميان والعوران، إذ أن هذه الشخصيات لها سليقة مغايرة عن البشر والحشرات من امثالنا. لا أعرف كيف يتحصلون معيشتهم. هم ياكلون أحسن منا نحن المناويك والحشرات الطيارة والبق والبرغوث. اجسامهم مهولة دائماً. نادراً ما اشاهد اعمى بجسد ضئيل أو انه لا يوجد فعلا هكذا شخص. كل العميان لهم اجسام ضخمة وافواه كبيرة قادرة على شفطك مثل سيفون المراحيض. نحن حشرات هزيلة أمامهم رغم أن لنا عيون مفتوحة.

وأسير في بعقوبة. بين باعة البيض والدجاج والسمك. سوق بعقوبة الذي تزينه الرايات. رايات الشهداء المتخمة بالوجع القصديري والمعادن النحاسية. ثم بعد ذلك انحدر من السوق العبثي والصراخ والهرج والمرج والفوضى العارمة إلى الاناقة السحرية عند دكان ام محمد حيث مصعب أمير، الذي يبدأ دوامه يوميا بعد العاشرة صباحاً لانه في الفترة التي تسبق الدوام يكون مشغولا بالباراساسكولوجيا وعلم الاشارات والامبيريقية المعرفية والتشيء. شيء غريب فعلا اجده في دكان ام محمد و هو وجود ابراهيم البهرزي واقفا بانتظار مصعب على أحر من الجمر. وعندما يصل مصعب يكون ابراهيم في اعتى واحط صورة إنسانية، اذ انه نسي تناول دواء الكآبة وها هو الآن يرتعش ويطلب من مصعب أن ينقذه من آلام الحزن العميق والوحدة القاتلة وخلال عشرة دقائق يحضر مصعب أمير دواءً فعالا ويبتلعه ابراهيم على عجل وما أن تمضي ساعة كونية واحدة حتى تنقلب عين ابراهيم ويلعن مصعب على الدواء الرخيص الذي تجرعه وفي الحمحمة والتأتأة والانحطاط المعرفي يعترف مصعب انه اخطأ، اذ أن الحبوب التي منحها لابراهيم كانت لعلاج الصرع وابراهيم ليس مصروعا ولا يزبد لكن القدر كان قد نفد بارادته الجهنمية.

في دكان ام محمد الذي يقابل الاسواق المركرية يتجاور الزمن مع المغيب، مع البلاهة والجنون والذكاء الخلاق. وتشتري ام محمد حمولات اضافية من معجون الطماطة ولان قانون السوق هو الاداة الفعالة في التفاهم ينفعل مصعب ويكسر قناني المعجون في بوهيمية غريبة. يكون مصعب منفعلا ونظاراته السوداء مرتفعة عن عينه ويحطم بغرابة كل محتويات الدكان. ام محمد تكون أمام ثورة مصعب عل القوانين الوضعية

لسوق مستلبة. مهانة، متناهية، هشة. مرتبكة. منسحقة. متلاشية. النور السماوي الذي في وجهها يتناذر منغلقا.

لم تجد ام محمد أمام ثورة مصعب الصعبة، إلا الجلوس على الرصيف والتوسل بنظراتها إلى هذا القدر اللئيم. إلى الحظ والقسمة والنصيب في انها شاركت فيلسوفا تائها في دادائية الاقتراب من الجنون الصرف وليس الجنون المعتدل. التهويمات التي ينعق مصعب أمير في غرائبياتها. تتكلم بلهجة ولغات متعددة. لغات غير مفهومة البتة ولن يفهمها أحد غيره. انه الاله الواقف على تلة الاضطراب الجنسي وهو يمارس الاستمناء بقرونه الحديدية. حتى جان دمو بجلالة قدره ونونية قصائده لن يكون قادراً على فهم مصعب أمير، فهم التشكيلة الغائية لوجوده الكوني.

كان مصعب يتساءل عن سره كمخلوق متعدد الايدي، مثل اله هندي يستطيع أن يتلاعب بالعقل لكنه غير قادر على فهم الية السوق وفهمتها ام محمد بدلا عنه وكانت بارعة حيث تعرف متى سوف يوزعون القطن في الاسواق المركزية ثم متى تستطيع أن تشتري القماش حينما يهبط سعر السوق. كائنية مصعب كانت مستعصية. كان يشعر في كثير من الاحيان انه أمام همجية مدمرة وأن عليه الانفلات من دائرة الخطر الآتي إلى المستقبل المشؤوم والماثل أمامه.

ونبقى نحن في (دائرة الطباشير). أمام ثورة مصعب. اثار الشفقة تعلو وجوهنا. الشفقة المدمرة لإنسانية الواحد منا ونحن نضيع في الازمنة السوداء. وفيما اغادر مصعب وام محمد، تائها في بعقوبة واثناء اقترابي من كراج بغداد للعودة إلى الازمنة الباهية. يلقي علي القبض مثل جرذ. كنت صعدت الحافلة التي ستقلني إلى بغداد وقبل أن تتحرك

الحافلة صعد ابن قحبة من الانضباط العسكري على حين غرة وطالب الجميع مثل الكاوبوي بابراز الهويات. ولم أكن املك هوية الجامعة اذ انهم اخذوها واعطوني كتاب السوق إلى الجيش. وها أنا هارب الآن. متخلف حسب التسمية الرسمية. ويمسكني ابن القحبة وكأنما يمسك قطة مسكينة. فأرة مرتعشة. شيء حيواني ليس له تسمية لكنه يتقصف ويشعر بالبرد والخوف.

انزل من الباص مقيدا ومكبلا. اول ضربة تلقيتها كانت عند هبوطي السلم. جرجرني إلى سيارة عسكرية مملؤة بالهاربين. كلهم كانوا مثلي والبعض لايشبهني. استطعت أن اميز اشكالا غرائبية. بعض الهاربين بلا ملامح سوى ملامح القسوة البادية على الوجوه. البعض الاخر كان مثلي يتوسل أن يفسر له أحد عما سيأتي لاحقا. امتلأت السيارة عند المساء. ودون غطاء كنا مرميين على أرضية الشاحنة. تبولت في بنطلوني أكثر من مرة. الشاحنة لا تتوقف. لم أعرف لماذا تبولت في البنطلون. أمن الخوف ام من البرد. ام من أجل العلاقة الطردية بين التيه وبين الاضطراب الكلاني للذاكرة المشوشة.

لم استطع تبين الطريق الذي نسير فيه لكنه كان مليئا بالمطبات. البعض من الهاربين اخذ يتقيأ على الأرض ومع انطلاق الشاحنة السريع كان القيئ يضرب وجوهنا. تشممت الحموضة والتقلص والاضواء العابرة بسرعة البرق والاشباح لالهة وثنية كانت تصعد إلى زقورات سميراميس وكلكامش واتونبشتم. لم أكن ادري لماذا كتب علينا في هذا العراق أن نحارب دائماً، ودائما لقمتنا مسفوكة بالدماء والعرق واللؤم والعذاب. نحن شعب، كنت أفكر، همجي، ومتنور. قدرة الهمجية تعادل قدرة الاستحواذ على مصائر الالهة. كل الالهة كانت تموت على أرض

بابل بما فيها الالهة الام. أما نحن فكنا نجر مثل النعاج إلى الدفاع عن الوطن. لكن الوطن كان يكرهنا.

كنا نريد أن نحارب لكن ليس أن نجر مثل الماعز إلى الحظيرة. إلى المسلخ. نريد أن نحارب ولا نموت. نكره واكره الموت حتى اللعنة واعتبره أكثر الأشياء قذارة في هذا العالم. فكر في الحرب كما تفكر في عضوك التناسلي. ويقول أحد الهاربين من الجبهة والموجود الآن معنا. إنه فقد رجولته في الحرب. واعترف أني خفت. تشاكلت. لم افهم لم تشوهنا الحرب إلى هذه الدرجة. المساجين الذي وضعونا معهم بانتظار صدور الحكم علينا. اخذوا يروون لنا قصصهم المؤلمة، قصص مفجعة عن الموت المتعدد. لم أشعر بالخوف من الموت. كنت ارتعد من أن افقد إحدى عيني أو عضوي التناسلي، أكون رجل الحروب لكن ليس الخصي وغير القادر على لمس امرأة وإن كانت غير حقيقية. كنت أموت من الخوف وأنا اسمع الانثيال المر لقصص الحرب. اشكال مختلفة من الألم، التشتت. هاوية عميقة كانت تسحقنا. تبتلعنا.

سوف يأخذوننا إلى الجبهة بعد ساعات. قالوا لنا، هناك هجوم والجبهة بحاجة إلى اموات جدد. رجال منقصفة اعمارهم. استطاع الزميل الملاصق لي أن يحصل على قنينة عرق صغيرة. شربها دفعة واحدة ثم اخرج من جيبة حبوباً مخدرة. بعد دقائق كان مرميا على الأرض والانضباط العسكري فوق رأسه يسوطه بكيبل اسود طويل. في البداية كان يتألم ثم بعد ذلك فقد إحساسه بالواقع وتحول إلى كتلة من الغائط والبول والدم. بعد العديد من الضربات تركوا صاحبي ممددا. مرت ساعة طويلة ولم يستيقظ ثم بعد ذلك قالوا انه ميت. جروه مثل كلب نافق ورموه في مؤخرة شاحنة مع جثث أخرى وغابوا في الليل. وضعونا

داخل قاعة من (الجينكو) ووزعوا علينا طعاما عبارة عن شوربة ملونة ثم سلمونا بعد ذلك ملابس عسكرية. أنا والبعض اخذونا إلى معسكر تدريب أما الاخرين فأطلقوا عليهم النار لانهم هاربون لاكثر من مرة.

القاعة التي وضعونا فيها كانت باردة جداً. السقف كان من الألمنيوم ولم تكن هناك مدفأة. أحد الجنود جاء بصفيحة سمنة ممزقة الجانب وبحثنا عن اخشاب وعيدان. اوقدنا النار وشعرنا بالبرد يتسلل خارج اجسامنا. في الصباح اخذونا إلى معسكر التدريب. بقينا في المعسكر عشرة ايام ثم نفونا إلى البصرة. كان هناك هجوما ايرانيا شرسا. اخذونا بشاحنات على عجل. كنا نسمع سباب الضباط وهرولة الجنود القدماء. كنت أشعر أني اعيش فوضى روحية. الخوف من الحرب يتسلل إلى كل عظامي فتهتز.

في البصرة سلمونا اسلحتنا ثم نقلونا إلى مقر أحد الالوية المتقدمة. الأرض باردة. في المملحة عند تقاطع خطوط الطول والعرض والسبخ والملح والقنابل والانفلاقات الجوية والخوف فقدنا اخر الاحساس بعالم البهجة وتلمس النظافة. مرت عشرة ايام منذ وصولنا ولم نستطع أن نستحم أو نغسل وجوهنا. الايرانيون كانوا على مرتفعات صناعية وسواتر عالية. كل دقيقة كنت اسمع صرخات الجنود وهم يحملون الجرحى والشهداء إلى الخلف. أحد الجنود كان ميتا ووجدوه بعد شهر نائما بشكل حيواني في حفرته المملوءة بالماء والسبخ والملح. استطعنا اخراجه بصعوبة ورائحة الجيف المتناثرة تعبق بشكل مرعب. في بعض الاحيان كانت هناك ثمة استراحات متقطعة. القناصون والمدافع كانوا في بعض الاحيان يمنحونا فرصة لالتقاط انفاسنا.

رائحة جسدي قذرة وكنت أشعر أني عبارة عن صرصار منتهك

الخصوصية. الاحساس بالاجتياح والانتهاك كان عميقا جداً. المراصد المتقدمة كانت تمنحنا أحيانا فرصة للقتل. كنا نوجه بنادقنا ونقتل بقوة غريبة. في اثناء الرمي المتقابل وبعد أن تكون قد رميت أكثر من مائة اطلاقة دفعة واحدة يتلبسك إحساس بالانثيال والتماهي مع الرمي. تفقد الاحساس بالواقع. اصوات الرصاص والقنابل كانت تنزع عن الروح تلك السمات الإنسانية الصرفة.

كنت اشاهد الايرانيون فوق السواتر. في بعض الاحيان كنت اتربص واتخذ مكانا ممتازا واسدد بندقيتي إلى رأس أو خوذة بارزة من خلال الساتر المعادي. الشخص الواقف أمامي، بعيداً وضمن مدى النار يتحول إلى شيء فقط. شيء لا إنساني. وكنت في اللحظة المناسبة التقط الرأس واطلق عليه الرصاص.

كنت اقتل. لكنه قتل مجاني لا يحاسبك عليه أحد. الجندي المقابل لي في الساتر المعادي لا يشكل لي حالة إنسانية. انه رقم. شيء يتحرك، لعبة كومبيوترية وعلي اصطياده بسرعة قبل أن يهرب. قتل الإنسان في الجبهة يشبه قتل عصفور بائس وضعه القدر أمامك بغتة وعليك التخلص منه. لم أكن أشعر أني قاتل. على العكس من الحالة المدنية وانثيالي في الحياة الأخرى. الموت الذي المسه بيدي وعيني وروحي لا يؤثر على مكنوناتي الإنسانية. لم أشعر بإنسانية الطرف المقابل – العدو – انه عبارة عن قمل وبرغوث وحيوان تائه أو كلب هارب من المعركة المستفحلة إلى أرض تدعي السلام. غالباً وفي الاوقات المقتطعة من الزمن، ابحث عن سايكولوجية الهروب من الجبهة. فكرت لمرات متعددة أن اهرب. في الهجومات يكون كل شيء تائها لكن في المؤخرة تكون هناك فرق الاعدامات.

اي شك فيك يعني انهم سوف يطلقون عليك الرصاص. أحد الجنود من فصيلي هرب، لم يكن قادراً على الموت، على صنع الموت. كانت يده غالباً ما ترتعش ويكون في حالة نفسية معقدة. غالباً ما كنت اشاهده وهو يبكي بعد أن يكون قد اطلق الرصاص باتجاه الاخر. كان يقول انه مرعب جداً أن اقتل. لا استطيع. كنت المحه اثناء الرمي المتقابل يرفع بندقيته إلى الهواء ويفرغ الرصاص ضد المجهول. شعرت برغبة حميمية في تقبيلة ولمس عظامه والتوحد في روحه. كنت اخشى من النائب الضابط أو العريف أن يلمحه وهو يصوب البندقية ويرمي المساحات الفارغة من الإنسانية. نبهته أكثر من مرة. الححت عليه أن لا يفعل هذا، لانهم سوف يعدموه باعتباره خائناً. كان رقيقا جداً رغم أن مظهره الملطخ بالطين والبارود ووجهه المسود لا يوحي بالرقة. لم يستمع إلى نصائحي وفي ليلة هجوم معادي بمستوى سرية ترك مكانه في الحفرة المليئة بالماء والطين وفر إلى جهة الغرب.

بعد ساعات من هروبه علمت انه القي القبض عليه وتم اعدامه من قبل فصيل الأمن. الاحساس برفيق السلاح كان عظيماً. اخذت الأحلام المقتطعة من الزمن والبهجة المتأخرة تزورني. كنت أحلم به وهو أمام فوهات البنادق. وفي قيلولات أخرى كنت دائماً اشاهده وهو مضرجا بالدم ويطلب مني أن اساعده. لم أكن قادراً على مساعدته. كان ينبغي له أن يقتل من أجل أن يعيش. فكرت أكثر من مرة أن لا اطلق الرصاص باتجاه الاخر، المعادي. لكن إن لم اطلق الرصاص، الاخر سيطلق الرصاص. كانت هناك سلسلة طويلة من الافعال وردود الفعل المواجهة. الاحساس بطعم القتل لم يكن موحشا اذا كانت الضحية بعيدة. لكن حينما يموت رفيق لك تبدأ نوع من الهستريا الداخلية بالتولد

ثم... بم. أنت محطم وتعاني من الارق والدهشة. اقلقني الموت كليا. سيطر على جوانحي.

بعد انتهاء إحدى الهجومات وقع بين ايدينا اسرى. كلفت أن انقلهم إلى المقر الخلفي. معظم الاسرى كانوا جرحى. ادهشني أحد الجرحى الصغار في العمر حينما اندلقت مصارينه خارج جسده. كانت صفرة الموت على وجهه. كان ميتا إلا انه لملم مصارينه ووضعها في بطنه الجريحة.

أمام هذا المشهد المخرب للروح تقيأت. اردت أن اقتله تخليصا له من العذاب. عيون الجنود الجرحى كانت تنظر إلى وجهي وهي تقول لي لا. لا يمكن لك أن تفعل هذا. إحساسي بالبندقية وملمسها الحديدي كان يمنحني قوة جبارة للتحكم بالروح. شخصت عيون الاسرى باتجاهي. كلهم كانوا يقولون بوحشية، لا تفعل هذا. نشأ بيننا حوار مكتوم. لكني أريد قتله من أجل تخليصه من العذاب. صرخات الاسرى انطلقت. تماهت في المكان. خلعتني من ربوبية شكلي الالهي وأنا اوجه البندقية إلى الرأس المائل. عين الجريح تحدق بقوة في عيني. لم افهم ما الذي كان يقوله هذا الايراني الصغير. كان طفلا. طفلا ربما لم يكتف بالعاب الأطفال وغادر الزمن الطفولي إلى الزمن الحالي. كنت ارتعش أمام قوته واصراره على الحياة. بجبن قربت البندقية من رأسه. بألم ممض اخذ يتولد في روحي. وروحي تتوسله أن لا ينظر باتجاهي. أنظر إلى الجانب الاخر من العالم. سامنحك بطاقة زيارة إلى عالم الروح حيث الله أكثر رأفة مني حتما. اخذ الجنود الجرحى يصرخون. رغم أني كنت مسلحاً وهم دون سلاح. إلا انهم ارعبوني. شيء داخلي كان يتولد من البرد والعاصفة والمطر والريح والزمن الخرافي. كلكم ابناء قحبة.

صرخت بهم، مجوس، مجوس. كنا وحدنا في الحوض الخلفي للسيارة التي تسير بنا إلى الموقع الخلفي لقواتنا. وحدي مع الوجوه المستطيلة والباردة والملوثة بالطين والبارود والاكثر من هذا، الوجع. اردت أن اقتلهم جميعا. هددتهم، صرخت في وجوههم قلت لهم إن رفيقكم يموت الآن ومصارينه خارج جسده والافضل أن اساعده على الموت. لم يقبل الجرحى، اخذوا يزحفون ليقبلوا بنطالي. حذائي المليء بالطين والأمعاء والدم. كنت اكره وجوههم. اردت فعلا أن اقتلهم كلهم، لكني اطلقت الرصاص على رفيقهم الصغير.

لم أشعر بالحاسة السادسة وهي تتولى المغايرة والتنزه عن الموت. اطلقت رصاصة واحدة في الرأس وصرخ الجرحى ثم انهاروا. كانوا لا يريدون لزميلهم الموت. بعد اطلاق النار. شعرت برغبة كبيرة في أن أموت أنا أيضاً. لقد منحته الراحة. لكن راحتي أنا استلبت بعنف وكأنما أحدهم مزق أحشائي ونثرها للريح. بعد هذه الحادثة. ذهبت في اجازة إلى بغداد. مررت على حسن عجمي وزرت عبد الستار ناصر في مقر المجلة. كل شيء في بغداد كان يجري أمام عيني مثل الحلم. عيون الأصدقاء متوهجة وهي هاربة من جبهات القتال. شوقي كريم استطاع الحصول على اجازة طويلة وها هو الآن في المقهى أو البيت. أحلام منصور تكتب قصتها الرائعة. لطفيه الدليمي تزور المعارض الفنية وتمنح أوسمة للفنانين بالكتابة عنهم. لؤي حقي يطارد الاديبات الشابات ومن المحتمل انه يحصل عليهن مقابل أن ينشر كتاباتهن السخيفة.

اراني في إحدى المرات قصيدة لشاعرة شابة قال عنها انها سوف تحطم الوسط الادبي. وجدت القصيدة سخيفة جداً ولم استطع حتى اكمال قراءتها لكني قلت للؤي انها جميلة ومنحني نقودا لوجبة غداء.

مطاعم الفلافل تزداد انتشاراً وثمة نساء معقدات من الحرب بدأن في الانفلات من دائرة الموت إلى دائرة الحياة. عرفني (خ) على شاعرة كانت في زيارة لجريدة الجمهورية. قال بعد أن خرجت، اذا كتبت عنها فستمنحك نفسها إلى الأبد. اردت فعلا أن اكتب عنها والتخلص من العادة السرية. لم استطع تدوين إلا ثلاثة سطور هي البداية التعريفية فقط ثم.... سقط القلم وشعرت بانهيار اعصابي وبدأت بالبكاء. كانت صورة الجندي الصغير الجريح تشتغل على منحنيات اهليلجية روحية عميقة. اول مرة أشعر بخواء الحياة. اخرجت بندقية الجيش الشعبي واردت الانتحار لكني في اللحظات الاخيرة استطعت أن اسيطر على اعصابي وابعد البندقية ثم اغرق في نوبة حزن عميق. كنت أفكر بالجندي الصغير. أفكر في اخواته وصورهن اللاتي وجدتها في جيبه ملوثة بالدم والبصاق وسوائل مجهولة اخرى. عيون رفاقه الجنود، كنت اتخيلها وهي تقضمني مثل بقة فراش أو لسعات دبابير. اينما اوجه وجهي كان هناك انثيال مؤلم واضطراب عقلي. مارست للتخلص من الحزن، العادة السرية. ثلاث مرات متتالية ثم انهرت إلى الفراش وغرقت في نوم عميق وكوابيس متلجلجة.

بعد أن استيقظت كانت حالتي النفسية افضل. اغتسلت وذهبت إلى حسن عجمي. في المقهى جلست في إحدى الزوايا البعيدة. لم أكن أريد تجاذب الحديث. نصيف الناصري كان يقفز بين الارائك مثل قرد صغير وخالد مطلك يجلس كأنما ملك الغابة قرب النافذة ويقرأ في كتاب. كان هناك أيضاً جمال السوداني الذي جاء وجلس قربي.

طلبت من جمال أن يقرأ لي بعض قصائد الأطفال. اردت العودة إلى الزمن الاخر. زمن الصداقات البريئة والقبل في الروضة وياسمين

زميلتي وهي تمنحني بسكوتاتها من أجل أن اقبلها أكثر من مرة في فمها مباشرة. قصائد جمال كانت تنساب مثل نهر دجلة. عميقة ومتتالية وبموجات رقيقة وهناك النوارس وقوارب الصيادين وشباك الصيد المتلالئة تحت الشمس. كل شيء كان يلمع تحت سماء زرقاء عميقة وبحار من الماء السائب يدخل إلى افواهنا ونحن نغرق تلقائيا في نعومة الماء والمطر والقبل. ياسمين كانت طيبة جداً. طيبة وعيناها رائعتان، كان لونها ازرقا صافيا وببشرة بيضاء مائلة إلى لون الحنطة النقي. تلك الايام كانت رائعة، لكننا نغرق الآن في الموت. تمنيت بعمق أن أعود إلى البدايات الاولى للحياة حيث قابيل وهابيل والله فقط على الأرض.

مع مرور الوقت اخذت نوبات عميقة من الحزن تضربني واحيانا تكتسحني بقوة مخيفة. في إحدى المرات سقط طفل أمامي من الحافلة فانهرت بكاءا. كل ركاب الحافلة اخذوا ينظرون إلى وجهي وأنا اجهش بالبكاء ونسوا أمر الطفل. نزلت من الحافلة بسرعة وتوجهت إلى طبيب نفسي. أمام الطبيب لم استطع التوقف عن البكاء. كنت مثل بالون منفوخ إلى الاخر واية وغزة كفيلة بتفجيري وتحويلي إلى أشياء صغيرة. بقيت أمام الطبيب ساعة كاملة ولم استطع التوقف عن البكاء. لم أعرف لماذا كنت ابكي تحديدا لكني كنت أريد الاستمرار إلى الأبد. منحني الطبيب بعض الحبوب ثم كتب لي وصفة ابتعتها من اقرب صيدلية. العادة السرية لم تعد تنفعني كمخفف لحالة الحزن. بعد تناولي الدواء شعرت أن فمي يرتعش والكلمات التي تخرج منه تختلط مع البصاق. البصاق ينزلق. يتناثر، يغطي الأرضيات ومحلات بغداد.

زرت ابي في قبره وتهت في الشوارع. من الباب الشرقي مروراً بباب الشيخ ونزولا إلى محلة أبو دودو وحمام المالح والفضل والازرملي

وابوسيفين وسبع قصور. كل بغداد كانت تبكيني لاني أنا نفسي كنت ابكي الزمن المتولد من متاهات الطرق والبعثرة والأشياء. في لجة الحزن تمنيت أن تظهر امي من جديد. أن تحيا من بين الاموات لأقول لها، بئس ما خلقت في بطنك. اردت العودة إلى قبرها، إلى متاهة الرحم والسائل السبيائي يغطيني. لم أكن أريد رؤية العالم والعالم نفسه كان يكرهني مثل اية عاهرة. ولكن لماذا العاهرة تحديدا. لم أكن أعرف واعترف أن اجمل شيء في هذا العالم هو العاهرة. العاهرة التي اتنفسها كانت موجودة في داخلي.

واتيه في الشوارع. ثم اتقرفص على أحد الارصفة واقرر النوم إلى الابد. الدواء جعل وجهي شيئاً لا إنسانيا. مثل اي حيوان تائه اردت أن انام في الشوارع. لكن الشرطة التي فكرت فيها سوف تعتقلني ومن جديد سوف انام في السجون والتوقيفات والزمن الخرب. حسدت كلاب بغداد لأنها تستطيع أن تنام حيثما تشاء وتستطيع أن تتبرز في اي مكان. روح الكلاب تسكنني لكني اتمتع بجسد إنساني وهذا ما حز في روحي.

أنظر إلى بيوت الفضل المتلاصقة ادور في محلة أبو دودو وحينما انهار ادخل أحد المقاهي الساهرة حتى الصباح ولان ليس لي نهار او صباح كنت اغرق، اتمايل، انزوي، ارتعش، اذوب إلى الأبد في برد الليل ووحشته العقيمة. في توسلاتي الغارقة في لجة التيهان واللاقصدية العقيمة. اخرج من جيبي ورقة بائسة. ورقة متعبة وصفراء مثل زمني واكتب ثمة ابيات لشاعر مجهول لكني فوجئت بالذاكرة حبلى بالآلام والتيه. ورقة واحدة لن تكفي وطلبت من الجايجي (النادل) المصري بضعة وريقات وكتبت أن الخراب ليس خراباً والتيه ليس يهوديا والموت ليس موتا.

لم تكن هذه ابيات شعرية لكنها تساؤلات الخراب والضعف وعدم الاغتسال والرائحة الزنخة التي تفوح مني. الآن أنا امتلك نقودا، ليست كثيرة وهي ثمن القتل. ثمن أن اطلق الرصاص بلا رحمة على كل شيء حتى على امي وابي وقبرهما الخرب في مقبرة الشيخ معروف. عند الفجر خرجت من المقهى بعد أن تناولت القيمر كأي عراقي وتبولت في شارع جانبي مثل اي كلب وانحدرت إلى تيه اخر. لم أكن أعرف أين يمكن لي أن اتوجه لكني كنت أريد أن انام. أن اغرق إلى الأبد في أحلام الايام التي ضاعت وأنا في بيت الاموات الكبير هذا. كنت أنظر في وجوه الناس المتعبة وأقول لهم. هل تعرفون انني قاتل. لقد قتلت الكثير من الرجال و... الأطفال. صحيح انهم اعداء، لكنهم اناس من لحم ودم ومشاعر. طيزي على المشاعر. أنا حيوان متوحش والتوحش يبرز عميقا في وجهي.

لم اشاهد مرآة طيلة الايام الماضية وحينما شاهدت وجهي بعد ذلك، ذهلت، تفجرت. ارتعبت، اذ لم يكن وجه بمعنى الكلمة إنما صفحة من الموت. شريحة من اللحم المحروق. عرق يسيل وسط البرد ومخاط في الانف يبرز هكذا دائماً. الآن عرفت السبب، أن لطفية الدليمي لم تكن ترحب بي على غير العادة في كل مرة. لاني تحولت إلى وحش اخرق. شيء يبتلع الدماء. في الغفوات القليلة التي اخذتها في المقهى أو في الباص كنت اهدئ نفسي وهي تحترق وكنت اسأل الله، لماذا تحرقني هكذا وتضعني في بؤرة النار؟، لكنه لم يكن يكلمني، لم يبذل اي مجهود يذكر ليقول لي أن اعمالي كانت عبارة عن دم ودم فقط. الرصاصة التي اطلقتها على الايراني - الطفل - مزقتني. وجه الضحية كان يبرز من بين كل الكوابيس. كان يحيل كل شيء في حياتي إلى خراب رائع كما في رواية

أحمد خلف – الخراب الجميل – لكنه ليس جميلا البتة. ليس منعشا ولا جميلا أن تقتل إنسانا وجدت في جيبه صورة امه.

الاسرى يخرجون من رواق طويل وكلهم يرفعون مشاعل نارية ويبدأون في تحطيمي. في حرقي. في وجع حياتي الكلي. انهم ابناء قحبة ومناويك لانهم هاجموا الوطن ويستحقون كل الذي يحدث لهم. لكن الإنسانية أيها الخنزير. هل نسيتها؟ وكنت أقول لأحلامي وكوابيسي لا لم انس إنسانيتي وإنسانيتي تتطلب أن اقتل من أجل أن أحمي سيدي الرئيس والشعب. نكته غريبة وسمجة. نكتة ملوثة بالبراز. لكن اسمع أيها السيد. عليك أن تقاتل مرة أخرى من أجل الحياة. حينما تكون منزويا. مليئا بالخطايا والجبن والخوف فانك سوف تموت. ولم أكن أريد أن أموت ومن أجل أن اعيش كان يجب أن اقتل، المزيد والمزيد من الحيوانات. المزيد من القمل والبرغوث والصراصر الايرانية. لانه بالقتل وحده يحيا الإنسان.

وفيما كان جسمي يرتعش ويهتز اسمع صرخة قاتلة. صرخة ناعمة وناعسة مشبعة بالشبق. ارفع رأسي إلى الاعلى وانظر في وجوه الناس البلهاء والمجانين. الصوت مألوفا. من هذه التي تصرخ في برية الله وبوجه الإنسان المحطم والقذر والمليء بالخطايا. وتقترب مني امرأة رائعة ولم استطع تبين وجهها. ويقول لي الصوت الانثوي. الم تعرفني؟. استرجع اليات التذكر واصرخ. روز؟ ويقول الصوت نعم أنا روز. لكن وجهك يختلف عن الوجه الذي أعرفه،. وتقول المرأة المتشحة بالبياض والضباب والنور والألم والوجع. نعم اجريت عملية تجميل لانفي. ويا للوجه الجميل. لقد تحول وجهها إلى وجه عاهرة من الدرجة الاولى. وتمسك باصابعي وتصعدني إلى سيارتها. بعجل وبكبرياء عال.

الناس المتوقفون كانوا ينظرون إلى النور والخرافة والسفالة.

نظرات حقيرة كانت تنطلق من عيونهم، تلسع ظهري وقفاي ومؤخرتي الجميلة. في سيارة روز اجلس كأنها حشرة نافعة. لا ليست نافعة إنها حشرة قذرة وكنت اخشى أن الوث السيارة المعطرة والجميلة والجديدة. قالت هذه السيارة هدية وطبان ابراهيم الحسن- اخ الرئيس – بعد أن فازت بمسابقة الجمال في مدينة الحبانية وعلى الفور عرفت القصة كلها. كانت تقود السيارة بتوتر وعصبية رغم جمالها. رغم النظرة العميقة والقلقة التي كانت تنظر بها إلى قميصي الوسخ ورقبتي السوداء. لم اغتسل لثلاثة اسابيع وفي بغداد أن لا تغتسل لمدة اسبوع يعني جيفة متنقلة.

ونذهب إلى البيت. عضوي نائم، يغفو، وثمة انفلات من الارتعاش يضرب وجهي. تناولت حبتين اضافيتين من حبوب الكآبة لابدو حشرة طيبة. اقلب التحف الفنية في الصالة. هناك صور لروز مع السيد وطبان وهناك صوره اثناء حفل اختيار ملكة الجمال في الحبانية والتي كان وطبان حريصا على حضورها.. لا أعرف لماذا كان هذا المسؤول وغيره من اقرباء الرئيس عبارة عن قضيب منتصب. كل همهم في هذا العالم أن ينكحوا فقط، حتى عدي كان مثلهم والاب أيضاً والابناء والاحفاد. كل شيء في البلد يبدأ بالنياكة والاغتصاب وينتهي به. امة من الدعارة متكونة من غرائز حيوانية فقط تسير على ارجل وتقذف في الشوارع وفي كل مكان. فيما أنا أنظر إلى صور روز مع السيد وطبان وبرزان وسبعاوي وادهام. تنتابني حمى غريبة. حمى الجنون اذا صح التعبير.

انزل الصور الفوتغرافية واجلس على الأرض شبه منهار، رائحة

العفونة تفوح مني. منذ ايام لم اخلع حذائي واذا ما فكرت الآن بخلعه فأني أعرف اية كارثة ستكون. جاءت روز بعد دقائق وهي تحمل الشاي المعطر بالهيل. جلست على الاريكة وأنا على الأرض مقابل صور المجانين. لم تعلق روز على وضع الصور الفوتغرافية أمامي وأنا في شبه حالة من الخبال والجنون. تصورت نفسي أني سوف اسقط الآن صريعا من اثر نوبة صرع. لكني تمالكت نفسي. سألتني عن أحوالي فقلت لها انها اتعس حال في العالم المعاصر. شرحت لها أني اتحول إلى حيوان بملامس طويلة واني صرت أشبه صرصاراً كبيراً، وما على الاخرين إلا أن يدوسوني بارجلهم واحذيتهم والحقيقة أن الجميع يطأني الآن. يدوسني. يعتصرني ولا يخرج السائل الاصفر اللزج من امعائي إنما من فمي.

بكيت في حضرة روز بشكل طويل وكأنما كنا في فيلم هندي. البطل غريب عن هذا العالم والعالم يغرق في سفالته المميتة. حدثتها عن المعاناة الكبيرة والتوجس والرعب الذي اعيشه في الجبهة وحدثتها أيضاً عن الانزواء المحتوم لي داخل الوسط الثقافي، وكيف انهم يلعنوني اينما اذهب ويمارسون تطويقي. لم أكن أعرف لم كانوا يفعلون هذا. لم أعرف السبب الذي يدعوهم إلى محاربتي ومنعي من النشر رغم أني فزت بجائزة اذاعة فرنسا الدولية للقصة القصيرة. عندما سمعت بخبر الفوز. أحسست أني عراقي مائة في المائة. عراقي منح الوطن شيئاً جديراً به. شيئاً غريباً وجميلا وشعوراً بالزهو. المناويك في الوسط الادبي. لم يهتموا. لا بل اخذوا ينشرون الاشاعات أني لست من كتب قصة الفوز، إنما شخص اخر.

اشاعة أخرى تقول إن القصة الفائزة هي من بنات افكار شوقي

كريم. اشاعة ثالثة تحدثت عن أن فكرة القصة مسروقة عن قصة المانية. ابناء الافاعي لم يمهلوني الوقت لأتمتع بالفوز. إحساسي بأني صنعت شيئاً جميلا للوطن دمر تماما. حطم، بعثر، تلاشى، وعدت مرة أخرى إلى الاكتئاب والحزن والضياع. لقد اضاعوا اجمل واحلى وارق الأحلام واللحظات في حياتي.

كرهت هذا الوسط الجبان، السفلسي. كرهت تقاريرهم السرية التي ترفع إلى وكيل وزراة الثقافة والى رعد بندر ولؤي حقي ونجمان ياسين و ضابط أمن وزارة الثقافة والاعلام. كرهت خرائهم وغائطهم ونياكاتهم والمقهى السري للنذالة. كل شيء كان قذراً، تفوح منه الرائحة الزنخة للاباط والاقدام. رائحة تخنقك أكثر من سلاح كيمياوي. حتى عبد الستار ناصر لم يستطع أن يدافع عني برغم قوته وجبروته. كانت هناك ماكنة كبيرة. ماكنة تفرمنا واحدا بعد الاخر، لم تسلم من هذه الماكنة حتى لطفية الدليمي وحياة شرارة. الجو الخانق يزحف علينا. يزحف من كل مكان وتحول كل شيء إلى بيع وشراء وقوادة مباحة ومبذولة.

مطاعم الفلافل لم تنتشر بشكل كبير بعد، لكن كل شيء تحول إلى هستريا عامة. ادباء همهم الوحيد أن يتعرفوا إلى مسؤول ليكتبوا له وادباء ادمنوا الخمر حتى الموت. اذا اردت النشر عليك أن تكتب ادب المعركة. تيار من الادباء ادمن الكتابة عن الحرب. صار لا يفكر أن يكتب عن الموت المؤلم في الجبهة. لم يكتب عن الجرحى والمخذولين والهاربين والمرضى النفسيين. إنما يكتب عن الانتصار والروح الحربية للإنسان والتضحية بالجسد والروح للوطن. لكن هناك الجانب الاخر من الحرب. الوجه البشع، كانوا يتحاشون هذا الألم. وبعد كل قصة ورواية عن

الحرب كان الاديب يستلم سيارة هدية أو يسافر إلى اوروبا للاستجمام وعلى حساب الدولة وهناك حساب مفتوح له.

لم يكن هذا كل شيء. كان هناك الادباء العرب أيضاً، خراء، والذين كانوا يشفطون المكافأة مثلما يشفط رجل كأسه في حانة رخيصة. يشفطون. يشفطون ويمتصون عظامك ولقمتك ولعنتك وانت تتوسل أن ينشروا لك من أجل الله، من أجل المكافأة، من أجل الشحيح من النقود لشراء ورق الكتابة لانك مللت من الكتابة على ورق يجلبه لك محمد الاحمد مجانا من دائرة الكهرباء.

كنت ابصق على الزمن والعهر وديدان الانكلستوما والباجة والثريد والتشريب. أموت في الشوارع مثل صرصار صغير وليس هناك من أحد يسأل عنك لكن بمجرد أن تنشر قصة واحدة خارج العراق تثار حولك الشبهات والتقارير. أكثر الأشياء التي اكرهها في هذا الوطن هو التقارير. كانوا يكتبون كل شيء عنك. اذا ما فكرت وكتبت قصة ثم تحدثت في مقهى حسن عجمي عن ثيمة النص فإن التقرير سيرفع في نفس اليوم. كانت هناك آلة ضخمة. آلة رهيبة عبارة عن ملاقط وميكروفونات تتجسس عليك حتى في الأحلام. لم ينفع أن تكون بعثي. لا تشفع لك بعثيتك في حين أن الاخرين يتجسسون عليك ويكتبون التقارير تلو التقارير من أجل وجبة سكر في مقصف الاتحاد أو وجبة زرازير مشوية على الفحم. كاس واحد وقنينة واحدة من العرق أو البيرة هو ثمنك وكان المناويك يكتبون اطول التقارير في العالم.

في الساعة التاسعة صباحاً، دخل مقهى حسن عجمي. في التاسعة وعشرة دقائق جاء أبو داود باستكانة الشاي. في التاسعة والنصف تحدث مع خضير ميري. الايحاءات الصادرة والغمزات بيه وبين خضير

ميري تشير إلى أن هناك امراً سريا. في العاشرة وعشرة دقائق تحدث مع اربعة ادباء من البصرة على انفراد، من المحتمل انهم يعدون مشروعاً ثقافياً أو مؤامرة ادبية متمثلة في النشر خارج العراق. عبد الامير جرص يحمل كتاب موجود فيه اسم ماركس. حميد المختار شوهد يسير مع رعد عبد القادر ثم اتجهوا إلى مطعم مجاور للفرن الذي يعمل فيه ضياء سالم. حميد المختار شيوعي سابق لكنه الآن يكتب قصص غريبة ذات دلالات دينية. اشترى خالد جمعة قميصا جديدا وينوي كتابة قصيدة عن..... ولم يذكر فيها السيد الرئيس، من المحتمل أن له علاقة بالادباء العراقيين خارج العراق. صلاح صلاح، خطر ، سبق وأن صدر بحقه، أمر القاء قبض وابيه شيوعي متوفي وامه شيوعيه نفذ فيها حكم الاعدام رميا بالرصاص. لا نعرف اتجاهه السياسي إلا انه لم يكتب عن الحرب، شوهد يوم الاثنين الماضي يسير مع إحدى قحاب الفضل ويتجه إلى مكتبة (أبو داود) في شارع الرشيد. دائماً يحمل في يديه كتاب عن هيجل ولا يتحدث كثيراً في المقهى ويعاني من كآبة حادة وخصيته منتفخة. رياض ابراهيم شوهد يوم الثلاثاء الماضي في شارع المتنبي وقال لـ.... الذي نقل الخبر لي انه يبحث عن قصائد سعدي يوسف ويستمع لابراهيم تاتلسس كل يوم ويوجد لديه بالاضافة إلى مرض الكبد. ديدان خيطية ويتوسل دائماً أن يدعوه أحد إلى وجبة افطارمجانية.

ضياع كبير وجبار. ضياع مسربل بالتنتريوك والديتول والقذارة والغائط والخراء والتمايز الاخلاقي والانجراف إلى حافة المحيط. تسقط اسرائيل وتسقط امريكا ويسقط لينين ويسقط ماركس وانجلز والسقطي البغدادي والنظرية الجدلية وهيجل وعبد الستار ناصر وخضير عبد الامير واحمد خلف وخضير ميري ومحمد الاحمد و سعد

جاسم وكل ادباء البصرة والموصل وباب الهوى. وتعيش الديدان الحلزونية والقيئ والقحاب ورعد بندر وخالد مطلك وبار اتحاد الكتاب وضباط الأمن والمخابرات والأمن العام والخاص والحرس الجمهوري الخاص ودائرة الاستخبارات العسكرية ووكلاء وزير الثقافة و دائرة البريد المركزي، قسم الرقابة. ودائرة أمن بغداد والشعبة ١٣ ومكافحة التجسس والعمليات الخارجية وفرق الاغتيالات ودائرة متابعة المثقفين في رئاسة الجمهورية ومكتب السيد النائب. وجاسم الرصيف ولؤي حقي ونقابة الصحفيين وججو أبو العرق. وابكي. وانهار، واتلعثم واتحشرج وتكاد روحي تخرج من جسدي واتحول إلى كتلة جائفة من القئ والحموضة والانهاك والتعب والانحطاط.

اتناول استكانة الشاي بارتعاش واشرب بخفوت. روز أمامي تنظر إلى وجهي غير مصدقة الآلام التي اعاني منها. لم يكن لدي بيت اوي اليه. الزمن والخراب يلاحقني. وتمسد شعري الدبق والذي تنتشر فيه القشرة واغرق في متاهة طويلة من الالغاز. احس باصابعها ساخنة وتقول لي. لا تهتم سوف اجعلك افضل واحد بين اولئك المناويك. سوف لن يستطيعوا أن يكتبوا عنك المزيد من التقارير. سوف اتحدث مع وطبان ليفتعل بامهاتهم. أنحني أمامها مثل هندي أمام ربه واتوسلها أن لا تفعل لاني لا أريد أن ابدو مثل الاخرين.

الفصل الثالث

استيقظت منتصف الليل اثر تكرار مرعب للكوابيس. الاسرى الايرانيون يركضون خلفي وأنا في حالة سكر شديدة وامعائي خارج بطني.

عندما وصلت إلى تلة وتسلقتها برز عبد الستار ناصر وهو يحمل بين يديه قنبلة يدوية تشبه خصية محمد تركي النصار. قلت لعبد الستار وفمي يرتعش والبصاق يتطاير منه. ناولني القنبلة بسرعة من أجل التخلص من المناويك إلا أن عبد الستار اقترب مني ثم... فجر القنبلة وتتطاير اللحم والعظام. هربت من عبد الستار ناصر وهو يركض خلفي ويصرخ انه يجب أن تكتب عن.... وأقول له وبفم جاف وعطش شديد ، لن اكتب.

وعندما أصل إلى نهاية التلة وأشعر أني سوف انهار إلى الأرض يخرج شوقي كريم من بطن ذئب وهو يتلوى ثم يقع على الأرض ويخرج من فمه طائر الدو السومري. بعد هروب الطائر يتأرجح حبل طويل من مشنقة حيث محمد تركي النصار يمسك خصيته المتورمة ويرمي بها الشعب الواقف للتفرج على مشهد الموت وهناك من يصرخ، أن اقتلوا

الخونة والمناويك.. خصية محمد تركي النصار تتضخم، تصبح عبارة عن بروستاتا مهولة ثم تنفجر في وجوهنا معلنة أن الزمن عبارة عن خراء كلي وبعد الانفجار العظيم تجئ كلاب السيد الرئيس وتنهش وجوهنا وعظامنا وهي تعوي مرددة خونة، خونة.

لم استطع بعد تلك الكوابيس العودة إلى النوم. بقيت ارتعش وكأنما اعاني من نوبة ارتفاع حرارة. في الصباح رويت كوابيسي إلى جدتي التي قالت وهي تصب الشاي باصابعها المصابة بالروماتيزم. أن جنود خميني هم الموت وأن حياتك سوف تتأثر بمشاهد سوف ترفضها في داخلك. أما شوقي كريم فهو ذئب لكنه سيبقى صديقك رغم انه ينتف ريشك في بعض الاحيان، أمامك وغالباً خلفك. بعد أن تناولت الفطور. قلت لجدتي إني أريد أن اتزوج. لم تعلق جدتي وبقيت تشرب شايها بهدوء.

لا أعرف لكن كابوس الليلة الماضية كان يقلقني. ربما سوف أموت مبكراً وانه يجب أن اتزوج، فكرت في هذا الموضوع بشكل موسع واثناء توجهي إلى حسن عجمي. كانت أمامي افكار مقلقة عن الجبهة. دائماً حين أفكر بالحرب اتصور انه ربما سوف تأتيني قنبلة ما وتقطع عضوي التناسلي وترميه إلى التراب ومن التراب تخرج الديدان وتلتهمه باعتباره وجبة ساخنة. في الطريق فكرت أيضاً بروز وسلوى ومي. الاولى أصبحت محظية والأخرى تعمل وكيلة للمخابرات. اللعنة. فكرة الزواج باحدى هاتين المرأتين يعني انك سوف تصبح قوادا رسميا، لكنك ستكتشف الالعاب السرية والمؤامرات الداخلية وستفهم كيف أصبح لؤي حقي مستشاراً في رئاسة الجمهورية ورعد بندر وغيرهم.

أصل إلى المقهى وأنا أشعر بحالة خذلان. يقول لي نصيف

الناصري الهارب من معركة كردمند، أن حميد المختار تم ايداعه في مستشفى المجانين. ونذهب أنا وشوقي ونصيف وجان دمو وفي الطريق نشتري لحميد حب شمس قمر وسمسمية لانه يحبها جداً ونصعد الباص إلى منطقة الشماعية واثناء جمع اجرة الباص يتشاكل شوقي مع الجابي ويطرد من الباص ونتوسل السائق أن يعفو عن شوقي إلا أن شوقي يقول، سوف انزل واترك الباص وليذهب كل شيء إلى الجحيم وبعد توسل يبقى وكان وجود شوقي مهما لحميد وفيما الباص يسير يشعر شوقي انه بحاجة إلى التغوط ونتوسله أن يصبر قليلا ريثما نصل، إلا انه يصر أن ينزل ليعملها في اية قطعة أرض فارغة.

لم نستطع اقناع شوقي. وننزل من الباص كلنا ويجد شوقي أرض مفتوحة ويعملها هناك، ودون أن يتشطف يجي إلينا ورائحة البراز تفوح من ملابسه. نصعد باصا ثانيا ويتقيأ جان على أرضية الباص ويجيء السائق ويطردنا. ننزل من الباص وتحت سماء ماطرة نبقى ننتظر أن ياتي باص ثالث، لكن لم يأت ونسير ويلتهم جان جزءا من السمسمية ونصفعه ويعترض شوقي ورائحته نشمها من دائرة نصف قطرها كيلومتر واحد.

وبعد أن تبللت ملابسنا تماما نصل المستشفى. ونجد حميد في القاعة وحيداً ويمنعونا من رؤيته - وجها لوجه - وأمام توسلنا يسمحون لنا ويصعد حميد ويقف على كرسي وحيداً في القاعة ثم يقرأ اخر قصة قصيرة كتبها وبعد انتهائه من القراءة ينحني محييا المشاهدين. يقترب شوقي من حميد وتنشب معركة، لكن حين يشاهد حميد السمسيمة يهدأ روعه من اثر صدمة رؤية شوقي ثم يبدا بالتهام الحلويات.

بعد نصف ساعة وهو الوقت المسموح لنا بالبقاء فيه. يجئ رجال باجسام ضخمة ويأخذون حميد إلى غرفة الكوي الكهربائي. نخرج من المستشفى ونحن في حالة انهيار عصبي ومعنوي.ويقسم شوقي انه لن يعود إلى الحرب وجان دمو يقول له أنت اكبر مرحاض في العالم ثم ندخل باراً قذراً ونتناول عرقا ونشعر أن العالم لم يزل بخير وأن الفتوحات الاسلامية وصلت جزر الهونولولو وجان دمو يقود الجيوش المتوجهة إلى منغوليا وماوراء نهر المسيسبي، نترك البار ونتجه إلى المقهى. كنت أشعر بالبرد والهستريا اذ أن منظر حميد وهو يبكي وشوقي يمنحه السمسمية اثار مشاعري. تمنيت أن لايكون مصيرنا هو ذات مصير حميد. فكرت أن اهرب من الخدمة العسكرية لكن لم أعرف إلى أين يمكن لي أن اتوجه أو اختبئ. كنت أعرف أني اذا ما قررت فعلا الهرب فإن نصيف الناصري وشوقي هم اول من سيبلغ عن هروبي.

❊❊❊❊

سافرت إلى بعقوبة بعد أن شعرت أني بحاجة إلى اجازة للتخلص فيها من شوقي كريم ونصيف الناصري وحسين الصعلوك الذي اخذ في الفترة الاخيرة يراسل الادباء العراقيين في الخارج ويكتب لهم اننا نحابي السلطة والقائد الضرورة ونشكل محوراً راديكاليا منبطح للسيد وكيل وزارة الثقافة والاعلام (لم يكتب حسين الصعلوك رسائل عن رعد بندر ولؤي حقي).

فكرت في البداية أن اذهب إلى منزل مصعب أمير في دربونة الدجاج إلا أني غيرت رأي بعد أن اكتشفت أن مصعب لم يزل في الجبهة

وانه مسجون هناك لاسباب نفسية. ذهبت إلى منزل صلاح زنكنة ووجدته هناك إلا أن زوجته ضربتني بالاحذية وبعد توسل وافقت على استضافتي لايام محدودة. قلت لصلاح أن اعصابي منهارة وأن لا شيء يمكن أن يساعدني للخروج من هذا الوضع إلا أن يذهب معي لزيارة جارهم.

كنت أريد خطبة الفتاة التي تسمى مي. وافق صلاح وذهبنا في نفس اليوم وبدون مقدمات قلت إني جئت لخطبة ابنتهم مي. وافق الاب بسرعة. لم تمض إلا ايام معدودة حتى اعلنت الخطبة واستطعت الخروج مع الفتاة وزيارة بغداد سوية. طيلة فترة الخطبة انشغلت عن الذهاب إلى مقهى حسن عجمي وأصبحت أكثر اهتماما بالنقود.

روز من جانبها حينما سمعت بامر الخطبة ومشروع الزواج اقترحت أن تتحدث مع وطبان من أجل نقلي من الجبهة إلى بغداد. لم اوافق على المقترح وفضلت البقاء في البصرة، رغم أن هذا يضطرني لممارسة العادة السرية بشكل مكثف.

اثناء عودتي في احدى الاجازات الدورية. تعرفت على احدهم في الباص. كان يرتدي دشداشة بيضاء وهو أشبه بالمسرنم ويبتسم مثل اي مخبول. كان اسم هذا الشخص دعيبس الجرار وهو من ابناء بعقوبة. حدثني برغم جنونه الظاهر عن قدرته على الاشفاء واردت أن اخرج له..... لكي يشفيه من بثرة تؤلمني نتيجة الاستمناء. قال انه يستطيع أن يشفي كل لامراض بما فيها امراض الكآبة والتعب والارهاق وكره الحرب والجبهة.

بعد حديث طويل دعاني إلى منزله عند قنطرة خليل باشا. وصلنا

البيت واعلمته أني اديب وصحفي وانوي اصدار رواية قريباً واني سوف افوز بجائزة الابداع المجنح ولم تكن هناك جائزة بهذا الاسم، بدا أشبه بالمخبول. جلسنا على الأرض بانتظار الغداء لكن الغداء لم يصل وحين سالته عن الطعام قال انه ينتظر من الله أن يرسل له طعاما. بعد دقائق طرق جارهم الباب وجاء بصحن من التشريب. ضحك دعيبس وقال الم أقل لك أن الله سيرسل لنا الطعام. اكلنا التشريب االسئ الصنع واخذ صاحبي يتجشأ ثم جاء جار اخر بآنية فيها لبن بائت رائحته تشبه رائحة كلب مسلوق.

اخذت اتجشأ، وقال دعيبس أن اوان الصلاة قد حان. قمت واردت التوضأ لكني لم أعرف ماذا يجب أن أقول. اخذت احدق فيه وهو يريق الماء ومثل شمبازي صغير اخذت اقلد حركاته أما الادعية وما شابه فكنت أقول أشياء لا على التعيين. لم أكن أريد أن ابدو كمن لا يعرف الصلاة واخذت اتذكر توصيات أحد الاقارب عندما اخذ بتعليمي الصلاة.

بعد الانتهاء من الركوع والسجود، جلس دعيبس منزويا واخذ يقرأ في كتاب الاوراد الصوفية، وانهى كتاب كامل اثناء جلوسه.بعد أن انتهى الحفل قلت له إني أريد أن أقول إني سوف اتزوج عما قريب وفوجئت انه اخذ يقبلني ويقول نعم الامر. الزواج نصف الدين وهكذا ستكبر امة محمد. قال انه على استعداد لمساعدتي. اردت أن أعرف نوع المساعدة التي سيقدمها لي. قال انه سيعرفني إلى إمام مسجد الفاروق، الشيخ اسامة. قلت وما علاقة هذا بالزواج. ابتسم وقال من أجل أن يرزقك الله المال والبنون.

خرجنا من المنزل وشعرت أن امعائي تتقلص واني امضي إلى

طريق مجهول. شتمت في سري صلاح زنكنة وهذه المدينة المجنونة.بعد دقائق من المسير شعرت بألم ممض. طلبت من دعيبس أن يجد لي مكانا انزوي فيه واخرج ما في امعائي. نظرنا سوياً إلى ما حولنا لكننا لم نجد مكانا امنا ثم وجدت نخلة منفردة وكما فعلها قبلي ابطال، فعلتها خلف النخلة. وصلنا إلى المسجد وفجأة قال دعيبس للشيخ اسامة إن الفتى يريد أن يأخذ الطريقة الصوفية منك. وعلى عجل اخذني الشيخ إلى مكتبه ووضع ركبته على ركبتي واخذ يقرأ. لم أكن قادراً مع تسارع الاحداث على التسأول أو الاعتراض.

اردت أن أقول له إن هناك غلط ما وسوء فهم. مشكلة تتعلق بأني اساسا لا أصلي. إلا أن الشيخ وكما يسلق الواحد بيضا استمر بتأويلاته وقراءاته وهمهمته. بعد أكثر من نصف ساعة من القراءات والادعية شعرت بنوع من الاسترخاء. استرخاء جميل وأن شيئاً غريباً اخذ يدخل في امعائي وبطني ثم تسلل إلى رقبتي ورأسي.

فيما كان الشيخ اسامة يقرأ تعاويذه فكرت في الاعتراف بالذنوب. بالاخطاء. بالسرقات. فكرت بالطفولة المؤلمة والقاسية وبالقدر. الطفولة التي قضيتها في غرفة صغيرة وبائسة والطفولة التي انزرع فيها لاول مرة نبض الكتابة عندما زارنا أحد الاقارب ويدعى الاثول. كان هذا مهتما بالادب وغالباً عندما كان يحضر يحمل بين يديه مجلة الاقلام أو كتباً لمشاهير. عندما قرأت اول الحروف من قصيدة لا اتذكرها الآن، شعرت أني انجذب إلى عوالم غريبة. كان الاثول يحدثني عن الشعر وعن هيام الشاعر وأن النبوءة حالة شعرية. النبوءة، يا لهذه الكلمة الملهمة والمهمة والغنية. حلمت بعد أن غادرنا أن أصبح شاعراً وأن أقول أشياء نبوءية وتصبح صوري على اغلفة المجلات.

الاثول قال، انه يتوسم في شاعرا. ستكون قادراً على ادارة العقول والجميع يشير إلى أن هذا شاعرنا الجهبذ. الشاعر البارع الذي (يملخ) الدنيا. احساس الكتابة وصور الكتاب وهم في همهمة اللحظة الكتابية والابداعية كان يحمسني أن اكتب أنا أيضاً. كتبت أشياء عبارة عن خربطات وشخابيط. محاولات اولية في الشعر والسرد والتمعج والانحطاط.

في المرة الاولى التي مسكت فيها القلم. شعرت أن شيطان الشعر يعضني. وفاجأت الجميع بان قلت إني سأكون كاتباً. كلهم عض شفتيه. قالوا لي لماذا؟ اتريد أن تموت جوعا، لكن كيف سأموت جوعا والكتاب تملا صورهم المجلات. انهم يكذبون. يحاولون قتل الموهبة. قتل روحي واستعبادها، وتحطيمها. قريبنا الاثول قرأ في مناسبات تالية واثناء زياراته المتتالية ما كتبت، اعترف انه اعجب بها.. لكني لم المح ولم انتبه انه كان دائماً يأتي جائعا وتعد له جدتي طبق التشريب ويأكل ثم يسأل عن المرحاض. صورة الشعر بالنسبة لي والكتابة تحديدا، ارتبطت في ذهني برائحة التغوط. أو لنقل بشكل أكثر دقة بعمليات التفريغ الذاتي للشحنة الموجبة في الذهن.

ومن هناك. من مرحاض جدتي تولدت اول الرؤى. اول الحالات الشعرية والكتابية. كنت ادخل المرحاض ليس لافراغ امعائي. إنما لافراغ التشنج والخوف والاندهاش. الورق والكتب كانت هي الأخرى تشكل بالنسبة لي شيئاً مهما. الورق بحد ذاته، عشقته وعشقت الاقلام وكنت احتفظ بالرغم من فقرنا المدقع بعشرات الاقلام المختلفة. لم يكن الحصول على كتاب مسألة هينة. كان شراء الكتب يشكل لجدتي معاناة كبيرة. كنت اضرب عن الطعام من أجل اذلالها وفي النهاية كانت تقتطع

جزءا من مصروفنا الشهري، ربما يعادل شيئاً كبيراً، من أجل أن اشتري كتاب.

أمام الجوع والعري وقلة الحيلة وعدم وجود النقود التي كرهتها. وجدت وسيلة أخرى للحصول على الكتب. كنت ادخل مكتبة أبو سمير في حي الخضراء واشتري كتاباً رخيصا ثم اسرق واحدا اخر. الكتاب المسروق دائماً كان متعة لا توصف. كنت احتفظ بالكتاب المسروق دائماً وفي ليلته الاولى في المطبخ، تحت المخدة. كنت اتنفسه واعشقه مثل اي فتاة معي في الروضة، تمنحنا المتعة المتأتية من رؤية لباسها الداخلي المرسومة عليه ورودا وأشجاراً واقماراً. بعد كل كتاب اسرقه كنت اعيش حالة من الاغتراب عن المجتمع.

عرفت كل مكتبات بغداد الضخمة وسرقت من كل تلك المكتبات، كتب غارسيا ماركيز ونوال السعداوي ونيتشه وكولن ولسن وتفسير الجلالين والنفري والطواسين وقلائد الجواهر.ليس هناك استثناء لمكتبة. لم يكن هناك كتاب يمنعني من تحاشيه، سواء اكان هذا الكتاب عن المسيح أو عن محمد أو موسى. كل الانبياء كانوا في مكتبتي التي توزعت كتبها على الأرض وعلى الرفوف حتى أن جدتي اشتكت من أن هذه الكتب جلبت لنا الفئران والصراصير والاوبئة والموت والنجاسة.

اهملت مع القراءات كل شئ. وشعرت أن المدرسة تؤلمني، تسبب لي انتفاخا فراغيا من الضراط لا أعرف لماذا كنت أشعر بالكره تجاهها. كل ما اردته من الدراسة هو أن تمنحني فقط فرصة التعرف على الحروف والكلمات. أما التحصيل الدراسي فلا شيء يهمني. كنت أشعر أن المدرسة هي عبارة عن عار شخصي. واني احصل على المعلومات بطرق

جديدة وكرهت التعليم البائس والموحش والصف والبرد.

اثناء الامتحانات كنت اكتب للمدرس اسئلة عن الوجود ولم أكن اجيب عن اسئلة الامتحان. لم يكن الامتحان يهمني. لم يكن هناك إلا مشروع واحد في الذهن. هو أيهما افضل، انتظار الموت ام التقدم نحوه. ونحوه دائماً كانت الاشكالية الفلسفية تشغلني.

كنت أقرأ التساؤلات الكونية واصوغها وفق مفهوم الحاضر ووفق مفهوم الزمن ولم يكن الزمن يهمني بالقدر الذي يهمني، أن أين وصلت في مسيرة الاندهاش من العالم.. صفنا لم يكن فيه إلا مجموعة من الحيوانات باستثناء مازن دنخا. الفتى المسيحي الوحيد ضمن صفنا الحيواني. دائماً كان مهذباً وجميلا ونظيفا. مجموعتنا لم تكن تضم مازن.ولم يكن هو يقترب منا. علاقتنا به كانت سطحية للغاية وكان هذا يستفزنا إلى الدرجة التي كنا نحقد عليه لانه يذكرنا بعارنا. مجموعتنا الحيوانية كانت غبية. لم يكن اي واحد منا يحصل على اية درجات دراسية مهمة. لا بل إن اغلبنا كان يرسب في الدروس وحتى درس الرياضة والرسم البائس كان مازنا متفوقا فيه ومحط اهتمام المعلمين.

كنا نغار منه. لم يكن التفوق فحسب إنما العادات الاجتماعية والبرستيج الذي يتمتع به وزيارة اخته الكبيرة والمستمرة للمدرسة للاطمئنان على وضعه. اخته جميلة. لا بل خارقة الجمال وشعرها دائماً ملفوفا إلى الخلف. تأتي للمدرسة بسيارة الدودج الطويلة.

أحد افراد مجموعتنا والذي أصبح فيما بعد شرطيا. كان كبيراً في السن ويتمتع بطول خارق. كان يقول لنا دائماً انه مارس الاستمناء هذا اليوم اربع مرات وكان يتخيل دائماً اخت مازن. لم أكن أعرف الاستمناء

والمرة الوحيدة التي مارسته دون أن اقذف، لمحتني فيه جدتي وضربتني بالنعال الاسود. لم يكن لي مكاناً أصلا مثل حسن ابن الخبازة الذي كان يمارس العادة السرية في ركن الحمير في بيتهم. كل بيتنا هو عبارة عن مطبخ صغير مبني من الصفيح.

مازن كان شيئاً جميلا في حياتنا. شيئاً ملغزا. حسن المعيدي ابن بائعة اللبن وطراد ابن خضير الركاع وابراهيم ابن الشرطي، كانوا دائماً يقولون إن عائلة مازن سيئة واخته تلبس الشورت وتتمشى في حديقة بيتهم. كان الزملاء يقسمون أن اخت مازن كانت تشرب العرق المستكي وانهم رأوا في احدى ليالي الصيف اخت مازن وهي تنزل من سيارة احدهم وام مازن والاب يقفون أمام الباب. كانت عائلة قواويد والادهى من كل هذا أن الاب، كان ماسونيا ولم افهم هذه الكلمة.

طراد ابن خضير الركاع كان الاكثر هوسا بمازن وكان دائماً يحدثنا انه بعص مازن أكثر من مرة اثناء رفعة العلم. كان مازن في رفعة العلم يقف ساكنا، مثل صخرة لا يتزحزح حتى تتم المراسيم. كنت اشك في الروايات التي يرويها الأصدقاء عن مازن وفي اليوم الذي صادقته وجدت شيئاً مختلفا فعلا. كان محترما وليس مثلنا. اتذكر على نحو مدهش الايام التالية والتي استطعت فيها أن اكسب فيها صداقته، حيث شكرني لاني لست مثل الاخرين وقال انه يعرفهم ويعرف استفزازهم وانه يعرف ماذا يفعل طراد اثناء رفع العلم. لكنه، لا يريد أن يرد على الاساءة باساءة مماثلة لأن الاب يمنعه. ولكن اي اب هذا الذي يتحدث عنه. في البدء تصورت أن الاب الذي يعنيه لم يكن إلا الاب المباشر لكني اكتشفت أن الاب الذي يقصده كان شيئاً اخر، شيئاً ملغزا لم افهمه رغم انه قال إن المقصود بهذا الاب هو الله. ولم افهم. ولم أعرف وغرقت

في اشكالات ذهنية عديدة. كيف يمكن لله أن يكون الاب وكيف يمكن أن نكون نحن اولاده. هل يمكن فعلا أن نكون ابناء الله؟ هل يمكن أن يكون زوج امي ابن الله أو ابن الخبازة أو حتى مجموعتنا البائسة ومعلم الرياضيات ومعلم اللغة الانكليزية.

لم استطع تمييز الكثير من الاشكالات والفهم المغلق وقلت فعلا إن مازن واهله كفرة اذ من المعروف أن ليس لله ابناء، ليس له ابناء مثل ابناء القحبة - جماعتي -.

في بيت مازن - بعد أن توثقت علاقتي به -. شاهدت أكثر من مرة اخته الجميلة. كنت متحمسا عندما دعاني للعب في بيتهم. كنت أريد أن اشاهد اللحم الابيض لاخته. وشاهدتها هناك. شاهدتها وهي تلعب الكرة في المنزل وترتدي بنطلونا قصيراً وبمرور الوقت اكتشفت انها ليست قحبة، بسبب ارتداؤها الشورت. انهم عائلة متدينة. كل أحد كانوا يذهبون إلى الكنيسة المجاورة لمنزلهم. وفي البيت تشاهد في كل غرفة، صليباً وكتاباً مقدسا وعذراء، ام مازن كثيراً ما كنت اشاهدها وهي تركع أمام الصليب في غرفة الضيوف وتصلي. كانت تصلي بعمق وعيونها دائماً دامعة.

البيت من الداخل كان جميلا، معطراً وكنت اشم رائحتهم اللطيفة، رائحة الاب والابن والروح القدس. كل غرفة في المنزل تفوح بروائح العطور وليس مثل امهات اصدقائي اللاتي تفوح منهن روائح العجين والبول والحموضة. روائح جميلة وموسقة وعندما تختلط الرائحة المعطرة مع الشمس المتسللة من خلال الستائر، يكتسب المكان القا فضفاضا وشيئا مسرنما يزحف داخل البيت. عندما افتح باب المرحاض وادخل كنت اشم عطورهم. حتى الخراء في مراحيضهم كان جميلا. في

كل البيت كنت اتشمم الالق الاخاذ لرائحة الاخت والانوثة. تشممت الارائك والستائر ومثل كلب زحفت على السجاد والأرضيات والبلاط. توسلت القمر أن يزيح الاضاءات المعتمة لوجه يشرق في هذه المتاهة الوردية والمطعمة بزهر النارديين والرازقي.

عندما خرجت من بيت مازن اصبت بالاحباط من الشوارع. اصبت بالخيبة وأنا اشاهد المعدان وهم يتبولون في الطرقات وأطفالهم يخرون في الشوارع. نظرت إلى جدتي بعين مليئة بالحقد وكأني دخلت مناطق الجحيم. حلمت باخت مازن كثيراً من المرات وفي الكثير من الليالي كنت ارتعش وأنا اشاهد نهدها وهو يتدلى من دشداشة عريضة عندما قدمت لنا الشاي والبقصم. تلك اللمحة السحرية والمليئة بالالغاز حطمتني. جعلتني أسير وأفكر مثل مشوه. نهدها عاريا، غريباً، مستفزا وحتى الحلمات الداكنة والبراقة كانت تدفع بالدشداشة إلى الأمام.

بعد أن علم اصدقائي أني زرت بيت مازن، تحلقوا حولي واخذوا يمطرونني بالاسئلة. كيف شكل البيت من الداخل؟ ماذا وجدت؟ ماالذي تلبسه الاخت في البيت؟ هل صحيح انها قحبة؟ هل صحيح انها تلعب الكرة في حديقة المنزل؟. ولم أكن أعرف بماذا اجيب. كانت اسئلة محرجة وقلت لهم باصرار لا، انهم عائلة شريفة ومتدينة.

لاول مرة شعرت أني ابتعد كليا عن جماعتي، ومنذ ذلك اليوم الذي شكل في حياتي شيئاً اخر ورؤية عن عالم مكتشف جديد. أصبحت ارى العالم ينقسم إلى بؤرتين، احداهما، بؤرة الحموضة والجيف والتعاسة والألم والمايكروبات وبؤرة أخرى هي (بؤرة) نظيفة وموسقة وناعمة ورقيقة ورائعة. لم انكر أني حزنت، وبعد كل زيارة لبيت مازن كنت أعود

بحالة عصبية واحطم الصحون في مطبخنا أو أمزق أوراقي وأحتضن كتبي وأقلامي للخروج من هذا العالم الغبي والممرغ بالبؤس والعوز والاضطراب وعدم البهجة. تمنيت لو أني أموت أكثر من مرة. أموت إلى الدرجة التي لم أكن أريد فيها خلودا للروح ولا للعالم الاخر، اذ أدركت منذ البداية أن الفقر في الحياة الدنيا لايعني اننا سوف نربح ملكوت السماء كما يقول مازن. البؤس واحد، شيء من طراز مستمر من الألم والعوز والانثيال إلى المخدة والبكاء.

كثيراً ما كنت اسأل نفسي لم خلقني الله بلا اب ولماذا جعل الله امي تتزوج بعد وفاة ابي. كنت أريد أن اثور، اتمرد، اتذوق الألم والرغبة في الموت. حصلت بطريق الصدفة على كتاب يتحدث عن الارواح. قرأته بتماهي كبير. بقوة عارمة وجارفة. كنت أريد أن اشاهد العالم الاخر وما يخبئه القدر. كان الكتاب لا يتحدث عن الله ولا عن العذاب المستمر للفقراء في جهنم. إنما عن انفلات الروح السرمدي وأن الحياة مستمرة وإن باشكال اخرى.

كان هذا الكتاب يشرح بتفصيل دقيق كيف ننتقل إلى العالم الاخر، حيث الموسيقى الناعمة والظل الخفيف والشمس الباهتة لكن المضيئة والاشعة تخترقنا من الداخل. هناك سوف نكون مضائين بنور شفاف ورقيق. ليس مثل هذا العالم الغبي والمليء بالرغبة في التقيوء والاذلال المستمر.

ثورتي على جدتي كانت تحدث دائماً ولأتفه الاسباب. كنت أقول لها لماذا نحن فقراء إلى الدرجة القصوى في هذا العالم. وكانت تقول إنها القسمة والنصيب ولولا موت ابيك لكان حالنا شئيا اخر. واخذت اسأل الروح واسأل الله. اساله لماذا يفعل كل هذا. ما الفائدة المتوخاة من

اماتة ابي وما الذي كسبه بهذه اللعبة الغريبة الملغزة والمليئة بالأسرار والمتعة الجهنمية والدسيسة واللؤم. لم احب جدتي كثيراً.

كنت اكرهها لأنها المسؤولة عن بؤسنا. مسؤولة إلى الدرجة التي اردت فيها أن انتحر أكثر من مرة بعد ذلك ببندقية الحزب التي سلمونا اياها من أجل أن نقتل الاخرين الذي يخالفون رأينا. كان هناك ميراث كبير للقتل. للبؤس والتقيؤ والمشاحنة والتعب والاندفاع والتمرد. ذكرياتي عن جدتي كانت مؤلمة للغاية ولم يدفعني الفقر والبؤس والاحتياج العاطفي إلا إلى التمسك بالكتب والغرق فيها. كنت اغرق كل يوم في تهويمات الف ليلة وليلة. اغرق في قصص المنفلوطي وفي احدى المرات كنت أقرأ في كتاب العبرات بكيت ورميت الكتاب بعيداً. قذفته لانه ابكاني وآلمني.

كنت اكره الألم وبسبب المنفلوطي اتجهت إلى قراءات أخرى متنوعة لكنها كلها تدور عن الجمال والذات وكان ج سالنجر هو الاهم والاكثر روعة اذ كان يحاكي ذاتي ويحاكي الرجع المنفلت على صفحات السماء السوداء حيث اجلس مثل ثمرة متآكلة بفعال الدود. في غرفتنا – مطبخنا المصنوع من الصفيح –. كان البرد دائماً يتسلل إلى وجوهنا وعظامنا، رغم المدفأة الصغيرة. كنت اشاهد الصراصر وهي تمخر عباب الملابس وعباب الفرش والسجادة المهترئة واصرخ الما. اصرخ بيأس على الفئران والبرغوث والقمل الذي كانت جدتي غالباً ما تفرك شعري بالكيروسين من أجل ازالته. امي في هذه الاثناء، كانت بعيدة. بعيدة إلى الدرجة التي كنت احلم بها غالباً وهي تمسد شعري. تمسد انحطاطي الفلسفي والوضعي وتدخلني دائماً إلى انساق المسلولين والحالمين بعالم أكثر امانا.

الجوع هو الاخر كان شيئاً مخيفا ويكلف جدتي الكثير من اعصابها. في المدرسة الابتدائية كانوا غالباً ما يمنحوني قميصا جديدا. قميص للفقراء بغير بنطلون ونادراً ما لبست بنطلونا جديدا وغالباً ما كنا نشتري الملابس المستعملة التي لم تكن دافئة لأنها مهترئة. امي التي كنت اشاهدها في الأحلام المرتبكة كانت تنام مع زوجها في عالم اخر، ومنذ تلك اللحظة. اللحظة الغريبة على العالم، يوم تزوجت بهذا الكلب - زوجها -. رحلت الى سماء وعوالم أخرى تاركة بؤسها مرميا على وجهي.

كنت أفكر دائماً مع موت الاب في فلسفة زواج امي الثاني.. هذا الزواج الذي ارجعني إلى المتاهة البدئية لماقبل الخلق. حاولت في الكثير من المرات وحاولت هي أيضاً. أن تجعله شيئاً عاديا - زواجها -. شيئاً مألوفا بالنسبة لي. لكني لم اتكيف مع هذا الزوج. لا بل كرهته منذ اللحظة الاولى في حياتي. وحتى حينما عشت بعد ذلك، كان مشروع كرهه قائما ومستمراً. في بعض الاحيان كنت اسرب كرهي له بأن أكون عصبيا جداً مع امي. ثائراً. متنمراً، متمردا. بائسا. وحاولت هي أن تجعل علاقتي حسنة معه. لكني لم استطع أن أكون مثل علي السوداني - الولد الجميل -. كنت في كل مرة اشاهدها معه في الفراش اتحطم. اذوب، اتلاشى. وفكرت أن اقتله. أن اغرس سكينا كبيراً في ذاته وجسده ثم احيله إلى جيفة متنقلة. كانت دائماً، ملابسه نظيفة. دائماً يسافر إلى الخارج، دائماً يلبس اغلى الملابس بالاموال التي تمنحها هي له، فيما أنا انزوي إلى العالم السفلي. إلى الجحيم. إلى الرغبة الدفينة في أن أموت. لكن في اللحظات الاخيرة كنت اتراجع واغرق نفسي في الكتب.

التهمت عبد الستار ناصر ولطفية الدليمي ومجلات سوبرمان والوطواط، وشعر ادونيس والرصافي ومتاهات سالنجر وغيبوبة انيس منصور وعوالم غادة السمان. غرقت حتى الثمالة في سكر شفيف. احببت في اللحظة التي كرهت فيها الام. نساء جميلات، اشد جمالا من امي. لكني فشلت. وتقهقرت وخذلت.

حالة الخذلان لم تكن مؤقتة. إنما طويلة ومستمرة. في البدء احببت زميلتي في الروضة و في بعض الاحيان كنت انفجر فجأة واحطم كل شيء يقع تحت يدي. لم أعرف منذ متى داهمتني هذه الحالة. لكنها كانت تتكرر بمجرد أن أشعر بالذعر، بالخوف من الفقدان. لم أكن مستعدا أبداً لفقدان زميلتي. أحد التلاميذ كان يحاول التقرب منها. قبلها أمامي فيما كنا نشرب الحليب في الصف. فانفجرت. وجهت لكمة قوية له ثم قفزت فوقه وتدافعنا بالايدي وسقطنا على الأرض متماسكين متلازمين. اردت أن انهشه مثلما تنهش الكلاب ضحيتها وضغطت باصابعي على رقبته لاقتله. في اللحظة التي كان يختنق فيها جاءت المعلمة ورفعتني من اكتافي. كان هو في الرمق الاخير وجا ءت معلمات اخريات واخذوا يفركون اصابعه وينفخون في فمه.

كنت اقف بجوارهم وانظر إلى زميلتي الهلعة والباكية. ماحدث شكل لها صدمة وبمرور الوقت اخذت تبتعد عني. عندما تضرب احدهم بسبب الغيرة فإن المرأة تكرهك. اكتشفت هذا مبكراً. المرأة حتى وأن كانت تكره المتحرش بها إلا انها لاتريد ضربه. عشت بعد هذه الحادثة اياما صعبة. كنت مشوشا وقلقا ولا احتمل اي شيء يمكن أن يدمر حياتي وعلاقتنا. لكن كل شيء انتهى فعلا. نقلت زميلتي إلى روضة أخرى ونقلت أنا أيضاً إلى صف جديد. ثم عشت أشياء مخلقة من الوهم

والتوسل. كان هـذا فقـدانا كبـيراً لروحـي. غرقـت في متاهـة حقيقيـة. اضعت شيئاً جميلا من رائحة الامومة وغدوت أكثـر اسـتفزازا حتـى أني انفجرت في الصف الجديد مرة أخرى وحطمت النافذة الكبيرة لا لشـئ. فقط لأن احدهم استفزني عندما سـرق قنينة الحليب العائدة لي وأخفاهـا في مرحاض الصف.

العنف والتمرد والاستعداد لتحطيم كل شـئ. اسـتمر في حيـاتي، بلغ أني كنت دائماً ما الجأ إلى يدي في حل الكثـير مـن الأشـياء. لم أكـن ذا بنية قوية وذراع كبيرة لكن هذا لم يكن يهمني وغالباً مـا كنـت ارجـع إلى البيت وملابسـي ممزقة وتأخذ جدتي بالبكاء لأنها غير قادرة عـلى شـــراء ملابس جديدة. عندما استرجع رؤيـا تلـك الايـام أشـعر بخجـل كبـير. خجل ممزق بالاسف والعار لاني كنـت امـارس اقصـــى حـالات اللـؤم بحق، بجدتي التي لم تكن تفهـم لمـاذا أصـبحت مليئـا بـالعنف والتمـرد والعصبية الفائقة. كانت كثيراً ما تبكي أمامي وتقول لماذا يعذبني الله ثـم في احيان أخرى كانت تسب ابنها المتـوفي الـذي خلفنـي وكســر رقبتهـا وجعلها تعيش من جديـد اضـافة إلى الفقـر، آلام طفـل صـغير شـــرس ومتمرد.

لم أكن افهم لماذا يعشعش التمرد في داخلي.في احيـان كثـيرة احلـم أني اصنع قنبلة نووية لافجرها وارى العالم والبشـــر يموتـون أمـامي. لم يكن الشيطان هو من يحركني، إنما رغبة خفية في الانتقـام مـن الاخـرين. بعـد مرحلـة الجنـون العـارم والطاقـة المتفجـرة في وخـذلانات متكـررة وعلاقات فاشلة مع فتيات. كنت أشعر أني شيء مختلف. نبي مشـرد. اله جديد. اسمع احيانا اصواتا تحدثني عـن ايحـاءات سـماوية، أن اقتـل. أو اقتل نفسك. الموت لذيذ. الموت رائع.

منتصف شتاء زمهريري وفيما كنت في المرحلة المتوسطة، انتقلت إلى منطقتنا الجديدة نسبيا، عوائل جديدة بغرض السكن ويمكن لي أن اتذكر على نحو مدهش، كل من عائلة الكبيسي وعائلة الفلوجي وعائلة التكارته والعائلة العظيمة عائلة الكاظمي التي كانت الآلام فيها اشد جمالاً من قمر شيراز.

طيلة مجاورة هذه العوائل لنا، لم يحدث بيننا وبينهم اختلاط، اذ لم نزرهم ولم يزورونا. عائلة الفلوجي الكبيرة كانت قد جلبت معها الخراف و لم نكن قادرين على التأقلم معهم. كانوا بالرغم من قضائهم سنوات بيننا، معزولين وبقوا يعيشون هاجس البداوة الظاهر في ملابسهم ولهجاتهم وضربهم لنسائهم كل ليلة تقريباً عندما يعود الاب وهو في حالة سكر شديدة. لم يكن ضرب الفلوجي لنسائه مقتصراً عليه.

كانت هناك عائلة أخرى هي عائلة التكريتي التي لم نستطع فيها رؤية نسائهم لانهن يعيشن داخل البيت فقط. عائلة التكريتي كانت عائلة مترفعة ومنعزلة ومتوحدة. لم نشاهدهم حتى ولو لمرة واحدة وهم يتحدثون مع الجيران. وعندما أصبح صدام حسين رئيسا للجمهورية الخرائية اخذوا ينظرون لنا على اعتبار اننا سقط متاع ومعدان وشراكوة ولا نستحق الحياة بالاضافة إلى اننا من مرتبة ثالثة أو رابعة.

كانوا هم الأصل أما نحن فمجرد زبالة قذرة لا تستحق السكن في بغداد بالرغم من اننا بغداديون أصلاء وجذورنا موجودة في النخيل والشجر والأرض والنهر والضفاف وقمبر علي وباب الشيخ وفضوة عرب وحمام المالح والكرادة الشرقية وكرادة مريم، منذ اكثرمن خمسمائة عام عام. ورغم أن الاب مدرس متقاعد وكان هذا يعني انه ولو بشكل

قليل على تماس بالحضارة إلا اننا لم نستطع رؤية زوجته ولا بناته وكثيراً ما كنا نسمع، صراخ البنات والزوجة وهن يتالمن تحت الضرب بالعصي والقبضات.

مرة واحدة شاهدنا الزوجة على نحو مشوش وكانت كبيرة جداً في العمر وترتدي الفوطة وعندما لمحنا الاب ونحن نقف أمام منزلهم وننظر إلى الباحة الخارجية للمنزل. هجم على الزوجة واخذ يضربها بصوندة (بربيش) السقي. شعرنا بالألم لمرأى الضرب، لمرأى الزوجة وهي تتلقى الضربات المبرحة. انتقل إلينا احساس الوجع لكنا لم نكن قادرين على التدخل.

لم نكن قادرين على فهم غائية الاشكال الذي كنا نحن السبب فيه لاننا منحنا انفسنا فرصة ولو بائسة للنظر إلى الزوجة. كانت المسكينة تزحف على الأرض مثل دودة وترفع يدها وكفها إلى الله من أجل تلقي الضربات وكان الحيوان الجارح والمنفلت والمتوحش والعبثي ينهال عليها ولم يتدخل الابناء ولم تتدخل البنات إنما كن ينظرن من النوافذ إلى الطارمة الخارجية. إلى الوجع والقسوة المفرطة. إلى الخراء الجهنمي وهو ينفلت من عقال الاب ليضرب وينهمر مثل المطر.

ومثل متوحش بدائي سحل المرأة إلى داخل البيت ومن هناك بدأنا نسمع انين متصل، انين موجوع ورؤية مغبشة وباهتة. اتذكر على نحو واضح أيضاً عائلة الكبيسي، كانت عائلةغريبة الاطوار. لم نفهم من طريقة كلامهم أو ملبسهم أو عاداتهم الاجتماعية إلى اي شيء ينتمون. لم يكونوا بدوا ولم يكونوا متحضرين ولم يكونوا أصحاب برستيج ولم يكونوا متخلفين أيضاً. كانوا مزيجا سحريا من كل شئ. فبالرغم من أن صالة البيت الكبيرة (غرفة الضيوف) جميلة ومنسقة على نحو مدهش

ومليئة بالتحفيات المرتفعة الثمن إلا أن مرحاض البيت وسخ للغاية وطريقة اكلهم بدائية تماما حيث كانوا يلتهمون الطعام مثل عائلة الشمبازي بايديهم وفمهم دائماً مملوءا بالطعام وهم يضحكون ويتكلمون والطعام يتطاير من افواههم والفوضى تحيط بهم من كل جانب.

الاب كان يعمل فيما مضى مهرباً أما الآن فهو مقاول كبير. كان لهم بيت كبير جداً ولم نعرف على نحو واضح كم هو عدد البنات والاولاد. كانوا كثيرين - مثل دود الخراء - وباب المنزل دائماً مشرعا والاولاد والبنات يدخلون ويخرجون. بمرور الايام تعرفنا على أحد الابناء ويدعى ناصراً. في البدء لم نستسيغه، لم نهضمه، لانه كان يتصرف بحيوانية واضحة وكبيرة. كان دائماً بدشداشته الغالية الثمن يجلس على الأرض خلف اي ارتفاع ويخري ويتبول في الطريق العام. كان عصبيا جداً والاب دائماً يسوطه بالحزام بالاضافة الى استخدامه، عصا طويلة وقاسية مصنوعة من اغصان شجرة الرمان. كان الاب يفلقهم بها دائماً وكثيرة هي المرات التي جاءنا فيها، ناصراً وهو يعرج من اثر الفلقة.

لم نكن نعرف لم هذه القسوة الزائدة والمدمرة. بالرغم من هذه القسوة لم يكن ناصراً إنسانا سهلا وفي أكثر من مرة شاهدناه وهو يقتل القطط أو يصب عليها النفط ويشعلها. لم تكن هذه متعته الوحيدة، إنما له ألعاب أخرى غريبة وعجيبة. في الخرابة المقابلة لبيتهم وفي بيت غير مكتمل البناء كان هناك جحش صغير يربطه ناصراً باحكام شديد. في البدء لم يقل لنا ما يفعله بهذا الحمار، إلا انه في وقت اخر وبعد أن أصبح من جماعتنا اعترف انه ينيك الجحش.

لم يكن هو فقط من يفعل هذا، إنما اخيه الاكبر والخال - المعلم -

الذي يعيش معهم في البيت. لم تكن تجربة ناصر مع الحمير هي التجربة الوحيدة له. كانت له تجارب كثيرة أخرى مع حيوانات مختلفة. لم تستمر علاقتنا بناصر طويلا اذ تركنا و ذهب إلى الجيش ومن الجيش تم نقله إلى الحماية الخاصة بنائب رئيس الجمهورية وبعد أن أصبح السيد النائب رئيسا للجمهورية لم نعد نشاهد ناصراً في المنطقة واختفى الحمار أيضاً.

كانت تلك الايام أكثر روعة من الايام التي تلتها. من السنوات المرة والمتعبة وانت تجرجر نفسك خلال الحروب. في نهار صيفي نتسلق حائط دار الكاظمي ونشاهد زوجته وهي تكنس الطارمة واثر من فخذ ابيض مدهش يلتمع تحت الشمس. كانت العائلة من الكاظمية وقد انتقلوا إلى منطقتنا في الفترة التي تفجرت فيها رغائبنا وآلامنا الجنسية. زوجة الكاظمي كانت رائعة. كنا كأصدقاء ومجموعة بائسة، نحلم بها. كل يوم كنا ننتظرها بعد الساعة العاشرة صباحاً وهي تنظف الطارمة وتغسلها بالماء الملهم. ماء رقراق كان يتطاير إلى دشداشتها الشفافة ويلتصق كل شيء بالجسد. حتى الدشداشة التي ترتديها كانت تلتحف الجسد. تتمرد على الذات وتلتصق بقوة وكان الجسد يبرز، جباراً، ملهماً، مدمراً.

عرفنا التدمير الذاتي لارواحنا في تلكم الايام. ايام تفجر رجولتنا ولحانا وكنا نمارس العادة السرية أمام بعضنا ونحن نحلم بزوجة الكاظمي. بمرور الوقت اخذنا نشعر أن زوجها لم يكن ليستحقها واننا لا نسمح له بالافتراء على أحلامنا المدلهمة والغائمة ونحن نرى العالم يتحول إلى شيء رخيص وقربان نقدمه إلى افخاذها البلورية المطعمة بالميناء والزبرجد. لم نكن نملك اي شيء لنقدمه لها، باستثناء رجولتنا الجديدة.

كنا نراقبها في بعض الاحيان وهي تخرج من البيت إلى السوق وكنا نلاحقها بغية التمتع برؤية مؤخرتها حينما يضرب الهواء العباءة وتلتصق الملابس ليبدوا الطيز واضحاً. الجوع كان كافراً وكنا نحس أن كل يوم يمر كنا نزداد فيه دهشة وتوحش. أصبحنا مثل الكلاب المسعورة. لم نكن نستقر وقررنا أن نهجم على البيت. لم نكن نريد السرقة ولم نكن نريد اغتصابها لكنا كنا نبحث عن نافذة غرفة النوم من أجل أن نشاهد عملية السفاد. استمرينا بالمراقبة طيلة اشهر ولم نحصل على شئ. لم نشاهد عريا ولم نشاهد اغتصاباً من قبل الزوج كما لم نلمحها وهي بلا ملابس. كانت الستائر دائماً مسدلة وفي يوم مجنون، محزن، بارد، مضبب، ملتو، مائل إلى الجهة الأكثر إيلاماً في حياتنا، قررنا أن نضرب الزوج ليس لشئ إلا لانه يستولي على كل هذا الجمال لوحده دون أن يسمح لنا بلعقه، بلحسه، بأكله، بالتهامه، بحشرجته، بابتلاعه. بتمثله، بصهره. بتذويبه. كنا نريد الجسد. التقاء شجرة ادم بالأرض. نريد الغابات المتعجرفة وهي تنداح في ظلمة عميقة الاثر لكنها محببة.

انتظرناه عند بداية الشارع. كنا مثل عصابات شيكاغو، مثل اكراد يريدون قتل الوقت. انتظرناه بالم وشيخوخة ظاهرة على وجوهنا. بوجع مكتوم وشهية تشبه شهية الذئاب عندما تقرر بغريزتها الالهية أنت تلتهم الجسد. لكن لم نكن نريد التهام جسده. كنا نريده لنفرغ الطاقة المتكتلة، نريده لاننا تعبنا ولان اليأس كان عظيماً ونحن نحلم بزوجته. حتى ابن الخبازة بدشداشته المخططة والبائسة كان متحفزا. كنا ندخن سجائر صغيرة. سجائر مختلسة من دكان قريب وننفث الدخان، كل بوجه الاخر ونحن بانتظار الطريدة المؤلمة.

حينما ظهر في بداية الشارع وهو يحمل سلة التسوق والخضار

والخبز، صفر ابن الخبازة وركبنا دراجاتنا. اخذنا نقترب منه وكان هو يبتسم لنا. عيوننا كانت مركزه عليه ولم يفهم ماذا نريد. سألنا عن احوالنا الدراسية وعما نفعله بمثل هذا الوقت الذي يجب أن نكون فيه في المدرسة. اجبناه اجابات ملغزة. لم يكن يعرف اسماءنا لكنه يعرف اننا ابناء منطقته. ابناء الشارع الذي يسكن فيه وعليه تترتب التزامات اخلاقية في أن يدعونا إلى الاجتهاد أكثر في الدراسة. لكنا فتيان ومراهقون اكلهم البؤس، اكلهم العالم بلقمة واحدة.

درنا حوله أكثر من مرة ويبدو انه انتبه إلى أن هناك شيء ما ودعانا إلى الذهاب وتركه يكمل طريقة. كانت عيوننا متجهة نحوه ومثل ذئاب كنا ننتظر الفرصة السانحة للانقضاض. فرصتنا الوحيدة كانت عندما يريد أن يدخل المنزل وكان هناك تفاهما بيننا، تفاهما سريا وحينما وصل باب البيت انقضضنا عليه بالحجارة ثم قفز ابن الخبازة وساطه بعصا قوية وسقط الرجل إلى الأرض، بشكل مدو، صاعق، وسمعنا تشنجاته، حشرجته.

سمعنا غطيطا وشخيراً وكأنما كان يريد الموت لكنه يتشبث بالحياة. بقينا نسوطه وفيما هو يصرخ نقذفه بالحجارة. بقسوة. برعب، بصميمية. باجتهاد، بقوة غريبة وانتقامية مجرمة. كنا نضربه تحت شعور الدونية وتحت شعور الاستحواذ. وتحت شعور الاستلاب والتمرد. كنا نكرهه بفظاعة ونحسده برعب ونريد تهشيمه لانه استلبنا وناكنا ومنعنا من رؤية الوحش الجميل المتمثل بامراته. لكنها ليست امرأته إنما غانيتنا الجميلة والمقدسة وبيدها كأس الخمر المترع وخبايا الايام وسلبية الماضي والأمل القادم.

وفيما نحن ننهال عليه بارجلنا. برزت الزوجة من نافذة الصالة

ونادت ثم اخذت تصرخ ثم جاءت راكضة، مهرولة.هربنا بسرعة، مسافة لم تقاس بالامتار إنما بالزمن ولم استطع تخيل ماحدث. لانه كان مشعا مثل نور، مشعا مثل (ظلمة). بعد أن ابتعدنا في الزمن، جلسنا إلى سكة القطار خلف البيوت. كان كل شيء مضطرباً في ذهني. بعد انصاف ساعات طويلة من الصمت، اخذت أشعر بصحوة فارغة ومفاجئة، تساءلت، يا الله، ماذا فعلت؟. كيف فعلت هذا؟. جلست طويلا وبوحدة كبيرة. دخنت الكثير من السجائر. كل لحظة تمر كانت مفعمة باللوعة. صور متدفقة وغزيرة تنهمر مثل شلالات عظيمة إلى ذهني. اردت أن أموت وأنا ارتعش. لم ارجع في تلك الليلة إلى غرفتنا.

سمعت أن الكاظمي نقلوه إلى مستشفى اليرموك و هو بحاجة إلى الدم. بعد تغيبي عن البيت ليوم كامل عدت وأنا في حالة انزواء، لم اكل إلا القليل وانتبهت جدتي إلى جنوني وهلوستي في الأحلام. كانت توقظني لتقول لي ما بك؟ وكنت ارتعش وادخن أمامها بقوة. سيجارة من اخرى. صرت اسمع اصوات غريبة وهي تهمس لي وتقول، أنت قاتل ومجنون وجنونك انك تسير خلف الكلاب.

بعد يومين من عدم مجيء الشرطة شعرت أن حالتي افضل واني لم اعد ارتعش لكل ذكر للشرطة والسجن والتعذيب. لم أعرف ما الذي حدث لي لكن ابن الخبازة المنيوك هو السبب. هو من ادخل في اخاخنا انه يجب أن نضرب الرجل انتقاما لجمال زوجته. لم ينته الامر عند هذا الحد، رغم أني اردت أن انسى. اردت أن امحو من الذاكرة تلك الواقعة المؤلمة..

بعد اسبوعين جاءت الشرطة واستطاعوا أن يلقوا القبض علي وعلى كل المجموعة. الكاظمي لم يتوف وهو بصحة جيدة لكنه اقام دعوى.لم يعرفنا بالاسماء إنما بالاشكال. جدتي حينما علمت بامر اعتقالي

جاءت إلى مركز الشرطة واخذت تبكي بعنف وقوة ودموعها تنهمر في حالة مزرية. فرشت عباءتها أمام الضابط واخذت تولول وتقول انهم خدعوه وانهم اكلوا عقله وأن ابنها عاقل وحباب وخوش ولد وابن حمولة.

لم يصدق الضابط ما قالته جدتي طبعاً، لكنه تعاطف معها وقال اذهبي إلى الكاظمي وأطلبي الصفح منه. كان يهمها جداً أن لايقال انها لم تستطع توجيه حفيدها وتربيته. كانت تعرف أني لو سجنت فأني سوف ادخن الحشيشة والمخدرات وانه يمكن أن اناك، وهذه قمة الماساة. قمة التوحد الغريب بين الذات وبين ذاتها هي وذات ابنها المتوفي الذي خلفني ووضعني امانة ثقيلة في عنقها.

في بعض الاحيان، لا بل غالباً ما تكفر.لم تك تترك أماما إلا وكفرت به. الكفر والتجديف كان لا يفارق فمها ولم أكن أعرف لماذا كل هذا الكفر. عندما أطلب منها نقودا تكفر، وعندما تنسى القدر على الموقد ويحترق الاكل، تكفر، اذا تأخرت عن العودة إلى الغرفة، تكفر، واذا طلبوا منا في المدرسة اقلاما أو دفاتراً، تكفر. اذا لمحتني أو سمعت أني أسير مع من هم اكبر مني سنا، تكفر. كانت عبارة عن ماكنة متنقلة للكفر. لم يكن الله لديها ليشكل قيمة اعتبارية. كانت تكرهه بقوة وتقول انه لو كان موجودا لغير حياتي. لغير الوجع، لغير الالام.. كانت جدتي تعيش نوعاً ما من الفوبيا، هي فوبيا الاخلاق. كانت تتحسس كثيراً من أن يقال لها انك لم تستطيعي تربية حفيدك.كانت مهووسة بالاخلاق والسمعة الحسنة وكانت تخاف بشكل مرعب من أن يخدعني أحد ما وينيكني.

إذا اردت أن اخرج بعد انتهاء دوام المدرسة علي أن اقدم لها تقريراً

مفصلا، مع من سرت ومع من تحدثت وكانت لاتبعثني لشراء الصمون مطلقا لأنها تعرف مثلما يعرف الجميع في العراق أن بائع الصمون دائماً، فرخجي. كانت تقول لي دائماً، احذر من باعة اللبلبي، احذر من بائع الباقلاء. احذر من بائع العمبة أمام المدرسة. احذر من بائع الفول السوداني. احذر من القصاب، احذر من بائع الموطا. احذر أن تصعد سيارة احدهم. احذر من البقال، احذر من سائق الشاحنة، احذر من سائق التكسي. احذر اذا ما كان الجو ممطراً أن تصعد مع من يعرض عليك توصيلك. احذر من مؤجر الدراجات الهوائية احذر من بائع شعر البنات، احذر من بائع السمسمية والحلاوة. احذر من الشرطي، احذر من رئيس العرفاء. كلهم مناويك وكلهم ابناء قحبة وفرخجية. احذر كل شيء وحافظ على نقاء مؤخرتك وبؤرة الخراء اللعينة. ويا لهذه البؤرة التي يركض الجميع من اجلها وفي معمعان الامتناعات نسيت جدتي عليوي المطيرجي وهو يحاول اقناع الأطفال بمصاصات من أجل أن ينيكهم في قفص الطيور.

كنا أطفالا ابرياء. ابرياء جداً واستطاع عليوي اقناعنا بأن عنده طيور قادمة من الهند والسند تتكلم كما البشر وتغني وترقص وما كان منا إلا أن صدقناه واخذنا إلى بيته وهناك في السطح. في قفص الطيور الضاجة والمستفزة والمرتعشة والمرتبكة، منحنا المصاصات وخمسة فلوس اضافية.

خرجت من السجن بعد أن اقنعت جدتي الكاظمي بالعفو عني لاني يتيم. هكذا منحت الحرية، التي كانت جميلة جداً، لكن جو التوقيف كان اجمل واغنى واقل عاراً من الحياة. هناك اكتشفت الكبسول والحشيشة التي كانت تدخن بشراهة واكتشفت أيضاً السيكوتين

والبانزين ونيك الشخص مقابل سيجارة. خرجت إلى العالم وأنا اعاني من قلة الضوء وكان الضوء في الخارج عميما. كبيراً لكنه ضيق وحاد ومخصوص لبعض الناس أما الاخرين وهم الاكثرية، فكانوا يعانون من الدزنتري والعماء الكوني.

بعد خروجي من التوقيف ومع بعض الوقت تعرفت على جماعة جديدة وقبلوني معهم وكانوا أكثر سوءا من المجموعة الاولى. مع هذه الجماعة اخذنا نسطو على البيوت في عز الظهيرة وحينما يكون الناس نيام، نسرق النارنج والبرتقال من الحدائق والذي كان شهيا جداً ورائعا، ليس لطبيعته إنما بفعل السرقة، السرقة الجميلة والمذهلة وانت تقطف وتملأ عبك به ثم تهبط إلى الأرض وتركض مثل ارنب، مثل عضاية ملساء تسمى ام سليمان وهناك، في الجحر والذي هو مكان اجتماعنا نجلس نقشر البرتقال والنارنج الحامض ونأكل و ندخن وبعد كل هذا، نروح نمارس العادة السرية ونحن مبهورين لصور المجلات الخلاعية وسجائرنا في افواهنا وغالباً ما نحرق دشاديشنا ونقول لاهلنا انها احترقت حينما ذهبنا لنشعل النار في الزبالة.

حينما أصبحت في المرحلة الاعدادية استمرت جدتي في الكفر، لا بل انها ازدادت كفراً ولم تكن الوحيدة، اذ لاحظت اننا كلنا كنا نكفر ومعنا الجيران والأصدقاء والمعارف ولم يكن هناك من يقول لنا، كفى أيها المناويك سوى إمام جامع الداخلية. كان هذا شاباً و ذا بنية ضعيفة لكن صوته حاد وكأنه افعى ذات الاجراس.

كنا نقف في طريقه وحينما يمر كنا نكفر بصوت مرتفع من أجل اغاظته. كان المخبول يتصرف وكأنما سقط على رأسه حجر ويرفع الحصى من الشارع ويلاحقنا وهو يطلب من الله أن تحرقنا نار جهنم. في

اوقات أخرى كنا نحمل مسجلاتنا بعد أن تم افتتاح متنزه الزوراء ونذهب للتمشي بين الأشجار. كانت موسيقانا المفضلة اغاني ديمس روسز وتينا جارلس وفؤاد مسعود و فرقة آبا وسعدي الحلي. لم يكن هناك من ترابط بين ما نسمع. كان فؤاد مسعود للغزل وتيا جارلس لاصطياد الفتيات وسعدي الحلي من أجل الفروخ والفرخجية وللنساء القادمات من محيط بغداد وتحديدا من مدينة الثورة وحي العامل وحي النفط.

أما ديمس رزسز فكان من أجل جلب بنات المنصور والكرادة والسبع قصور والاعظمية وراغبة غاتون واليرموك والمأمون. في احيان كثيرة كن نصطاد بعض الفتيات، لكن الامر لم يتعد الاعجاب وكلمة – هلو- أو حتى نظرات وما أن نشاهد الفتاة وهي تتلفت وتنظر لنا حتى نسير بسرعة ونبعصها.

في كثير من الاحيان كانت الفتيات يسكتن على مضض أما في الحالات النادرة فكانت الفتاة تصرخ وتجيء الشرطة ويتجمع الناس ونركض نحن هاربين باتجاه الابواب. كان كل شيء يثير شهواتنا، حتى لو كانت ممارسة جنسية بين قط وقطة أو عصفور وعصفورة. وكانت اوتادنا دائماً منتصبة. في ذلك الوقت عرفنا لم كان ناصراً يربط الحمار قريباً من البيت واخذنا بسبب عدم الحصول على امرأة للمضاجعة بالبحث أيضاً عن حمار أو بقرة أو اي شئ.

كان سليم الاعور هو الاكثر حظا منا. كان لديه قفص طيور في السطح وعبر هذه الوسيلة استطاع الحصول على أطفال كان يقنعهم بان يمنحهم طيراً مقابل أن ينيكهم. كان دائماً يتحدث لنا عن فروخه وكثيراً ما كان يروي لنا عن اي الفروخ اجمل وخاصية اي فرخ ونوعه وقدرته

على التحمل. سليم كان له افعى ضخم جداً. افعى رهيب يصل طوله إلى ٣٠ سنتمتراً في حالة الانعاض الشديد أما اذا كان الفرخ ليس جميلا أو اعوراً أو احولا، فإن عموده لم يكن يتجاوز الخمسة عشر سنتمتراً. وخمسة عشر ليس رقما كبيراً في قياسات الزمن السابق. كنا نباركه بيننا. مثل سمندر البحر ومثل موسيقى فؤاد مسعود. دائماً كان شراعاً منتصباً مثل شراع، صاري. جبل يقف عليه..... سيف قديم غير مثلوم وحاد ومرهف خال من الخصائص الفسيولوجية.

بالاضافة إلى الفروخ كان سليما يروي لنا قصص مذهلة عن نيكه للنساء وكان يقول لنا إن لديه قحبة ولم تكن هذه القحبة إلا خالته الصغيرة التي قتل زوجها الشرطي اثناء ملاحقة ملا مصطفى البارزاني. كان لا يجارى في وصف نيك خالته. وكان يقول إن لها عصفور ارهف يخرج البلبل منه بطريقة اوتوماتكية. كان صغيراً ضمن قياسات العائلة وكانت خالته تصر عل أن ينام قربها من أجل تمحيضه الدفء وبعد أن تنام، كان يمد اصابعه ويزيح الدشداشة ويقبض على شعر عانتها الذي لم تكن تحلقه وكانت هي توحي له انها نائمة واثناء النوم والأحلام كانت تفك له لباسها ومن اللباس إلى الدشداشة ومن الدشداشة إلى اللباس في حالات متتالية طولية ومعادلة حيوانية.

في ايام الصيف كان يصعد إلى السطح وبعد أن تنام كان يجعل فمه قريباً من زرزور حياته ويلحس. في البدء يزيل الشعر ومن الشعر ينتقل إلى العمليات اللسانية وكانت هي تموج في الفراش وطيلة فترة السفاد كانت الصلصة تسيح، تتدفق، في البدء من المشطور ثم من الاباط والعضلات ومن العضلات كان يسيح السائل إلى الأرض وسليم منحن ويلحس الأرضيات والطابوق والبلاط ومبردات الهواء

ونعالها وجوربها ومعصمها ويديها والركبة والاضلاع. لم تكن امرأة مصنوعة من اللحم، إنما عبارة عن سوائل وغدد متهيجة، كانت تعاني من الافراط الجنسي واللوكيميا الحياتية. وبعد أن تكررت عمليات السفاد السرمدي اخذت تمارسه دون نوم وتمتص بلغمه وتقدسه وكأنها في معبد هندوسي.

منذ ذلك الصيف اخذوا يمارسون الجنس يوميا. واحيانا ثلاث مرات في اليوم. مارسوه في السطح تحت انظار براهما ومارسوه في المراحيض وفي الحديقة وفي غرفة النوم وفي قن الدجاج وفي زريبة الماشية وفي كل مكان. كل مكان في البيت كان يتحدث عن النيك وكان يعجبها أن تناك بطريقة الاغتصاب وعلى الطريقة المصلاوية وعلى طريقة أهل العوجة وهو أن تضرب بعد النيك ويسلخ جلدها ويبصق هو على العصفور ويعصره بيده ويوجه ضربات شرسه إلى وجهها. كانت حارة جداً. ساخنة. ملتهبة وتعاني من حرمان رهيب ولم تكن امرأة فقط إنما مغارة جنسية. كانت تقول له إنها بحر النيك الاوحد وشهاب العارفين ومنارة المحششين ومحيطات الارتواء وانهااكبر قحبة. تتمنى أن ينيكها كل الرجال في العالم بمن فيهم شيوخ عنزة والبدو في مصر والنور في الشام وشقاوات محلة الفضل وسوق حمادة وحمام المالح والازرملي وتنام معهم على الفراش وعلى الأرض وعلى البلاط وفي مغطس الصحون وعلى الطاولة وعلى الارائك. وعلى (الجودليات) ثم وفي نشوة اللحس وتفخيذ الافخاذ تعترف أن اولادها الخمسة لم يكونوا من زوجها الميت إنما من قارئ المقاييس الكهربائية والاسكافي وبائع الطماطة و النزاح والبستاني وسيد خضر السامرائي والرفيق داوود التكريتي وحسنين الشيال.

لم يكن سليم هو فقط من كان ينيك - تحت العباءة -. إنما أحد افراد مجموعتنا ويدعى سطم كانت له مغامرات أيضاً ولكن مع حذر شديد في الكلام.. لم يعرف كيف حدث الامر. اذ كانت اخته في الحمام عندما اخذ ينظر من النافذة بطريق الصدفة. كانت وفيما تسكب الماء على جسدها تغني وتعمل هناك باصابعها وبهره الشعر وتكور الخصر وميوعة الجسد. اخذ فمه يفرز سائل دبق ولم يستطع إلا أن يمد يده لا إرادياً وينطلق في تهويمة صعبة. في البدء شعر بالانتصاب و قال انها اخته، حرام، لكنه لم يستطع ترك النافذة وانتصرت الطبيعة والبراكين. كان يبكي وهو يمسك عضوه ولم يستطع المقاومة فمارس الاستمناء وقذف على الحائط وبمرور الوقت اخذ ينتظر الاخت كلما تذهب إلى الحمام ويشاهد شعرها المعقوص وهي تفكه ثم ترفع يدها وتداعب نهدها وبعد ذلك تمارس، هي أيضاً الاستمناء لكنها لا تقذف مثله.

لم يستطع سطم الانتظار طويلا وكان يتنهد بألم وحسرة وهو يروي لنا انه أصبح أسيراً لها واخذ يشاهدها في الأحلام وكل يوم، حينما يصحو يشاهد لباسه الداخلي مبللاً بالمنى واخذ يمارس الصلاة والتعبد عسى أن يتخلص من هذا الهوس. لكن الصلاة لم تنقذه ولم تسعفه اذ استمرت الاحتلامات الليلية واخذ يشعر انه يتحول إلى حيوان مفترس وانقطع عن الطعام واخذ يصوم اربعة ايام كل اسبوع. وفي ليلة مجنونة من ليالي الصيف وفيما كانت الاخت في السطح تعد الاسرة هجم عليها ومنذ ذلك اليوم اخذا يمارسان الجنس يوميا. لم يكتف بهذا إنما اخذ يلحس دورتها الشهرية ويلوث يده بالدماء الشفيفة النازلة وفي بعض الاحيان كان يلطعها ويشربها ويتنفسها.

اثناء حديث سطم عن هذه المغامرات كان لون وجهه يتغير كل

لحظة. كان يشعر انه يقترف ذنباً بالحديث، لكنه لم يعرف كيف السبيل إلى وقف هذه المغامرات وحتى لو استطاع هو، فإن الاخت كانت تغويه. تحممه وتغسل قضيبه بمياه دافئة دائماً وتهيجه وتثوره فينهار جداره الاخلاقي ويبدأ بممارسة الجنس معها من الخلف. كانت لها مؤخرة جميلة، مؤرقة، وحشية ومندفعة إلى الوراء. وكان يتوسلنا أن نجد له فرخا حتى يستطيع الانقطاع عن ممارسة الجنس مع الاخت.

سطم كان يعاني من الشيزوفرينيا المعقدة وقد ساهمت الاخت في تحطيمة وكانت هي المسؤولة عما يحدث له. في بعض الاحيان كان يتخيل انه ليس ابن هذه العائلة وأن الاب ليس اباه ولا الام. هو، كان لقيطا تبنته الاسرة من أجل أن يكبر ويرعى البقر والخراف. كان يروي لنا قصص غريبة عن تشنجاته. عن ضرب الاب له، عن القسوة المفرطة حينما يمسكه ويعلقه إلى مروحة السقف وينهال عليه ضرباً. في كثير من الاحيان كانت الضربات على راسه واخذ يشعر بمرور الوقت والضرب المستمر أن راسه يؤلمه بشكل غريب ولم يذهب إلى الطبيب إنما اخذ يحصل على النقود من الأم ويشتري بها العرق وأصبح سكيراً صغيراً.

نظرية أن هذا الاب ليس اباه تولدت لديه عندما شاهد بطريق الصدفة، أيضاً، الاب وهو يمتطي آلام وكيف كان يبصق وكان يسمع حشرجة آلام وآلامها وفي احدى المرات اراد أن يدخل ويقتله بسكين. كان يكره الاب بشكل جنوني وحتى الأم، امه لم تكن تكن له حباً مقدسا مثلما كانت تفعل مع اخوانه الاخرين، المهذبين والذين يعملون ويقدمون الاموال إلى الاب الذي كان يراهن بها في سباق الخيل. كانت الأم سلبية للغاية، مهمتها الوحيدة هي الطبخ والنوم كل ليلة وفتح افخاذها. لم

يستطع بعد أن شاهد الأم وهي في حالة (السفاد). أن يشعر بالسلام في هذا البيت وقرر الذهاب للعيش مع عمته لكن هناك أيضاً شاهد زوج العمة وهو ينط على عمته فحمل ملابسه وعاد إلى المنزل وهو يجر الخيبة والألم والقسوة والرهبة والانحطاط.

ممارسة الجنس مع الاخت كانت تشكل بالنسبة له مهرباً معقولا إلا انه كان يشعر بتأنيب ضمير غريب وخاصة بعد كل ممارسة. يشعر انه يتحول إلى خنزير قذر والوحل يلطخ فمه ومؤخرته. وكانت هناك موسيقى يسمعها باستمرار ولم يعرف مصدرها أو متى تتوقف. في بعض الاحيان كان يسمع مع الموسيقى اصوات قادمة من أماكن بعيدة. اصوات ليست إنسانية إنما اصوات متوحشة وغريبة تشبه نواح حزين من قبل الهة متجبرة وموجودة في اقصى ابعاد الكون. كان يسمع صوت النجوم وصوت محركاتها الجبارة وهي تدور في السماء وفي بعض الاحيان كان هناك صوت يقترب منه ويقول له أنت خنزير. نغل ويجب أن تقتل الاب.اقتله، الآن. في هذه الساعة، العجل العجل. ولم يكن يستطيع أن يحمل السكين، لكن الصوت يناوله شفرة حادة ومرهفة ويقول له عندما تشاهد الاب وهو يقفز على الأم اهجم واقطع خصيته، و يرتعش، خاصة بعد أن يمسك السكين. وكره السكاكين وحينما يبرز احدهم السكين بوجهه كان ينهار ويتوسل أن نبعدها عنه.

كان خوف مرضي وشبقي، خوف معربد ومجنون. في بعض الجلسات واثناء التمشي يكون مزاجه رائقا وفجأة وفيما نحن نحمل مسجلاتنا والموسيقى تعربد. يصرخ أن امسكوه ونظل مبهورين اذ لا يوجد أحد غيرنا وينهار وفمه يزبد ونحمله على عجل إلى البيت حيث نرميه على سريره وننظر إلى الاخت الكبرى التي تهرع وتحاول التخفيف

عنه بقراءة القرآن. كان سطم إنسانا جميلا ذو روح موسيقية وفنان بالفطرة لكن هذا الاحساس المرهف الذي يتمتع به جعله عرضة للموت وجعله غير قادر على الحياة وفي يوم شتائي بارد وفيما كانت السماء مضببة والقمر مواراً. سمعنا انه هجم وقتل الاب ثم قتل الأم وأن الاخت ارادت الانتحار في نفس الليلة لأنها حبلى ثم جاءت الشرطة واخذته من بين الدماء والغبش القمري والسكاكين. بعد ذلك لم نسمع أخباراً عن سطم إلا بعد مرور عام حينما زرناه في مستشفى المجانين وكان لم يزل إنسانا جميلا لكن مع عين واحدة وبصاق يعلو فمه وارخبيلات مزركشة من البحيرات تحيط به ونسانيس تقفز حوله.

الفصل الرابع

اتحرك ببطء. ببطء شديد. اصابعي كانت من الضعف بحيث أني نسيتها كما تنسى الأشياء الجميلة في هذا العالم. النمر، النحلة، اليعسوب وهو يسير على الأرض ثم على الوجه وعلى والانف والفم ثم.. متاهة ضائعة في سماء أكثر سوادا من الليل. اتحسسه باصابعي. قلبي كان لينا وهشا وذو انتفاخ في صدغه. امرني أن أقول وراءه مرددا القسم واسماء ملوك اللعبة والادعية الاوراد وكلمات الله التي نسيتها منذ زمن قابيل وهابيل. كنت اتلقى الاوراد من فمه. مثل عصفور غريب في مملكة حيوانية شرسه لكن الغابة بعيدة والليلة ماطرة، لذلك أنا هنا، من أجل أن تعصف الريح ببقاياي الإنسانية واذوب... اذوب مثل قطعة من الغائط حينما يدفعها تيار ماء ابيض.

كنت متوتراً جداً. ساقه المعقوفة وانثناء ركبته فوق ركبتي جلعني أشعر أني صريع الحكايات القديمة عن الدراويش والمتصوفة، ثم أني أسير في دربهم أيضاً حيث التقى الضائعين والمجذوبين والمندهشين والسيوف والاباريق والسلالات البشرية التي صعدت في سفينة نوح، ويقول لي، مص، قطعة السكر هذه. ألا تشبه طعم ماء قادم من ممالك

الجن والاساطير القديمة. كنت مندهشا من عزمه وقوة بأسه.

تحسست عضلاته وعظامه. تحسست انفه وفمه ولم يكن ذلك انفا ولم يكن صباحاً، ولا مساءا، إنما كتلة من الهواء الرشيق وهو يمخربحري وآلامي ودمعة تتساقط عجلى على منضدة الكتابة. هجوته في سري. منحته اضطرابي وأمام هذا الاضطراب كانت موسيقاه تدخل انفاسي، دفعة اثر دفعة، ولاني الحائر في الطرقات، منحني زوادة فيها طعامي لبقية الرحلة التي تمتد لمئات السنين.

كنت مندهشا من بروده واصابعه الموضوعة على صدري تثلجني. لا بل تجمدني وأنا انام واغفو على تراتيله القادمة من زمن الطوفان الاول، حيث المرايا والشمعدانات وخراف النحر والموسيقى الجنائزية للموتورين.بعد أن صعقني برده. قال، انهض الآن. أنت على الطريق ونلت الخرقة والطريقة ميل من الساعات المخملية. الزمن ليس شيئاً مهما والطريق مظلم لكن قلبك هو من سيعرف الدرب. الدرب طويل، طويل جداً.

شعرت بالانبهار من مرأى الشيخ اسامة وناولني قدح ماء. لم اتذوق مثل هذا الماء لا في الحرب ولا في السلام، لا في المدن الكونية ولا في رضاب الصحراء. قلت له إني جندي الآن واحتاج بركاتك ومحضني بضربة على الصدر، نوعاً من التداخل الروحي. قلت أنت شيخي الآن، ابتسم ثم طلب مني أن انهض وأسير للصلاة. قدمت اصبعي ومسها بطرف اصابعه. كل لمسة سحرية من اصابعه كانت تنز بالبرودة والموسيقى. قال، اليوم ولدت من جديد.

لم افهم واردت أن اصرخ بين جدران جامع الفاروق حيث باعة

الحمام والصيارفة وباعة الطرشي والغلمان والكتبة والمجذوبين والفريسيين والكتبة. بعد الصلاة بقيت في الجامع. اردت أن اكتشف ذاتي واكتشف المشايخ الذين عاهدتهم. كانوا كثيرين ومرتبين في سلسلة طويلة. لم أعرف اية طريقة استلمتها من الشيخ لكني عرفت فقط أني أصبحت الآن على البساط. قال لي الشيخ اسامة إن المشايخ سيراقبوك. فوجئت وكرهت هذا الانثيال والصيغة المتعالية في الحديث، لكني صمت وقررت أن ادخل هذا العالم الجديد الذي جاء فجأة.

بقيت في الجامع ساعات كنت اغرق فيها، في تهويمات، عن الله. اردت أن استفيد واكتشف السلسلة الطويلة التي تعلقت في نهاياتها. من هم اولئك الرجال الذين أصبحوا الآن يراقبوني بقوة سحرية. قوة ملهمة وخفية تمتد من الشيخ الكبير وصولا إلى اصغر متصوف. اثناء الصلوات وبعد أن اخذ استراحة صغيرة كنت أنظر إلى جدران الجامع. يقول الشيخ اسامة، إن المشايخ يحيطونك بصلاتهم وبركاتهم. ركزت على سلسلة الرجال المقدسين. اردت أن استلهم معنىً مغايراً للأشياء لكني فشلت.

بعد أن خرجت من الجامع، وضعت رجلي على الطريق، تخيلت الشارع والناس عبارة عن أشياء تافهة. من غير المعقول أن أكون قد دخلت التصوف وسيطرت علي نظرته منذ اللحظة الاولى. كنت أنظر إلى الشارع والبشر المتحركين مثل دمى ميكانيكة، تعيش على حافة الحزن والنظرة المتسائلة والخائبة. شعرت وأنا في السوق أني أنظر إلى كل شيء بنظرة مختلفة.

كل شيء كان جديدا ومغايراً لطبعه وتطبعه. باعة السمك والخضراوات، الكفرة. النساء اللاتي يفترشن الطريق لبيع البيض والدجاج. باعة السجائر. باعة حب شمس قمر، المؤمنون.. شعرت

بالحيرة من هذا التغير العميق، كم سأستغرق من الوقت من أجل أن انال الخرقة المقدسة؟، عنوان الظمأ الغريب إلى اب مشوه ومترفع. ستكون هناك حروب مجنونة بينك وبين نفسك. هل عرفت هذا؟ ولم استطع الاجابة لأن صوتي كان مطموراً تحت التراب وأنا عار من الانثيال واستقر على خشبة عارض السيرك واي تنحنح أو عطسة يعني الموت المؤكد.

تقول بعض الحكايا التي احفظها عن جدتي. أن من يأخذ الخرقة سيكون إنسانا مختلفا، كل شيء سيتغير أمامه. عليه أن يترك العالم وأن ينسى مسميات الأشياء. شيء واحد فقط عليه أن لا ينساه، شيخه واوراده. كنت اربط مثل معزة إلى حبل طويل، بدايته هنا لكن نهايته في بلاد الله الواسعة والامصار والمفازات والرجال المجانين والشطحات.

سرت في الشوارع ساعات طويلة، كنت مسرنما ونقاط المطر تبعث في الجسد برودة خفيفة. توقفت عند مطعم كباب وتناولت وجبتي. اثناء الاكل فكرت بأن على الصوفي أن يترك الطعام والشراب اللذيذ. عليه أن يكون نباتيا كاملا. لم يقل لي الشيخ اسامة هذا لكني اتذكر ما قرأته في كتب قديمة كانت موجودة في مكتبتي. كانت تلك الكتب تروي قصص المتصوفة في بغداد. لكن بغداد تغيرت. غابت من الوجوه أو أن الوجوه هي التي غابت عنها. شيء واحد كان يربط كل شئ، هو نهر دجلة.

تذكرت وقفة عبد القادر الكيلاني في مجاعة ضربت بغداد حينما كان ياكل الحشائش القريبة من النهر وحينما ظهر له ابليس لكنه انتصر بمعجزة الايمان. فكرة غريبة طرأت إلى ذهني. هي لماذ كان يسوع المسيح يصرخ باتباعه ومثله الاخرين. في كتب التصوف تشاهد

المتصوفة يتعاملون باستعلاء مع البشر وكأنما الناس عبارة عن خراء ووهم. ليست الإنسانية إلا وهم يضربه المتصوف والشيوخ بالف الف حذاء. عبد القادر الكيلاني كان يقول قدمي على كل ولي.

الحلاج كانت له ذات الشطحات والنظرة الاستعلائية. البشر عبارة عن حيوانات نافئة للحيمن والرغائب والانثيالات والصوفي هو الإنسان الكامل.

فكرت في عيسى وهو يسير بصحبة اصدقائه. في روحه أيضاً استعلاء عن البشر. كان بوهيميا وعندما يسأله أحد التلاميذ عن أمر ما كانت اجاباته تحلق في سموات هي غير سماوات العالم الإنساني. هناك شيء غريب، ملهم، مخيف،كل المصلحين الكبار في التاريخ كانوا عبارة عن مرضى نفسيين. الامراض النفسية تضرب عميقا في وجودهم الإنساني. لم يكونوا بلهاء إنما كانوا يعيشون في عالم هو غير العالم الإنساني البحت.

كان التلاميذ والمريدون يسألون مثل الأطفال عن قضايا معينة وكان الصوفي اوالالهي يجيب محلقا في عوالم اخرى. المريدون المساكين كانوا يسمعون الاجابات لكنهم لايقدرون على الفهم ولان الكلام من فم الصوفي يكتسب طبيعة قدسية. فإنهم – المريدون - يأخذون الكلام حتى لو كان غير مفهوما، على انه تجل. هل يمكن أن أكون أنا أيضاً مثل هؤلاء المتصوفة والمجذوبين. الشئ الوحيد الذي أدركه انه اذا كانت لديك انزياحات نفسية باتجاه معين فإن هذا الطريق هو الاسلم لنفث دعاواك وشرورك وآلامك. ستعمل عندما تغرق في ذاتيك المجنونة، على البربرة والهذيان وسيكون كل ما تفعله مقدسا.

فكرت في كل هذا وأنا أسير باتجاه منزل صلاح زنكنة. فكرت في أني اتحول إلى شيء غامض وانه وباستمرار قراءة الاوراد والتنزه البشري والثورة على العادات الحيوانية سوف انتقل إلى مدى اخر، هو مدى المعرفة الشاملة والكونية. وصلت منزل صلاح وكالعادة اخذت زوجته بتقريعي وتقريع صلاح لأن له أصدقاء سيئين مثلي. كنت وفيما هي تعربد وتحاول أن تضرب صلاح، ابتسم. الابتسامة هي الشئ المؤكد في رسالة الصوفي نحو الاخرين.

لم اشاهد طيلة الوقت الذي قضيته مع الشيخ اسامة ابتسامته. لكني اختلف. بمجرد أن شربت مياه التصوف من يد الشيخ اخذت دائماً أنظر إلى اصعب الامور على انها سهلة. كل شيء هو هين وسهل. حتى الطعام وطريقة تحصيله. كنت أقول لنفسي. أيها النبي انك تحمل رسالة إلى هذه الكائنات المتوحشة. اردت افهام زوجة صلاح أني لست حزينا ومغتاظا بسبب سبابها لي ولصلاح. إنما أنا ابتسم، وتلك هي الرسالة الضخمة التي اردت ايصالها لها.

بعد انتهاء اجازتي والتحاقي في الجيش، اخذت أقرأ القرآن بشكل مستمر. الجنود الذين كانوا معي لاحظوا هذا التغيير. كانوا مجموعة من السكارى وعبدة الخمرة والجنس والقوادة. كلهم كانوا يعانون من امراض نفسية مستعصية. احدهم كان يقضي اجازته وهو يدور على باصات نقل الركاب في الموصل من أجل أن يحشر نفسه عند كل زحام. الاخر كان يكفر كل صباح بانواع من الكفر لم اسمعها طيلة حياتي. جندي اخر كان قوادا محترفا وكان يأخذ اخته كل اجازة إلى منزل الضابط ويمنحه الاخير اجازات طويلة.

جندي رابع كانت مهنته قبل التحاقه بالجيش بائعا للخضراوات

وبعد استدعائه للجيش اخذ يمول بيت الضابط بالخيار والموز الصومالي. رئيس العرفاء هو حيوان اخر. حيوان في شكله وطريقة كلامه والبصاق الذي يتطاير من فمه والمخاط الذي ينزل باستمرار على شكل فتافيت من انفه. هذا الحيوان الاسطوري كانت مهمته الاساسية سرقة حليب الجنود من المطبخ وبيعه لحساب ضابط الاعاشة.

كل شيء يرتدي رداءا خرائيا وحتى نائب الضابط الكبير بالسن والمتوحش والذي كان ياكل كل لحم القصعة ويتركنا جوعى. حتى هذا الحيوان كان مشتركا باللعبة القذرة وكان قوادا بسيطا لأن مستواه العلمي لم يكن يتعدى الدراسة الابتدائية. كانت مهمته التي يعشقها هي أن يناك دائماً من قبل سائقي الشاحنات وقد القي عليه القبض متلبسا بالجريمة ولم تكن الجريمة شيء كبير واحيل إلى القضاء العسكري وصدر الحكم ببراءته لأن الشاهد الوحيد الذي رآه لم يشاهد الميل وهو يدخل في المكحلة.. في سماء الغربة العنيفة وعندما تكون الغربان تداعب ريشها الاسود. تكون السماء أكثر قرباً والانحطاط أكثر تمايزا، بل والوحشة اشد كتمانا واشد ارعاباً.

كنت أصلي وأحدهم يرميني بقشور البيض واخر يرميني بقشور الموز. كل القوادين كانوا يعبرون عن رؤاهم وأنا مندهش من هذا التخبط الفيزيقي. عندما انهي صلاتي بصعوبة. يضحكون ويحاولون اضحاك الاخرين الذين كانوا يائسين تماما من أن أكون فعلا تبت إلى الله واني أصلي الآن. في بعض الاوقات كنت اهرب منهم. اهرب إلى خيمة بعيدة منصوبة بشكل متوحد عند حافة ساتر بعيد ومهمل، وهناك. في الليل، في العمق المتوحد والظلمة العميقة اضيء شمعة واوقد ناراً في تنكة للتدفئة وانهمر في صلاتي تقديسا لله.

كنت انهمر مثل الاموات على رحمة بعيدة عن النشوء الارتكازي. اغرق محاولا التماهي مع الغلطة الكونية التي تمثلت في جنود فصيلي وتعذيبهم الوحشي لي. مع الصلاة والجلوس في استرخاء كنت اغرق أو أتخيل نفسي وهي تطير فوق بغداد مثل طائر قديم يجد لذته القصوى فوق منارات بغداد. بعد كل جلسة طويلة - تستمر لساعات - كنت اخرج من السكون الكلي إلى العالم الخرب وأشعر أني اتمتع بقوة جبارة. قوة قادرة على لي الحديد.

عندما يجيء موعد اجازتي الدورية، أشعر أني انفلت في غابات نائية. طائراً من نوع خاص، طائر ملون بالريش الفضفاض والدناسة الطهرية. كنت استقل القطار إلى بغداد وفي احدى المرات تعرفت على الشخص الجالس قربي. كان فيما يبدو منبهراً من عزلتي الذاتية ولاحظ على ما يبدو ترديدي للتراتيل والتسبيح فاصر على تعريفي بنفسه. كان من محافظة بابل واصر عندما عرف أني متصوف على استضافتي في منزله.

نزلنا من القطار وتوجهنا إلى منزله. كان البيت لا يبعد كثيراً عن المحطة وفي المنزل جاءت والدته واخته وجدته ليرحبن بي وبالابن. جلسنا وتناولنا العشاء، بعدها تركني في غرفة الضيوف. اخذت في الوحدة القاتلة أصلي واردد تراتيلي والادعية. ثم حينما أصبحت الساعة الثانية صباحاً. سمعت صوت اقدام تدرج. صوت الاقدام وفي الهدوء الشامل كان صارخا، في البدء احسست أن يدا تمسك قفاي.

توقفت لحظة وشعرت أن شيئاً سماويا يتكون الآن. عدت مرة أخرى إلى القراءة، لكن الضغط المسلط على مساحة ظهري اخذ في الازدياد. فكرت انه يمكن أن يكون دحية أو شيء مشابه وقررت أن لا

استدير. صوت باب الغرفة يتحرك وشعرت بتجمد اطرافي. كنت أقرأ في كتاب الجنجلوتية عندما ظهرت أمامي فجأة، اخت صاحبي وهي في ملابس النوم.

في اللحظة الاولى شعرت بسلاحي يرتعش، و لما افقت من الصدمة كانت هي قد تمددت على الأرض واخذت تتوسل ممسكة بيدي أن انكحها. ارتجفت، احسست أني انهار وفكرت بالاخ الذي يمكن أن يجئ الآن ويكتشف المفاجئة الملعونة. طلبت منها أن تنهض وتذهب بسرعة. لكنها أصرت على البقاء. جسمي تضربه قشعريرة. تخيلت أن الشيطان هو الذي بعثها. سيدي ابليس، الملاك المطرود من رحمة الافاق. لكن ابليس لم يكن موجودا وقامت هي وتعرت وانبهرت بمرأى الافخاذ البيضاء المدهشة والمتكونة من القيمر والقهوة المثلجة واليانسون والقرفة.

كانت ذا رائحة تشبه رائحة الكابتشينو المخلوط بافرازات العرق الضئيل. النهد يتجذر عميقا في مقامات سماوية. احساس الانتصاب الذي ضربني كان من القوة بحيث انقلعت الخيام وتبددت الاشعار والماشية وتبعثر العربان في كل مكان. كانت عاصفة من التراب الكثيف والبرد المصحوب باصوات تقرع نواقيس على الطريق السرمدي. تقلصت إلى الحدود القصوى. توسلتها أن تذهب. لكنها ضحكت وزوايا فمها ونظرتها الغريبة كانت من القوة بأن سحقتني. ادرت رأسي. لم أكن أريد أن اغرق في المتاهة. لكن الله منعني من أن ادير رأسي. طلب في رسالة سريعة أن ارتشف الماء الرقراق، النازل من البلعوم والرئة والخصيتين إلى الجسد المعفر برائحة الأرض.

تخيلت في لحظة الاندهاش. أني اغزو قبائل العرب بسيف مصنوع

من التيتانيوم وكل الضحايا كانت أمامي وأنا اهتز من قوة الصدمة والذهول والانتباه الحاد. بالرغم من التوسلات لم تذهب، قبلت اليد والاصابع والقدم. الرسالة السماوية كانت تقول أشياء مبهمة. كانت غامضة غموضا مدويا. غموضا غريباً وبدأت انهار واتلعثم. حتى الجسد كان يرتعش ويقشعر وحينما مددت يدي إلى البياض المدهش. بكيت بصمت. كان خط مؤخرتها يبرز أمامي في وحشة غريبة. وحشة مدوية ولامست الفرج الذي اغرقني فجأة في متاهات عائمة على النور النوراني المتفجر من ظلمة عميقة وحالكة. احسست أني لم اخرج من الصلاة وكانت هناك تراتيل خفية اكتشفتها فجأة أمامي. الانتصاب المر كان يقرع في رأسي طبولا وتلعثما وارتباكا.كانت هي تتحرك أمامي مثل افعى فارسية. في لحظة ما. تركت سجادتي التي كنت اجثو عليها ومسست عصفورها بكل ما منحتني الطبيعة من قوة. انحنيت وقبلت الليالي السمراء التي تشبه الكابتشينو وغرقت في مياه سريعة ومالحة مليئة بالشعر والزغب.

****

وصلت بغداد وذهبت فوراً إلى الجنيد، كنت مشوشا ومرتبكا وفي رأسي ملايين الصور وبزوايا مختلفة. بقيت في ضريح الجنيد البغدادي يوما كاملا. يوما مليئا بالتراتيل والادعية والبخور. كنت أريد العودة للزمن الباهر والمثلي والمتعب. في النهاية شعرت أني لم ازل ذلك الولد الجميل، غير منزوع الرحمة واني لم ازل اطير في فضاءات مدهشة مليئة بالترانيم القدسية.

خرجت من الضريح وأنا أشعر براحة عميقة لكن العصفور كان يغزوني كلما اغمضت عيني. سافرت إلى بعقوبة من أجل اتمام الزواج. ام الفتاة طلبت أن اختم القرآن عشرة مرات متتالية. الاب لم يعترض. بقيت اجازتين متتاليتين أقرأ في القرآن. شوقي كريم علم بالامر مع نصيف الناصري وراحوا يطلقون الاشاعات بأني اقترب من الجنون. لم اهتم. كان أمامي هدف يجب أن احصل عليه. بعد تنفيذ أمر قراءة القرآن بدأنا بالاعداد للزواج.

في البدء واجهتنا مشكلة مكان السكن. ام الفتاة قالت أن لديهم بيت زائد عن الحاجة بامكاننا أن نسكن فيه دون مقابل. لم اصدق، فرحت كثيراً وشكرت الله. في الختام تزوجت وسكنت مع الزوجة في البيت – المنحة – كل ثلاثة اسابيع وعند عودتي من الجيش نذهب سوية. أنا وهي إلى ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني. كنا نجلس نقرأ القرآن وكنت أفكر أن ادخل الزوجة في حلقة متصوفة خاصة بالنساء لكنها رفضت.

رفض الزوجة شكل لي صدمة استطعت ابتلاعها بصعوبة. في بغداد كنا ندور على المراقد أشبه بصراصر تبحث عن طعام. طيلة فترة الزواج الاولى لم التق بشوقي كريم إلا مرة واحدة، حينما كان مع أحلام في شارع الرشيد. طلبت منا أحلام أن نزورها في البيت. وافقنا على أن تكون الزيارة في مرة قادمة.

كانت أحلام منصور وهي تتكلم موجهة الدعوة لنا أشبه بالمسرنمة، قال لي شوقي انها ابتلعت ادوية جديدة للكآبة وصفها لها الطبيب مؤخراً. وبخصوص الدعوة. تلعثم شوقي ثم قال بخفوت انها تهذي على اية حال، الافضل أن لا نستمع إلى كلامها. غادرنا شوقي

وأحلام وبقينا أنا ومي تائهين في الشوارع. كنت أعشق الشوارع الخلفية لشارع الرشيد وشعرت بحنين طاغ للجلوس في مقهى البرازيلي واحتساء قهوة يصنعها الياس – النادل – بيديه الوسخة دائماً.

دخلنا أنا والزوجة المقهى واتجهت إلينا انظار الرجال اذ انها المرة الاولى التي تدخل فيها امرأة بصحبة رجل إلى مقهى ذكوري. لم اهتم بالنظرات واخذت اغرق مع فنجان القهوة في الزمن الغابر. زمن الادب الذي ابتعدت عنه منذ اليوم الذي بدأت فيه الصلاة وقراءة الادعية والاوراد والتراتيل. كل حياتي انقلبت رأسا على عقب. أو أني بدأت طريقا جديدا بعيداً عن اعين الوسط الادبي ثم أني تزوجت بامرأة ليس لها اية اهتمامات ادبية. كل حياتي الآن كانت هي النيك والصلاة ثم قضاء الوقت دائراً ومتنقلا بين القبور والاضرحة وقراءة الاوراد. فكرت أني طالما أقرأ القرآن باستمرار،فمن المستحب أن استغل هذه القراءة في تحسين دخلي المادي وذلك بأن أقرأ على القبور في ايام الخميس والجمع.

ذهبت إلى مقبرة الشيخ معروف وجلست طول النهار لكني لم احصل على ميت واحد من أجل القراءة على جثته. الشئ الوحيد الذي حصلت عليه هو – السميط – وحلاوة التمر و (يالجرك) وفي نهاية اليوم كنت اتغوط على القبور واتبول على الشواهد ثم اخرج وأنا العن هؤلاء المناويك.

في احدى زياراتي للجنيد البغدادي قال لي أحد الاخوان من المتصوفة انه ليس مناسباً أن البس البنطلون لانه لباس الكفار والافضل أن اقتدي بسنة الرسول والبس الدشداشة. تركت البناطيل وارتديت الدشداشة القصيرة ووضعت الكحل في عيني والمسواك في فمي. كنت امارس السواك اثناء جلوسي في الباص واثناء السير في الشوارع. ثم ما

بين الصلاة وفي المحصلة كان السواك موجودا معي في كل الاوقات وأنا اعبث به أمام الناس.

بعد زيارتي لجدتي في الغرفة التي أصرت على البقاء فيها وفيما كنت خارجا من عندها، توقفت سيارة مسرعة على مبعدة مني ثم رجعت للخلف لتتوقفت بجانبي. بعد ذلك ترجل منها ضابط شاب لم اتعرف عليه. في البدء فوجئت وشعرت بعري خفي يضرب جسمي الذي بدأ يهتز ويتقلص، بعد ذلك عرفت هذا الشخص. كان أحد اصدقائي في المتوسطة. صعدت سيارته بإلحاح منه وذهبنا إلى بيته. عند الباب كانت هناك اخته التي اتذكرها حينما تحرشنا بها اثناء مرحلة المراهقة ومرحلة الجارلس والمسجلات الكبيرة التي كنا نحملها في ايدينا. لم ترحب بي ويبدو انها لم تعرفني اذ كنت ارتدي الغترة والدشداشة والكحل في عيني والمسواك في يدي.

دخلنا البيت وشربنا القهوة وقال لي انه الآن ضابط في رئاسة المخابرات وانت ماذا تفعل؟ عندما وجه السؤال لي ترددت ولم اشأ أن يعرف أني ادور على الاضرحة والمزارات واكل من شوربة الشيخ عبد القادر الكيلاني. عندما قال لي انه يعمل في المخابرات تقلصت عضلاتي واحسست أني سوف اخري في الدشداشة. لم أعرف كيف زحلق القدر هذا الشخص أمامي، أو اية لعنة تتواصل في التكور أمام عيني وتريد التهامي. سالني إن كنت لم ازل اكتب، كان يتذكر أني كنت اكتب محاولات في القصة منذ أن كنا في المرحلة المتوسطة. ناولني مجلة المخابرات وقال لي انظر إلى المواضيع وحاول أن تختار موضوعا للكتابة. لم افهم. شعرت أني أصبحت غبي جداً. غبي له ذيل مثل السلحفاة وهي تدخل الماء كل لحظة من أجل التعري. عريي الشخصي كان كبيراً.

فكرت انه سوف لن يبعثني حتما إلى السجن والتعذيب وأنا بهذه الملابس المضحكة.

لمحت انه كان ينظر إلى وجهي متسائلا عما حدث لي لكنه لم يسأل، حاول أن يبدو قليل الاهتمام بما انا عليه. قال هل تتذكر ايام المتوسطة.. قلت نعم اتذكر أشياء عديدة جميلة. ماذا تفعل الآن؟. لا شئ قلت، أنا مجرد جندي بسيط في الفيلق السابع. هل هذا كل شئ، قال. واحسست أني أمام استجواب. نظرته كانت قوية. صارمة رغم انه يحاول أن لا يبدو جادا. أكثر شيء تمنيته في تلك اللحظة هو أن لا تكون اخته قد اخبرته عما فعلناه معها سابقا. كان يريد أن يعرف لماذا البس الدشداشة القصيرة واضع الكحل. هل لا زلت تكتب؟ كرر وكأنه عرف بالامر. قلت. لا، لا أنا الآن شيء اخر. ما فائدة الكتابة.؟ ماذا تقول، كنت موهوباً بيننا وكان معلم التربية الوطنية يتنبأ لك بمستقبل باهر. كان يقول دائماً انك موهوب وستصبح اديباً كبيراً. احدق في اصابعي. مثل تلميذ بائس ونظراته وكلامه السلس والناعم يتجذر في اذني. قلت لقد تركت كل شئ. كل شيء تقريباً. أنا الآن متفرغ للعبادة، وجدت أن الحياة ليست هنا إنما في مكان اخر. مكان جميل، ليس فيه اي اذى أو مشاكل.

وضع اصابعه تحت حنكه وقال وماذا بعد. لا شئ، قلت. كل ما هنالك. أني كرهت الدنيا. كرهت كل شيء باستثناء الله الذي سيبعث نيرانه الحارقة إلى البشرية من أجل التطهير. النيران التي ستميت المناويك والقحاب والعالم الملعون.

مرت لحظة صمت. اصابعي كانت ترتجف، اصابعه كانت هادئة. هادئة إلى الدرجة التي شعرت فيها أني استخلص واعصر وخلاصتي تنتشر في كل مكان. حتى الكرسي الذي اجلس عليه كان يتحول إلى

حيوان يريد استنطاقي ومعرفة الحدود القصوى للعقل والبؤرة التي تخرج الالتهابات على شكل خراج قذر. أين تصلي. قال بهدوء ثم نظر إلى عيني مباشرة. ليس لي مكان محدد، احيانا أصلي في خيمة أو في شق طولي واحيانا أصلي مع الكلاب والبرغوث والقمل. في احيان أخرى أصلي في الجنيد البغدادي.

زفر بقوة وشعر بارتياح ثم مد يده ولامست اصابعي. قال. يجب أن تعود إلى الكتابة. قلت له بعجلة. الشئ الاكثر كرها لي هو الكتابة. لا أفكر فيها. أنا أقرأ فقط. وحتى القراءة تحولت إلى شئ اخر. شيء باتجاه الكتب الدينية. هل تعني انك لم تعد تقرأ الشعر، قال. لا لا. اي شعر، اللعنة. الآن، أفكر فقط في الجنة. وفي الحقيقة ليس في الجنة تماما، إنما في الله. شعور الايمان الخالد في النفس والديمومة والاستمرارية هي الأشياء التي تهمني. ما فائدة أن تعيش وانت ترى الموت أمامك كل لحظة. كثرة الموت واليأس هما اللذان دفعاني إلى الله وحينما دخلت عالمه اكتشفت أشياء أكثر جمالا. كلما تقترب من الله تجده يبتعد وهكذا تستمر في التقرب منه إلى ما لا نهاية. ما لا نهايته هي الخلود الذي تبحث عنه.

جاء الشاي وشربنا بتمهل. شعرت باستقرار حالتي النفسية. كان هو أيضاً يرتشف شايه ومركزا نظراته نحو يدي وراسي وعيني ولساني. كان يريد أن يكتشف ويستشعر هذا الحيوان الغريب الذي أمامه. حيوان شارد وهارب من البشرية نحو الخيال، الخيال فقط كان بالنسبة لي هو العالم. كنت اتحول أمامه إلى شيء هلامي. شيء غريب وبلا ملامح. لم يكن يفهم الله. وكل الحيوانات الأخرى لم تكن تفهم الله. ليس لانه شيء غريب وليس لانه شئ.

رويت له وفيما أنا اشرب الشاي. كيف كنت اتحول إلى أشياء

متعددة مثلما يقول النفري والجنيد البغدادي. الصلة الاولية التي تربطك بالمشايخ تنتهي في نقطة معينة وبعد هذا تذهب وحيداً وتدخل الضوء. لا تعد تهتم بالعالم والحالة الحيوانية. كنت استطيع أن ابقى اياما بلا طعام واذا كان الطعام ضروريا للطاقة فلا بأس في الحشائش البرية وجذور النباتات وجذور الأشجار. كنت اقضم ليس لاني جائع. شعور الجوع تزدريه، إنما أنت تأكل لاستمرارية المخيلة. عندما تدخل إلى مرحلة التأمل ومرحلة النرفانا، تعيش الخلود الكلي وتشعر أن كل شيء طوع امرك وانت الاوحد والوحيد الذي من اجله كان النور ولم يكن النور هو النور الموجود على الأرض. انه ينبثق منك وفيك واليك. في الظلمة العميقة للبشرية والكون تشاهد انك تغرق في نور ليس له مصدر لكنه نور كبير وأمامك انثى رائعة، انثى ليس لها مثيل. العوز المناعي الذي يضرب في العقول البشرية يكون صفرا لديك وتنتحر في الضوء وتنام فيه ومن اجله تمنح عظمة كبيرة وهذه العظمة هي الولدان المخلدون والاناث ورغباتك المقتولة في العالم الاخر. حالة الخصاء الكلي التي تعاني منها تنتحر أمام القوة العظمى والقوة العظمى هي أنت ولم تكن تعرف أن الكلاب تعوي لاجل شيء غريب ومذهل لانك أنت أيضاً تتحول إلى كل شئ..

كان ينصت إلى فمي وأنا اتكلم بحماس شديد. حماس غير مفهوم بالنسبة له وفي النهاية قال لي أريد أن اراك دائماً. تستطيع أن تزورني في مكتبي في بناية المخابرات في المنصور. قل لهم فقط انك جئت لرؤيتي. نهض واوصلني إلى الباب وكان يريد أن يوصلني إلى الباب المعظم لكني قلت أني احب أن استقل الحافلة وفي الطريق، فكرت في أمر صاحبي. خمنت انه يريد أن يزلق قدمي باتجاه معين. كنت أفكر في أن امنحه طريقا

إلى الله ليتخلص من الامه. لكن يبدو أن الامر كان معكوسا. قررت في نفسي أن اتحاشاه متى ما اتيحت الفرصة أمامي وأن اسلك طريقا جديدا للوصول إلى جدتي.

وصلت إلى بعقوبة وشاهدت الزوجة نائمة. لم يكن هناك من طعام جاهز. اغتسلت وبعد أن اكلت اي شيء موجود في البراد استيقظت مي وقالت إن امها تقول أنه علينا أن نرحل من البيت. ماذا؟ ارتبكت وقلت لها مستحيل أن يحدث هذا وبهذه السرعة. قالت مي بعدم اكتراث، امي تريد أن تؤجر البيت وتحصل على النقود. اللعنة، كان هذا يعني الموت بالنسبة لي، الموت الخفي والعميق. أن أموت افضل مائة مرة من هذا الخبر البائس.

عشت اضطراباً غريباً. فكرت وعضضت اطراف اصابعي وقلمت اظافري. اكلت حتى اللحم الحي ونظرت إلى مي نظرات مليئة بالاحتقار والرغبة في التحطيم. فجأة استيقظت في تلك الاصوات البرية القادمة من نجوم وكواكب بعيدة وكلها تقول لي، أيها الحيوان البائس لقد نصب لك فخا كبيراً وكنت من العماء لدرجة انك سقطت في هذا الفخ.

كيف سأخرج من المنزل واين يمكن لعبد بائس من عباد الله القليلين في هذا العالم أن يذهب في هذا الهباء. كان علي أن اتوسل أو اهرب واخترت التوسل مدعما بنظرية الارتقاء المادي للبشر وبعيدا عن حلزونيات الغدد الصفراء وهي تنفث السم في اعضائي. قلت لمي. هلمي ايتها... ولنذهب إلى الشيطان بمعية لعنة ابدية تضربنا في كل مكان من اجسامنا. في بيت امها. توسلت بخفوت ثم بصوت مرتفع.لكن الأم كانت تريدنا أن نخرج. الآن وليس غدا. الان بشكل فوري وحاسم وادركت أن الله سوف يتركني للعقارب والافاعي.

تعجبت كيف أن الله لم يستطع أن يلوي عريكة هذه الام. كانت تردد عبارة واحدة فقط، أريد البيت. قلت لكنك تعرفين أني لا املك مالا. لم تهتم. كان هناك ثمة شيء غريب في اصرارها شيء ملتو وخطير لم استطع التعرف عليه.

استخدمت كل الوسائل بما فيها الحاسة السادسة والرؤية الخاصة للمتصوفة لكني فشلت فشلا ذريعا في اقناعها. كان علي أن أفكر بشكل سريع وذهبت لايجاد الشيخ اسامة لكنه لم يكن موجودا وقيل انه في خلوة سرية. وسرية أيضاً كانت الامي وتقلصاتي المعوية وأنا اتقيئ امعائي كل لحظة. رجعت إلى البيت بصحبة مي التي ذهبت إلى النوم بسرعة فيما أنا اقضم اظافري. لم أعرف أين يمكن لي أن اذهب. ثم هناك ثمن الايجار وهو الشئ الذي لن استطيع توفيره اذ أن راتبي كجندي كان صغيراً جداً. في تلك الليلة وبعد أن تضرعت لله أن يخرجني من المشكلة. حلمت بصاحبي ضابط المخابرات وهو يقول لي تقدم الي وسوف امنحك ما لم تحلم به، لكني كنت ارتجف وقشعريرة غريبة تضرب جسمي كله، وفيما الصوت يتكلم واصابع صديقي تخرج من الضوء الساطع، تخرج ام زوجتي وترميني من علو شاهق ومن العلو الشائه كان هناك ملاك حينما اقتربت منه خرجت من بطنه الاف الافاعي والحيات وبيوض التماسيح وهي تفقس على وجهي وفي داخلي فهرعت إلى نهر قريب وحينما اردت الشرب قالت لي فتاة هي اخت صديقي أن الماء مر والنهر جاف والجفاف غريب والعين التي تغذي هذا الملكوت قائمة في مكان اخر وعليك أن تفتش عنها.

في تلك اللحظة المتشاكلة. تحولت إلى قرد وصرت اقفز ما بين الأشجار واتغذى على بيوض الاسماك وضروق العصافير واللحم المر

ولم أعرف هذا اللحم لكن شخصا ظهر فجأة قربي قال انك تأكل لحم الخنزير وأن الله يرسل لك بعد قليل رسالة سوف تشاهدها في المطبخ قرب البراد.

نهضت من النوم هلعا وبصقت إلى جانبي الايسر ثم ذهبت إلى المطبخ وقرب البراد مثلما قيل لي وجدت افعى طويلة ما إن اقتربت منها حتى ابتلعتني وتقلصت في داخلها ثم جاء صقر له رأس جدتي واختطف الافعى ورماها في أرض حمراء كل شيء فيها فاقع ومائع ودبابات إيرانية تنصهر وجدتي تقول، الآن افعلها وطلقها ويظهر المسيح في نهاية الحلم ووجهي مليء بالبثور ومن كل بثرة كانت تخرج الديدان والامراض وتمتلئ الأرض بالصديد فيما أنا اغرق تلقائيا في سائل لزج واصرخ لكن صرخاتي كانت مكتومة والصوت لا يخرج من الفم رغم محاولاتي المتكررة لأن اجعله مسموعا..

في الصباح حاولت تذكر شيئاً من هذه الرؤية الكابوسية لكني لم استطع. كنت مشوشا ومرتبكا وذهبت إلى المطبخ قرب البراد لكني لم اشاهد اية رسالة لعينة وعرفت انها كانت مجرد تأويلات داخلية لالامي وأوجاع الترحال المستمر في قطارات التاسعة مساءا وأنا احضر اغراضي للالتحاق بالجيش.

انتهت الاجازة والتحقت بالجيش. المناويك هناك اعدوا شيئاً ما ضدي، ما أن وصلت حتى تم القائي في السجن دون أن يوجه لي اتهاما. بعد يومين كاملين قضيتها مع من يبتلع الحبوب المخدرة اخذوني إلى الضابط الذي قال لي إنك تترك واجباتك العسكرية وتصلي فقط.

قضيت في السجن شهراً كاملا وخرجت مرة أخرى إلى العالم

القذر، عالم نائب الضابط والعريف وبقية الشلة القذرة. طلبت اجازة فورية ومنحت عشرة ايام وحاول نائب الضابط أن يخرب المشروع وأن يقول للضابط إني لا استحق.

وصلت إلى بعقوبة ووجدت أن الامور سيئة جداً وتكاد تنهار. الزوجة تبكي وتعاني من انسداد حاد في قناة الهضم وامها تهددها بان ترمي اغراضها إلى الشارع. علمت أن الأم كانت تريد أن تأتي بزوج ابنتها الاخرى، المتملق والقذر وتجعله يسكن في البيت. ذهبت إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني وبكيت. بكيت بحرقة والم وهستريا وعندما جاء وقت الغداء اخذت طاسا من الألمنيوم ووضعت فيه حساءا من مطبخ الخيرات.

اكلت بعد نوبة البكاء بشكل مشوه. كنت جائعا للغاية ويبدو أن البكاء قد استنفد كل طاقتي. اثناء تناولي الطعام جلس قربي شاب نظرت باعجاب كبير إلى هيئته وشكله الجميل. تعارفنا بسرعة وتحدثت له عن مشكلتي واني لا املك مالا لتأجير بيت. قال لي ولماذا تدفع اموالا. أنا أعرف ثمة طريق اخر للحصول على منزل محترم. لم اصدق ما قال. اقسم انه جاد جداً وحدثني عن وجود مجمع سكني في الدور يمكن أن احصل فيه على بيت ولا يتطلب الامر سوى أن اعمل هناك. اعطاني العنوان ومعلومات عما يتطلبه العمل من وثائق وبسرعة شكرته وسافرت إلى الدور وانهيت العملية في يومين.

بعد عودتي إلى الجيش بشهر جاء الامر بنقلي للعمل في المكان الذي قدمت فيه اوراقي. وبعد أقل من عشرة ايام انتقلت إلى البيت الجديد. كان البيت عبارة عن شقة جميلة جداً. شعرت أني تخلصت من ام زوجتي إلى الأبد. السرعة التي انجز كل شيء فيها أشعرتني بنوع من الاحترام

لذاتي. بعد يومين من انتقالي للسكن الجديد، باشـرت العمـل في معمـل الادوية.

❊❊❊❊

اول يوم وطأت فيه اقدامي المعمل شـعرت أني أمـام عـالم جديـد. عالم من الإنسانية الصـرفة. لم يكن المعمل شيئاً شبحيا، إنما شيء ملموس وجميل ومليء بالانغام الموسقة. كـان شـيئاً غريبـاً أني لم أجـد في المعمـل والقسم الذي عملت فيه إلا النساء والمصـريين. نسـاء مـن كـل الانـواع والالوان واعترف بأني بهرت. أنا القادم من وحول جبهة القتال والنائب الضابط والعرفاء والمشوهين اخلاقيا وقصعة الطعام التي نأكل فيها كلنـا وكان نائب الضابط يلتهم وحده نصف الطعام ثم يلتهم اللحم والعظـام مثل كلب جائع، أو مثل خنزير رخو يتلـوى ويضـطجع في الوحـول ثـم حينما يخرج يرمينا بقذارتـه ووحولـه واطيانـه وبعوضـه وكـل لامـراض الجنسـية في هذا العالم.

كان نائب الضابط ينيكنا - ليس بالمعنى الجنســي للعمليـة - إنـما بالمعنى المغاير للكلمة وهي انه كان يتحكم بارواحنا وبيده صولجان رضا الضابط أو كرهه. كان يهددني كـل يـوم بانـه سـوف ينقلنـي إلى مـا بعـد الخطوط الأمامية للقتال. كان وحشا ويكرهنـي بشـكل كبـير لاني أصـلي كثيراً واتعبد واحمل القرآن اينما اذهب.

كنت اتوسل الله كل يوم ليس من أجل أن لا اقتل، لكن مـن أجـل أن لا يتسلط علي نائب الضابط هذا والذي كان في كـل يـوم يجـبرني عـلى تنظيف المرحاض وغسل الاواني والقصعة. كان يتصـرف معي باعتباري

حيوان يجب قتله باسرع فرصة. الآن تخلصت من هذا الكلب اللعين والذي كانت زوجته تناك كل يوم من قبل الضابط امر السرية، ثم من قبل المسؤول الحزبي لمنطقة سكنهم. كان هو يعلم بهذا العهر واستطاع بناء بيت كبير وأصبحت له اعماله المالية الخاصة لكنه في النهاية اصيب بمرض الدودة الحلزونية وبسبب هذه الدودة تحول إلى دودكي كبير.

في اليوم الاول لعملي الجديد تعرفت على مجموعة من العمال المصريين والسودانيين والافارقة والتايلنديين. بالاضافة إلى هذه المجموعة كان هناك العم بهلول، العراقي الوحيد والإنسان الدمث والمتصوف حسبما عرفت، على الطريقة القادرية. كان يعمل كناسا في المصنع لكنه ليس مثل اي كناس في هذا العالم. كانت له سلطة غريبة ووقع رجولي ضخم وكانت العاملات يتغزلن به وهو أيضاً كان يقرص هذه ويتعامل بفحش مع اخريات. لم يك في المصنع من العراقيين إلا كبار السن.

مع مرور الوقت اخذت أشعر بالعلاقات السرية التي تربط العاملات مع حسنين وعبد العال وعبد المتعالي وعبد المعطي وفيومي وسيد زيان والسيد وزة ومحسن. وكان هذا الاخير شخصا رهيباً، له سلاح اطول من ذراع ماكنة لف الاغطية وهو يدليه في البنطلون جانباً. عرفت أن عبد المعطي ضاجع كل العاملات، المتزوجات و غير المتزوجات..

في هذا الجو المشحون بالكتل الباردة والحرارة الساخنة كانت ام عباس تلاحقني اينما ذهبت. لم تكن جميلة ولا الاخريات. عندما دخلت غرفة تبديل الملابس في احدى المرات فوجئت بها هناك. تقدمت نحوي والتصقت بي، قالت بسرعة وهي تلهث، الآن.، لم استطع الفكاك.

حاولت دفعها لكنها انثنت وتمعجت والتصقت بي اقوى من المرة لاولى، ثم اخذت تفح وكأنما تريد التهامي وهي تقول، إن لم افعل فإنها سوف تصرخ وتفضحني.

لم استطع الانتظار اكبر. انتصب حيائي وكأنه في ملهاة درامية واخرجته لها مثل حيوان جميل واليف.ثم سلمته لأصابعها لتروضه. في تلك اللحظات الغرائبية والمليئة بالتشنج والتكاثف والمداهنة والتعب. رفعت ثوبها الابيض وشاهدت سماوات من الظلمة الكدرة. شاهدت غابات امازون ملونة بطيورها العجفاء وصراخ الحيوانات وانثيال الزمن وتبعثر الموسيقى واغمضت عيني وبدأت هي العمل سريعا وطرحتني على الأرض وبركبتين تائهتين صعدت فوقي. كنت أريد أن اتنفس لكنها تحاصرني بشهيقها الغريب، شهيق وزفير ملهم واسطوانات من الغاز السائل تنبثق من العيون وتتمرد على الانثيال الهش لحياتي. توسلتها - من أجل الله - أن تتركني لكنها كانت حامية. متجبرة، رعديدة. انثيالية وتموت في الجنس. ادخلته باصابعها إلى الزوايا المظلمة لليل مبهم وعجيب. وبعد خمسة دقائق من الارتعاش والارتعاش المضاد، وبعد خمسة دقائق من الارتفاع والانخفاض والتمحور والتمايل شاهدت عصفورها وقد انبرى مثل ارخبيل ممزوج بأشجار نفضية.

انتهت المهمة و بحثت عن لباسها مثل كلب سلوقي ورائحة المضاجعة تعم المكان. بعد أن ذهبت شعرت بسكون غريب وصمت كوني شامل. كان قلبي يرتجف، العظام تطقطق، الأوجاع تنتشر مثل سراطنات البحر وأنا على وجه القمر. خرجت من الغرفة بلا عظام وعضلات وأنا وسط الذهول ومؤخرة ام عباس أمامي مثل لوحة

لغوغان، كنت أتأمله وارتجف من الخبال السري والضائع بين اسنانها وفمها. كان الفم كبيراً جداً. فم عصبي ويرتعش، وفي لحظة الارهاص كنت خائفا. خائفا من الله ومن البشر ومن العم بهلول، لكن كل شيء جرى بسلاسة كبيرة، مثل الدهن على قطعة من الخبز الحار. مثل زنبقة في أرض المعركة. لم تكن ام عباس وقتها تهتم لأن أكون اكتفيت أو قذفت. كانت تريد أن تنتهي هي فقط وبعد أن خرجت اضطررت أمام الانتصاب العصبي أن امارس الاستمناء.

سرت في ممر المصنع مثل من شرب التوسيرام والبلموكودين. اصرخ بوجوه الجميع، يا ابناء القحبة. لقد كنت مبهوراً من الفجيعة وفيما أنا أسير محنطا ودائخا ومرجوما بلعنات الملائكة، ادخل في ممر جانبي واشاهد ام حسين عاملة النظافة وهي تناك من قبل حسنين الشغال وابتعد برعب و بديماغوجية غريبة ويرتبك حسنين الشغال وعبد الباسط ياتي مسرعا واردت أن اصرخ لكن ام حسين تمسك يدي وتقول لي، يا ابن القحبة اذا كنت تريد الفضيحة فسوف أقول انك أنت من ناكني. وامر مرور البلداء على الزمن واضطرابه والزمن وهشاشته الكونية ولا ادري بالذي يدور في هذه الحمأة المذهلة والمتصالبة والمتأرجه.

اذهب إلى قاعة العمل واقف أمام الماكنة بارتعاش. ام عباس على مقربة مني تعمل دون أن ترفع وجهها وكأن الذي حصل ليس بشئ ذي بال.. عندما جاءت استراحة الظهيرة صليت، وبعد أن انتهيت من صلاتي قلت لام عباس الجالسة قربي في مطعم المصنع لماذا فعلت هذا؟. قالت هل تريد الحقيقة؟. قلت ولا شئ غيرها. قالت لقد اشتهيتك. اشتهيت فيك بغداد. قلت الست متزوجة؟. قالت نعم ولي ثلاثة أطفال،

لكن زوجي شرطي كبير في السن ولا يرويني. تخيل اننا لا ننام إلا مرة كل شهرين. أين اطي وجهي؟ شكراً ام عباس لقد فهمت.

اترك ام عباس وفيما أنا في غرفة الصيانة حيث هناك قدوري الوردة عامل الصيانة والقادم من الممالك السوداء. تدخل بشيرة. يقول قدوري دون أن يعيرها أهمية، الشئ المهم هنا أن تحتفظ بصلاتك. المهم أن لا تترك الصلاة أما الأشياء الأخرى فافعلها دون خوف. لا تفكر فيها. اذا فكرت فيها سوف تغادر هذا العالم وانت مثل كلب اجرب. اذا دعيت إلى نيك امرأة نيكها واذا دعيت إلى صبي افعلها دون تردد. مهما كانت الذنوب فسيغفرها الله. صدقني. هل لاحظت العم بهلول وأقول نعم لكني لم افهم. حسنا يقول قدوري. انه مثالنا العتيد. انه مثلك متصوف لكنه ينيك ليس بقضيبه فهذا مات من امد بعيد. إنما باصابعه ولسانه.

تقول بشيرة العاملة في المصنع والواقفة أمامنا، أن ماكنتها عاطلة. وينهض قدوري واثناء الخروج وفيما كانت بشيرة أمامه يمس مؤخرتها واتقرفص واتخيل انها سوف تصفعه لكن شيئاً من هذا لم يحدث. وأشعر بدوار كبير. واحس أني اضيع هنا، اتحلل إلى أشياء بلاستيكية وبولي اثيلية صغيرة ثم اتبعثر في الفراغ.

مع مرور الوقت عرفت كل العاملات في القسم الذي اعمل فيه. هناك بالاضافة إلى ام عباس و بشيرة التي تحب أن تبعص لكنها تكره النيك وهي عذراء رغم أن عمرها تجاوز الاربعين.

سؤدد ابنة الثلاثين ربيعا، كانت عاهرة متنقلة فهي رغم بشاعتها ورغم حب الشباب الذي نخر وجهها تستطيع أن تعطيك اياه بكل دفء

وحنان وقوة. كانت تشبه ارخبيلا جباراً. شلالا عظيماً للرغبة. كانت تقول انها سحاقية كبيرة وتكره المذي والحيمن. كانت تعشق نائلة الفتاة ذات الاربعة عشر ربيعا وكانت تنام معها في سرير واحد عندما يخرج الاب من البيت.

بالاضافة إلى هذه المجموعة هناك مجموعة اخرى، فيها سعاد الذي اعدم زوجها والتي تقطر جنسا بالرغم من انك اذا تحدثت معها فإنها تتحدث لك عن الأطفال والموز والدردنيل البحري وقصص الجن. وهناك أيضاً ام حسين، العاهرة التي لم تقبل أن يلمسها اي شخص كان وكانت تضاجع في بغداد وتعمل احيانا راقصة في ملهى. ام حسين كانت زوجة شهيد قتل في القادسية الثانية ولها اربعة اخوة تم اعدامهم لانتسابهم إلى حزب الدعوة، لكنها بقيت بالرغم من أن لها خمسة أطفال شهية ومثيرة والسائل الانثوي يسيل من فمها.

لن استطيع أن انسى أيضاً، ام سؤدد المرأة المجنونة والتي اعتقل زوجها الشيوعي منذ اعوام طويلة دون أن تعرف مصيره. كانت قحبة من الدرجة الاولى لكن عليك قبل أن تنكحها أن تستمع إلى قصتها الطويلة والمؤلمة وبعد أن تستمع إلى القصة يكون سلاحك قد نام وفقدت الشهية على النيك ولا يحدث لك بعد ذلك انتصاب ابدا.

بعد هذه هناك ام نزار. المرأة الغريبة السلوك والمتعجرفة لكن المليئة بالحنان. كانت أما مثالية قبل أن يغتصبها اخ زوجها بعد ذهاب الزوج إلى الجبهة ضمن الجيش الشعبي. ومنذ ذلك اليوم أصبحت لا تهتم بشئ مطلقا وكانت مشروع نيك مفتوح على مصراعيه لكن عليك قبل أن تتقدم لسؤالها أن تعرف المغاليق السرية لها. كانت هنالك أسرار. ومن يعرف الأسرار ينجو من العاصفة ويكتشف المجهول.

كل امرأة كانت لها طريقتها الخاصة بالاقناع ويجب دائماً أن تتبع الطرق السرية وغير المعلنة وأن تقفز حول دوائر النار البوذية وأن تسير قدما ومندفعا وقاسيا ورعديدا..

بالاضافة إلى مجموعة النساء التي تحدثت عنها كانت هناك ام علي وام بروين. ام علي، يا للسماء المتفجرة. اجمل امرأة في المعمل. قدسية غريبة ومليئة بالهرمونات. كل جزء منها يدعوك للنيك. يصرخ بك. يلعنك. يتأمر عليك. الجميع يركض خلفها من أجل الحصول على ابتسامة لكنها تصد الجميع وتنهرهم رغم أن الجميع يعلم انها قحبة وقحبة كبيرة. ام بروين امرأة تتنفس الهواء من فرجها. ليست بجمال ام علي لكنها بالوعة للنشوة والمني. تستطيع أن تعطيك اياه في اي مكان لا يوجد فيه أحد سواك. ام علي وام بروين صديقات لكن نوع الصداقة بينهن غريب. كنت أشعر كلما اذهب إلى قسم ام علي لإصلاح الماكنة اللعينة أني عبارة عن قضيب منتصب. يحدث لي انتصاب بمجرد أن اشاهد ام علي. اشاهد انحناءتها وهي تحمل الصناديق ثم تنحني مرة أخرى ويبدو خط اللباس الداخلي من خلال صدرية المعمل واضحاً. كل الرجال في معمل الادوية يعرفونها. كل الرجال بمن فيهم العم بهلول يمارسون الاستمناء في اللحظة التي تتحدث معهم.

تزور ام علي ام بروين في بيتها في مجمع الدور السكني وينمن سويتا على فراش واحد و يمارسن السحاق الكوني ورغم أننا لم نشاهد اي شيء فإن السحاق كان يقطر من فم ام علي، مثل العسل أو قطعة ذهبية من السكر المغلف بالشكولاته. ام علي سمراء بعيون مضللة دائما. في المرة الاولى التي شاهدتها اردت أن اخري في بنطلوني. ولم تمنحني ابتسامة. دائماً كانت عابسة وحزينة ومرتعشة. قوة شخصيتها تختفي

خلف الغدد النافذة لسائل الانوثة الطاغي. يقال إن زوج ام علي مسجون بتهمة التآمر على الحزب والثورة. لكني اعتقد أن الحكاية مجرد شائعة لانه لوكان متآمراً فعلا لتم اعدامه. الشئ المؤكد فقط انه سجين الآن وام علي هي من تعيل أطفالها.

في بعض الاحيان، يقول العم بهلول انه دائماً ما يذهب إلى بيت ام علي، و يجلس أمام البيت. ليس لشئ محدد لكنه يريد أن يمسكها بالجرم المشهود وطيلة شهور من المراقبة لم يلمح اي شخص يزورها، لكن رغم هذا يصر انها قحبة وتدخل الرجال إلى مغارتها مثل ضبعة مخيفة، تمتصهم ثم ترميهم إلى المزبلة عبارة عن نفايات من الخراء والأمعاء الجائفة.

منذ أن عرفت ام علي حدث شيء غريب في حياتي. صرت امارس الاستمناء كل يوم صباحاً في المعمل. انتظر حتى يذهب العمال إلى العمل فأدخل إلى المرحاض واتخيل ام علي وسرعان ما اقذف الأوجاع والمسرات والآلام والمذي يسيل بعد ذلك في بنطلوني وحينما اخرج من المرحاض يكون وجهي مائلا إلى الصفرة. زوجتي المسكينة لم تعرف ما كان يدور. كانت تنام في سرير من الغفلة. بعد ادماني الاستمناء أصبحت الاحظ ثمة تغيير في شكلي عندما اخذ يتحول إلى اير بقبعة كبيرة. وجهي أيضاً كان يتحول إلى شيء.... كل جسمي كان يرتجف واتحول في بعض الاحيان إلى كيان هش والبصاق يتطاير من فمي.

ام بروين كانت لم تزل جديدة في العمل. كانت تسكن معي في مجمع الدور. من نظرة واحدة في عينيها اكتشفت أن المسكينة كانت عطشى للنكاح. كانت تريد أن تناله في اي مكان ولاي شيء وباي ثمن. تعرفت عليها واخذنا نتبادل الاحاديث عند انتظار الباص الذي يقلنا إلى المعمل.

اقترحت عليها أن أصلح لها جهاز التبريد في الشقة، وافقت. كانت خطتي مرسومة بشكل متقن. بعد عودتنا من العمل. حملت بعض المفكات وذهبت إلى شقتها. أطفالها لم يكونوا يعرفوني وقلت لهم أني من قسم الصيانة. دخلت الشقة وجاءت ام بروين مسرعة وهي تضع الفوطة على رأسها. دخلنا في غرفة التبريد وما أن وضعت المفكات على الأرض حتى التصقت بها. حاولت هي أن تبتعد قليلا لكن يدي كانت تطوقها.

فلسفتي الخاصة مع النساء تقوم على شيء واحد. اذا اتيحت لك امرأة فإن اول شيء تفعله هو أن تمسك عصفورها بقوة وسرعة. اذا مسكته سوف يتساقط كل شيء تباعا. نجحت الخطة نجاحاً باهراً. استطعت أن اجعل ام بروين تنحني وناولتها اياه من الخلف. في البدء قالت انها تريد أن انكحها من الطيز لكني اعترضت. كنت اكره الممارسة من الطيز لكن أمام اصرارها فعلت وتلوث قضيبي بالخراء واردت التقيئ. انتهيت منها بسرعة وخرجت ناسيا المفكات على الأرض وساقي ترتعش و الم فظيع في الرأس..

الزوجة لم تكن تعرف شيئاً، لكنها كانت تتساءل عن السر الغريب في أني لم اعد انام معها ونقلت هواجسها إلى امها واقربائها الذين جاؤوا يهددوني بالقتل أن لم اعد إلى النوم في سرير الزوجية. كان مشهدا خرائيا. الأم تنهرني والزوجة تبكي والاقرباء يعوون مثل الذئاب ويلتهمون ما في البراد وتقول الأم ماذا تفعل، هل ابنتنا بائرة، اذا لم تنام معها، طلقها، الآن وليس غدا وتذكرت اغنية فيروز. ومع الاغنية تصدح بلابل الاشتياق المر واللعنة والمرور العاصف لزوبعة في طور المهد. وأقول خذوا ابنتكم يا ابناء القحبة. ابنتكم التي اماتت غريزتي

وجعلتني مثل محمد تركي النصار. أسير في الشوارع وأنا بلا عضو، عليك أن تتخيل هذا المشهد بروح دون كيشوتية. اردت أن ارتكب الجريمة. الجريمة الكاملة وبعد أن انتهي من دفن زوجتي في التراب والخارصين اصنع لها قبراً من الفسيفساء المغربية.

أمام اصرار الأم دخلت فراش الزوجية مثل نحلة لكن بدون أن اقرص إنما اقرص من مؤخرتي. كنت انام معها مثل شيء محنط وكانت هي مثل فرعون بائس ومثل بقة فراش تلحس فروة رأسي باحاديث عن التيم والنوم والارتعاش المهبلي. تفو عليك يا ابنة القحبة، واحلم بفرج ام بروين وام علي. ام بروين بعضوها اللزج - له طعم الفراولة الممزوجة بالويسكي اللاذع-. فرج حار جدا، ساخن. حتى إن كنت مصاب بالهستريا فإنك سوف تشعر بالراحة والهدوء معه.

كنت اذهب إلى المنزل وادخل إلى السرير مثل جثة وكانت الزوجة تنام قربي هي الأخرى مثل جثة. كنا محنطين وبائسين ومكروهين. نشعر بالعته والهلع تجاه بعضنا.

بعد شهر من ترددي إلى بيت ام بروين حدث شيء خطير، تطور لم يكن في الحسبان، اذ طردتني من الشقة. لم أعرف السبب وبقيت ادور حول البناية مثل ضبع اضاع مسقط راسه. كنت مرتبكا واعاني من عظمة في فمي. عضوي يصرخ واعصابي متوترة.

ذهبت لها في اليوم التالي ولم تفتح الباب. اردت أن احدثها عن الاموال التي استلفتها مني باعتبارها دينا يجب تسديده لكنها لم تفتح الباب. اللعنة لم تكن الاموال فقط هي ما اخذته مني. لقد اخذت أشياء أكثر أهمية. اخذت مسجلة وراديو وبعض فساتين الزوجة وبرادا، في الحقيقة اخذت معظم اغراض منزلي ولم يتبق لي غير السرير وكنت أفكر

أن امنحها هذا أيضاً لكن الزوجة اخذت تبكي وتعول مثل ذئبة جاءها المخاض. بقيت عشرة ايام وأنا ادور حول الشقة. كنت أريد أن اكلمها فقط. أن أعرف سبب ضربي بالمقارع والاحذية. لم تمنحني فرصة. في النهاية عرفت أن المسؤول الحزبي لمنطقة الدور استولى عليها وانها أصبحت محظيته.

شعرت بالحقد على هذا المسؤول. كنت أنا من اكتشفها وعلمها انواع مستحدثة من الجنس. كانت امرأة خام. امرأة مصنوعة من الدهشة ولم تعرف من الممارسة إلا الانبطاح على ظهرها ورفع ساقيها. علمتها أن الجنس عبارة عن فلسفة خاصة. منحتها ملابس زوجتي الداخلية، وعلبة المكياج. علمتها كيف تغسل شعرها بالشامبو وتضع المساحيق وأن الممارسة ليست عملية ادخال وقذف فقط.. حملت لها كل خبرة أهل بغداد في المضاجعة الايطالية والفرنسية والبرازيلية وعلى الطريقة الكويتية أيضاً.

كانت كثيراً ما تعاني من الالتهابات المهبلية فاشتريت لها طقما خاصا لعناية الكس وعلمتها كيف تعطره بايديها وتلبس اللباس المناسب لكل وقت.. كان طردي صدمة. عدت مرة أخرى لشرب البيرة. في الحقيقة صرت اسكر في كل الاوقات واضرب الزوجة بقسوة ولم تكن هذه تعرف السبب. كنت انفعل لاجل اي شيء واضربها لاتفه الاسباب. اذا اعدت قهوة وكانت كمية السكر قليلة اهجم عليها واذا دعتني إلى الفراش العنها وابدأ بالسباب والشتم وفي احيان كثيرة يتطور الامر إلى أن اخرج من البيت ولا أعود إلا وأنا محمول على نقالة بسبب السكر الشديد.

بقيت شقة ام بروين وصورتها تصبغ حياتي كلها بلون غامق، حتى

جاء جهاز الأمن الخاص إلى المعمل. كان مجي هؤلاء الرعاع صدمة كبيرة. كانت مهمتهم المعلنة هي زيادة الانتاج لكنهم كانوا يحملون في ايديهم العصي والكيبلات.

اخذنا نعمل وعيوننا تراقب هؤلاء الاوغاد القادمين من مدن الحويجة وتكريت. اذا شاهدوا احدنا يتحدث اثناء العمل ينهالون عليه بالضرب ويسحلوه وهو أشبه بجثة مخرمة بالرصاص ثم يرموه في المغاسل. كانوا من النوع الهمجي - لم يتعلموا اصول الاتكيت -. عندما ينادوك لا ينادونك بالاسم إنما بألفاظ غريبة وعجيبة. ضربوا العم بهلول - الكناس - وضربوني أنا أيضاً عندما لم استطع إصلاح ماكنة معينة بالكيبلات والعصي.

كانوا يتصرفون وكأنهم السلطة العليا في هذا العالم وعلى اعتبار انهم نوع خاص من البشر أما نحن فلم نكن إلا حيوانات يجب أن تسلخ جلودها الرقيقة. كنا نعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم وفي بعض الاحيان أكثر وعندما نعود للبيت نكون مثل الحجارة القاسية. نسير بلامشاعر واحاسيس. نعمل مثل الالة المزيتة جيدا، بسلاسة وانضباط عال. كنا نخاف اي شيء وكثير من العمال أصبحوا يعانون من الهستريا والرعب. ليس أمامك إلا العمل والعمل بقوة، وبحيوانية وسرعة اعلى من الالة، أو، الذهاب إلى الجبهة وكان هذا يعني الموت.

لكن الموت بالنسبة لي ليس سيئا وهو افضل من العبودية التي اعيشها مع هذه الحيوانات. بمجيء هذه البهائم والتي تتصرف باعتبارها من اقرباء الرئيس. لم تعد هناك ابتسامات متبادلة مع العاملات. لقد تم الاستيلاء عليهن من قبل هذه الحيوانات، صاروا يضاجعون الجميع أمامنا ويتحرشون بالنساء في كل الاوقات والازمنة.

مدير القسم السيد ناجي ضربوه أمامنا. كان رجلا طيباً، اعترض على دخولهم القاعات المعقمة لكنهم اغتصبوه أمامنا. ضربوه بالكرباج والكيبلات حتى خرج الدم من فمه ومؤخرته ثم تركونا نحمله إلى العيادة الخارجية لمستشفى سامراء العام.

في الطريق كان الرجل يئن ويتوجع ثم اخذ يغيب غيبوبات متتالية وعرفنا بعد ايام انه اصيب بارتجاج الدماغ.

العم بهلول كسروا له ذراعه ولم تنفعه التكية التي كان يملكها والاوراد التي كان يقرأها بوجوههم من أجل اجتنابهم.

قدوري الوردة شلوه بضربه على الرأس وقضى ايامه الاخيرة في هذا العالم وهو على عكاز ويثرثر بأشياء غير مفهومة إلا بالنسبة لزوجته المسكينة

. أنا أيضاً ضربوني ولأكثر من مرة وفي أحد المرات استطعت أن افلت من ايديهم واختبئ في صندوق القمامة الكبير. دائماً كنت اتصور نفسي عبارة عن حيوان يجري استغلاله باية طريقة وباي ثمن. في الجبهة أو هنا أو حتى مع ام بروين.

ام بروين التي اختفت بعد وصول جماعة الأمن الخاص إلى المعمل وسمعت أن المسؤول الحزبي الذي اقامت معه علاقة استأجر لها بيتا في بغداد ومن بغداد بدأت رحلة طويلة وسمعت انها الآن بين احضان وطبان وسبعاوي وأن مهمتها هي القوادة ولا شئ غير هذا.

مع مجيء جماعة جهاز الأمن الخاص لم اعد أفكر في ام بروين ولا بأم علي، ما الفائدة من التفكير بهن وقد أصبحن محظيات كبيرات للجماعة. كنا نخاف ام علي و الاخريات ولم نعد نتحرش بهن واصابنا

الخرس وحتى عضونا أصبح يغرق في سبات طويل وبيات شتوي مثل الضفادع التي لا تنق. كنا نسجل الارقام العالية عن انتاجيتنا كذباً، وهم يرفعون التقارير إلى حسين كامل. سيدي حققنا اقصى انتاجية. سيدي لقد تفوقنا على المصانع الامريكية. سيدي لقد انجزنا اكبر مشروع في العالم لانتاج المراهم والحقن المهبلية. سيدي لقد بنى جنودك في التصنيع العسكري اقوى عربة قتال في العالم واكبر صاروخ واكبر ماكنة للنكاح.

كل شيء كان ضخما كبيراً على السطح. أما من الداخل فكان كل شيء عبارة عن خراء. كان المديرون العامون يكذبون والمهندسون يكذبون ونحن أيضاً نكذب. كلنا كنا نغرق في الخراء لأن جهاز الأمن الخاص - اذا لم نبتكر - سوف يحطمنا. سوف يحطم مكائننا وادوات انتاجنا ويرسلنا إلى الجحيم وكان الجحيم هو الموت في الخطوط الأمامية في الجبهة مع العدو الايراني، العدو الاغرب في هذا العالم والذي يتمتع هو أيضاً بحيوانية عالية.

كنا نأكل الخراء سوية. هم ونحن ولا نعرف سبباً للحرب ولا هم يعرفون. في الجبهة كنا نمسك الاسرى الايرانيون ونسألهم عن سبب حربنا فيقولون أن المهدي المنتظر أمر السيد والسيد امرنا.

كل شيء كان يجري ضمن المبني للمجهول. كل شيء قائم على الخراب والتفاهات والأحلام والرؤى الشيطانية. عالم يتجذر فيه الشيطان وعندما نقول لهم أيها السادة اوقفوا الحرب لأن الشيطان هو من يحركها، يقولون لك أيها الخنزير وتكون خائناً ويكون اهلك كلهم خونة وتؤخذ وتعذب بالكيبلات والاسواط وتقلع اظافرك ولا تعود إلى المنزل إلا بقيمومة سماوية أو معجزة. لم نك نعرف كيف سينتهي كل هذا ومتى واين وكيف ولماذا..

عقب كل ضرب بالكيبلات كنا نمسك حذاء الجندي من الجستابو – جهاز الأمن الخاص – ونقبله ونتمسح به، لكن الجندي كان قاسيا جداً. لم أعرف لم يتمتع بهذه القسوة المرعبة والشديدة ثم كيف يتسنى للإنسان أن يعذب إنسان اخر بمثل هذا التوحش والذئبية.

وجود جهاز الأمن الخاص شكل بالنسبة لي صدمة نفسية مروعة وبالرغم من التعب الشديد الذي يصل إلى الاعياء وفقدان الوزن والشهية والرغبة الجنسية، كنت أعود إلى المنزل واحطم ظهر زوجتي بالركلات. كنت مسحوقا وكنت أريد أن لا اسحق ويبدو أن مغامرة العقل شارفت على النهاية مفسحة الطريق للغرائز الحيوانية أن تنمو وتزدهر بما يشبه زهرة النيل التي تقتل الانهار. لم أكن أعرف لماذا كنت اضرب زوجتي ولا طفلي الصغير. كنت ارتعش وأنا اضربهم. بسببهم أنا هنا اليوم. بسبب الفقر وعدم امتلاكي لمنزل خاص اضطرني إلى قبول العمل هنا. الموت في الجبهة يبقى في كل الاحوال اهون كثيراً من هذا الانحطاط المعرفي والاخلاقي والجهنمي. انحطاط تسحق فيه وكأنك عبارة عن دودة شريطية. أنت لم تعد أنت ولا الزمن بقي هو الزمن. كل شيء يتغير نحو الاسوأ وبالرغم من هذه القسوة أقول احيانا، تبقى الحياة اثمن شيء في الوجود. لكن هذا القول بائس للغاية. بائس إلى حد اللعنة المدوية. الموت هو افضل من كل الأشياء. لكن في الجبهة تصطدم بالضباط الذي لايراعون حتى قوانين الحرب. فقط قاتل، بلا ماء، بلا غذاء بلا اعصاب، بلا إنسانية، بلا ضمير، بلا الله. يجب أن تقتل وكلما قتلت أكثر أصبحت بطلا والايرانيون مثل دود الخراء لاينتهون وكل موجة تتم ابادتها تأتي بعدها موجة أخرى وهي تريد أن تصلي في كربلاء والنجف وسامراء.

كانت الزوجة تحطمني، تدمرني. كانت تعيش لا مبالاة عارمة. لا مبالاة تدفعني إلى الجنون. ففيما أنا اعاني من التعاسة والاكتئاب والاعصاب المشدودة ومن التهميش الإنساني واصطدم كل يوم بحيوانات تعتبرني حيوانا غير مرغوب فيه ضمن القبيلة. كانت هي تعيش في عوالم خاصة. عوالم ليس لها اتصال بعالمي. كثيراً ما أشعر أني اكرههها.

كنت اقلب الكتب في المنزل ولم أكن قادراً على الكتابة، ولا القراءة، السبب هو لاني مهان، والاهانة كانت عظيمة وتأثيرها مدمر ومحطم للروح المعنوية. أن تعيش فهذه ليست مشكلة لكن أن تعيش وانت تشعر انك عبارة عن زائدة دودية في هذا الوطن، هذا ما يحطمك ويدمرك ويجعلك تعيش في اوهام عالم اخر. منذ أن بدأت الحرب مع إيران ومنذ أن تركت الجامعة والتحقت بالجيش لم اعد أشعر بإنسانيتي التي كانت مسحوقة وكان هناك نظام شره يحولنا إلى تفاهات.

الضباط يهينوننا والعرفاء يهينونا والمسؤول الحزبي في الجيش يهيننا. كان الضباط يعتبروننا أشياء خرائية وواجبنا هو التبجيل لهم وانهم فوق حاجز الإنسانية وبعد أن تركت الجيش وجئت إلى معمل الادوية وبعد أن جاء جهاز الأمن الخاص بغرض زيادة الانتاجية، عادت المعاناة مرة اخرى. عاد الشعور الضاغط باننا لسنا بشراً، إنما ماكنات للعمل وابقار تدر الحليب فقط من أجل أن يشرب السادة.

الضباط في الجيش هم المواطنون من الدرجة الاولى واعضاء جهاز الأمن الخاص هم مواطنون من الدرجة الاولى والمسؤول الحزبي هو مواطن من الدرجة الاولى. أما نحن. المساكين. قدوري الوردة والعم بهلول والاخرين فلسنا إلا سقط متاع. كفرت بعيشتي. كفرت بالعالم

والاب الذي ادخلني إلى هذا العالم عنوة. عالم الدناءة والنجاسة وكرهت نفسي أيضاً. كرهتها لاني صنعت أطفالا من أجل أن يشعروا انهم مواطنون من الدرجة الدنيا ويكونوا عبيدا في هذا الوطن والحرب التي تتطاير فيها القنابل والسباب والشتائم. كنت أشعر أني اعيش عبودية مريرة واني خلفت أطفالا من أجل هذه العبودية المتصلة.

التكارتة يعتبرون انفسهم فوق العالم. فوق روح مواطنتنا واننا عبارة عن خراء يجب تنفسه. الوطن ليس لنا إنما لهم. وكنت تصطدم دائماً وفي كل مكان بوجود هؤلاء التكارتة. في المنزل وعلى طاولة الطعام وفي المرحاض وفي البار يشيرون لك انك عبد وعليك أن تخدمهم وأن تدافع عن وطنهم هم وليس وطنك.

شعور العبودية هذا كان عارما، كان فظيعا وصارخا هنا في سامراء وفي الدور وفي تكريت. اثناء انجازي لمعاملة معينة في تكريت كنت اجلس عند مصور شمسي وفيما كان جالسا يعمل، نهض فجأة هلعا وظل في حالة ثبات وكأنه تجمد وما أن ذهبت السيارة التي مرت من أمامه، حتى انهار على الكرسي وهو يجمجم ويبربر. كان شيئاً غريباً حدث فعلا ولم افهم الذي اصابه وبعد أن عرف أني من بغداد ولست من الدور أو سامراء أو تكريت قال لي هل تدري لو أني لم اقم لتلك السيارة ما الذي كان ليحصل؟. وقلت له لا، لا أعرف. قال لقد مر من هنا أحد شيوخ تكريت ولو أني لم اقم احتراما له لجاء وضربني في دكاني.

كان يرتجف والرعب يسيطر عليه. كان إنسانا قادما من بغداد استأجر محلا هنا لكنه اصطدم بأشياء غريبة ومذهلة. كان يعيش في تكريت مثل قملة. مثل بقة فراش. على الهامش دائماً ويقول اللهم لا تسلط علي التكارتة ولا أهل سامراء ولا أهل الدور.ربي إن سلطت علي

هؤلاء فإنك غضبت علي.

في تكريت حينما تسير تشعر انك تسير في شيكاغو أو في الغرب الامريكي، حيث الكاوبوي والسود. وكانوا هم الكاوبوي ونحن السود بمآزرنا وأطفالنا العبيد ونساءنا وكلنا ملك لهم وطوع امرهم، أما اذا فكرت بالتمرد على هؤلاء الاوغاد واردت الحرية فمصيرك القتل والسحل وليس هناك من يسأل عنك وحتى عشيرتك أو القبيلة التي أنت قادم منها لا تتذكرك ولا تطالب بدمك الذي يبقى صارخا في القبر. في بعض الاحيان كت أفكر انه حتى الله كان تكريتيا وكنت أفكر دائماً بالحكمة المتولدة من أن نكون نحن العبيد وهم السادة والكاوبوي.

في تكريت كان بامكانك دائماً أن تسمع الرصاص وهو يتطاير مثل مدن الغرب الامريكي تماما وفي بعض الاحيان تتوقف سيارة تكريتية وينزل السائق منها وسط الشارع ويذهب إلى مكان ما وتبقى السيارات الأخرى بالانتظار لأن السيد اوقف سيارته في منتصف الطريق ولن تستطيع أن تفتح فمك ثم لماذا تفتح فمك أصلا ومن تكون أنت لتناقش هذا السيد وتقول له لماذا اوقفت سيارتك هنا وقطعت الطريق. القادمون من المحافظات الأخرى لتكريت يعيشون عبودية غريبة واذا كنت تملك ابنة جميلة فعليك أن تقبل أن تغتصب واذا اغتصبت فعليك أن تسكت أو أن ترحل إلى محافظتك القديمة وانت مجلل بالعار.

كان التكارتة يمتلكون نوعاً بوهيميا من الغيرة من أهل بغداد. مع أهل بغداد يشعرون بعارهم الشخصي وعارهم كان عبارة عن اوهام القوة والجبروت. اذا صعدت في احدى سيارات النقل العام وكان مكانك جيدا فاحذر لانه لو جاء تكريتيا فإنه سيطلب منك أن تنهض وتمنحه المكان. كانوا يستولون على كل الأماكن الجميلة في حياتنا. منعونا

من السير في شارع ابي نؤاس والاعظمية وسبع قصور وكرادة مريم والدورة. منعونا أن نشم حتى الهواء وأصبحت بغداد عبارة عن عار شخصي. أنت ابن بغداد ولا تمتلك مدينتك. وكانوا هم من يمتلك كل شيء. لا تستطيع أن تسير في اي شارع إلا بموافقتهم، لا تستطيع أن تتنفس إلا بمعيتهم.

اذا سرت في تكريت عليك أن تطأطأ رأسك. لا يكون الرأس مرفوعا إلا بالقدر الذي يسمح لك بأن ترى وأن لا ترى يكون افضل.

ثانيا، يجب عليك أن تستعد لاي اهانة من قبل اي تكريتي تقابله في الشارع، سواء كان هذا التكريتي صغيراً في السن أو رجلا مكتمل الرجولة ام خصيا أو شيخا.

ثالثا، احذر أن تبصق في الشارع فربما يكون احدهم قريباً منك ويعني هذا انك تحتقر التكارتة والويل لك.

رابعا، يجب أن تسكت دائماً وتكون طريقتك في السؤال توسلية. يجب أن تتوسل اي شيء وكل شيء حتى اذا اردت أن تدخل المرحاض.

خامسا، عليك أن تتصرف باعتبارك هندي احمر أو شيء قادم من حضارات المايا أو الازتيك وهذا يعني أن لا تتبول في الشارع. الشارع موجود فقط ليتبول فيه التكريتي أما أنت فعليك أن تتبول في بنطلونك.

اذا اردت أن تصعد في حافلة النقل العام يجب أن تدفع اجرة أكثر أما التكريتي فلا يدفع اي شيء. احذر من عبور الشارع واحذر من المركبات السريعة لانك اذا دهست فلن يعيرك أحد اهتماما ولا حتى سيارة الاسعاف أو مستشفى تكريت العام.

شيء جنوني. شيء خرافي يحدث في هذا العالم وانت على حصانك

أمام حضارة التكارتة الغريبة والبوهيمية والحيوانية. أما اذا اردت أن تسكر فعليك أن لا تتقيء ولا تغني. عليك أن تكون مثل الضفدع. تجلس في اخر الصالة وتتسمر وحيداً بلا ضحك أو أصدقاء واذا سكر تكريتي وتقيأ على ملابسك فيجب أن تفرح، أن تغرد.

وبعد أن تسكر عليك أن لا تسير متمايلا وأن تدفع لحسنين الحساب وتخرج مثل كلب وذيلك بين ساقيك وتعوي في الخارج وحيداً أو يجب أن تعوي في بيتك. في المجمع وبعد عودتك عليك أن تفرغ كل شيء، العرق والبيرة، ثم تضرب زوجتك وتلكمها ولا تستطيع أيضاً أن تغني لأن جارك تكريتي أو من سامراء أو الدور وهذا يزعجه حتى اذا غنيت في الحمام. عليك أن تكون كل شيء واي شيء يطلبونه منك. تتحول إلى ضفدع أو افعى أو كلب أو قطة وحسب مزاج التكريتي. في بعض الاحيان يطلب منك أن تتعرى ليشاهدوا طيزك إن كان لك ذنب ام لا.

أكثر ما اخافني في تكريت هو أن يستولي أحد ما على زوجتي. لذلك لم اسمح للزوجة بالخروج إلى خارج المنزل. أو أن تفتح باباً في عدم وجودي أو تتسوق. كنت اعيش هاجس الاستيلاء بعد أن استولى أحد التكارتة على امرأة في الشهر الماضي فيما كانت تسير في تكريت بمفردها واضطر زوجها مجللا بالفضيحة أن يطلقها ثم يعود إلى بغداد بعد الم فظيع في المثانة والمرارة وسمعت بعد ذلك أن الكآبة اصابته وبعد الكآبة اصيب بالشيزوفرينا ثم توفي بسبب ورم خبيث في الدماغ.

فكرت أكثر من مرة بأن أعود إلى بغداد أو بعقوبة لكن لم أكن امتلك المال الكافي لتأجير منزل. فكرت بأن اشتري خيمة وانصبها في احدى ساحات بعقوبة لكن هذا يعني أن لا باب تقفل عليك وأن

البلدية حتما سوف تطردني. أكثر لأشياء التي المتني أني غير قادر على الكلام. كنت اعيش نوعاً غريباً من الكتمان. كتمان حتى الافكار خشية أن يكتشف أحد التكارتة هذه الافكار واعدم باعتباري خائناً للوطن أو للقيادة السياسية والحزب والثورة.

كنت اجلس في غرفتي شارداً غالباً، أفكر في عالم بدون تكارته، كيف سيكون هذا العالم. كيف سيكون اذا تخلينا عن التفكر في غد أو في بعد غد. كانوا اقوياء جداً واي امل في ازاحتهم مستحيل. افكار الثورة والمعارضة بدأت تختمر في ذهني، وكنت اخاف هذه الافكار. كنت اخاف أن انام في العمل أو آخذ قيلولة ولو صغيرة ثم اهذر.

كنت ابعد هذه الافكار عن ذهني. في احدى الليالي حلمت أن هناك انقلاباً حدث وصحوت وفتحت التلفاز وشاهدت كل شيء يجري كالمعتاد. الرئيس يتحدث وعناصر الحماية التكريتية حوله والعالم غارق في غيبوبة.

كان الرئيس يتحدث عن اننا كنا سابقا حفاة وعراة وانه بسبب الثورة صرنا نلبس الاحذية والجواريب والالبسة الداخلية. كنت استغرب هذا الحديث لكني امنع نفسي من التفكير. لا أريد ليأسي الداخلي أن يتحول إلى اللاوعي لأن التحول إلى اللاوعي يعني افكاراً ضمنية في الدماغ.

حينما يتحدث الرئيس في التلفاز احفظ كلامه واردده وأقول لنفسي اننا نعيش اجمل ايام حياتنا واني احب الرئيس واحب وجهه واحب خرائه واحب منيه واحب التكارتة - اسيادنا في هذا العالم - واني الحمار الوحيد على الأرض الذي يفهم المعادلات الحيوية للانفجار

الذهني. كنت امرن الذهن على حب القائد وحب الثورة من أجل أن يدخل كل هذا إلى اللاوعي، وبعد أن استمع إلى حديث القائد اضرب الزوجة واضرب طفلتي ورغم أن الزوجة حاملا مرة أخرى لكني كنت ارفسها مثل الحمار وبعد أن ارفسها اضاجعها مرتين أو ثلاثة.

كان التستورين في جسمي يحطمني. يجعلني اعيش نوع من الحيوانية الغريبة. كل الأشياء كانت تتآمر علي بجدية موجوعة وكنت اذهب إلى بغداد وادخل السينما واشاهد الافلام التي تحوي على مقاطع جنسية إلى حد ما وبعد انتهاء الفيلم اذهب إلى المرحاض وهناك، بين الخراء والقذارة والتغوط المزدوج على الحواف وبين الصراصر الكبيرة، امارس الاستمناء إلى الحد الذي انهار فيه وأشعر أن العالم يدور للحظات وتضربني حالة من العماء المؤقت.

بعد أن اخرج من السينما، اذهب إلى منطقة المربعة وبين اخواني المصريين التهم الفلافل والطعمية لاني لا استطيع أن ادفع ثمن شيش كباب أو صحن رز ومرق. لو عصرتني لخريت طعمية وفلافل واقداح شاي. هذا هو كل تركيب جسمي لكن المذهل فعلا هو التستورين الفعال في الجسم. هذا التستورين يحطمني، يجعلني حيوانا حتى وإن تكن في بغداد وبين اصدقاؤك.

وفيما أنا في المربعة اكل مثل ثور مفلت في مزرعة شوفان. يخرج المذيع التلفزيوني ويقول انتظروا نبأ هاما. ولا أعرف ما أهمية هذا النبأ إلا أني خمنت أن ثمة هجوم جديد. ويخرج المذيع بعد انتظار قاس ويعلن أن إيران وافقت على السلام وانتهت الحرب وانتصر العراق. ويخرج السيد الرئيس ويسير في الشوارع. كل الشوارع كانت ترقص بفرح غريب. آن لنا أن نعيش. آن لنا أن نحلم من جديد. لكني لا املك ثمن

الاحتفال ولا املك أن اكل مثل بقية البشر. وأعود إلى الشقة باخر ما في جيبي من نقود مع قنينة بيرة واضع الملح مع البيرة واسكر واتقيأ عل الارائك ومثل مخبول اشرب من القنينة التي لا تنتهي وأشعر أني اتفجر والتلفاز يبث اغاني جديدة لم نسمعها من قبل واضرب زوجتي مرة أخرى لاني لا امتلك ثمن قنينة جديدة من البيرة وامارس الجنس مع العاصفة ومع الزوجة ومع الستائر و الارائك.

في الصباح اسمع حكايات تتحدث عن أن النساء خرجن عاريات في بغداد. كلهن نذرن أن يتعرين إن وقفت الحرب – يا لليأس وتوقفت الحرب فعلا. اللعنة، لن اصدق. لن اصدق حتى اسمع الخبر من اذاعة مونتي كارلو. انهم يكذبون في اذاعتنا. يكذبون لأن من يوجه الاعلام هو رعد بندر ولؤي حقي وهؤلاء لا اثق بهم لانهم مثل بقرات مزيفة دائمة الخوار والصراخ مع كل وجبة جديدة من العلف والشعير.

وانهار بعد أن اكمل قنينة البيرة واذهب إلى البراد ولا أجد غير قطعة صغيرة من الصمون والتهمها مثل مخبول وفي صباح اليوم التالي اذهب إلى المعمل. هناك نبقى ننتظر أشياء عديدة يجب أن تتغيرونننتظر أن يسحب افراد جهاز الأمن الخاص وانظر إلى ام علي والنساء الاخريات. كلهن كن ينتظرن الازواج النائمون الآن في سبخ الجبهات والحروب. فروج النساء تضج وكنت اسمع الاصطفاق واسمع اصوات الاثداء المضطرمة من الشوق. ارتعش مع موسيقى المارشات العسكرية واتلوى مثل حلزون بسبب مغص كبير يحطمني، وما أن انتهت الحرب حتى ضربنا الجوع. الاقتصاد ينهار. الوطن يتوقف. غلاء يكتسح كل شئ. اسعار ملتهبة.

بدأنا نجوع ونعرى. نسينا اللحم وعشنا على الفلافل. في الصباح

طعمية وفي المساء صحن من الفلافل لكن الزيت أصبح هو الاخر مرتفع الثمن وسائقو سيارات النقل بين سامراء والدور يرفعون الاسعار كل يومين متتاليين. ونبكي. نبكي الزمن الغريب والفوضوي.

كانت هناك امرأة واحدة تمارس الجنس مع الجميع في شارعنا، أما الآن فهناك العشرات. العشرات من الارامل والمعوقين. عالم بارجل منفردة وقحاب ونصف معدة ورئة واحدة وفم واحد واذن واحدة. وعين واحدة. كنا نشعر أن زمن الانتصار ولى سريعا جداً. لكن حسين كامل يخطط لعراق كبير وعراق متجبر وشاهدت اول مرة ضابطا يعمل في سيارة اجرة وعرفت أن هناك شيئاً تغير وأن هذا الشئ خطير وخطير جداً ومدمر وأن المقاييس الكونية في طورها لأن تنقلب. لكننا لم نفكر بالهروب بعد ولم نفكر في مؤانئ العالم واول مرة شاهدت فيها المائة دولار ارتعشت لكني لم اعيرها أهمية، لأنها بلا أهمية وبلا سوق لتصريفها لكن كان هناك على ما يبدوا اناس يعرفون قيمتها وقوتها.

بعد انتهاء الحرب تم سحب عناصر الجستابو – جهاز الأمن الخاص – من المعمل. تنفست ارواحنا من جديد لكن بقيت هناك اثار لم نستطع نسيانها.لم نستطع أن لا نخاف كما لم نستطع أن ننام وكل نومنا قد غدا عبارة عن رؤى غريبة وكوابيس. دائماً كنت احلم بالموت وهو يخنقني وفي كثير من المرات كنت اشهق تلك الشهقات التي تجعل الروح تغادر الجسد واقفز من الفراش وأنا اصرخ مثل حيوان جريح، اصرخ طالباً قنينة بيرة، لكن الزوجة تقول من أين اتي لك بالبيرة وأقول لها اخرسي ايتها القحبة وألعن أباهاوأمها وألعن الزمن الاغبر الذي جعلني غير قادر على شرب قنينة واحدة لأني مفلس تماما.

مفلس لأنكم يا ابناء الافاعي تأكلون راتبي كله وابقى أنا مثل

كركدن اضاع بوصلة الزمن. وتبكي الزوجة من هذا النستالوجيا المريرة؟ مرارة غريبة في فمي. أسير مثل المسرنم في الشقة وادق باب جيراننا وأقول للمدام هل زوجك هنا وتقول لا انه في الجبهة واستلف منها ديناراً واذهب إلى تكريت واشتري قنينة بيرة وفي طريق عودتي يضربني تكريتي وتسقط القنينة وتتحطم ورائحة البيرة تفوح ويتجمع تكارتة اخرين ويضربوني باحذيتهم لاني سكير.

كنت أموت من البرد. أموت من اليأس واصرخ في الأحلام. بيرة، بيرة. لكن لا بيرة بعد اليوم. وفي صباح اليوم التالي ارتدي ملابسي واذهب إلى المعمل وهناك التقي بشيزوفيرينا الأحلام. بشيزوفرينا الوجع وانهار ويأتون بنقالة ويأخذوني إلى مستشفى سامراء وهناك اتلوى مثل ضفدع خرج من طور السبات إلى طور البيات الشتوي واستمر في التلوي ولا يعرف الطبيب سر أوجاعي ولا أنا أعرف أيضاً.

وبعد ايام اقضيها في المستشفى امنح اجازة ويتم نقلي إلى البيت واعيش حالة من الخرف لأن اعصابي كما قال الطبيب منهارة. كنت اكره كل شيء في حياتي والراتب لم يعد يكفي للمعيشة إلا اياما أما بقية الشهر فلا أعرف كيف سنتدبر امورنا وتذهب الزوجة وتعمل في معمل جديد اقيم في الدور ولكن برغم عملها فإن الاسعار ترتفع كل يوم اضعافا مضاعفة وأصبحنا تائهين في دوامة. غارقين في بحر من الأوجاع والتقلصات المعدية الخارقة. زيادة في الأوجاع والعوز المناعي جاءت جدتي وعمي وقرروا الاستقرار معي وكانت تلك قصة كابوسية جديدة..

كنا أنا والزوجة لا نأكل في الصباح إلا بيضة واحدة مع قدح شاي

اسود. أما الطفلة فكنا نجهزها ببيضتين من أجل اكتمال النمو. منذ فترة طويلة لم نعد نشتري ملابس وأصبحت ملابسنا مهلهلة، مضحكة. دائماً أجد فيها ثقوب بسبب العثة الملعونة التي كانت تأكل ملابسنا بشراهة غريبة. حتى الكلينكس تخلينا عنه وهذه مشكلة كبيرة اذ أصبحنا نمسح السوائل بعد العملية الجنسية بخرقة ثم نغسل الخرقة لاستعمالها مرة اخرى. من أجل توفير النقود للاكل لم نعد نسافر إلى بغداد أو بعقوبة لرؤية الاقرباء والأصدقاء وفي المرات القليلة التي كنت اذهب فيها إلى بغداد كنت اقضي يومي بلا وجبة طعام وكان نصيف الناصري الوحيد الذي لم تجعل الحرب ولا السلام الجديد منه جائعا.

❋❋❋❋

مثل ملعون ومطرود من سماء دانتي كنت أسير في شوارع بغداد. الجوع يحطمني، دلني فاضل الخياط على مطعم رخيص كنت كلما ازور بغداد اذهب لتناول الطعام فيه. كان شيئاً غريباً وملفتا للنظر أن يكون اللحم المشوي عنده رخيصا للغاية وقال لي احدهم إن صاحب المطعم ياتي باللحم من الخراف والابقار النافقة. في البدء اردت أن اتقيأ لكن منظر اللحم وهو يشوى على النار كان مرعباً، مبهجا، مؤلما، فنطازيا، غرائبيا. التهم اللحم مثل المشوه. ثم اجول في بغداد بعد أن امتلئ طاقة وبروتينا.

الزمن نكد واعور، الزمن مذهل في دادائيته واصطدم اثناء المسير بشوقي كريم وأحلام منصور وادعى إلى بيتهم لتناول وجبة واشكرهم لانني مليئ بالبروتين الحيواني وتصر أحلام ومرة بعد مرة انزلق معهم

إلى الخيبة الدونية والانحطاط السفلسي واثناء الذهاب معهم إلى البيت أو ما يطلق عليه جزافا، البيت اصطدم بمحمد اسماعيل في جريدة الجمهورية ويقول لي اذا نشرت لك قصة، هل تدعوني إلى وجبة كباب واقسم له أني مفلس وشوقي كريم يقول، اترك هذا الكلب وأنا سوف انشر لك قصة واخاف من عرض شوقي لانه اكبر نهلستي في الباب المعظم ونصل البيت وتطلب مني أحلام، برجاء خاص أن انظف البيت واخرج زبالة شوقي كريم حسن من تحت الارائك واصطدم بحالة مذهلة وغريبة وهي أن شوقي يتقيأ تحت الارائك ومن القيئ إلى البعرور الذي اكتشفته أيضاً مخبئا تحت الطاولة وبعد التنظيف تطلب مني أحلام أن اغسل الملابس واشاهد الملابس الداخلية لشوقي واشاهد عرقه الاسود ولان ملابسه لم تغسل منذ عام فكان من الصعب أن ازيل منها الوساخة والقذارة.

بعد غسل الملابس تحضر لنا أحلام الغداء وهو عبارة عن فلافل ومسموطة وثريد بائت منذ عشرة ايام لكني التهم الطعام ليس لاني جائع إنما لرغبة غريبة في الالتهام وبعد أن اتناول الطعام، ولا أجد صابونة لغسل اليد امسح اصابعي دون علم شوقي وأحلام بشراشف الاريكة الوحيدة في المنزل. بعد شرب الشاي تطلب منا أحلام أن نخرج من (الكنج) لأنها تريد أن تكتب.

ونخرج أنا وشوقي ونسير في طرقات الاعظمية ثم نغير اتجاهنا ونذهب إلى الكورنيش والى المنطقة البعيدة جداً عن قصر الرئيس. وهناك أشعر بروحي منقبضة. روحي تريد أن تخرج من جسدي ومن جثتي ومن كل كياني. كنت أشعر أن شيئاً ما يتغير في جسمي وأن عقلي الباطن بدأ في سرد رواياته الغريبة عن العالم وأمام حالة الفقدان

واليأس ابكي وانهار إلى الأرض وشوقي كريم يضحك ويطلب مني أن أكون مثله، -اضرب العالم بكندرة عتيقة لكن حذائي ممزق ولا استطيع أن اشتري اخر ويسلفني شوقي مبلغ من المال واتردد في البداية لكني اقبل أمام الحاحه. أشعر بالعار. أشعر بالخزي لاني غير قادر على الحياة وعلى الاستمرار.

الحمل ثقيل جداً وأنا تائه في طرقات العالم. ونجلس إلى اريكة في الشمس. نجلس مثل عصفورين مبللين بالأحلام والامال. واسرد الامي إلى شوقي. اسردها بتمهل ودموع وشهقات ولا استطيع التوقف عن البكاء. وكلما اردت أن افعل، اغرق مرة أخرى في نوبة عارمة من الشهيق والزفير المتتالي. سردت لشوقي كآبة العالم ومحاربة البعض وعدم سماحهم بالنشر لي، سردت آلام الزوجة وجدتي وعمي واني لم آكل اللحم منذ أمد طويل، حتى الملابس صرنا نشريها من اسواق البالة.

كنت اسرد المواجع والالام. اسرد غرائبية الزمن وزياراتي لقبر ابي. الرجل الوحيد في هذا العالم الصامت الذي كان يسمع لي دون أن يتحرك. لكن حينما ابكي - عند القبر - كنت اسمع هسيسا وطقطقة عظام وارتجافها وتقلصها خاصة في ايام المطر والضباب والبرد والعاصفة والريح.

كان جنونا بحتا. جنونا غريباً وملهم وعفوي عندما احتضن شاهدة القبر وانوح مثل سعلاة، اعوي مثل بنات اوى للزمن والعاصفة والريح والله. الله الذي ادخلني إلى هذا العالم عنوة واقنعني بعد مداولات عارمة بأن لي رسالة. كنت روحاً طليقة. روحاً إنسانية عميقة التشبث بذاتيتي وبهائي الكوني لكنه امرني أن اذهب إلى عالم الارواح

المتعفنة لانقذ من انقذ واحطم من احطم وابعث للنار بكثير من الارواح الدونية. الارواح السفلية التي كانت تتحول في اطوارها المختلفة إلى حيوات حيوانية وارواح ابقار ووحوش ونمور واسود ونباتات متعفنة في مياه الرمس الاخير. كانت قيامتي من نوع خاص. قيامة للاجساد والارواح العلوية. الارواح المصنوعة من التيل والنرجس والمغنوليا والاس والهواء المتناثر على ارجاء الكون. كنت مثل جمل كبير احمل الحلول إلى هذا العالم. لكني انهرت وتعبت ويئست وفرطت القوة من بين يدي مثلما تنفرط سبحة أو عقد من اللؤلؤ القادم من ممالك السحر البدائي. السحر.. يا لهذه الكلمة الغريبة والمتأتية من الضياع القرمزي لروحي.

شكوت لشوقي حالة المغنوليا التي تركتها في بيت امي وهي تشع بألق متبلور. شرحت لشوقي معاناة الارخبيل عندما تجنح اليه السفن ويكون صامتا وهو في حالة انفلاق ذهني. كنت اشكو لشوقي انني اتحول في حالك الايام وفي بعض الليالي إلى اله مدنس بالعقابيل والجمرات. امشي على الجمر مثل متصوف هندي وأسير إلى البرونايا مثل صابئي متدين. لكن العالم لا يريد الاعتراف بخطيئته الأصلية. الخطيئة المرة الطعم واللاذعة المذاق والمفعمة بزيت الزيتون الحي واقراص الالتهاب المهبلي.

شوقي لم يفتح فمه ومن حسن الحظ. كنت أنا فقط من يبدا الكلمات والتدرجات اللونية كانت تتالف على الوجوه المنزوعة الجلد. كنت أسير بجلدي الحي. بلحم مدلوق ومحروق وذائب. العالم يمارس عدائياته العجيبة على افقر إنسان مسحوق في هذا الكون. في احدى المرات ضربت صرصاراً بالنعال وجاءت الصراصر الأخرى وحملته

مضطربة إلى السبتتنك. منذ ذلك اليوم وأنا احلم أحلاما مرعبة وافواها تلتهمني وتدخلني إلى السائل الاصفر للصراصر وهي تجوس ايامي وانسلاخي عن الواقع.

كنت ابكي أمام شوقي وتخرج الكلمات من فمي متناثرة. مشتتة. بلا طعم وبلا ترتيب. كنت اشك أن شوقي يفهمها. لانه مدنس بالسحر والدفق الاخاذ والمرارة. هو مثلي أيضاً أو أنا مثله، لكنه يختلف عني بأن له أما لم تتزوج حينما توفي اباه. لمته من المزابل وجمعته من القمامة ومثل دينوس مقدس ربته واهدته إلى هذا العالم الملون من أجل أن يكتب ويكتب ويكتب إلى ما لا نهاية.

أنا على العكس وحتى المرض النفسي الذي اعاني منه يمنعني من الكتابة. لم استطع أن اكتب عن الحرب وكنت اعجب من الاخرين وقدرتهم على السرد. على اللغو، على افتعال البطولات والابطال والدزنتري والمنخوليا. كنت جبانا لاني لم اكتب عن الحرب. كنت غبيا جداً لاني لم المس القلم أو الالة الكاتبة وادون بجلسة واحدة معاناة الإنسان المثلى في التطهر من الدنس الغريب.

لماذا لم اكتب مثل الاخرين واقبض المكأفأة والسيارات والمنازل والسفرات المجانية، مع الشقق الفخمة والرحلات إلى باريس ولندن ومونتي كارلو. لماذا لا اكذب عندما يموت عطر المغنوليا ولا أقول أيها البلهاء انه ليس عطر المغنوليا أو النرجس لكنه عطر الحروب المقدسة القائمة على الاموات والاحياء. لاني غبي، لذلك تركت كل شيء وتمسكت بابطالي المجانين وقصص ضائعة في متاهة الازبال والنفايات المرتعشة. كلهم كانوا يكتبون عن الحرب. كلهم كانوا يستلمون النقود الملوثة بالدم من أجل عيون الحرب والسيد الرئيس وهذا الاخير كان

سخيا معهم للغاية ولم يجعلهم يعانون من الجوع والبلهارسيا ويأكلون كل يوم دجاجة مشوية فيما أنت تتوسل العظام. الآن أمامك الفرصة مرة ثانية لأن تكتب. مرة أخرى تدور العجلة وتسحقك وتنشرك مثل البرازالخارج من مؤخرة إنسان ميت حينما يعصروه من أجل تنظيفه.

أنا أموت كل يوم مائة مرة لكن الزوجة وجدتي وعمي لا يعرفون. اردت أن ابكي أمامك يا شوقي لانه ما عاد هناك مكانا للبكاء. كل الأشياء الجميلة في حياتي معرضة للتلف والاضمحلال والتناثر، إلى الأبد، إلى النهاية القصوى لعلم الرياضيات وعندما تموت شجرة الدر في مصر انتحب أنا في بغداد متذكراً العالم الخرب الذي اعيش فيه. ويستمع شوقي إلى البكاء الموزون والمتناغم مع المطر.

كنت ابكي مع انبلاج الضباب الحليبي اللون. ضباب بغداد وعلى ضفاف الاعظمية وقريباً من قصر القائد الضرورة. أنا لست إلا كاتب مشوه. مؤلف اكاذيب وقصص الزمن البائس حيث ينيكنا كل يوم السياسي وتلعننا الامم والمحاور الدائرة في عجلة سيئة التزيت. شوقي كريم جالس إلى مصطبة قديمة وأنا أمامه مثل اله معرى من الدينوسية والهي الغريب والشفاف في السماء يسمع الانين والبكاء لكنه لا يحرك ساكنا.

كرهت هذه اللعبة وادرك شوقي أني انهار فدعاني إلى أن نشرب قنينة بيرة في بار قريب ونهض ونصل إلى الباب المعظم وفي مقصف بائس نجلس مع العوران والمتخلفين عقليا نشرب العرق ونأكل الباقلاء. طعم المزة كان رائعا بعد نوبة البكاء وبعد أن ننتهي ونسكر ونصبح مثل الحيوانات التائهة نعود إلى البيت. نعود إلى الكنج حيث أحلام تعد لنفسها شايا وكولالة نوري تمسد اصابعها وتضع الكريم

المرطب عليها. اقدسك يا كولالة نوري. اقدسك مثل نسر غاب في اجمات الغابات المرمرية وانت تكتبين باصابعك الموشاة بالقناديل مشروع شعرك النبيل. الشعر وارخبيلات مطعمة بنيازك ليلكية سوف تضرب الأرض في يوم ما وينبجس حليبك من الضروع، حينها سوف أكون الطفل الذي تتمنين. سأكون المقاتل السكسوني أاو العربي القديم، الذي يبحث عن الجدث فلا يلقى غير الدود. كولالة عارية في مخيلتي.عارية إلا من قطعة قماش متوحش واركع أمام عقليتك المتجبرة وأطلب أن تمنحيني شيئاً بسيطا. شيئاً لا ينتهي ولا يذوب حتى لو كان الامر عبارة عن شمعة تدفعيها في مؤخرتي.

انا مثل متوحش قادم من غابات مدارية. من غابات الحور والأشجار السحرية وأنا مبتل بالحيمن والمذي يطاردني والسفلس يحك رأسي. لانك عارية هكذا في هذا التهويم القاتل. اركب السفن وارحل إلى ممالك الله العظيمة.

ارحل لأجلب لك قماش التفته الهندي ومئزر القصابين وسيف لتطعنيني به، ثم أموت أمام اقدامك الوسخة والمليئة بالشوك والعطور الاخاذة. ندخل البيت مثل قملات، لا تعيرنا أحلام أهمية. لسنا مهمين جداً في نظر النساء. أحلام تلتف على كولالة مثل افعى، لا نريد أن نغتصبها بنظراتنا ورغم أني كنت اشتهي كولالة - مثل اي خصي - إلا أني كنت امارس الاستمناء في مخيلتي.

بعد أن نجلس أمام كولالة. تهرب هذه مثل قطة وتموء في البيت واسمع المواء مجللا. تنتهي كولالة من كتابة قصيدتها الجديدة وتأخذها أحلام على عجل، قبل أن يستولي عليها شوقي. في اليوم التالي اغادر المنزل واهرب مرة ثانية إلى الأحلام والى المفازات العجائبية في هذا

العالم. أعود إلى المجمع واجد الزوجة تتحرك بصعوبة بسبب حملها. أشعر بالمغص المعوي يحطمني وتقول الزوجة انها استلفت عشرة دنانير من جارتنا زوجة النائب الضابط وآخذ العشرة دنانير واذهب إلى تكريت ومثل مغفل اسكر بثلاثة قناني وأعود إلى المنزل واجد الزوجة تبكي وجدتي وعمي يدخنان بشراهة.

لم يكن هناك شيء يؤكل في البيت. اذهب إلى جارتنا زوجة نائب الضابط لاستلف ديناراً وتقول لي جئت في وقتك ، غسالة الملابس عاطلة وتتمنى علي إصلاحها، وانهمك في العمل وفيما ابحث عن العطل تجيء زوجة نائب الضابط وهي ترتدي دشداشة رقيقة والجسد يهتز داخلها. وتمنحني عشرة دنانير لكنها تلتصق بي بشدة وتمسك يدي وتدفعها إلى عصفورها ويا له من عصفور كبير ومتوحش.

انتصب واتحول إلى حيوان أرضي. حيوان تضربه الرغبة الجنسية بشدة. واندفع إلى جسدها برعونة كبيرة واعصرها بين صدري ثم امتص نهديها وتشهق وتكفر بالسموات والعالم. وتتمدد على الأرض وتنزع لباسها الداخلي وبعد أن أكون فوقها ونضرب باصابعنا البلاط والزحف الملتصق بالأرضية، افتح افخاذها وانبهر أمام المشهد السماوي الغريب والمشع والهمجي. غابات سوداء كانت تحيط فمي وانحني ويلامس شعر العانة انفي وادفع لساني عميقا في مغاور الظلام المترشح من بين الاصابع.

ادفع به إلى داخلها وترتعش وتصرخ وتقول لي: بسرعة، بسرعة. واشاهد وجهها الذي يتشنج وينفعل ويتقلص ويضمحل ويتفجر. وفيما كانت تتحرك مثل افعى ادخله فيها وتصرخ بتلعثم ولا اعد اسمع الكلمات إنما اسمع مزيجا من الحروف غير المرتبة والمتقلصة

والمتحشرجة. وبعد أن اقذف انهض واتركها على أرض الصالة مثل حيوان جريح. اغادر الشقة وساقي ترتعش وأشعر بأني ارتكبت كل الأشياء المحرمة في هذا العالم. ادفع بالعشرة دنانير إلى الزوجة وتذهب هذه لشراء السكر والخبز والطماطة، وبعد أن تأكل هي وعمي وجدتي يسود سلام غريب وعميق.

الفصل الخامس

غريبة هي اللغة عندما تتحول إلى اشارات متواضعة تنعم بقداديس الذاكرة. ذاكرتي كانت تفر من هذا الزمن المولج ذاته في ذاتيتي. ارقص مثل قرد في مساحة من العدم. أنظر إلى زوجتي مرة أخرى واقرأ ما لم تقله اللغة الغريبة بيننا. سقطت الكلمات وبقي شيئاً واحدا بيننا. هي تلك النظرات المتبادلة والأطفال الذين ينظرون إلى هذا المكوم أمام روح عظيمة. كانوا هم بدورهم ينظرون إلى وجهي وجسمي بنظرات عميقة ومتسائلة ولم تكن الزوجة تقول لهم، انه عبارة عن حطام وركام كومه الزمن والحقد الاعمى والاخرين. كانت تنظر لي نظرة غريبة، نظرة مشفقة. لكن من خلال عينيها كنت المس شيئاً ثانيا. شيئاً اخر غير مفهوم. كانت تقول لي انهض الآن، ربما. أو تقول لي هذا جزاؤك وجزاء الضرب الذي كنت تنزله بي.

كنت أشعر أني عبارة عن عار ووهم واني اغادر هذا العالم إلى الأبد. لكن الاكتئاب أصبح الآن بعيداً وأنا بانتظار المعجزة الالهية بأن يستحثني على مغادرة العالم عبر عملية موت مفاجئ. أنظر إلى نهر خريسان والدموع متحجرة. كنت منهاراً تماما. مفرغا من الروح وحتى

عضلات جسمي كانت تئن بوجع غريب. وجع صعب تصوره. لم أكن أعرف إن كنت اشكر الزوجة ام العنها. لكنها كانت مصيري العجيب في زمن غابت فيه العجائب واندثرت إلى الأبد روح الزوجة المثالية والملهمة. أطفالي كانوا ينظرون لي نظرات غريبة. كانوا يتساءلون، لماذا هذا الاب ينكرنا ويجلس إلى النهر ساعات طويلة محدقا في المياه والمجهول.

كنت أشعر بعاري لكن هذا الشعور لم يكن يدفعني إلى أن أكون أنا، مرة اخرى. الزوج والاب. كنت العن العالم. لم اعد أشعر بانتماء إلى المجموعة البشرية؟ كلهم كانوا عبارة عن وحوش ضارية وأنا في نهاية الامر، انهرت إلى هذا النهر وأصبح جلوسي الطويل اليه هو اخر الأشياء المتبقية في هذا العالم. كرهت الزوجة وكرهت اهلها وكرهت اصدقائي وكرهت جدتي وكرهت امي وابي وعمي وكرهت كل ما له صلة بهذا العالم. كل ما ابغيه، أن اترك وحيداً. اترك منفردا لاعيش توحدي الغريب مع النهر ومع المدينة الخالية من البشر.

يمر بي وأنا منزو، مصعب أمير وابراهيم حيدر وامير الحلاج وسالم قنديلة. كانوا هم أيضاً ينظرون إلي بحيرة وبعد أن توقفوا لدقائق كانوا ينظرون إلى الزوجة ويدفع لها أمير الحلاج رزمة اوراق نقدية، لكنها تأنف المساعدة وتقول انه سيتحسن في يوم ما. ويصر أمير على المساعدة وتأخذ الزوجة رزمة الاوراق وتقترب مني بحذر. مثلما يقترب إنسان من شيء شاذ عن الخليقة أو من كائن سيامي وتقول إن اميراً منحنا هذا وتنهمر من عينيها دموع لها وقع موسيقي من الشهيق والزفير.

أنظر إلى الاوراق وأشعر أن لا قيمة لأي شئ. ما الذي تعنيه

النقود فعلا. ما الذي يعنيه أن نجوع ولا نلبس ولا نقرأ. وأفكر في النفايات. العالم عبارة عن نفاية مجهزة بعظام الموتى. والموتى انفسهم يصرخون بعيون ملتهبة. أيها النزاحون في هذا العالم قوموا وانزحوا الخراء من فتحات الجيوب الانفية. العالم يهترئ ويموت والعراق يهترئ ويموت. وكل شيء يذهب إلى الجحيم لكن أن يموت العراق فهذه هي الكارثة.

كنت اعشقه ببواديه ومفازاته. اعشقه إلى الحد الذي اصرخ في هدوء وصخب هذا العالم، أني أموت من اجلك كل يوم. ارى الخراب والخراب يتأتى من الاموات. والاموات يأتون من نهاية العالم. كل لحظة تمر في سياق المعنى يموت أطفال جدد. لم أكن اهتم بأطفالي. لم أكن اشتري لهم اللقاح الضروري وكانوا يموتون. كل الثمن الصعب والمرتفع القيمة هو أن نموت هنا.

لم أكن احزن لاني أموت. ما يجعلني أموت موتا هو أني لم اعد قادراً على منح أطفالي والأطفال الاخرين جوهرة الشمس. مكانا في هذا العالم الحقير الذي يميت شعبي وأطفالي فيما الكلاب المدللة تتغذى باحسن الانواع من البروتين الحيواني والفواكه واللقاحات الضرورية. كنت هشا أمام العالم. هشا إلى الدرجة التي انهرت فيها ولم اعد اعير اي شئ. اية أهمية في حياتي.

من النهر وحتى قنطرة خليل باشا في بعقوبة. تصرخ الجنائن المعلقة وتطلب البستاني، وأنا البستاني التائه في هذه الأرض الغريبة والحبيبة. أرض بابلية. مدن من القرميد والطين والقش. ملوك يحتسون الخمرة وملوك ينامون في البراري. وملوك يعيشون اكبر المهرجانات البابلية المتجهة إلى بوابة عشتار. وانهمر مثل مطر الشتاء المتقطع. مطر بلا

نية لتبليل الاخرين. مجرد مطر خال من اللوعة والاستثناءات المدوية.

مطر يدق الابواب ويحتسي عرق بعشيقة وينام تحت مظلة النخيل العارم، المدلج بالعاصفة. حتى الريح في بعقوبة. في هذا الوطن الصغير الذي احببته دون سواه من الاوطان. تنساب الريح وكأنها لا تريد اكتساح الأشياء. يمر بك الأصدقاء على مهل - في بعقوبة تسير الأشياء كلها بتمهل -. اذا اردت التسوق تحتاج إلى زمن اضافي من الحب. واذا اردت النوم سوف تفكر في حسن علو وهو يجلس أمام سوق اطلقت عليه الكاتدرائية. الأصدقاء ينثرون عليك الزهور. الزمن مذهل في تمثله وفي انحنائه وفي ديمومته الغريبة.

كنت ابكي أمام النهر. في بعض الاحيان أشعر أني بصحة جيدة لكن سرعان ما انهار وادخل في نوبة بكاء. سرقوا منك بغداد. سرقوا كل شيء فيها حتى مقاهيها ومسناياتها. أصبحت هشا وأنا افقد اجمل واحلى واروع واضخم والذ واعتى مدينة في هذا العالم، بغداد، عندما تسقط فيها تهدهدك المتاهات وتهدهدك المقابر القديمة وتغني لك اذا مشيت بجانب النهر، اغنيات التيم والحب اللاهب.

بغداد مثل مدينة عارية، بسبب الاشباح الغريبة التي جاءت من المدن القديمة والمتروكة للنسيان. في بغداد يصنعون تاريخ لمن لا تاريخ له. نكهة بغداد التي اعاني من جنونها الغريب لم تعد إلا في أماكن محدودة، بعد أن شوهت بالبداوة والتيه القروسطي ونكايات الاخرين.

كنت أسير في بغداد وتحديدا في شارع السعدون وأنا التصق بالمارة، التصق بعيون بغدادية جميلة تطل عليك من الشناشيل والحارات الضيقة والدرابين وقدور الباقلاء وضجيج الباعة والايس كريم والهواء

البارد الذي يتدفق من جهة النهر. فلسفة الموت والحياة في بغداد شيء مذهل غريب لا تستطيع أن تدركه. إنما تحسه بمجرد أن تغادر المدينة إلى مدن أخرى سواء خارج الوطن أو داخله.

احببت بعنف مذهل. بحب عاصف. لم أكن أتخيل في يوم ما أني استطع أن اغادر هذه المدينة ورغم أن بعقوبة لا تبعد كثيراً عن بغداد لكني اصبت بالحنين إلى مدينتي العائمة فوق روائح الاطعمة و السمك وروائح التوت البري والقرنفل والاكاسيا والجوري والشبو ليلي وحلق السبع.

في بغداد تصنعك الالهة وفق ذوق فني عال جداً. تمنحك المدينة نوعاً من الدلال العجيب والتأني والحب الجارف للاخرين. بغداد ليست علاوي الحلة أو النهضة أو المدن التي تنحشر إلى بغداد. بغداد هي المدينة المحصورة بين ذاتك وبين اناس اخرين يعيشون على ضفاف الدجلة حيث الحيوانات في العيد ولعبة اللكو و السباحة في النهر والغرق موتا في منازل اخفاها النهر بطوفاناته القديمة.

كنت أشعر بالحزن يتأكلني كلما تذكرت بغداد. كلما تذكرت أني لن استطيع العودة إلى الطفولة والنهر وغابات النارنج والدفلة والشبو ليلي ومطعم تاجران وبيوت ال الخضيري والجلبي والليالي المتلالأة ببياضات الملابس المعرضة لشمس من أجل أن تجف.

بغداد السحر النازف من المخيلة وأنا القتيل الالف على بوابات النسيان. لم اعد من سكان بغداد. عدت إلى حالتي الحشرية. حالتي الحيوانية وأنا أمام قصر العاشق والليل وجنون حسن النواب وهستريا محمد الاحمد واضطراب ابراهيم البهرزي. لم أكن مجنونا. لكني تائه في

البحيرات السماوية والسماء تلعنني لاني اضعت خيوط الاحتفال الكبير المقام من أجل تعميد الموتى. الموتى هنا في بغداد التي تحولت إلى مياه اسنة واسواق دجاج ومنتجات الحليب الاسود والرمادي والاصفر بفعل الغش الغريب الذي ضرب كل شئ.

اضعت الزمن الجميل في بغداد. اضعت لوحات وتخطيطات جواد سليم وباقي المجموعة المتألقة من رسامينا الافذاذ. ليس وجودي في بعقوبة هو ما يحزنني. إنما عدم العودة إلى بغداد وقصور الخيزران والمنصور والبرامكة هو ما يحبطني. كنت اترك بعقوبة وأسير في شوارع بغداد، وتحديدا في خان دلة والصفافير واستنشق عطر النهر عندما انحدر نحوه. ثم اصعد زورقا متلالا أمام الشمس وامضي إلى الشواكة واضيع في تيهانات غريبة ومدوية. لأن الزمن يتغير فإن عليك أنت أيضاً أن تسير في شارع المتنبي وتتنفس راحة الاحبار والمطابع والورق.

منذ اول لقاء عفوي لروحي مع طرقات بغداد. عشقت المكتبات ورائحة الورق. كنت اذهب إلى شارع المتنبي واتشمم بقايا الورق وحينما اشتري بندا منه لاجل الكتابة، اشم هذا الورق وكانت الرائحة تنعشني وتجعلني مثل من يشرب الحشيشة دون فلتر. رائحة الورق دائماً تستدعي إلى ذهني المكتبات والمطابع وشاي مقهى داود.

في الطفولة البعيدة عملت في احدى المطابع. كنت لم ازل في الصف السادس الابتدائي. دخلت احدى المطابع وقلت لصاحبها أني أريد أن اعمل ووافق. كنت اشرب بيوميتي الشاي في مقهى داود وعندما ادخل المطبعة كانت تلفني رائحة الاصباغ والاحبار والورق. منذ ذلك اليوم تشكل ما يشبه الاصرة مع كل شيء في المطبعة. كنت بعد انتهاء العمل أسير في الطرقات الملتوية والمتفرعة من شارع المتنبي. لم

يكن يومها من يبيع الكتب في الطرقات. كان كل شيء منظما. مرتباً. انيقا وادخل إلى المكتبات الضخمة واغرق حتى ساعة متأخرة بين الكتب والورق. حبي للورق جعلني اتحسس رائحته بشكل غريب. اتحسسه حتى وأن كان يبعد عني اميالا. ومثل كلب حراسه، كنت أسير واتشمم الأرض ثم ابحث بخطمي عن هذا الكدس الورقي.

بعد انتهاء السير في الطرقات الجانبية لشارع المتنبي ادخل إلى شارع السراي ، حيث أشعر أني انتمي إلى هذا المكان. انتمي إلى عالم غريب ومذهل يتداخل فيه سوق الوراقين مع جامع الوزير، مع كبة السراي والشيخ الذي يبيع الكبة ويفقسها بابهامه. شيء يتكون من التاريخ والانثروبولوجيا وعلم الاشارات. عالم تحتاني يحور ويسير على نبض الورق والكتب والاقلام. كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت شارع السراي. الشارع الذي تغرق فيه تاريخيا وتكون أنت أيضاً جزءا من التاريخ وتلتصق طبعاً بالجدران وبسوق السراجين وكأنك تسير في طرقات الدولة العباسية ومناراتها وحكامها وجلاديها ونورها وغجرها وشيوخ الدين مع الصبيان الحاملين للاختام، ولا تنسى طبعاً الجواري والسيدات والخوانم والعبيد والسلال وعصير تمر الهند والهندباء وصيحات الحزانى والدراويش.

كل شيء في الشارع وعبر كوات مفتوحة إلى الله، يدخل الضوء المبهر ويسقط على وجهك فتثاروتنار من التكوين الغريب للشمس وحينما تريد أن تتنفس فأنك تتنفس الورق ورائحة الكالات و الاحذية وجواريب المصلين المغسولة والموضوعة على الجدران. رائحة النهر تدخل في التكوين السري للشارع. تكوين ملفت للنظر. طعم الماء مع رائحة تشبه النار المقدسة في الواح بابل وسومر وموسى وخضر الياس

ومن فتحات ومخارج الشارع الذي يشبه قفص، تغزوك سميراميس الملهمة والتي الهمت الشعب بعريها المستنبط من الحكاية.

تاريخ بغداد الذي يمثله الشارع اللصيق بالنهر. يروي لي حكايات الجواري وليس اعتباطا أن يكون كل تاريخ بغداد هو تاريخ سمير اميس مضافا لها تاريخ الخيزران وزبيدة وحفلات النيك التي يقيمها الخليفة. شارع السراي والمتنبي الذي اكتشفته باكراً جداً. كان مكونا من حكايات القحاب والقوادين اضافة إلى حكايات رجال الدين وباعة الكتب والقصص السرية للواط الولدان والدعارة المختبئة تحت رمس الأرض.

كل يوم يمر على وجودي في المطبعة، اكتشف الغائيات المجهولة للزمن. الزمن وهو يحمل نواح الأشياء وبعثرة التاريخ وفن الاستلقاء على البطن وحين يهيم بك رجل مشرد وانت ضائع في متاهة الارواح. كنت احبه واكرهه في ذات الوقت لكن الحب كان اشد صرامة وجبروتا. حب من شكل خاص وبطعم ومذاق الورق والاحبار والنساء المشوهات اللاتي تلتقطهن من الفروع الخلفية لشارع المتبني وانت تسير بحذاء مقطوع وسيجارتك في يدك وتخاف أن تستنشقها خشية أن يكتشفك أحد ما.

مع المطابع والدرابين والقحاب والقوادين والأطفال والمشردين والعوران والعرجان والشحاذين والمناويك. هناك عيون جميلة ورائعة تطل من خلال فتحات الابواب غير المغلقة كليا. اذا كنت من أصحاب الحظ فستكون لك اطلالة ولو صغيرة لرؤية تلك العيون، الكبيرة. العيون المليئة بالكحل واصباغ ملونة وسوف لن يمنعك الحياء من أن تنظر بعمق وتشوه اخلاقي إلى تلك البؤر الغريبة المطلة من سبات العالم

نحو فيض غزير من المشاعر المتلونة. حظك أنت، سيكون كبيراً وانت ترى نساء متلفعات بالعباءات وعندما تهب نسمة هواء باردة تلتصق تلك العباءة إلى المؤخرة وتبدو لك ملامح المؤخرة والخصر والشوك والازهار في تشكيلة مذهلة مع النرجس الحار.

المح عبرالحلم افخاذ نساء بلون البلور. أو بلون الحليب الكامل الدسم وانثناءات ونساء يغسلن الطارمات والباحات الداخلية لتلك البيوت الموروثة من اليهود. من عبق ازلي ومن سماء فضفاضة يأتيك اليقين المرعب أن روحك، عبارة عن مصباح صغير في ظلام كوني شامل. ويستنزفك الضوء وتستنزفك الظلمة. وارتعش في رعب الشهوة المجذولة.

إنسانا ضائعا في متاهة الطرقات والدجلة، الوحيد الذي يروي كل هذه الافواه والاجساد الناعسة والمتمايلة. في الدرابين الضيقة لا تكتشف الجمال البغدادي الاخاذ. إنما تكتشف رائحة المرق ورز العنبر والطرشي والمخلل والابنوسات العائمة فوق بحر من اللذة المتوارية والابدية. كنت اذوب في روائح الطعام وروائح الشلغم والباقلاء والباذنجان المطهي قليلا في سمنة حيوانية وتهتز المشاعر ويختلط كل شيء مع جمال العيون الكبير واللوعة المتجذرة فيك إلى الأبد.

ليس هناك وانت تسير، موسيقى محددة. البيوت كلها تمتلك مذياعا ومن هذه المذياع تستمع لصوت رضا علي وهو ينحدر مع الشمس المتخلفة اوالناهضة الآن. عندما أصل إلى مكان العمل في الصباح الباكر. اتناول افطاري عند حسون (أبو الباقلاء) وأنا اسمع من مذياعه صوت فيروز. هناك تماثل غيبي كبير بين اكل الباقلاء والعيون السوداء الكبيرة وبين صوت فيروز. لم أكن وقتها أعرف مقهى حسن

عجمي. والمقهى الذي اقضي فيه وقتا، هو مقهى البرازيلي أو مقهى الشاهبندر. في هذا المقهى- الشاهبندر- يحدث لك التفاف عرضي على التاريخ وتشعر انك قطعة ليليكية من هذا السحر. في مقهى الشاهبندر انزوي إلى نافذة صغيرة ومن النافذة المطلة على نهر دجلة كنت امارس أحلامي مع شاي حامض وارجيلة تنفث في الزمن اشكالا امبيرقية من العوالم المتجذرة عميقا في التاريخ.

أنت تتحرك في التاريخ. تتحرك مثل الة بين شوارع اليهود واسواقهم وبين شارع النهر والتاريخ العباسي. كل شيء في هذه المدينة يقطر املا وتاريخا وحوادث عن الشطار والعيارين واجواء الف ليلة وليلة والشاطر حسن وعلي بابا واللصوص وحرامي بغداد الذي اعيد تكوينه من جديد متمثلا في الحاج خير الله الطلفاح.

عندما أسير في طرقات بغداد القديمة ابحث دائماً عن امرأة جميلة وكنت احب النساء الكبيرات في السن. لا اقصد العجائز إنما ما نطلق عليه – الايجة – الايجات يحطمنني وكنت مستعدا أن ادفع كل ما املك وهو قليل طبعاً من أجل مضاجعة ايجة لايتجاوز عمرها الخمسون. كنت احلم بهكذا امرأة. اتخيلها دائماً صاحبة خبرة في المضاجعات.

عالم المضاجعات كان يؤلمني وأشعر مع الانتصاب أني محطم وأن الجنس يخرج من فمي وينطلق نحو العالم. لم احصل في حياتي على (ايجة) رغم انهن متوفرات في شارع المتنبي وبفعل الحروب الغبية. نساء عديدات. نساء من الكثرة بحيث كان العالم يختنق بهن وعندما امتلكت الشجاعة من أجل مفاتحتهن وجدت أن اخواني السودانيين والمصريين واهل العوجة والرفاق الحزبيين سبقوني.

في الحرب وعندما كانت تهجم عليك الحيوانات كنا نبول من الخوف. نبول في سراويلنا ونتذكر طفولتنا القاسية. طفولتنا ونحن نركض في الشوارع ومعلمنا الاستاذ جورج يضربنا بعصاه التي القاها له الله من أجل تأديبنا.

كان الاستاذ جورج يقول أنا فقط من سيربيكم ياابناء القحبة. أنا فقط من سيخلع عن وجوهكم تلك السحنة القاسية للمرض وسوف اجعلكم رجالا للوطن، وعندما كبرنا كانت هناك قسوة اخرى، قسوة مضافة لقسوة المدرسة. لم كل شيء في العراق قاسيا. عانينا من كل انواع الاضطهاد والقسوة المريرة.

منذ الطفولة وحتى الآن. مارسنا الاضطهاد الذاتي ومارسنا الاختباء النفسي ومارسنا الشيزوفرينا والسادية والقسوة غير المبررة عندما نضرب اصدقائنا بالعاب تشبه الكرباج الحيواني في السجون العراقية. كنا نريد أن نقلد الكبار. نقلد طريقتهم في الشتم والسباب والضرب بالكرباج ولم يكن أمامنا إلا شخص واحد، هو نصير الصابئي. كنا نعقد تحالفا جهنميا وننتظره خارج المدرسة وبعد انتهاء الدوام نضربه بالكرباج ويتوسل نصير بالالهة الصابئية وكنا نضحك ونزداد صرامة. صرامة قاسية وهستريا من الركلات وقبل أن نهرب نقول له أن شكوتنا إلى المدرسة أو المدير سنذبحك. وكنا فعلا مصممين على قتله.

لم نك نفهم الاخر. الاخر بالنسبة لنا شيئاً ديماغوجيا وفوضويا وخارج المدار الذهني لتخيلاتنا. كنت اكره نصير ليس لانه صابئي إنما لأن اخته ليست جميلة ولا تترك في الذهن اي انطباع ايجابي. كنت اذا أردت أن اتقيا. اتذكر اخته واتذكر انها كانت تخرج المخطان من فمها

وتأكله وفي احدى المرات هددتها بالضرب عندما كانت خارجة من المدرسة فتبولت في لباسها الداخلي وشاهدت أنا الارتعاب الذي ولدته وعدت إلى البيت وأنا أشعر أني استطعت أن أقول لا..، لحالات القبح وأقول لا لحالات القسوة.

في البيت تضربني جدتي لاي شئ. اذا كسرت صحنا أو اذا اعطيت طعامي لكلب جارنا أو اذا مزقت بيجامتي. أو حتى اذا تبولت في الفراش. لم تكن جدتي فقط من يضربني ولا المعلم في المدرسة إنما حتى الاقرباء الذين نعيش في بيتهم كانوا يضربوني بقسوة وقوة وفي بعض الاحيان كانوا يهددوني بانهم سوف يأخذوني من جدتي ويمنحوني إلى الكاولية والغجر، وكنت ارتعب واتبول في الفراش وكل صباح جديد ياتي كانت تحمل جدتي الاغطية وتنشرها في الشمس من أجل أن تجف.

الحالة البولية التي كنت اعاني منها لا علاقة بينها وبين مفهوم الظاهراتية. إنما لها علاقة بالتخيلات والانا العليا التي كنت ارتعب منها. تخيلات تتحدث عن الموت أو أني سوف امنح إلى الغجر وسوف افقد إلى الأبد جدتي التي لم أكن استطيع تخيل حياتي بدونها.

مع الايام وبعد سنوات طوال بقيت أتبول في الفراش. كنت أجد لذة في هذه العملية لم أكن اكرهها. إنما أشعر بالاستمتاع وبعد أن كبرت صرت ارى في الأحلام أني دائماً اقف إلى مبولة وبعد أن افعلها استيقظ واشاهد أني بللت الفراش وسروالي الداخلي والاغطية.

عندما تزوجت بقيت اعاني من هذه الحالة وكنت غالباً ما اتهم الصغيرة بانها هي التي فعلتها أو احيانا كنت اتهم الزوجة وانهض

واعربد واعيش هيجانا انفعاليا ولا تفهم الزوجة الامر وكانت تعتقد في بعض الاحيان انها هي فعلا من كان يتبول في الفراش وليس أنا. هناك نوع خاص من الجنون، اسمه جنون الموهبة المكبوتة وهذا بالضبط ما كنت اعيشه.

منذ أن دخلت في دائرة العمل والزواج وأنا لم اكتب شيئاً. جنون مطبق. جنون ارتوازي يجرني مثل كلب إلى حافات الانهر المعمدة بروائح الخراء والبرقوق والدفلة وكل الازهار والقذارات في العالم. اللعنة على الزواج. كنت اهذي مثل من اصابته الحمى. حمى في كل مكان من جسمي. أريد أن اكتب لكن وقت العمل طويل جداً. انهض في الساعة الرابعة صباحاً واتناول فطوري ثم اهبط من الشقة وابول في الخارج وفي الساعة الخامسة صباحاً اصعد الباص الخاص بالعمل، ثم أعود إلى البيت في الساعة العاشرة مساءا. كنا ننام مثل طابوقة. نرتمي إلى السرير مثل المصابين بالقولنج والدزنتري. محبطين دائماً، ملوثين دائماً. محطمين. لم يكن بامكاننا العيش مع هذه الحياة إلا بالموت. موت المشاعر والايعازات واللمسات. نسينا الجنس إلى الأبد. وفي المرات التي يحدث لي فيها انتصاب، كنت امارس الاستمناء لانه اسرع ولا يتطلب ملامسات ولا تقبيل ولا عزاءات.

العزاء الوحيد في هذه الكينونة المضطرمة بذاتي هي الانكفاء إلى الذات وادارة مونولوج داخلي وتخيلي. يحدث هذا كل يوم. كنت احلم في بعض الاحيان أني اكتب لكن القدرة على الكتاب كانت في الحضيض. وبسبب عدم الكتابة التي أصبحت عبارة عن أمنية غائبة. بعت غرفة النوم من أجل أن استولي على الغرفة واجلعها مكتباً لي. اعترضت الزوجة وبكت اذ أن غرفة النوم هي عبارة عن تفاهم جنسي، لكني لم

أكن اعير هذا اهتماما. كنت أريد أن اكتب، أن اعيش حالة الكتابة واجواءها.

اشتريت طاولة كتابة عبر اقناع جدتي بأن تبيع عباءتها البريسم. ووضعت الكتب في الغرفة والاقلام المدهشة التصميم والاوراق. كل شيء كان مرتباً وانيقا لكني لم استطع أن اكتب. لم أكن قادراً على التخيل. أريد أن اشبع نوما. أريد أن أقرأ قبل أن اكتب. أن اعيش طقس الكتابة مع الموسيقى والالهام ودخان السجائر. فشلت. عشت مع محاولات الكتابة الما جديدا وهو أني اعيش احباطا وفشلا. خفت على كتابتي ودماغي.

هناك ماكنة لا تعمل بشكل جيد. عقلي عبارة عن اوهام واضطرابات جنسية واخلاقية. كنت احسد نصيف الناصري وشوقي كريم وجاسم الرصيف لانهم يكتبون في كل مكان. في المراحيض وفي غرف النوم وعلى الفراش وفي المقهى واثناء الخدمة العسكرية. وفي بعض الاحيان يكتبون وهم يتناولون الباجة لكنهم لم يكونوا تحت رحمة رجال جهاز الأمن الخاص الذي يشرف على معملنا. كانت لهم بعض الحرية. بعض الوقت. لم يكونوا يضربوا اثناء العمل.

رجال الأمن الخاص – الجستابو - كانوا مصابين بعته ورغبة غريبة وكبيرة من النوستالجيا. رغبة الضرب والسادية تحركهم في كل مكان. كانوا يسيرون في المعمل وهم يحملون العصي والكيبلات. يقفون على البوابات وفي داخل المصنع، مجرد أن تتأخر ثوان، يهجمون عليك مثل الكلاب المسعورة ويضربوك بالكيبلات والعصي المغلفة بالبلاستك وتتمرغل في الأرض وتزحف على ركبتيك لكنهم يضربون الركبة من أجل أن تتوقف عن الحركة، كانوا يريدون منك أن لا تتحرك

وأن تتحمل ضـــرباتهم دون أن تبكـي ودون أن تخـرى عـلى نفسـك ولا تتبول في البنطلون وتاكل بسـرعة وتركض إلى موقع العمل بسـرعة اكبر ومثل حمار تعمل اثنتا عشـرة ساعة وتذهب إلى الماخور لتنام وتـنهض في اليوم التالي وهكذا تستمر الحياة إلى ما لا نهاية.

كثيراً ما كنت اتذكر ابناء عمومتنا وهم يحملون الاحجار والكتـل الصخرية ثم يبنون بهـا أشـياء كبـيرة واتـذكر ضـمن مـا اتـذكره الجـوع والعري والانهاك والعـرق والبـؤس والآلام والحـر والقتـل والاسـواط وهي تنهك ظهورهم. يبدو أن هذا هو قدرنا لصنع المعجـزات الضـخمة التـي تؤلـه الحكـام وتجعلهـم عبـارة عـن اسـطورة متكونـة مـن الأمنـا وعذاباتنا وبكاءنا..

أهل الزوجة بعد أن علموا أني بعت غرفـة النـوم ثـارت ثـائرتهم. اتهموني باني عبارة عن عار شخصـي يسـير عـلى قـدمين. لم يفهمـوا أني كنت بحاجة إلى غرفة امـارس فيهـا أحلامـي وامـارس فيهـا التفكـير في العالم. كنت بحاجة إلى نوع من الغار. المغـارة وبعـض الكتـب والاقـلام والورق امارس فيها تخطيطاتي لبؤسنا الاجتماعي والسـياسـي والعلمـي والحياتي. بؤس وجودنا الكوني في هذا العالم الخرب.

قلبوا الدنيا أمام عيني وجاءت الأم والقت علي محاضـرة عن أهمية غرفة النوم في الحياة الزوجية ثم جاء الاقرباء – اقرباء الزوجة – وفتحوا هم أيضاً افواههم ونعتوني بالمجنون والبائس وارادوا اخذ الزوجـة منـي وقلت لهم خذوها ودعوني اعيش مرة أخـرى أحلامـي المريضـة وعنـدما شاهدوا أني لست مبتئسـا تركـوا هـذا الموضـوع واخـذوا يبحثـون عـن موضوع اخر. حتى الاب، اب الزوجة تدخل في الموضوع وقـال لي طالمـا بدأت ببيع غرفة النوم فإنك سوف لا تتوقف عن بيع كل اغراض المنـزل

الاخرى. لم أكن أعرف أن هذه كانت نبؤة عظيمة. لكني وقتها لم افهم ما يقول واعتبرت أن الموضوع لا يتعدى أني أريد مكانا للعزلة، مكان اصنع فيه عالمي الخاص بعيداً عن جهاز الأمن الخاص والمصنع والزوجة التي لم تفهم عندما أكون مستغرقا في التفكير أن لا تطرق الباب ولا تدخل وتكسر العزلة.

بقيت اعاني لفترة طويلة جداً وأنا اشرح لها انه يجب أن لا تدخل الغرفة عندما أكون غارقا واحاول الوصول إلى النرفانا ولم تفهم النرفانا ولم تفهم وحدتي والحاجة الماسة لها. اعتبرت أن هذه مجرد وسيلة للهرب منها. وهي فعلا، لكن ليس منها فقط إنما من كل العالم الذي دائماً وغالباً يوجه لي الصفعات.

لم أكن قادراً على اثبات رجولتي وكنت بحاجة إلى الوحدة العميقة من أجل اعادة الاعتبار لذاتي الإنسانية التي سفحتها الاسواط والعصي. غالباً ما كنت اثور لمجرد أن تدخل الغرفة وفي بعض الاحيان اقفز مثل المخبول لاضربها ثم أعود بعد نوبة من الجنون وأنا اهذي واعربد واتمتم والبصاق يتقافز من فمي وكأني مصاب بالصرع. لا. لا. لم يكن صرعا، إنما كآبة حادة. نوع من مرض غريب وملهم. ملهم لانه يمنحني ثورة داخلية على كل الأشياء السيئة في حياتي. وهي كانت الشئ الاكثر سوءا في حياتي. كانت تكره القراءة ولا تعرف من هو ج. ل سالنجر ولا عبد الستار ناصر ولا لطفية الدليمي. يا للهول. أقول. كيف يعيش إنسان في هذا العالم دون أن يعرف المجنون عبد الستار ناصر. كيف لا يعرف الواحد عشيقات عبد الستار المبثوثة في كل مكان من بغداد والقاهرة ومدريد وعمان. أو لطفية الدليمي. اللعنة. لطفية التي تحيل الحجر إلى شيء مائي. شيء شفاف وانت تغرق إلى الأبد في

كتابتها النثرية.. في بعض الاحيان أشعر أني عشت في زمن اخر، كنت اميراً في يوم ما ثم انتقلت روحي إلى جسد جديد و ثم كنت حلاقا للملك ومت وانتقلت روحي إلى جسد اخر وكان هذا الجسد اميراً ويلزيا قادما من بلاد الس في بلاد العجائب.

دائماً أتخيل نفسي اعيش في ازمنة اخرى. في احدى المرات تقمصت روحي كلباً ولذلك اعاني الآن وفي بعض الاحيان من نباح مخيف. انبح مثل كلب بودل أو مثل كلب انكليزي وأسير مدلالا في الشوارع وفي رقبتي حزام صغير عليه اسمي (جون هاوارد) أو ديميس روسسز أو ربما جون ادامز. كلب انكليزي بكل معنى الكلمة ولكن في كل الاحوال ليس كلباً عربيا. الكلاب عند العرب تضرب وتهان وتتخذ كدلالة على العواء والاهانة. ليس الكلاب فقط إنما القطط والصراصر والإنسان نفسه. كل شيء في امتنا العربية يهان.

في العراق الحال افضل. افضل من ناحية اننا نهين كل شي. نكفر بكل شئ. اصغر طفل في العراق يعرف كيف يكفر باروع الطرق واروع الالفاظ وبمختلف الطرق والازمنة والعبارات. امة من الكفرة والجنون والجنس والعتمة والعماء وعدم القراءة. شعب ياكل كل شئ. وكل قوة في العالم تحاول السيطرة على هذا الوطن الغريب والملهم والبائس. بالرغم من انه اغنى بلد في العالم. لكنك تشاهد، بؤس في الشوارع. بؤس في البارات، بؤس في الحياة، بؤس في الحكام. بؤس في النستالوجيا. بؤس في السيمياء، بؤس في المياه والجو والغائية السببية وفلسفة الظاهرية والفنطازيا والابتعاث والتمرد.

شيء غريب فعلا. انه الشعب الوحيد في هذا العالم الذي يأكل انبياءه. نحن واليهود. وليس ذلك غريباً فأصل اليهود يعود إلى بلاد

الرافدين. يعود إلى العراق. اليهود وهذا الشعب العبري الذي خرج من العراق نحو فلسطين ومصر ثم عاد إلى أرض النكران من جديد. لذلك تجدنا نكفر بكل شيء واي شئ. حتى لو جاء الله على غمام ابيض لنكرناه وقلنا إنه ليس الله إنما شيء غريب أو ظاهرة جوية. أما أن يكون الله فهذا شيء مستبعد.

الله نفسه تعب منا. تعب من العراق واليهود. حطم بابل وحطم الاشوريين والكلدان والسامرة ويهودا. حطم كل ممالكنا على الأرض لكن رغم هذا بقينا نكفر به. ونكفر بالآلهة. كنا نكفر باي شيء ومن أجل اي شيء ولاي شئ.

وعلى العموم فالكفر ليس سيئا، انه يمنحك الحرية. نحن الشعب الوحيد في هذا العالم الذي يموت موتا على حريته ودائما نحن الشعب الوحيد في هذا العالم الذي يسرق دائماً رغم انه من اذكى الشعوب قاطبة.

هناك مشكلة عويصة بيننا وبين الله. مشكلة لم يستطع عبد القادر الكيلاني ولا الجنيد البغدادي ولا موسى ولا عيسى ولا الحلاج ولا خضر الياس ولا العزير أن يحلها. مشكلتنا ابدية مع الله. مشكلتنا قائمة منذ أن بدأت الخليقة في تكوين كينونتها ثم بدأنا نحن بجانب هذه الخليقة تكوين كينونتنا بمفردنا.

أنت كعراقي تختلف عن الامم الاخرى. أنت لست منغولي ولا امريكي ولا الماني ولا من امة الانكلو سكسون أو الغجر. نحن امة لوحدنا. عندما خلق الله البشرية لم يخلقنا معها وانما خلقنا من طينة اخرى. ربما من طينة ابليس أو ميكائيل أو اي شيء اخر لكن ليس من

البشر.. في بعض الاحيان احسد الألمان لانهم فقط المان أو احسد الانكليز لانهم فقط انكليز. أما نحن فمسلمون ومسلمون كفرة وشيعة وسنة وعلي الاهيه وغجر وكيولية وعروق هندية ومعدان ومسيحين وكاثوليك وبروتستانت واشورين وكلدان وسريان واكراد واكراد بهدنان واكراد سوران واكراد فيلية واكراد زازا واكراد قادمين من عمق روسيا واذربيجان والهند الصينية ومنغوليا واتراك وفرس.

اي شيء تحتاجه موجود هنا ودائما تجد سنة وشيعة والشيعة عشرة اقسام والسنة خمسة وتركمان شيعة وتركمان سنة وتركمان اتراك وتركمان من تركمانستان. وبويهيين ونور وهناك قبل أن انسى صابئة ومعمدانيين وبهائيين وبابليين ويزيديين ويزيدييين اكراد ويزيدين عرب وشيء اخر وهم كذبة طبعاً، سادة يرجعون باصولهم إلى محمد رغم أن الرجل ليس له ولد. هناك بوهيميا غريبة وربما نسيت أن أقول إن هناك ربما اربعة أو خمسة انواع أخرى من السلالات البشرية التي لم تعرف اصولها لكنها موجودة في العراق...

وأسير نحو الهاوية مع التلوين البشري هذا. تلوين غريب وعجيب وفوق كل هذا هناك ارمن و باكستانيين وهنود وعبيد وعوائل من تتارستان. وكلها تعيش هنا في هذه الأرض التي احبها ابليس ونزل اول ما نزل في منطقة المملحة جنوب العراق.

كنت اختنق من هذا اللغو ومن هذا التراكم العرقي ومن هذا التناكح واللواط والباربغوندا. لواط في كل مكان. لواط في الشوارع ولواط في البيوت ولواط في البارات ولواط في المساجد ولواط في الحسينيات ولواط في الكنائس. كلنا لوطيون سواء بتلك الدرجة أو غيرها وفي روح كل عراقي شعرة وذرة وإن كانت قصيرة من التفكير في

نشوء الله وتساؤل أين كان الرب قبل أن يخلق العالم. مشكلتنا الابدية والدائمة اننا عراقيون حتى النخاع. عراقيون مع سبق الاصرار والاجرام. عراقيون نستطيع أن نقتل اي شيء، من القطة المسكينة إلى النبي. كل الانبياء في هذا العالم خرجوا من هذه الأرض الدبقة المليئة بالنفط والكبريت والغاز ومعدن الكرميوم والمني. لكننا في نفس الوقت نقتل الجميع. هناك شيء غريزي فينا. غريزة عراقية صرفة وهي اننا لا نصدق باي كان. وليس هذا بسب عراقيتنا الصرفة إنما لأن كل المناويك الذين حكمونا كانوا اولاد قحبة واولاد عاهرة وامهاتهم كن عبارة عن قحاب وبغايا معبد بابلي ولن استثني من هذا، نبوخذنصر ونبو بلاصر وعبد الرحمن عارف والبكر والسفاح الاخير وآل الحكيم والبو ناصر والبو خراء والبو بول.

مشكلتنا الابدية اننا محاطون في العراق بابناء داعرة وابناء قحبة ومناويك من كل العالم. كلهم يريدون مياهنا ونفطنا وثرواتنا وندافع عن هذه الثروات. ندافع عن النفط والكبريت واليورانيوم ومعدن التنكستن وملايين ملايين الأشياء. لكننا في ذات الوقت نموت من الجوع ونموت من العري وفي الشتاء البارد والقارص والوحشي، لن نجد ولو قليلا من النفط أو الغاز للتدفئة...

من هذه الأرض خرج كل الانبياء ومن هذه الأرض أيضاً خرج النمرود ويقال إن الفراعنة خرجوا أيضاً من هذه الأرض. نحن الشعب الاول في هذا العالم الذي صنع البيرة والعرق المسيح والمستكي ونحن أيضاً أكثر الشعوب في الأرض التي تصلي وتسكر. نسكر في الصباح والظهر والليل وفي كل الايام حتى ايام عاشوراء وايام الحج. وهناك اعتقاد مفاده، اننا الشعب الاول في العالم الذي اغتصب الفروخ وابتكر

اللواط والسيد لوط لم يكن إلا عراقي هارب من العراق إلى فلسطين ونحن من علمنا الاردنيين والفلسطينيين اللواط ولطنا بالانبياء وبالجميع.

انها ميتافزيقيا عراقية خالصة. ميتافيزيقيا اغرب من الخيال والتصور والانبعاث والموت والحياة الدنيا والاخرة ومن أجل هذا قال الله في كتابه إن في الجنة ولدان مخلدون الذين اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤ منثور. اللواط له فسلفة خاصة في نظرنا. فلسفة غير عادية وغير مفهومة ففيها المنحرفون الانكليز أو الألمان لا ينكحون النساء يكون الدودكي عندنا متزوجا من اربعة نساء وله فرخ ويضاجع إن اتيح له الامر الحمار والبقرة واي شيء له ثقب وفيه قليلا من اللزوجة.

نحن نعيش ما يمكن أن نطلق عليه الخرائبية في حياتنا وحياتنا مليئة بالممنوعات. من أجل أن تحمي طيزك عليك أن تتبع قائمة طويلة من الممنوعات. ممنوع أن تسير مع الاكبر منك سنا. ممنوع أن تتلاطف مع المعلم والمدرس والاستاذ الجامعي. ممنوع أن تخرج طيزك أمام الطبيب. منوع أن تلبس بنطلونا ضيقا. ممنوع أن تختلط بالشرطة. ممنوع أن تنزع ملابسك في الجيش أمام العريف ونائب العريف ونائب الضابط والضابط. ممنوع أن تتعرف أو تسير مع كويتي. ممنوع أن تلبس دشداشة ضيقة وانت تذهب إلى الجامع. ممنوع أن تجلس لوحدك مع السيد دام الله ظله وانت تبكي على الحسين. ممنوع أن تذهب إلى دكان المحلة ساعة الظهيرة والناس نيام. ممنوع أن تتأخر في العودة إلى البيت ليلا لانه يمكن أن يكون في الشارع فرخجية. ممنوع أن تتوقف أمام محل الفرقة الموسيقية في المحلة وأن تستمع إلى الالحان خاصة اذا كان الوقت ليلا أو منتصف الظهيرة. ممنوع أن تسكر وأن تنام في البار لانه من المحتمل أن

ينكحك ججو. ممنوع أن تسير مع عبد الستار ناصر لانه طلق زوجته. ممنوع أن تسكر في نادي اتحاد الكتاب لأن عبد الامير معله هناك.

مسموح لك أن تسير مع حماية الرئيس وذلك لانهم متخلفون حضاريا ولا يلوطون. ممنوع أن تجلس مع عبد الرزاق عبد الواحد بعد أن يشرب القنينة الرابعة من البيرة وممنوع أن تسير منفردا مع زعيم الطائي واذا قدم لك (زعيم) سيجارة فيجب أن تعرف أن مع السيجارة الثانية تكون قد هويت. ممنوع أن تذهب مع شوقي كريم وعلي السوداني وحميد المختار وضياء سالم وحسين الصعلوك إلى اية مسرحية حتى لو كان الممثل يوسف العاني.

هناك أشياء أخرى كثيرة واذا اردت أن تعمل نوعاً من القائمة فإن هذه القائمة ستكون من الطول بحيث تغطي نصف الكرة الأرضة. لم أعرف على وجه التحديد ما هي الأشياء المسموح بها لكن اذا اردت أن لا يلاط بك فيجب أن تتبع التعليمات بشكل دقيق واي خطأ يعني انك سوف تكون فرخا وملاط به. وعندما - تفلتها - مرة فإن احتمالات التكرار واردة جداً وسوف تتحول بمرور الزمن إلى دودكي أصيل ولن يشفع لك الوسط الادبي ولا الاجتماعي بهذا التحول الدراماتيكي.

الوسط الادبي هو الاول الذي يجب أن تنتبه له لانه المصدر الوحيد للاشاعات. اية حركة غير محسوبة سوف تفسر تلقائيا نحو شيء سيئ. أذا سرت مع عبد الستار ناصر ونشرت قصة لك وكانت القصة جيدة فإن الاقاويل سوف تنتشر لتقول إن عبد الستار ناصر هو من كتب القصة ووضع اسمك عليها ولا بد أن هناك ثمن لهذه العملية والثمن الوحيد طبعاً هو طيزك.

الوسط الادبي هو وسط موبوء ومريض. الادباء فيه لا يتحدثون عن الابداع والتجارب الادبية ولا محاولات اعادة فهم النصوص المنشورة. هم فقط يتحدثون عن الاشاعات والنميمة والغيبة وما حدث لزيجة عبد الستار ناصر العاشرة ولماذا رعد بندر لا ينام في بيته كل اربعاء وخميس ولماذا لؤي حقي اصيب بمرض جنسي ولماذا علي عبد الامير يلتقي مع خيري منصور على انفراد كلما زار الاخير العراق.

ثم هناك شيء اخر أكثر لعنة وهو انه عندما تنطلق اشاعة ما فأنها تلتصق بك إلى الأبد مثلما حدث مع زعيم الطائي الذي اشيع انه يحب الفروخ، بالرغم من أن الرجل أكثر الادباء احتراما لذاته وللاخرين، لكن حسين الصعلوك اخذ يردد هذه الاشاعة حتى وصلت إلى البصرة والموصل والاردن وجزر مدغشقر و البهاما واتحاد كتاب الامارات ودار الجمل وحسين الموزاني ونجم والي. وفي احدى المرات واثناء اقامة مهرجان ايام عمان الثقافية في الاردن سألني أحد الضيوف من الهنود الحمر، أن كان حقيقة أن زعيم يحب الفروخ مع المايونيز؟. وقتها اصبت بالهلع والرعب لابل بالامساك والمغص الكلوي وعرفت أن حسين الصعلوك فعلها. كان حسينا عبارة عن كتلة من العذابات. ليس عذابات روحه إنما العذابات التي يسببها للاخرين. لم يسلم اي شخص من اشاعاته حتى الله نفسه.

الفصل السادس

الصراخ في كل مكان. انه على الأشجار وفي المراحيض ومع الصراصر وفي القلوب.

العاشرة صباحاً. المذياع يتغوط ويلفظ الأخبار مثل شخص مصاب بالاسهال. القوات العراقية دخلت الكويت.

ما هذا بحق الجحيم.. من الذي فعلها. يا للسماء. فليغفر لي أمير المؤمنين. الله هناك في البرية. تشوش. مرارة. فرح. غرغرينا وامير الكويت يهرب إلى مكان مجهول. القوات تواصل التقدم. سمعنا أن هناك مقاومة. مقاومة، يا للدناءة. علي حسن المجيد يتنقل بطائرة هليكوبتر وأنا ارتعش في المصنع. كل شيء يثرثر هنا؟ الكل كانوا يحللون الاحداث.

ألم في المعدة. مؤخرتي أصبحت مثل مؤخرة عصفور. انخر مثل مسفوح على مقصلة والسكين ليست اداة حادة للقطع. أعود إلى البيت مثل ارنب وادخل المكتب واحاول أن التقط اذاعة بي بي سي أو مونت كارلو. لا أخبار. المذياع مشوش والتلفزيون يعرض مشاهد من الحرب

مع ايران.الطائرات فوقنا في حركة دائمة. ربما لاننا بالقرب من القاعدة الجوية. الزوجة تعد وجبة سريعة واتقلص في الكرسي. بدأ الراديو يلتقط نثار من الأخبار. جاء صديقي إلى الشقة. ادخلته بسرعة إلى المكتب. قال، فعلها ابا عدي. القوات تسيطر على كل الكويت. كنت اتقلص إلى الدرجة التي أصبحت فيها كثافتي صفراً. لا ادري لكن اصابعي ترتجف.

نترك الحديث ونسمع بصعوبة نشرة الأخبار. اذاعة البي بي سي. تقول إن الكويتيون يقاومون. ياهذا الجنون. يقاومون من.انه جنون. شعرت بالعار. المشاعر مختلطة. لم أكن أعرف كيف أفكر لكن الأخبار دمرتني. نشرب الشاي وندخن. صديقي يردد كل لحظة، فعلها - أبو عداي البطل -. من سيأكل الخراء؟ يجب أن يكون احدا ما، فكرت. لم اتفوه بكلمة أمام صديقي. انه يعمل في دائرة الأمن التابعة للمصنع.

****

ضوء ينطفئ في مكان بعيد. احدق من النافذة باندهاش. الألم ينتشر في كل مكان. لم استطع النوم في تلك الليلة ولا الليالي التي تلتها. كنت ممسوسا وهزيلا وأشعر أني اقترب كل لحظة من الانتحار. في المصنع لا حديث إلا حديث الدخول إلى الكويت. استدعوا الرجال مرة أخرى لخدمة الجيش الشعبي والجيش. عاد المصنع مرة أخرى مملوءا بالنساء.

احسست أني اضيع في دائرة تقترب من النار. في اليوم التالي جاء أمر اداري بنقلنا إلى مصنع حربي. ستبقى هنا النساء فقط. فكرت أني سوف اذهب إلى مجهول جديد. هناك الة مذهلة ترمينا بين الاجداث.

أنت لست سيد قرارك. دائماً نتحول إلى نعاج من أجل المعركة. صعب جداً أن لا تكون سيدا لنفسك. صعب جداً أن لا تعرف أين ستنام هذا اليوم أو إن كنت ستعود إلى المنزل. ليست الحرب فقط هي المسؤولة عن هذا. هناك عقل غريب يصبغ كل شيء بصبغة الاستعداد الدائم للمفاجآت والحروب.

حياتنا تحولت إلى قلق دائم. لا تعرف أين يمكن أن تموت ولا الوسيلة. العقل الجبار الذي يدير هذه الماكنة يقبع في مكان بعيد عن احاسيسنا وأحلامنا. ماذا سيفعل السيد الرئيس؟. الاجابة الفورية انه يعرف كل شئ. الموت يتخطفنا مثل نسر يلتقط جثة والجثة مهترئة بفعل الحرب مع ايران.

لا زلنا نمضغ العار والبؤس والجوع والتيهان بفعل الحرب مع ايران. مزيد من الايتام في الشوارع ومزيد من القحاب. كل يوم كانت هناك نساء يدخلن الطريق الجديد للحياة. في المصنع قالوا. انه دخل الكويت لأن أهل الكويت قالوا انهم يستطيعوا أن ينكحوا اية امرأة عراقية باموالهم.

شعرت بالتقزز والعار. تنتفض في شحنة غريبة من شحنات الموت والقتل. حاربنا من اجلهم ثم يجيئون لينكحوا نساءنا. ربما هذه كذبة. لا. لا يمكن أن تكون كذبة. عندما تمتلك مالا فانك تفعلها، وهكذا يمكن أن يفعلها أهل الكويت. أعود إلى المنزل في وقت متأخر بعد أن اشتريت قنينة بيرة ومزجتها مع الملح. قضيت تلك الليلة وأنا اتابع الأخبار.

السعار يبلغ السماء. أنت ضعيف أمام هذه البروغندا. الأخبار تقول إن لدى صدام أسلحة للتشويه البشري. اغير الاذاعة. اذاعة

مونت كارلو تمنحني الما في المؤخرة. تقول الاذاعة إن مجلس الأمن الدولي ينعقد الآن. وصدام حسين يخرج إلى الشاشات الفضية ويقول إنا قادرون على مواجهتم. لا بل تحطيمهم.

الأخبار في كل مكان. سمعتهم في المصنع يتحدثون عن سلاح سري امريكي يمكن أن يذوبنا خلال ثوان. لكن هناك سلاح اخر لصدام. يستطيع اذابتهم بالأسلحة الكيمياوية. الأسلحة الكيميائية شيء مخيف، لا تستطيع الهروب منها. أنت محاصر. قالوا يجب اعداد غرفة معزولة في المنزل لاتقاء الغازات. اصابني هذا بالهستريا والخبال. الحرب بدأت فعلا حتى قبل أن يصل الامريكان إلى الجهة الأخرى من العالم. مع نشرات الأخبار المتصلة والمستمرة وغير القابلة للتوقف اتحطم. أصبح مثل المشلول. كلب اجرب.

اللحية طويلة ولم اغتسل لايام ورائحتي اتشممها من بعيد. اطفئ الراديو واذهب إلى خارج الشقة. أحاول أن اتنفس شيء غير الأخبار. كنت ضعيفا جداً أمامها. صرت أشعر بالهلع، لكن القيادة السياسية لم تكن تهتم. حينما يعرض التلفزيون مؤتمراً للقيادة يكون صدام مبتسما. الابتسامة كانت تمنحني نوعاً من التوسل بالقائد. حتما انه سمع بأسلحة امريكا السرية وهو يبتسم. القيادة تفهم أكثر منا. صدام يعرف كيف يعالج هذه الازمة ولا بد انه سمع بالأسلحة السرية وانه يملك الحصانة لعدم التأثر بها.

صدر قرار مجلس الأمن فيما كنت في المصنع. المناويك قالوا انهم سيفرضون حظراً علينا. الحظر يشمل كل شئ. نوع من الهستريا تصيب العاملين في المصنع، لا نستطيع أن نفهم. اخرج من المصنع مثل المشوه واركض بخطوات عارية من الفهم إلى السوق. لم أجد شيئاً اشتريه.

اردت أن اشتري دقيقا أو اي شيء يمكن تخزينه لكني لم أجد شيئاً. أعود إلى البيت مثل المشلول. مثل المصاب بالدزنتري واللوكيميا والشيزفرينيا. اعصابي منهارة. الزوجة تقول انها ذهبت أيضاً إلى السوق لكنها لم تجد شيئاً تشتريه. اللعنة. ماذا نفعل. انهار ومع الانهيار أبدأ بتفحص ما لدينا من الخزين. هناك رز وسكر وشاي بكميات قليلة. ماذا اذا نفد كل شيء. يا قحاب المعبد، أين اذهب الآن. انها ليست حرباً عادية - مثل الحرب مع إيران -.

نحن لا نمتلك الحرية الكاملة للتصرف ولا نمتلك الخبرة الضرورية للتصرف. قالت جدتي انها تتذكر الايام السوداء للحصار في الماضي. تحديدا ايام رشيد عالي الكيلاني. لقد طحنوا نواة التمر وأشياء أخرى وصنعوا منها الخبز. اصرخ بوجه جدتي بعنف وقسوة. أشعر أني انهار ويجب تأمين طعام لي ولزوجتي ولطفلتي ولعمي وجدتي؟ عائلة عراقية كبيرة. كيف ساتصرف. الجوع أمامنا مثل عاهرة متشحة بالسواد فيما الاثداء تنشف من الحليب.

قال الرئيس إننا سنتغلب على الحصار. على كل عراقي أن يزرع المساحة الفارغة أمام بيته أو اية قطعة من الأرض. لا زهور بعد الآن. يجب أن نزرع أشياء سريعة النضج. بسرعة وعلى جناح من الألم والرغبة في الموت. القيادة قالت إن لدينا خزينا من المواد الغذائية يكفي لمدة ستة اشهر. وماذا بعد الستة اشهر. الشيطان فقط يعلم.

في المصنع اوقفوا وجبات الطعام المجانية ريثما تنجلي الامور. لم نعد نفكر بنوع الطعام. المهم هو الحصول على الحنطة والدقيق أو الرز. الخبز فقط هو المهم أما باقي الأشياء فليست مهمة. من يقول هذا؟ عليك أن تفكر بالطفلة ويجب أن تغذي الزوجة جيدا لأنها حبلى.

الصداع يحطمني. ارتعش وأنا احمل نقودي القليلة وادور في الاسواق من أجل شـراء اي شيء. الاسعار ترتفع بشكل جنوني. ما املكه من المـال لا يكفي لشـراء خمس كيلوغرامات من الطحين.

رباه. ارجع إلى البيت واحاول أن اشـرح لجدتي وعمي اننا الآن في حصـار وعلـيهم أن يقللـوا مـن كميـة الطعـام التـي يتناولونهـا. جـدتي تعترض. تطبخ بطريقة جنونية ولم تهتم لقراراتي. أنا أحاول أن اقيم نظاما للطعام لكنها تضـرب هذا النظام بعبثية وابدأ بالعصـبية والجنـون. مـاذا افعل؟ لا ادري.

إني اغرق في سبات من الجوع بعد أن قللت كميـات الطعـام التـي اتناولها. منحت نصف حصتي الغذائية إلى الزوجة من أجل أن لا تنجـب لنا طفل مشوه أو ضعيف. بعد اربعة ايام من تقليل الطعام ثـارت جـدي واتهمتني بانني اميتها جوعا. قلت لها إنه ليس ضـروريا أن تأكل كل يوم لحما وتشـرب كل صباح قنينة من الحليب. الحليـب فقـط للزوجـة لأنهـا حبلى. جدتي عمرها تسعون عاما ومن الصعب أن تغير نظام حياتهـا بـين ليلة واخرى. لكن ما موجود لدينا من الخزين قليل فعلا ويجب أن نرتب حياتنا وفقا لكمية الغذاء. الـبراد بعـد اليـوم العاشـر لاعـلان الحصـار فارغاً تماما. لم يعد لدينا زبدة اوقيمرا أو اي شيء يمكن أن يحفظ.

لا زال لدينا كمية لا بأس بها من الدبس. كنا نقلي الدبس ونتناوله مع الخبز. وضعت عشـرات الاقراص من الخبز خارج الشقة من أجل أن تيبس ويمكن حفظها لسنوات أو اعوام طويلة. لكن ما الفائـدة وجـدتي تلتهم الخبز اسـرع من اية ماكنة حديثة لفرم البصـل. عمـي هـو الاخـر. اخذ بعد أن سمع بقرارات الامم المتحـدة بفـرض الحصـار ياكـل اكثـر. ياكل اسـرع وهو أيضاً مثل ماكنة ذات مسننات كبيرة تهصـر الطعام.

اللعنة على كل شيء. في المساء اجلس إلى المذياع. كل الاذاعات تقول إن الامريكان سوف يضربون. لكن الحصار الآن هو المهم. كنا نريد الحرب بسرعة لننتهي من هذا الخراء الذي اخذنا نغرق فيه. صديقي يقول إن البطل صدام يعرف كيف يدير هذه الازمة. لكن لا خطوط هناك في الافق لحل الازمة. الازمة تكبر ومات اربعة أطفال في شارعنا بسبب عدم توفر اللقاح. كل يوم يمضي يعني اننا نقترب من الهستريا الجماعية.

صديقي الذي كان يحب القائد بجنون مطلق بدأ ينهار ويتحول إلى ثعلب يبحث فقط عن الطعام والشراب. البحث عن الخبز فقط أما الكيك والبقصم فقد نسيناه أو انه اختفى فجأة من السوق. جدتي تريد أن اشتري لها بقلاوة. اذهب إلى السوق من أجل البحث عنها وعندما لا أجد، اصرخ بوجهها واضرب رأسي في الحائط. الجميع لا يهتم. ليس لي اقارب أو شيء من هذا القبيل يعينوني على احتمال الألم الممضي الذي اغرق فيه. في العشية اغرق في حزن عميق. نشرات الأخبار تحطمني وأشعر أني بحاجة لرؤية الرئيس وبحاجة لابتسامته.

القيادة تفكر بنا حتما وبعد هستريا الأخبار عبر البي بي سي ومونت كارلو اذهب للتلفاز من أجل أن اشاهد الرئيس. من حسن حظنا أن الرئيس دائماً موجود على الشاشة الفضية. وجوده كان يمنحنا نوعاً من القوة والاحتمال. اهرب مع كلام الرئيس إلى أمكنة سرية في هذا العالم. هذا الرجل غريب. في عز الهجمة المعادية والجوع يخرج ليحدثنا عن القوة ونحن غارقون في الخراء. كنت مذهولا من جبروته. من قوته. لم أكن أشعر بالحاجة اليه مثلما أشعر بها الآن. لم أكن أريده أن يغادر الشاشة. حتى حينما انام كنت ابقى استمع إلى كلماته. اعلنوا اليوم

انه سيتم توزيع الاغذية بالبطاقات. شعرت بنوع غريب من الضياع. بدأت احس أني غير قادر على الاستمرار في الحياة.

نزلت إلى الشارع وذهبت إلى مركز الفرقة الحزبية. الناس يتدافعون بجنون من أجل تسليم الهويات المدنية ليحصلوا على بطاقات الطعام. وقفت في الخلف غير قادر على اقتحام المعركة ومثل جندي فاقد المعنويات كانت روحي تحلق في اجواء هزيمة نفسية قوية. العائلة المالكة الكويتية استطاعت الهرب إلى مكان مجهول. يقولون انهم الآن في السعودية. كيف سينتهي كل هذا؟. سؤال لم نعرف الاجابة عنه.

جاءتني موجة من التدافع ووضعتني قريباً من الشباك. دفعت باوراقي إلى الرفيق من أجل الحصول عل بطاقة التموين. لاول مرة في حياتي أشعر أني مهزوم. كنت مهزوما من الداخل. الأخبار الفظيعة التي تسيل من المذياع كانت تمنحني وجعا وارتباكا.

السيد الرئيس يقول، لا تستمعوا إلى المذياع والاذاعات المعادية. هناك سر لم يكشف عنه الرئيس ولم نكن نعرفه نحن أيضاً. السر يتعلق بالمعطيات التي يمتلكها الرئيس والتي تجعله صلباً وقابضا على جمرة النار. كان يوحي لنا من خلال احاديثه أن هناك تفاهما سريا بينه وبينهم. لكن من هؤلاء السادة بحق الجحيم؟. اسئلة كثيرة كانت تدور في اذهاننا. اسئلة عويصة ومربكة. لم نكن نعرف المسافة الفاصلة بين الحزن واللاحزن، بين الفرح واللافرح.

بين الوجع والرغبة الجهنمية في التدمير. الرفاق الحزبيون اخذوا مرة أخرى عبر الجيش الشعبي إلى الكويت. كانت الشاحنات القادمة من الكويت تفرغ حمولتها في تكريت. أشياء مسروقة. نهبوا كل شيء

والأخبار التي تتوارد تقول إن عدي سرق كل شيء هناك ضمنا الذهب والفضة والجواهر وفعلها حسين كامل أيضاً. نحن نموت من الجوع والخوف لكن القيادة حكيمة إلى الدرجة القصوى من الاحتياط والحذر. لو لم يكن هناك تفاهم ما مع جهة معينة لما استطاع الرئيس احتلال الكويت. لكن أين تكمن الأسرار؟. لم نكن نعرف.

الحمير مثل طه ياسين رمضان وغيره كنا نخافهم لانهم لم يكونوا يقدمون النصح والمشورة الحقيقية للرئيس. هل يعرف الرئيس كيف نجوع ونعرى. اننا شعب منهك إلى الدرجة القصوى. الحروب جعلتنا اشباه إنسانية بروح محطمة.

طيلة فترة البحث عن الطعام لم امارس الجنس. ولماذا امارسه أصلا. انه لن يقف في كل الاحوال. اذا نهض، ستندحر الجيوش المعادية ونعيش النصر الالهي. النصر القائم على جوع كافر. جوع مزوق بالدزنتري وديدان خيطية طويلة تخرج من المؤخرة وتمارس دورها البيولوجي ثم تموت. لكنها لا تتعذب مثلنا. كنت اتمنى لو كنا مثل الديدان الخيطية حيث لاحروب تشن ولا ايرانيون على الجهة الأخرى من الحدود.

الايرانيون حمير، كل همهم أن يصلوا إلى كربلاء. انها امنيتهم الابدية، تركوا نساءهم يتناسلن مع الافغان والباكستانيين وتفرغوا لارهابنا. تفرغوا لاجل أن يحاربونا. نحن الشعب الاجمل في العالم. الشعب الوحيد في الكرة لأرضية الذي يكره الحرب ويريد أن يعيش وهو يشرب البيرة ويسكر بعرق بعشيقة ويأكل الباجة ويترنح في الشوارع. لا ادري اية فظاعة نعيشها وكأنما مكتوب على هذه الأرض أن تداس دائماً من الاحتلال. حتى شعوب الهنود الحمر، المسالمون فكروا

بغزونا. هم والافارقة وابرهة الحبشي والاكراد والزازا والمنغول والتتر والمدغشقريين. اكره هذا العالم. اكره هذه الشعوب لأنها لا تدعنا ننام على ضفاف دجلة في الصيف ونسبح في الانهار ونغرق في السكر ونتناول السمك المسكوف ونتيه في الباب الشرقي ونقرأ في مقهى البرازيلي...

لم يستدعوني إلى الجيش أو الجيش الشعبي. بقيت في المصنع لكن بالرغم من هذا لم امارس الجنس مع الشيء الاخر في حياتي. كنت امارس استمناءا ذهنيا. استمناء غريب للروح والمتعة المزيفة. الجوع رغم اننا لم نزل نمتلك طعاما، كان عارما. الجوع لم يكن لاننا لم نكن نمتلك طعاما. إنما هو كلمة واحساس واضطراب عقلي وذهني حاد. الجوع هو كلمة فقط أما المعدة والأمعاء فتستمر في الهضم ولا يهمها إن كان المهضوم هو الخبز ام نخالة الحنطة او باقي البقول المهينة للإنسانية.

المعدة تسحق وتهضم ثم ترمي الأشياء إلى المصارين والأمعاء التي تحول كل شيء إلى خراء ذهني ورائحة قذرة تتسرب منك باستمرار. انه الضراط والفسو. البيت أصبح عبارة عن مرحاض كبير وكل واحد منا حينما يدخل التواليت، نسمعه وهو يئن من الامساك والبهجة القتيلة والألم المصاحب لالتواء الأمعاء في البطن. ثم... يتحول كل شيء إلى سوائل غريزية و مخاطية. لم نعرف ما الذي وزعوه علينا. لم نعرف ماذا كنا ناكل. لم يكن الطحين طحينا. كنا نأكل اعلافا حيوانية وأصبحت اشكو من انتفاخ المعدة. كلنا كان يشعر بانين طويل في امعائنا الملتوية والمهزوزة والمبتسرة. حتى ضحكاتنا كانت عبارة عن ضراط متصل ومستمر إلى الأبد. المهم انه يوجد شيء على المائدة، ايا كان هذا الشيء. علف حمير أو كلاب أو ماعز بري أو ابقار أو دجاج. كنا نأخذ الحصة

ونخبز الخبز ونأكل، حالمين بالصمون والخبز الفرنسي المطعم بالحليب.

انها رحلة طويلة جداً وعميقة الاثر. عندما ذهبت إلى بغداد لرؤية الحمقى. وجدت شوقي وقد انهار ونصيف الناصري يشحذ العرق والبيرة وتحول الجميع باستثناء لؤي حقي والادباء الذين يكتبون التقارير عنا. تحولوا إلى أشياء ضائعة في الزمن. يطوفون فوق الحساء المقشوط الدسم فيما اخرون ياكلون الدجاج مرتين وثلاث مرات في الاسبوع. استطعت أن المح لؤي حقي وهو لم يزل يسكر بويسكي استكتلندي ونصيف الناصري تحول إلى شحاذ وشوقي كريم إلى جائع ابدي وصلاح زنكنة إلى كائن بوهيمي وحمزة مصطفى يأكل الدجاج في خان دجاج ويقول لنا في المقهى انه يجب أن نصبر على الحصار حتى ننتصر. شوقي كريم كان يرتعش ولسانه دائماً مدلى بفعل الاصرار الغريب على تناول الفلافل.

أصبحنا نخشى الفلافل بعد أن تم اكتشاف أن الفلافل لم تعد تصنع من الحمص إنما من اعلاف الحيوانات. كل شيء وجهت له ضربه قاضية. الحياة تموت ببطء غريب ويتحول كل شيء إلى وهم وعدم. كنا بحاجة إلى البروتينات بشكل مدو. سعراتنا الحرارية تنخفض إلى مستويات مجنونة واهرب إلى الله الذي تركته. ازور عبد الستار ناصر في المجلة وابقى حتى موعد الغداء لكنه لا يدعوني إلا إلى وجبة منخفضة السعرات الحرارية ممثلة بلفة فلافل مصنوعة من قشور الباقلاء.

إخواننا المصريين هم أيضاً ضربهم الحصار، باتوا يصنعون الفلافل من حبوب لم نسمع بها من قبل. حبوب مثل الخروع والكتان والذرة وأشياء أخرى تجعل غائطنا اخضر غالباً أو احمر في بعض الاحيان. بعد تناول الخبز تشعر انك تناولت شيئاً غريباً ومباشرة بعد

التهامك الخبز تنتفخ معدتك وبطنك وتصاب بسيلان وكنت اعيش في ذلك الوقت مأساة البحث عن مرحاض لافرغ السموم والنستالوجيا.

الشخص الوحيد والكريم الذي كان يدعوني إلى سعرات حرارية عالية هو صلاح زنكنة، الرجل المقدس في الزمن غير المقدس. كان يمنحني كلما شاهدني اتضور جوعا وجسمي يرتعش بسبب نقص البروتين الحيواني، وجبة شهية من الكبة عند مطعم كبة السراي وبعد الوجبة استكانة شاي رائعة، بعدها كنت اشاهد العالم يتحول فجأة وبسبب الشبع إلى شيء جميل ورائع. عالم خال من الحيوانات البشرية وهي تركض وتصرخ وتطيح بكل شيء أمامها.

بعد الوجبة الدسمة والشاي والسيجارة، يمنحني صلاح بضعة دنانير لأعود بها إلى الشقة وانام مع حيواناتي الجميلة، ثم امارس الجنس مثل حيوان الكنغر واقفا أو ممدا عل الطريقة الكويتية.

كانت تعجبني الطريقة الكويتية في ممارسة الجنس لأنها تمنحني القا اخاذا لكن المرأة كانت تكره هذه الطريقة لأنها تشبه طريقة الضباع في ممارسة الجنس. ونمارسه بمتعة غريبة. بمتعه شهوانية ومتفجرة لأن الكون في طريقه إلى الانتحار. والانتحار مخيف وأنا جبان. أكثر جبنا من فأرة ومن ثعلب بري يريد أن يصيد لكنه يفشل في دادائيته الغربية. وكلنا فاشلون، إلى هذا الحد أو ذاك. والجيش، هل تعلم ماذا فعل الجيش؟ لا ادري. ليس مهما. المهم أنا منتصرون.

لكن الاذاعات الخارجية تنفث السم في عضلاتنا والسم دافق. كبير. متفجر، عنفواني. نحن بلا عنفوان وبلا اية أسلحة لنقصف هؤلاء المناويك. تحاول القيادة أن تشوش على اذاعاتهم أو أن ترشي المراسلين

الحربيين لكن اذاعة صوت امريكا تنفث فينا السم ويسير السم إلى كل انحاء عظامنا وعضلاتنا ونخر إلى الأرض. مشوهين وعاطلين عن الاحساس. الزمن والغرابة والدهشة تصعقنا. هل فعلا احتللنا الكويت، يااللعنة واحزن لأن أهل الكويت سياكلون الخراء مثلنا، سيعيشون جوعى أيضاً. لكنهم هربوا. يقول أحد الجنود انه لم يشاهد كويتي في الكويت. الشعب كله هرب، معقول.

❋❋❋❋

اردت أن اخرج من العزلة، من الجنون والهستريا التي دمرتني وأنا استمع إلى الاذاعات. قررت ترك المذياع. اقترحت الزوجة أن نذهب إلى زيارة بعض الاقرباء.

حملنا طعامنا والطفلة وذهبنا إلى بغداد. في الطريق كنت اهلوس، الامريكان لايريدون السلام. رغم أن صدام اقترح الانسحاب. لكن الامريكان مصرون على أن ندفع الثمن ويبدو أن الثمن سوف يكون غاليا جداً.

اسرائيل احتلت اراضي اربعة دول دفعة واحدة وحتى الآن لم تنسحب، لكنهم لايفعلون شيئاً معها. نحن هددنا بكل شئ. الحصار والحرب والموت. الموت، يااللكلمة القاسية. يوما بعد يوم كنت أشعر اننا نتجه إلى الهاوية والهاوية عميقة ولا تعرف لها حدود.

❋❋❋❋

احاول أن اغلق دماغي الملتهب بحشايا الأشياء التافهة والمؤلمة. في بغداد وبعد أن نصل إلى بيت الاقارب. يستقبلوننا بالم. كانوا مندهشين وممتعضين. وصولنا لهم يعني اننا سوف نلتهم طعامهم. لكن لا أيها السادة لقد جئت معي بالرز والشاي والزيت. لن استولي على حصتكم الغذائية وبعد أن يعرفوا اننا جلبنا معنا غذائنا تسود وتعود روح المودة والاستقبال الحار.

قريبتنا تئن بوجع من الحصار، كل احاديثنا كانت عن الحصار وطرق الحصول على الطعام والطاقة. اجسادنا كانت تتشكل من بروتين نباتي فقط وكنا بحاجة إلى بروتين حيواني. لكن لم يكن هناك المزيد منه. قريبتنا سلقت لنا عظام من أجل الزوجة الحبلى. قالت أن حساء العظام مفيد لها. عظام، يا محمد!! قلت. قالت قريبتنا انها لا تستطيع شراء اللحم.

كانوا يطبخون العظام المقشوطة من اللحم ويسلقونها ثم يشربون حساءها مثل مجانين. العظام كانت قبل الحصار ترمى من قبل القصابين، لكنها اليوم تباع وبثمن مربح. كنت اخشى أن نأكل في يوم ما سيقان الدجاج ومصارين الحيوانات مثل الفيتناميين والهنود.

❊❊❊❊

مضى على بدء الحصار شهر ونصف. قلصوا احجام الجرائد لتصبح بحجم التابلوه. فكرت أن اكتب قصة عن الحصار والصمود من أجل الحصول على المال لكن كلما كتبت كان البطل ينتحر. لا معجون اسنان في السوق. افواهنا تخيس واسناننا تتحول إلى صفراء وقرمزية.

بعنا اليوم اول قطعة ذهب من خاصية الزوجة واشترينا اللحم و الكبدة واكلنا بوجع. كل لقمة اتناولها، أعرف الثمن الصعب الذي دفعناه من أجل الحصول عليها. كنت مشوشا للغاية وقلقا وروحي مستفزة.

الحصة الغذائية التي وزعتها الدولة كانت قليلة للغاية. قالوا لنا انه يجب أن نبدأ حياة جديدة، نكيف احتياجاتنا مع الكمية الممنوحة لنا. لم يعد هناك بيبسي كولا ولا سفن آب. اختفت البقلاوة أيضاً من السوق. في بعض الاحيان أشعر أني اكاد اتفجر بسبب الحرمان من البيبسي. حياة جديدة. كل شيء غدا تافها وبلا معنى. كم سيطول هذا الحصار. لم نكن نعلم. البعض يقول انه سيستمر مدى الحياة. استمرار الحصار مدى الحياة يعني موتنا. لو انه محدد بفترة زمنية لأمكن لنا أن نتحمله. لكن الاحساس بأنه سيستمر إلى النهاية يحطم المعنويات ويجعل الواحد يموت نفسيا كل يوم الف مرة. أصبحنا نحمل من أجل شراء البقوليات والخضراوات مبالغ كبيرة جداً.

مع الحصار اكتشفنا كم نحن مرتبطين بالخارج وأن اقتصادنا كان عبارة عن اقتصاد استيراد فقط. الوجه الجميل للدولة عري أمامنا. حتى الصابون والشامبو اتضح اننا نستورده. كل شئ. كل شئ. يا للعنة كم نحن بائسين. فكرت أن ازور كنيسة لاني شعرت باليأس من كل شئ. عظام، عظام. سيقان دجاج، ريش طائر. وجوه تتلوى وتذوب. لم ازل احتفظ ببقايا إنسانية وزعتها في الشوارع.

❊❊❊❊

من البؤس إلى التعاسة ومن التعاسة إلى الاسترخاء ومن الاسترخاء إلى التقلص. أسير في شوارع بغداد. كل المطاعم اغلقت ابوابها باستثناء مطاعم الفول. كنا حينما نأكل الباقلاء نقشرها، ننزع القشرة السميكة ونأكلها. نأكل اللب مثلما نأكل التفاح اللبناني. الآن صرنا نأكل الباقلاء مع القشر. اختفت من الشوارع عربات الباقلاء والباقلاء مع الدهن. اختفى اللبلبي والشلغم لانهم ذهبوا كلهم للحرب. البعض للجيش والبعض الاخر للجيش الشعبي، بقي قسم ثالث، هم المعاقون جزئيا وقد سيقوا أيضاً عبر تشكيلات عسكرية خاصة مثل المهمات الخاصة.

لم يستطع أحد أن يهرب من الحرب. حتى لو كان بخصية واحدة. اخواننا السودانيين هم فقط الذين يروشون في الشوارع. بقيت اعداد لابأس بها من المصريين أيضاً. اقسم هؤلاء أن يتقاسموا معنا رغيف الخبز الصغير جداً. اخواننا من مصر ومن السودان اصابتهم أيضاً لوثة الحرب، عضتهم، التهمتهم واكلت احشاءهم مثلما تأكل السعلاة مصارين البعض أو تقضم الارجل.

اصدقائي من المصريين كانوا بلا ارجل والبعض بلا ايدٍ. وعندما نسألهم أين اضاعوا اشيائهم يضحكون ويقولون، اثناء تشجيعهم نادي الزوراء والشرطة. مساكين. دخلوا العراق ليعيشوا لكن تم كسبهم للحزب وحشروا معنا في الحرب والنار اكلت خصاهم. هم الآن بلا قضيب ولا خصى ولا عيون ولا ارجل.

بغداد مدينة غريبة جداً. غريبة حتى على ابنائها. في بعض الاحيان أشعر أني لا أعرف مدينتي. مدينتي التي ولد فيها ابائي واجدادي وخرجت أنا من أرضها مثلما يخرج الحوت إلى عالم الشهوات القلبية. كل

جزء من تكويني العقلي والبيولوجي هو مكون من اجواء بغداد، حتى دماغي مصنوع من بالة وحارات وازقة بغداد. حارات متنقلة بين الوجع واللوكيميا وفقر الدم وأطفال مصابون بالاضطراب الذهني ومجانين يرتعون في الشوارع.

اتذكر على نحو مشوش حمه المجنون الذي كنا ندفع له خمسة فلوس ليرفع دشداشته ويرينا قضيبه وهو يضحك حد الانفجار، ونضحك نحن أيضاً وننفجر في عري غريب وتمر نساء وفتيات من أمامه ونغمز له ونمحنه خمسة فلوس أخرى ويفعلها هذه المرة لكن بعضو منتعض وتهرب الفتيات وتبقى النساء الاكبر سنا اللاتي يحاولن اقناع حمه بأن لا يفعلها مرة ثانية، لكن حمه مضطرب ويضحك ونرحل مع ضحكاته إلى اخر الكون. إلى المكان الذي تغيب فيه الشمس وهناك نجد مجانين اخرين.

بغداد مليئة بالمجانين، مليئة على نحو غريب بهؤلاء البشر الذين يعيشون في عوالم غريبة وعوالم لم نفهمها وبجانب هؤلاء هناك الدودكية والفروخ والسحرة. اتذكر على نحو مدهش ومذهل السحار كاظمي، الايراني الجنسية الذي كان يصنع السحر في عقد النصارى. كانت جدتي تزوره باستمرار وتمنحه النقود ليعمل لها عملا من أجل أن لا يتزوج سليم ابن عمها مرة رابعة. كان هناك سحرة في كل ارجاء بغداد. في الهواء وعلى الشط وفي الحارات وفي الدرابين والطرقات. كل يوم نزور فيه أحد هؤلاء السحرة، نكتشف المجنون والصامت والخبيث، لكنهم كلهم يشتركون بشيء واحد هو أن رائحتهم قذرة، كونهم من ايران.

اتذكر أيضاً، هتلر الاعظمية وحمه وسلومي وكريم مكينة ونهاد الزنانة وعطية الاثول وكل الاخرين والقائمة تطول وتطول حتى تصل

إلى كل ازقة بغداد. كل محلة وحارة في بغداد هي مدينة مصغرة عن بغداد ذاتها. كل زقاق فيه المجنون والشقاوة والزنانة والقحبة والفقير والغني. في بغداد هناك ميزة أن الفقير يعيش بجانب الغني. كلهم يعيشون في نسق حالة من الاضطراب الذاتي والدعة والجميع يشترك في ميراث بغدادي أصيل هو مزيج من العادات الإيرانية والتركية والكلمات تتدفق مدوية بلهجات اصيلة لبغداد مكونة حتما من المزيج اللغوي للشعوب.

احببت بغداد لأنها مدينة مختلفة عن كل مدن العالم. لأنها تكونت في هذه الأرض فصار لزاما علي أن أموت فيها أيضاً. أن اشرب قذاراتها وسؤددها وهالتها وديماغوجيتها وبجانب المجانبن هناك الشيوعيين والبعثيين وبجانب هؤلاء هناك المجانين بسبب السياسة والمجانين بسبب الحب ومجانين بسبب السحر والشياطين.

كنا نعيش في بغداد ضمن هالة غريبة قبل أن تنشق هذه الهالة ويجي الغزو البدوي من أماكن العراق المختلفة ويتغير كل شئ. كنا نضحك من الذين يجيئون من محافظات العراق الأخرى وهم يرتدون الدشداشة والعباءة الرجالية والعقال، كنا نضحك لأن هذه العباءة والدشداشة تمثل لنا التخلف والخراء وأن صاحب الدشداشة هذا، يتبول في الطرقات وعلى حيطان البيوت ويجلس القرفصاء في الشوارع ولا يعرف العناوين ودائما هو اهبل وغبي حتى ولو كان هذا الزائر أحد شيوخ العشائر.

لكن كل شيء انقلب الآن. انقلب منذ اللحظة التي جاء فيها صدام إلى السلطة وشهدنا اكبر هجمة غريبة ومرعبة من أصحاب الدشاديش والمسدسات وغاب الشقاوات من الطرقات واختفى المجانين وعمت الظلمة والكدر كل حياتنا الاسية. بعد أن جاء صدام لم نعد

أصلاء. كل أهل بغداد غادروا إلى الجحيم. ضعنا بين العادات البدوية وأصبح قتل النساء شيئاً سهلا وعاديا جداً. لا بل إنه شيء لذيذ بالنسبة للبدوي أن يقتل..القيمة العليا للإنسان لديه، صفر مرعب وصفر كبير.

قبل مجيئهم كنا نعيش في جو خاص. جو مملوء بالفرح والبهجة والحياة والتشرب بنرجس الطرقات وهو يمنحك روحاً باتجاه النهر، دجلة، الذي ولدنا بين بواباته السماوية والنهر بمسالكه القرميدية وهو يجثو أمام الاعين الغائبة في ضباب المتعة المتوفزة. اغرقونا بعد أن جاءوا، في الحروب وفي التيهان العميم لدوامة بكبر السماء. خسرنا بغدادياتنا شيئاً فشيئاً. تحولنا إلى عظايا متقرفصة ومتقلصة. لا أعرف لماذا يكرهون بغدادنا؟. يكرهون النهر والضفاف والضباب المنفلت والاجتياح المر واللاذع لطعم أشجار الطرفة وقصب النهر والقمر والبحيرات العظيمة..

عندما استولوا على النهر، استولوا على جزء من كياننا وعقلنا وسرمديتنا. امهاتنا وجداتنا كن يخفن من ولوجنا النهر. النهر عدو حقيقي لهن. لكنا لم نكن نستمع لتأويلاتهن وضبابية افكارهن وكنا نغرق في النهر إلى الأبد. في الماء والطين اللازب ونشاهد الآلهة وهي تصنع كياننا في تدفق مذهل ونمضي إلى الأبد في المتاهة الكونية. كان النهر وشريعته ومسناياته يشكل تطوافا دراماتيكيا لمهزلتنا الفكرية، من هذه الضفاف خرج المجانين والمجذوبين والدراويش والصابئة والمسيحيين والموسويين واليهود.

شكل لنا النهر تكوين معرفي وتكوين آلسني عن علم الاشارات والسيمياء واللغات المجهولة وعلم الخدر والارتعاش. كنا نتصور النهر شيء حي فينا. شيء دافق. ليس لأن فيه الموج العاتي ولا الضربات التي

يسددها إلى الضفاف لكن احساسنا به يتكون من علم المحسوسات والمحسوسات شيء غير مفهوم.

لماذا قتلتم بغدادنا وشربتم الدم المتفصد من عقابيل الوقت. انتم الذين جعلتم بغداد اقذر من اي مكان في العالم. ليست القذراة في النفايات، إنما القذارة في الضياع البوهيمي، أو عندما تضرب في الشارع لاي سبب. أو دائماً بدون سبب. صرنا لا نستطيع الخروج إلى الشارع. لا نستطيع أن نصطحب حبيباتنا إلى النوادي لأن هذه النوادي كانت بيوت شريرة. من هذه البيوت يصطاد التكارتة واهل العوجة ضحاياهم. اذا كنت بصحبة امرأة جميلة فعليك أن تحرص أن لايشاهدها تكريتي. اذا حدث وتم الاستحواذ على امرأتك فعليك السكوت. عليك الصبر أو التفجر. اذا اعترضت فقد تفقد حياتك وقد تفقد رجولتك وتهان وتضرب أمام المرأة.

صعب جداً أن تهان أمام امرأة، مركب الرجولة في حالة دمار شامل وانت ترى امرأتك وقد اخذوها إلى الامكنة السرية أو تغتصب أمام عينيك وعليك بعد اغتصابها أن تمسح اير التكريتي أو ابن العوجة لانه اغتصب امرأتك. عليك أن تشكره لانه انحط إلى الدرجة الدنيا قبل أن يغتصب حبيبتك. امرأتك. قلبك المرتعش. العصفور الرقيق الموجود في روحك. في احدى المرات تم اعتقال احدهم أمام عيني. نزل رجال الحماية وقالوا للرجل. الاستاذ عدي يريد المرأة. الرجل يعترض، الرجل يشهق. ويقول رجل الحماية. فقط لحظات. الاستاذ يريد أن يستفسر عن شئ. الرجل اخذ يعاني من حالة فقدان الإنسانية وتذهب امرأته للعار وتخرج يد الاستاذ من النافذة وهي تحمل ورقة صغيرة بتلفوناته.

في المنصور شاهدت الاستاذ مرة اخرى. كان يركب سيارة المانية

فاخرة وتوقف أمام فتاة وفتى، الفتى تمرد فعاجله رجال الحماية بضربه على الرأس. الفتاة كانت ترتعش وارادت الصراخ لكن فم الاستاذا كان كبيراً. كبيراً جداً إلى الدرجة التي استطاع فيها التهام الفتاة دفعة واحدة ثم تجشأ مثل افعى وهو يزحف في الطرقات. كنت اخاف أن أسير مع زوجتي في شوارع المنصور. تحولت المنصور إلى اقطاعية كبيرة للاستاذ حيث يلتهم فيها الفتيات والطالبات.

ومن المنصور كان الاستاذ يتمدد إلى اليرموك. في اليرموك كان حذراً جداً. ليس خوفا من الاباء الذين يشغلون مراتب عليا في الدولة، لكن لأن أهل اليرموك كانوا مسلحين إلى العنق. وبالرغم من هذا استطاع الاستاذ، الحصول على ضحية أو ضحيتين. كلما تمر سيارة الاستاذ، تهرب الفتيات والنساء إلى بيوتهن. لكنه كان يعرف مثل اي صياد ماهر أين يمكن أن تكون الضحايا. كان عندما لا يجد النساء في الشوارع يذهب إلى اعدادية المعالي وهناك وعبر اصحابه المناويك وحمايته، كان يصطاد الضحايا. فتيات بالغات الرقة والعذوبة يوضعن على طاولات الالتهام القذر.

كل جزء من بغداد تلوث ببقايا خرائهم. قذارتهم وصلت إلى اصقاع الدنيا. رغبتهم في الاستيلاء كانت عظيمة جداً.

عدي كان يستولى على النساء. الجد للام، خيرالله طلفاح، كانت رغبته وشهيته مفتوحة للاستيلاء على البساتين. لم يكن يشبع. كان حوتا رهيباً قادراً على هضم البلد كله. تكارتة اخرون مثل حسين كامل كانوا يستولون على التجارة ويأخذون رشاوى عقد الصفقات الحربية. كان حسين كامل يشتري مصانع بائسة بمبالغ طائلة وعندما تصل المصانع ال العراق كنا نكتشف انها قديمة وفي حالة يرثى لها. كلهم كانوا عبارة

عن قملات في رأس الوطن. حشـرات تمـتص دم النـاس وكانـت هـذه الحشـرات تكبر وتكبر. وبالرغم من استيلائهم عـلى كـل شيء في حياتنـا إلا أن الاموال لم تحولهم إلى طبقـة ارسـتقراطية. بقـوا متخلفـين. لا بـل، مبهورين بالحضارة لكنهم غـير قـادرين عـلى الوصـول إليهـا. كـل شيء عندما تمشـي في بغداد يرتدي حلة البداوة.

قضوا على الطبقة الارستقراطية في البلد. الطبقة التي بإمكانهـا أن تشيد بنايات ودور وعمارات غاية في الروعة مع مصـانع كبـيرة ورائعـة. لكنهم حطموا كل شيء. ابقـوا فقـط طبقـة المقـاولين. المقـاولون الـذين يعيشون عـلى فتـاتهم وفي الحقيقـة لم يـك هـؤلاء إلا وكـلاء للتكارتـة في الاستيلاء على الدولة.

كنت أسير في الشوارع مندهشا من الديماغوجيا التي نرزح تحتهـا. ديماغوجيا تسلطية قاتلة ومبهمة. دولة مسلحة من أقصـاها إلى أقصـاها، بالأسلحة والمخـابرات وأجهـزة أمنيـة كثـيرة. كـان هنـاك الأمـن العـام والاستخبارات وجهاز المخابرات وجهاز الأمن الخاص والاسـتخبارات العسكرية والانضباط العسكري وامن بغداد والحـزب والمنظمـة الأمنيـة للحزب..... إلى الحد الـذي تضـيع معـه في عـالم غريـب وملتـو ومعقـد ومبهر ومؤلم. الألم يأتي من أمكنة متعددة ومبالغ فيها.

كنا نسمع بالستلايت لكنا لم نتذوقه وكنا نسمع بأجهزة البيجر ولم نتذوقها أيضاً. حتى الفـاكس كـان ممنوعـا علينـا. عـالم غريـب ومـذهل ومتسلط ونحن نسحق إلى الابد..

كان المناويك والقوادون هم من يقنعون القائد بأن هـذه الأجهـزة حرام وأن الشعب سوف يستعملها للاطاحـة بالنظـام. كـانوا يصـورون

للقائد أنهم حماة النظام وحماة الحرية والاشداء من أجل منع العدو من الوصول إلى الشعب وكانوا في الحقيقة يتبارون في منع الشعب من التمتع بالتكنولوجيا من أجل أن يقال إنهم حماة النظام والوطن.

وصل الشعب إلى الدرجة العليا من التحطم النفساني. إلى الدرجة القصوى من الالتياع وكان المناويك يتاجرون بقوت الشعب. يتاجرون حتى بأحذية الشعب. يقولون للرئيس إننا سنتصر ولايقولون للرئيس إن الشعب يموت وإن الدولة على شفا الانهيار والأيتام في الشوارع والمرضى على الطرقات والأرامل تائهات.

كل يوم يمر يصنعون فيه كذبة. كذبة كبيرة يكذبونها عليه وكان القائد ينتفخ عندما يسمع أننا سننتصر دائماً ولم يعرف أن الشعب غادر الحياة من امد بعيد ولم تعد هناك اخلاق ولا اتكيت وأن الناس بدأت تتحول إلى وحوش ضارية. الدم في كل مكان. الدم هنا، فوق الأرض وعليها وفي الأسفل.

نذهب إلى الأئمة، إلى الحسين والعباس وعلي بن أبي طالب. دخيلكم يا أهل البيت. دخيلك يا داحي باب خيبر وأنت في العراجين الطولية والمسالك السماوية. كم أحببناك. كم فكرنا بك في الليالي الجهنمية ونحن نذبح أمام الالهة الوثنية ونطارد أحلامنا مثل بلهاء في زمن غبي ومائع ومتحول إلى دم.

لم نكن نشرب من الدجلة الماء. كنت نشرب الدم وليس شيئاً آخر. يا للمصيبة. الأخبار تقول إن مجلس الأمن اجتمع وخول أمريكا اتخاذ القرارات المناسبة. في المعمل اشعلوا النيران من أجل التشويش على كاميرات الاقمار الصناعية. اشعلوا كل شيء وقادونا إلى مساحة خالية في

الأرض وهناك ذبحونا كما يذبح كردي ضحيته. بلا عاطفة، بلا تأثر. بلا دمعة واحدة من أجل العراق.

وبغداد أيها السادة. هل فكرتم في بغداد. للأسف، إنكم لم تفكروا فيها. دائماً بغداد كانت تستند إلى خصائصها القديمة. القدرة على ابتلاع الاعداء وتحويلهم إلى أشياء جميلة. لكني أموت. أموت واقفا ومنزويا. كل نشرة أخبار كانت تعني بالنسبة لي موتا. بالرغم من الظلمة. بالرغم من الليل، كنت أفكر انه لا بد أن يكون هناك من حل سلمي في نهاية الامر. أعرف كيف تفكر القيادة. أعرف الرئيس وعقله الجبار وكيف سيدير الازمة والحرب. انه بطل جدير بالتقديس. رغم أنه يصدق البعض ويعتقد أن العراق سوف ينتصر.

اثناء مروري في بلدة الدجيل قادما من سامراء ومتوجها إلى بعقوبة. توقفت عند ضريح سبع الدجيل، توضأت وصليت رغم أني تركت الصلاة من امد بعيد. شعرت أني بحاجة إلى الصلاة. بحاجة إلى الاحتشاد الذهني. بحاجة إلى الانفلات المعرفي. بحاجة إلى الخوف وهروباً منه. من الله كانت تأتي غيمات عابرة. غيمات بلون الأطفال المشوهين. ثعالب كانت هناك، فوق تلة برية وكنت اقدس بولها.

من البول كنت اصنع عوالم مزخرفة ومائلة بحاجة إلى التنفيس. غيمات عابرة كانت تنحدر من الافق. فوق الغيم ملائكة تبكي ومن دموعها كنا نصنع العاباً غريبة.

قالت لي احدى الممثلات عندما التقيتها في فندق الرشيد. لماذا تدمع عينك كلما راقبت المهرج فوق خشبة المسرح. قلت وأنا ادخن اخر سيجارة في علبتي. اه، لو تدرين كم يحبنا الله. تضحك الممثلة وتقول.

لكن، حقا أن الله يحبنا؟. قلت باستيهام ولغة مبعثرة. اجل. اقتربي منه ايتها الحورية الوسنانة. امسكي يده وصلي. امسكي الخشب وتضرعي. امسكي حافات الغيوم العابرة فجأة ورددي أحلام الطيور الهاربة في فضاءات المعرفة. عندما يغني صوت موسق قادم من جهة دجلة. سوف يحبنا الله من جديد..

في ضريح سبع الدجيل لم أصل كما يصلي الاخرين. لم أقرأ التعاويذ السحرية. لم أقرأ قل هو الله احد. كنت اذوب واردد عبارة واحدة. يا رب انصر العراق. لم أكن احب صدام كنظام، إنما كنت أريد أن ننتصر فقط، لأن الهزيمة صعبة للغاية ومؤلمة. هل أنت مختلف مع النظام؟ كنت اتساءل بدهشة غريبة كون هذا السؤال انبثق فجأة من الوعي المكتوم. صوت الضمير يعلو. الضمير، يا لبؤس الحياة. مرة أخرى اقف بوجه الضمير. وجها لوجه. حتى لو كنت تكره النظام وليس الرئيس فعليك أن تطلب النصر. الهزيمة شيء عار. لن يقال إن صدام هزم. إنما نحن. نحن فقط من سيهيم. كنت أعرف أن هناك الكثير من المناويك لا يريدون لنا النصر بحجة انهم ضد النظام. أيها السادة الموضوع مختلف. الهزيمة سوف تحطمنا. سوف تنثرنا في الأرض. كل عراقي سوف يصبح تحت نجمة. هكذا تقول جدتي. انه فرهود جديد لكن الضحايا نحن وليس اليهود.

كنت أشعر أني بحاجة إلى صلاة طويلة، ضراعة. تضرعت لله على السجاد الإيراني تضرعت لله - تحت سماء عارية -. تضرعت لله قرب الضريح، بين البشر الضائعين والمهمومين وهم يمسكون الشباك. كنت أريد أن اصرخ. أقول، أيها الناس. ادعوا أن يحفظ العراق. العراق ليس صدام حسين وليس علي حسن المجيد. ولا التكارته والدوريين

والعوجة وعدي وقصي وباقي شلة المجانين. العراق نحن. لا يهم. انسوا الآن الالام. تذكروا اننا نحارب وأن اول شيء يجب أن نفعله هو الدعاء.

بقيت في ضريح سبع الدجيل ساعات طويلة. كنت في بعض اللحظات ادخل في طور غريب من البكاء والضراعة. اتوسل الله بحق محمد وبحق الطيبين والفقراء والمساكين والمجذوبين والفيترجية والزبالين وبحق الدراويش وبحق أهل البيت وعلي ابن ابي طالب والشيخ عبد القادر الكيلاني، أن لانهزم. بعد أن انتهيت من الصلاة. انهرت إلى الأرض وسجدت في نوبة من نوبات الانثيال والتماهي.

****

من فتحات الانف تخرج موسيقى غير مفهومة. أنا ارتعش. مضطرب. بائس، حزين. متلكئ. البؤس كان يضرب عميقا وجهي وعظامي. أنا مثل قنديل بحر أو مثل سمكة مأكولة من الجوانب، وفي البحر حيث موتي الإنساني ينزف. كنت انزف أيضاً. انزف عقلي ومديات بعيدة من اللوكيميا تضرب قطرات الدم.

فكرت بالانتحار. ثم تراجعت أمام الفنطازيا التي تحدث أمامي.. هل ستحارب امريكا. ياللهول. الاعلام بدأ يتحدث عن القنابل الامريكية المخيفة، عن الليزر وأشياء أخرى شنيعة. لمحت تغيراً في طريقة عرض الأخبار. في البدء وقبل اجتماع مجلس الأمن كانوا يركزون على قوتنا. على صدام حسين وما يمتكله من قوة وجبروت وأسلحة خفية وسرية. كانوا يتحدثون عن قنبلتنا النووية والأسلحة الكيمياوية

وتحديدا عن سلاح المزدوج الكيميائي. قالوا أيضاً اننا نمتلك قنابل البنزين والهواء وانها قنبلة مدمرة وفظيعة ثم تحدثوا عن القنابل القذرة التي نمتلكها.

كنت أشعر بالرعب أنا أيضاً. أعرف أن هناك كذب كبير. هل كنا نمتلك كل هذه الأسلحة الفتاكة ولم نكن نعلم؟. من يكذب؟. السلاح الكيمياوي المزدوج كان كذبة كبيرة. كذبة كذبها مدير عام منشأة المثنى الكيمياوية وصدقها القائد. كانوا يكذبون عليه ويستلمون المكافأة المالية وسيارات المرسيدس. يا للعنة، وكنت اغرق في صلاة عميقة. كنت اغرق في توسلات إلى الله أن لا تندلع الحرب.

بعد أن فوض مجلس الأمن امريكا، شعرت أني انهار. اضطرب. اتلاشى. شعرت بعد أن سمعت الخبر بكآبة عميقة، أني أخرى في بنطلوني. سنكون أمام امريكا وجها لوجه. وجها لوجه مع كل تكنولوجيا الأسلحة الموجهة إلى الاتحاد السوفيتي سابقا. كنا نعرف انهم يراقبونا كل لحظة من الجو.

القيادة امرت أن نشعل النيران في كل مكان من أجل أن يغطي الدخان كل شئ. مع صدور هذا الامر. تحولت المدن إلى فقاعات سوداء. كنا نختنق من رائحة النفط الاسود المحروق والاطارات. كل شيء يبدوا هزيلا. اليوم مساءا وفيما كنت ملتصقا بالمذياع سمعت أن السوفيت سلموا الامريكان الشفرات الخاصة باسلحتنا. باعنا المناويك ببضعة ملايين من الدولارات السخيفة. لكن هذا الخبر مر مرور الكرام. لم الاحظ اي تأثر لهذا الخبر على تصرفات القيادة والقيادات الميدانية. ظهر الرئيس في التلفاز وقال اننا سنعمي عيونهم. حسين كامل كان يزور الرئيس كل يوم. ينقل لنا التلفاز اجتماعات القيادة مع حسين كامل.

الرئيس قال أيضاً إن الامريكان عبيد الكومبيوتر. حسين كامل كان مثل ديك منفوش الريش. يدخل ويخرج ويفرش الخرائط أمام القائد لكنا كنا ندرك أن هذا الرجل غبي جداً واحمق.

يوما بعد يوم صرت أشعر أننا في سفينة حمقى وأن هؤلاء سوف يغرقونا. لم أعرف كيف تفكر القيادة. الامريكان الآن يحكمون الحصار علينا بكومبيوتراتهم وتقنياتهم. ليس هناك مجال للمقارنة. أسير في شوارع بغداد وأشعر أن هناك ثمة ضياع بدأت ملامحه في الوجوه. وجوه الناس مثقلة بقلق سيبيائي. نساء ورجال ضائعون في المتاهة الكبيرة.

اردت أن ارى بغداد قبل الموت. اخر الانثيالات واخر التذكارات. زرت نهر دجلة وجلست في مقهى حسن عجمي. لم يكن هناك أحد من الأصدقاء. المقهى رفع اسعار الشاي لكنه بقي ارخص من كثير من الأشياء. عند الغروب خرجت من المقهى وسرت في الشوارع. كنت تائها وضائعا ومثلي الناس الذين اخذوا يختفون في الطرقات الجانبية. كنت أشعر أني أشبه بصرصار مرقق العظام يسير في منهولات ذات رائحة عفنة. وجوه النساء في الطرقات الجانبية كانت تلفها كآبة غريبة. كل خبر كانت تنقله اذاعة البي بي سي، كان يعني علامات فارقة على الوجوه. هناك استيهام، انهمام في الألم. أقرأ الألم على الوجوه الضائعة في بحر القدرة السماوية. المذياع كان يشكل اخر وصلة مع العالم. اخر تشبيك، لجو مليء بالأخبار. الجو مليء بالفنطازيا والموت.

كل شيء كان كالحاً. مطعم عنجر الذي اغلق ابوابه وحمام المالح وشارع السعدون والمكتبات والنهر. النهر، كيف شكله الآن، انه يتغير ويسير بعجالة إلى البحر. انه يهرب أيضاً إلى المجهول. المجهول الغريب والفوضوي. الملح فوضوية الأشياء في عيون الناس. التشيء والانحلال

المعرفي وفقدان روابط مضت عليها الاف السنين. الصلاة كانت علاج سحري للبعض لكنهم غادروا الجوامع. انهم يجمعون الآن، الخبز، الجبنة. الاغذية الجافة، البيرة. الكونياك. كل شيء يؤكل ولا يحتاج إلى أشياء كثيرة لطهيه. سرت في شارع السعدون وحيداً. كنت وحيداً جداً. وحيداً إلى الدرجة التي كنت ابكي فيها الازمنة السعيدة. لكن هل هناك ازمنة سعيدة فعلا؟.

تساؤل غريب يقفز إلى الذهن. أتساءل لماذا كتب علينا أن نحارب كل بضعة اعوام. من منا سيعيش إلى الزمن الاخر؟ ثم... هل سيكون لنا زمن اخر غير زمن الخراب والضياع الغريب والهمجي. طاقتي تستنزف. أتأمل الوجوه. الوجوه دامعة واتذكر قصص قبو البصل. كنت بحاجة إلى البكاء. النساء والرجال والعجائز لا يبكون. كلنا بحاجة فعلية للبكاء. أن نجلس على الطرقات ونمارس العملية بكاملها مع الشهقات والالتياع.

غريب جداً تأريخ بغداد. غريب فعلا، مدينة تأكل الابناء واحدا بعد الاخر. هناك مدن في الكون تمنح الحياة لابنائها. لكن بغداد تمنحنا الموت والالتياع. برغم الموت والارتباك والضياع نبقى نعشق بغداد. نقدسها ونمنحها اجمل ما في اجسادنا. بغداد بالنسبة لي ليست الابنية فقط. عندما اتذكر بغداد اتذكر عيون النساء الواسعة. اتذكر النظرات الشهوانية وانت تنطلق في الزوارق لتعبر الدجلة إلى ضفة الرصافة واندماج أشجار الطرفة مع عيون النساء المنبثقة من عباءات سوداء لامعة.

كثير من الوجوه النسائية الجميلة تمنحك النظرات الغريبةوالملغزة. عيون البغداديات ليست عيون للرؤية فقط، انماعيون تتحدث لك

نظراتها عن المخفي من الشجون، عن الألم. عن الرغبة في وقت ضائع. لكني أشعر بالوحدة. لن تستطيع أن تتبادل ولو كلمات قليلة مع اي كان. عناصر الجيش الشعبي في الشوارع وكذلك رجال الأمن والمخابرات والأمن العام وجهاز الأمن الخاص. كلهم في الشوارع، من أجل أن لا اتحدث مع اي كان. كنت بحاجة رهيبة إلى الحديث، الثرثرة. افضل شيء تعمله هو أن تسير في الشوارع وأن تتنقل إلى كل الامكنة وفمك مغلق. لكن إلى متى؟.

كنت أفكر على نحو مضطرب ومشوش. عقلي يجري عمليته الحيوية بدرجة كبيرة من السرعة وعيني مثل عين مخمور تلحس الابنية والاسيجة والوجوه. شعرت فجأة أني عبارة عن كلب صغير في غابة الكلاب الكبيرة لكني كلب لا يقدر على العواء والتشكي.

مسموح لي فقط أن اهز ذيلي واتمسح وارحب بقرارات القيادة. اللعنة.. إني اضيع في قدر حساء كبير. حساء مصنوع من بقايا حيوانية غير صالحة للاكل. فقط أن تغرق وتغرق دون أن يستطيع أحد ما أن يمد لك حبل النجاة. إني اهذي. اهذي ولساني يلهث ورجال الأمن في كل مكان، في الهواء والدخان والضباب والعاصفة والمطر الاسود. اغرق وانسل إلى الاعماق المظلمة حيث الله يغيب عن الصورة والصورة تصور مشهد غائم بلا ملامح لوجوه متأكلة.

****

انا مجنون. مجنون؟.. نعم ولكن هذا الجنون يمتزج مع شيء من مرقة الباذنجان والقليل جداً من اللحم يعذبني. امضغ اللحم وابقيه في

فمي اطول فترة ممكنة ثم امتص خلاصته وادوره بين الاسنان... يأكل عمي كل الطعام في المنزل. انه دودة سمينة وهو يسير بين اتجاهات الشقة الصغيرة ويدخن بشراهة. أنا أيضاً ادخن. لكني ادخن التبغ واحاول أن الف لي سيجارة. التبغ كان حاراً جداً. ملتهب. التهبت شفتي وأصبح فمي ينز لعاباً أصفراً ومراً.

عمي يسير في الشقة مثل التائه. ارمقه من طرف عيني، مثل سحلية. ابتلع لعابي وانتظر نشرة الأخبار. املي أن لا تندلع الحرب. اتوسل الله. لا. لا تجعلهم يبدأونها. نحن الآن في الزمن الضائع. في الساعات القادمة سوف يحدث شيء ما. الاتحاد السوفيتي يمكن أن يغير موقفه. يفغيني بريماكوف في بغداد. من يعرف كيف تفكر القيادة لكن نشرات الأخبار سببت لي اسهالا وضراطا.

أنا خائف. ارتجف، اتقلص مثل نحلة تريد المضاجعة. أنا عبارة عن حيوان. حيوان بعينين وعضو لا يريد أن ينتصب. زوجتي لا تستمع إلى الأخبار. إنها من عالم اخر. عالم غريب وسيميائي. الوقت الآن السادسة مساءا. الغروب مذهل. فكرت ربما أنه آخر غروب سوف اشاهده. لا. لا تقول هذا. فرنسا والاتحاد السوفيتي سوف يمنعون الحرب. لكن طارق عزيز (يتماطى) غير مبال ويتحدث بعنجهية. دخيلك ابا زياد اخرجنا من هذه الورطة. اجتمع طارق عزيز اليوم مع وزير الخارجية الامريكي. في المعمل قالوا إنه كان مثل الاسد الهصور. أنا أيضاً كنت اسدا في يوم ما لكني تحولت إلى شيء غريب.

الساعة السادسة وعشرة دقائق. اسمع طرقا على باب الشقة. بارتباك انهض وافتح الباب. جارتنا زوجة النائب الضابط خائفة، تريد أن انكحها. أقول للزوجة إني خارج لنصف ساعة. في شقة جارنا افتح

بنطلوني وأحاول إخراجه. لكنه لا يخرج. حاولت جارتنا أن تلعب معه لعبة صغيرة لكنه يأبى.

خرجت من الشقة وأنا في حالة هيجان واضمحلال وتناثر. عبر العين السرية في باب شقتي لمحت جارتنا وقد جاءت بحسنين البقال. بقيت نصف ساعة وأنا أنظر من العين السحرية..

في العاشرة مساءاً أمسكت بالقرآن واردت أن أقرأ لكني متناثر. آويت إلى الفراش وأنا أشعر أني اضيع في متاهات بعيدة وثمة دوار يشبه دوار السكر وصراخ في رأسي.

منتصف الليل قفزت من الفراش وأنا ارتعش تحت تأثير حمى. جاءت جدتي واخذت تقرأ على رأسي ايات قرانية. المغص قوي والمعدة تتقيأ اي شيء. في الواحدة بعد منتصف الليل شعرت أني استطيع أن انام. بعد أن رقدت واهنا. صرخت الزوجة فجأة ثم انطلقت اصوات الرصاص.

نهضت هلعا ومرتبكا وحاولت أن أجد نعالي لكني لم اجده. الفوضى عارمة. جدتي تصرخ. الزوجة تمدد على حشية في صالة الشقة. عمي ملتصق بنافذة مفتوحة. ركضت إلى شرفة الشقة وأنا أنظر إلى الرصاص المنطلق إلى السماء،. كل شيء كان شيطانيا ثم شعرت أن كل شيء قد انتهى. بدأ زمن الخيبات الجليلة.

الفصل السابع

اعصابي منهارة. الرصاص يدمدم في كل الاتجاهات. لم أعرف ماذا افعل. نظرت من النافذة وشاهدت الناس يركضون في الظلمة باتجاهات مختلفة. نزلت من الشقة بسرعة وشاهدت أن الملجأ القريب من الشقة مفتوح الابواب. ركضت والرصاص يصبغ السماء بلون احمر ودخان حرائق الاطارات المطاطية يهبط إلى الأرض. قالت الزوجة ماذا نفعل؟.

عمي اخذ يعاني من حال هياج وجدتي تنظر إلى وجهي مثل كلب بائس. لم أعرف ما الذي افعله لكني كنت اصرخ وبالكاد كانوا يسمعوني. نزلنا إلى الملجأ. تعثر عمي وسقط إلى الأرض. الطائرات فوقنا لكن لم يتم قصف المجمع. الرصاص كان ينطلق من كل الاتجاهات نحو السماء. لمحت خلال الوميض جارتنا، زوجة النائب الضابط وهي تسحب حسنين من يده.

وصلنا الملجأ وفوجئت أن الجميع سبقني. انزوي في الملجأ. أقرأ العيون الغبية والنافذة إلى مزاغل الجوع والارتجاف. العيون شائهة، مترددة. فارغة. نحن لم نزل احياء حتى هذه الساعة. حسنين يدور بين صالات الملجأ بحثا عن عود ثقاب ليشعل شيشته. أنظر إلى عيون

الزوجة غير المبالية. زوجتي من النوع الذي لا يعير أهمية لاي شيء. أنا أيضاً اسرق الوردة واقدمها إلى جنونها المضطرب.

قضينا الليلة الاولى في الملجأ. لم ننم. بقيت عيني تبحث عن النساء اللاتي كن معنا في الملجأ. نساء تمددن على الأرض ورجال مع أطفال ضائعين. اخذنا نعيش أشبه ما نكون بوضع ما قبل التاريخ. البعض – من الخوف – دخل المرحاض لكنه لم يتبرز في الفتحة، إنما على الجانب. حاولنا مرات عدة أن نستمع إلى الأخبار لكن المذياع لم يكن يسحب.

القلق يسيطر على الجميع. الارتباك كان مذهلا، النساء يتنقلن بين القاعات والأطفال ينتشرون في كل مكان. دورات المياه مملوءة بنا. مملوءة ببقايانا. بائسون إلى الدرجة السفلية من الترتيب الإنساني. لكن العيون كانت تقرأ الاشكالات الفيزيقية للناس وهي تمر في رحلة التمحور بين الذات الإنسانية والذات الحيوانية. في الصباح حملنا ا غراضنا وذهبنا إلى الشقة.

لم يكن هناك ماء. كنت أريد أن آخذ حماماً ساخناً واجلس لاقرأ. لم أعرف إن كان يتوجب على الذهاب إلى المصنع ام لا. طز في المصنع.

أنا الآن ارتعش شاهدت عبر نافذة الشقة شاحنات وهي تنقل معدات صناعية وتخفيها في بعض الشقق الفارغة. استبد بي الذعر. انهم يستعملوننا بشكل قبيح من أجل التمويه. الادوات والمعدات هي معداتنا.

أشعر أن المعدات ذات قيمة اكبر من قيمتنا. بامكاننا الحصول على البشر عبر عملية جنسية. يستطيع اي عراقي أن ينكح امرأة ليولد إنسان. ليولد جندي. ليولد اداة تقاوم بها السلطة قوة الاخرين، لكن

المعدات هي الاهم. الحصول عليها مشكلة كبيرة. تكوين العراقي وخلقه لا تحتاج إلى الدولارات. المعدات واستيرادها هو الذي يحتاج إلى الدولارت. فكرت أكثر من مرة في الموضوع ثم قررت أن اخذ زوجتي الحامل مع الطفلة إلى بيت ابيها في بعقوبة. بسرعة جهزنا اغراضنا وتركت جدتي وعمي في الشقة.

❊❊❊❊

الحصول على سيارة لم يعد شيئاً سهلا. القصف بدأ. تقنين البنزين بدأ العمل به. لا سيارات في الشارع. سرنا إلى بوابة المجمع السكني واستطنا الحصول على جرار زراعي يسحب مقطورة لحمل الاغنام. صعدنا إلى المقطورة مع بعض الناس. كان في المقطورة روث ابقار. البرد قاتل. كان يتسلل من بين اصابعنا ويدخل مؤخراتنا المستندة إلى الأرضية المعدنية للمقطورة. كانت معنا في المقطورة عوائل هاربة أيضاً.

الطريق بين المجمع وسامراء بدا اطول بعشرات المرات من طوله الطبيعي. البرد يرعش شفاهنا، بدأت تتشقق وتخرج خطوط نحيفة من الدم، نمسحها باصابعنا ثم نمسح اصابعنا بحافة المقطورة. كنت مشلول الفكر. مضطرب. أشعر اننا نتجه إلى النهاية. البؤس في عيون الناس. العقول تائهة. عندما حاربنا إيران كان كل شيء بعيداً عنا. كانت الحرب تجري على الحدود، بعيداً عن المدن. لم يكن هناك برد اذ كان النفط والبنزين والكهرباء متوفرة. حتى الغذاء كان متوفراً وباسعار رخيصة. كنا نأكل مثل الحيوانات المجترة، وعندما نذهب إلى المرحاض كان مخلفاتنا كبيرة وكثيرة. الآن نعيش الحرب فعلا. النساء كن الاكثر تمردا

والاكثر بؤسا. الرجال تغيرت نظراتهم فجأة. عيونهم تنقل التوجس والقلق والانثيال والتمرد والبؤس.

لكننا مثل الحيوانات الآن، مثل اسود اذلها سوط المدرب في حفلة سيرك كبيرة. الجوع في كل مكان، في الهواء وفي الاصابع وعلى زهور المغنوليا في شرفة الشقة وبمواجهة الشمس. كنت متعباً للغاية وحاولت أن انام حتى ولو لدقائق صغيرة. ابنتي تندفع نحوي وتحاول الدخول تحت الابط. انهار وأشعر أن النهاية بدأت تقترب سريعة. عندما وصلنا سامراء شاهدنا المحطة الكهربائية مدمرة. شعرت بخيبة امل.

اردت أن ابكي وأنا اشاهد انفلات الجوع واللاشيئية والرغبة في التقيء. برغم البرد القارص. كنا نقف في محطة الباصات ببؤس غريب. اثار الجوع على وجوهنا واثر الكآبة وعدم النوم تجعل اصابعنا وملامحنا بائسة للغاية. شاهدت في موقف الباصات، أصدقاء قادمون من المعمل. كانوا يشبهون شحاذين. الأطفال شبه عرايا والنساء بعباءات سوداء متسخة. الكآبة كانت عميقة ولا توجد باصات.

اشعل البعض نيرانا في علب الصفيح وصرنا نجمع الاوراق وبقايا الاخشاب وفروع الأشجار الطرية. كل الأطفال الذين كانوا بصحبة ابائهم وامهاتهم يسعلون، عيونهم أيضاً تحمل البؤس وملامح التشرد وفنطازيا الاغتراب الغريب والدوني. أمام النيران المشتعلة للجرائد والعيدان استطعت أن المح ام عباس. مؤخرتها الكبيرة المغلفة بعباءة سوداء قذرة تنبسط على الأرض. لم أشعر بشهوة بتاتا لمؤخرتها. كنت أنظر إلى الوجوه فقط. ما يهمني هو ملاحظة أشياء قادمة من الزمن البعيد ومتجهة إلى المجهول.

بعد منتصف الظهر جاءت شاحنة كبيرة وكانت متجهة إلى بغداد. تسلقنا مثل القرود مؤخرتها واستطعنا الحصول على مكان. الناس كانوا يتدافعون بقوة لكن هذه القوة كانت ضعيفة ومشتتة. امتلأت الشاحنة باجسادنا وظل السائق يحاول حشر المزيد من الناس. الأطفال كانوا أكثر من عانى. كانوا بين ارجلنا ولا يستطيعون تنفس الهواء.

لم أكن استطيع مشاهدة السماء. كانت تحيطني الارجل والانفاس وروائح السهر والشاي ونسيت عطر المغنوليا في شقتي. الانحشار مع الناس والتلاصق الغريب بهذا الشكل كان يمنحني نوعاً من الطمأنينة الغريبة. نوعاً فنطازيا. اه يـاالله. أنت تبعث لنا في هذه السماء المليئة بالطيور الناعقة سفنا من البلور الاسود. نحن اموات. مجانين. نريد أن نرحل إلى الملكوت الاعلى. نحو مدن تسير عبر الزمن والغرابة والدهشة. هل جربت أن تسير في مدن العالم. في المدن الساحلية تحديدا وبينك وبين البحر خطوات..

أعود إلى البرد والحلم. أحاول أن احلم خلال الصمت واسمع من بعيد اصوات القصف. اصوات تشبه اقتحام شيء غريب لمنطقة الحلم والرغبة في الحياة. الطائرات فوق رؤوسنا لكنا لا نشاهدها. كنا مثل العميان وحتى اذاننا بدأت تصاب بالصمم واللعنة. أنظر إلى وجه زوجتي المتجمد وانظر إلى وجه طفلتي البائس والمخاط يغطي انفها والشعر منكوش وغير مسرح. نحن نشبه الشعوب الهمجية التي غادرت الحضارة من امد بعيد. انهم يقتلون الوحدة المطلقة وانسيابية الحلم في ذهننا. مناويك. لم اصدق حتى اللحظة وبرغم القصف وسفرنا المرهق اننا حقا نحارب امريكا.

المشهد يختلف تماما عن الحرب مع ايران. كنا أشبه بمن يحارب

الله. الله. ياللسماء وطيور الموت ترف باجنحتها فوق رؤسنا المشوهة. فكرت في المصنع، من سيصنع الادوية؟. هم لم يقولوا اهربوا أو تعالوا إلى العمل. انتظرت حافلة المصنع لكنها لم تأت.

كنت احتقر نفسي بطريقة نستالوجية. بقيت انتظر الحافلة ساعتين كاملتين. ادخن مثل قاطرة قديمة وانفث الدخان إلى السماء. إلى الصفحة المسودة من حياتنا الغريبة والضائعة في المجارير والاوبئة.. منذ أن بدأت الحرب غامت الدنيا. تكون غيم غريب ومخيف في حياتنا. لم نعد نرى الشمس. كنت بحاجة إلى الشمس. الغيم اضاف نوعاً جديدا من الاكتئاب. أريد شمسا أيها الناس. أريد ضوءا ابيض ينور الكتلة السوداء والمدلهمة في حياتي.

لم اشهد انحطاطا مثلما اراه اليوم. قربي كانت كومة من الروث وإنسان في معطف بال. انهم الحيوانات الدائمة الخضرة والدائمة الانصياع إلى الرغب الدفينة في الذات. اكره هذه الحياة. أنا صبور أكثر من حيوان الفقمة. أنظر إلى زوجتي بعين مليئة بالحقد. لولاها لكنت الآن في بلاد الانكليز ارقص مع الشقراوات. الشاحنة تسير و الشمس تميل إلى الغروب. كل هذا الزمن محتشد هنا. بعد ساعة أو اثنتين سوف تبدأ جولة جديدة من الهستريا. نوع جديد غير مألوف من العض الحيواني والمخالب البائسة التي تمزقنا.

طيلة الطريق لم أستطع أن افتح فمي. كنت محشوراً بين زوجتي وطفلتي وبائس اخر بمعطف تفوح منه رائحة النفتالين أعشق هذه الرائحة. اخذت ادخن بشراهة وأنا امسك اطراف اصابعي واضغط على جمجمتي. اطرق عليها باظافري. أريد شيئاً من الهواء، من الاوكسجين غير الملوث بالبلهارزيا والدموع والثآليل الكبيرة. تراخوما

في عيون طفل أمامي. الشاحنة تميل بنا بين اللحظة والأخرى إلى هذه الجهة أو تلك. أنا اميل نحو الزمن. الطفل أمامي بعيون مسلوبة ومرمدة. امه تمسح العين بمنديل أكثر قذارة من روث بقري. أنا اذوب، انهار. ادخن سيجارة كلما أشعر أني ارتعش. السيجارة وامتصاصها كانت تشكل لي نوعاً من الخدر اللذيذ. كم اشتهي أن اسكر الآن. أن احصل على قنينة بيرة وانام مثل كركدن في حديقة الحيوانات.

حتى لو انتصرنا. النصر لا يعني اننا لن نعاني. لكن النصر نصف الحقيقة. على الاقل تشعر بالزهو، الكلاب أيضاً تشعر بالزهو حينما تنتصر على الكلاب الدخيلة. فكرت في خاصيتي النصر تلك وهذه أيضاً. كم نحن حيوانيون في سلوكنا الهش. نحن لانختلف عن الذئاب والقرود والشمبانزي والكركدن. ذئاب ملعونة في فمها لحم حي، لحم إنساني. نحن نهرس اللحم، نقطعه، نذوبه في سوائلنا التي تسيح من أفواهنا.رباه اعرني مستقبلات شرطية لاني جائع ومنهك ومحطم.

الطفل أمامي بعيون مرمدة والأم تمسح رأسه مثل كلبة. تلحسه مثل ذئبة. استطعت أن اشاهد قملة غبية في راسه. قملة ملونة بالوان الطيف الشمسي وخفت على ابنتي. خفت من الوجع والآلام التي يمكن أن تسببها القملة والضفادع البرية المنتشرة في حياتنا المدونة بسائل الشهوة. الرماد والحطام أمام عيني.

شاهدت فيما الشاحنة تسير، عيون ملعونة تحدق بنا من السماء. كل السماء ملغومة بالرادارات والاشعاعات والاقمار الصناعية. يريدون أن يعرفوا كل شئ. اطلقوا العشرات من هذه الاقمار. اطلقوها في حياتنا المرمدة والمقملة. الطفل الذي أمامي يبكي. آلام قلقة، مشوهة

وبذاكرة محطمة. اغمضت عيني دقائق وبدأ العالم بالدوران. اقرفص بشدة اكبر، اضم ابنتي إلى صدري وامسك بذراع أخرى الزوجة.

الشاحنة تتمايل ونسمع اصوات الطائرات. الاصوات فقط. لكن أين الطائرات. الله. انها هنا في الذهن. آلام فظيعة في الرأس وطفلتي بدأت ترشح والزوجة متكومة في تلاصق غريب مع حديد الشاحنة. لمحت من ثقوب بائسة الكثير من البنايات مدمرة. الدخان لم يزل يتلوى ويصنع قصص موحية عن التشيء والاضمحلال. اول مرة في حياتي اشاهد حياتنا وهي تدمر بعنجهية غريبة. نصل بغداد في ساعة متأخرة. ساعة ضائعة في الانفاس والارتعاش والبخار الذي يخرج من افواهنا بلعنات منتهكة.

اصوات الرصاص تبدأ بالتفجر وتنهمر اصوات القاصفات. نركض في الشوارع مع الاخرين. نركض بانفاس متقطعة والطائرات فوق رؤوسنا. الشوارع بائسة جداً. بائسة إلى الحد الذي تبدو فيه متوحدة، ومستهترة. اركض حاملا الطفلة والزوجة تلهث خلفي مثل سحلية. لكن من الذي سيدون الارقام والمرمزات الذهنية لهذه الحكايات. كل قنبلة تنفجر كانت تأخذ شيئاً من روحي. كل بناية تسقط كانت اعلانا حراً وموسيقيا لحياتي غير المدجنة. انهم يأتون. ياتون مثل الافاعي السامة وبصرخات مهولة. ولن استطيع الركض مرفوع الرأس. أنا عار أمام نظرات الزوجة ونتوقف في محطة باصات بانتظار شيء ما.

كل دقيقة نسمع انفجاراً مرعباً. كل انفجار يعني انفلاقا لحياتي. موت دموي، حتى وأن لم أموت الآن، أموت مع كل شيء يتفجر... نصعد سيارة اجرة تسير بشكل متعرج وننطلق إلى بيت أحد الاقرباء.

نصل بعد معاناة كبيرة والآلام الممضية تعاني منها الزوجة بسبب الحمل. صرخات في رأسي. اصوات غير مفهومة قادمة من المحال وتتجه، أيضاً إلى المحال. الجنود في الجبهة يموتون الآن. كنت أفكر بهم وكأني الامبراطور. كنت حزينا لأن الطائرات تأكل اجسادهم الآن. أنا هنا اعاني من الأوجاع المريرة بسببهم وبسبب البنايات المهشمة والدخان والنار.

صافرات الانذار في الشوارع تصم اذني والناس تتراكض في كل لاتجاهات. رجال المخابرات في الشوارع باسلحتهم الكاملة والديدان أيضاً كانت تتمنطق بالأسلحة. في كل مفترق طرق كان رجال الجيش الشعبي والأمن والمخابرات يسبحون في دوامة من الهستريا وعدم فاعلية الأسلحة. الطائرات دمرت حياتي، انها لا تسقط رغم ملايين الاطلاقات.

نصل بيت الاقارب ونجدهم يتحلقون حول المدفأة، قريبتنا تنظر إلى وجوهنا بنظرات جافة ومكلومة. انها هي الاخرى تعاني، لكن وجهها حينما شاهدنا انبعج إلى الخلف وتقعر وانثالت دمعا وارتعاشات فموية. كنت أنظر إلى وجهها ضمن ضوء المدفئة. اخرجت من حقيبتي الرز والزيت وبعض قطع الصمون اليابس.

تحلقنا حول المدفأة، قريبتنا كانت تصنع صمونا وتضعه على المدفأة ليشوى. فسألت بصوت جاف إن كنا قد تعشينا. الطعام قليل حتما، فكرت وطلبت منها فقط شايا وقلت لها سوف نأكل الصمون مع الشاي. جلبنا الابريق ووضعنا مقداراً من الشاي. صوت الانفجارات كان يصلنا وإن كان اضعف، لكن اصوات الصافرات الممزوجة بلوعة الألم كنا نسمعها وهي تدور في الشوارع. متى ينتهي هذا؟ قالت قريبتنا

التي لها ولد في الجبهة. لا أعرف، اجبت، الامر يتعلق بأشياء مجهولة. هل وصل شيء ما من ابنك. قلت. بلوعة وارتعاش وصبر نافد، شهقت وقالت لم يصل شيء، لكنها مطمئنة، على اية حال، هو في القوة البحرية.

كانت نظراتها تلمح إلى، أن ابنها احسن حالا مني. أنا الذي لم اشارك حتى الآن بالحرب. كنت أقرأ عيونها الهائمة. لكنها صلبة وقوية. بدا كان الامر كله كان عبارة عن أشياء مضحكة. وصلت ابنتها الكبيرة وجلست قربنا. الابنة الكبيرة هي زوجة ضابط في الجيش. انها مهزوزة ومنفعلة. كانت تنظر إلى ابنها الوحيد بنظرات تائهة. من بين البخار المتصاعد كانت تمتم بأشياء غير مفهومة.

وصلت رسالة من زوجها قبل ايام.فسألت عما يقوله زوجها الضابط، لم تشأ أن تتحدث. كانت تريد محو صورته. هل سيصمدون أمام الطائرات؟. كان ذلك سؤالا مبكراً لكني اردت أن أعرف رأي زوجها من خلالها. لن يستطيعوا الانتصار، قلت إن لا فائدة من الحرب اذا لم نملك طائرات. صوت المذياع يرتفع بشكل مشوش.

نشرة أخبار مونت كارلو بدأت، نصيغ السمع. هناك جهود تقول النشرة. نحو وقف اطلاق النار. انها جهود زائلة. القصف الامريكي يتشكل بقوة في سماء المدينة. شعرت باختناق بعد نشرة الأخبار. خرجت إلى الطارمة محاولا أن أموت واقفا. نظرت إلى السماء الداكنة والمسودة، للاسف لم استطع أن أجد نجوما أو اية اشارات نحو شيء ما. كنت احب التطلع إلى النجوم محاولا في بعض الاحيان استنطاق أسرارها.

الآن لا نجوم. هناك أشياء كالحة فقط. اصوات الطائرات تمزق

الدهشة وأنا اتسمر في مكاني كأنما في صلاة عميقة وجذرية. تناديني الزوجة وتطلب مني أن ادخل اتقاءا للبرد. كنت بحاجة إلى الهواء. كل نشرة أخبار كانت تولد في ذاتي دوامة من التساؤلات المريرة والبائسة. فكرت بصدام حسين. أين يمكن أن يكون الآن؟. كيف يفكر؟. هل بالإمكان تجنب..... ربما سوف تستمر هذه الحرب فترة طويلة لكنها، حتما ليست مثل الحرب الاولى مع ايران.

الامريكان يختلفون. يحبون السرعة والدهشة والوقت. الوقت بالنسبة لهم مع قوة التدمير شيء مقدس للغاية. ليسوا مثل الخميني. لماذا هذه الحروب. هل نحن السبب ام هم. الاخر الذي يريد تحطيمنا. فات اوان التفكير في صحة أو عدم صحة الحرب. علينا الآن أن نمحى من خارطة الشعوب والإنسانية، الشعوب عادة تقاتل مرة واحد أو مرتين في حياتها، لكنا قاتلنا كل الوقت.

صورة الموت تقفز أمامي بعجالة. تدور في ذهني موسيقى حربية وموسيقى القرب. هل سننتصر؟. المرة الوحيدة التي أشعر فيها اننا على حافة الهاوية فعلا هي الآن. الطائرات الامريكية لاتتوقف عن القصف والمضادات الأرضية لا تسقط الطائرات. بدت المعادلة غريبة ومؤلمة.

سمعت أن طيارون من مصر يشاركون في قصفنا. قالت ذلك زوجة الضابط وأكدت أن هناك طيارون من دول عربية عديدة. شعرت أني حيوان جريح وأن الاخرين وجدوا فرصتهم للطعن. تذكرت مؤتمر القمة الاستثنائي الذي عقد في مصر قبل بدء الحرب. تذكرت بالم ممض كيف ركع الاخرون أمام الغول والنهش. دفعوا الكثير من الاموال للدول الفقيرة من أجل ادانتنا. دول عربية مهمة دفعوا لها اموال أيضاً

من أجل أن تعلن الحرب علينا.. من طريقة القصف ومن طريقة طيران الطائرات وشدة القصف نعرف أن كان الذي يقصفنا عربي ام امريكي.

العربي شرس وجنوني في قصفه أما الامريكي فهو مهذب. لا يضربون حياتنا ويركزون حربهم على الجيش وثكناته. العرب والاسرائيليون هم فقط من يقصفنا بجنون ويحطمون كل شيء له علاقة بحياتنا الحالية. هناك حقد مخيف. حقد غريب. لماذا؟

كنت أفكر. أفكر بجنون لكن الارتباك والألم يعتصرني. قضينا تلك الليلة أشبه بمجانين. حاولنا بجد أن نجد اذاعتنا، لكن كل محاولاتنا فشلت، الغصات تخنقنا. الوطن يذوب، يذوب مثل شمعة تعرضت للحرارة من كل الاتجاهات. استلقيت على الأرض وأنا أفكر في الوطن. أفكر على نحو قلق ومشوش ومرتبك ومائج. اذا استمرت الحرب طويلا، ماالذي سوف يحدث؟ غفوت وكنت اقشعر من البرد، اذ لا مدفأة هنا.

حاولت أن اتذكر أشياء جميلة في حياتي وأن اغرق تفكيري بها. اغطسه إلى حد الغرق، لكني لم اتمكن. كلما اغمض عيني تتراءى أمامي شوارع بغداد المظلمة واضواء السيارت وهي تخرق الظلام ووجه زوجتي المسود من الظلمة وعيون ابنتي الهشة ونظرات الاخرين الغريبة. كنت اعيش نوعاً من الاسترجاع الذهني. لكن الذهن لا يتذكر الأشياء الجميلة. حتى العقل الباطن الذي اردت مساعدته غادرني.

يا لهذه الحرب التي تأكل كل شيء. أخبار من الجبهة، اعني من البصرة تقول إن القصف هناك شنيع. في بغداد هم أكثر رحمة بنا. لا يقصفون إلا في الليل. أما في البصرة فإنهم يقصفون على مدار الساعة.

الحرب الحقيقية هناك. البصرة، يا لمأساة. هذه المدينة الغريبة والعجيبة التي دفعت ثمن كل الحروب. دفعت مقداراً رهيباً من الألم. لم يعد في البصرة اهلها، غادروها إلى كل مدن العراق. البصرة مدينة مذهلة في كل شيء، مذهلة في جمالها الاسطوري ومذهلة في طيبة اهلها العجيبة ومذهلة في كل شيء حتى في قذارتها واوساخها واوساخ شوارعها وقططها وحزنها. مدينة مليئة بالأوجاع والجوامع والجمال الانثوي الصارخ.

احببت البصرة عندما كنت جنديا وعندما كنت فتيا كنت اذهب لزيارتها. كنت اذوب في شوارعها واذوب في مسناياتها واذوب في جوها وطقسها وحرارتها وذوبانها وسفنها وبواخرها.. في الصباح نسافر إلى بعقوبة. في موقف الباصات لا وسيلة للسفر إلا شاحنة متوقفة. نصعد الشاحنة تسلقا ونجلس بين روث الابقار والحشائش وأشياء أخرى غير واضحة. الزمن مقتطع. تقول الزوجة، هل سيستمر الحال على هذا المنوال؟ اخشى على الزوجة الحبلى. الشاحنة تتحرك بصعوبة والارتجاجات المتتالية جعلتني أشبه بمشوه رماه الدهر نحو المدن المشتعلة.

ننحشر بين الناس. تقول زوجتي، إن قريبتنا قالت لها – حينما كنت أنت في الخارج –. أنت محظوظة لأن زوجك معك. قلت للزوج لا تهتمي، انس الموضوع وقالت الزوجة إنها لن تفكر بزيارة القريبة مرة اخرى. ماذا لو مات ابنها في الحرب أو حدث مكروه لزوج ابنتها الضابط. قلت لها هم الذين اختاروا هذه الطريق من أجل المال والمكافأت الرئاسية. نحن اخترنا الفقر، كما تلاحظين بطبيعة الحال..

المكان مزعج. الشاحنة تسير بتعرجات، تسلك طريقا اخر

للوصول إلى بعقوبة. من بين كل الأوجاع التي تنام على عقولنا. هناك وجع اخر. وجع مضطرب وخيالي. هو الشعور بالفقدان الذي يغزوني كلما ابتعدت عن بغداد. لم أعرف كيف كان يختلط كل شيء، إلى الدرجة التي شعرت بهذيان شفيف وكأني كنت استنشق الحشيشة أو ابتلع ادوية مختلفة للكآبة.

بعد ساعات من الوجوم والنظر إلى الوجوه البلاستكية نصل بعقوبة. نجد أن الماء متوفراً. اول عمل فعلته، رمي الوسخ والجيفة التي علقت بي بفعل حوض الشاحنة. الوجوه في بعقوبة أكثر استقراراً. أكثر إنسانية من بغداد.

في بيت أهل الزوجة اشاهد بعض اقربائها وقد جاءوا من بغداد. البيت تحول إلى حظيرة حيوانات غريبة وكثيرة وبائسة. رغم أن الكهرباء لم تكن متوفرة، إلا أن الوجوه كانت أقل بؤسا. وجدت زوجتي أن الاخ الاكبر لها تم سوقه للحرب. أين هو الآن ومنذ متى حدث الامر؟.. هل من أخبار عنه؟. اسئلة كثيرة تنطلق لكن دون اجابة. أشعر في زحمة القلق باني منخور، بحاجة إلى الوحدة المطلقة. إلى التوحد مع ذاتي.

اخرج من البيت واقرر العودة إلى المجمع في الدور. اذهب إلى موقف الباصات واستطيع الحصول على جرار زراعي يقلني مع مجموعة من الناس. الظلمة تقترب و.... تبدأ الطائرات بالتحليق. بين كل ضربة جوية وأخرى كانت هناك أحلام تموت. حياة ذابلة ترتعش. أحاول أن امسد ظهر الوردة بلا طائل. من يمتلك الحقيقة الكلية الآن؟.

كنت أتساءل وانظر في وجوه الناس الذين كانت وجوههم متقلصة ووبائية ومقصفة. أفكر في عمي وجدتي. ماذا يفعلون الآن؟.

اهرب منهم وأنظر إلى المساحات المعشوشبة على امتداد البصر عبر طريق الخالص – الضلوعية.

وصلنا قاعدة البكر الجوية. شاهدت الطائرات مخبأة بين البساتين. طائراتنا لا تقاتل، لعنة جديدة تضاف إلى مسلسل بدا انه طويل من خيبات الامل. كان صدام يقول إن نصف النصر تنجزه القوة الجوية. كان ذلك في حرب ايران. الآن نحن خسرنا نصف المعركة. الرمال والتراب تغطي الطائرات. الطائرات بدت مشوهة وكأنها لعب أطفال كبيرة. الدخان يتصاعد من بعيد، دخان اسود ورمادي وفي ضوء الشمس الباهت يتحول إلى لون الكدرة، لون يبعث على الاسى والاكتئاب. حتى لو كان المرء حماراً فإن ضوء الشمس والدخان المختلط بانفاس الأرض يجعل الواحد يصاب بالشيزفرينيا.

الدخان الذي أمامنا، كان يكبر كلما اقتربنا منه، كان مصدره القاعدة الجوية. بعد لحظات من السير وجدنا القاعدة مدمرة بالكامل. أريد فعلا أن أموت عوضا عن مشاهدة وطني يجرح واسلحتي يأكلها التراب. اردت أن اصرخ، لا بل اهرب إلى المديات المفتوحة من السهول والنخيل الذي يوشي الافق بمظلات خضراء كانها زنار.

بعد أن تجاوزنا القاعدة الجوية بقليل اوقفنا ضباط نفد خزين سيارتهم من البنزين، كانوا طيارين. وجوههم ذات سمات حبلى بشهوات الموت. رقيقون للغاية. صعدوا معنا في العربة التي يجرها الجرار وهم يثرثرون ويتألمون بعمق. احدهم قال لنا باصرار شديد، سننتقم منهم. فليصبروا فقط. من هم الذين تريد الانتقام منهم، قلت. استدار مذهولا إلى وجهي وكانما يريد ان يستقرأ خرائط الازمنة العجفاء وهو بدون سلاح. الامريكان طبعاً. قلت في نفسي والسيد الرئيس.

قبل بدء الحرب بايام قلائل عين السيد الرئيس أحد اقربائه قائداً للقوة الجوية. كان هذا حماراً والجميع يعرف ذلك. لا أعرف كيف يفكر السيد الرئيس وهناك ضباط أكثر كفاءة منه، هذه هي النتائج.

ادخن بشراهة – سيجارة من مؤخرة سيجارة – حالة من الفقدان والضياع تمسكني. كنت اخشى أن يستمر هذا الشعور وأنا أعود إلى المجمع.

بعد ساعات طويلة من السفر، أصل المجمع. لا أحد في الشوارع. اذهب مباشرة إلى الملجأ. اشاهد جدتي وعمي متلفعين ببطانية جديدة كنت احفظها في مكان امين اعتزازا بها. عمي مريض وبحالة سيئة للغاية. اخذته مباشرة، إلى سامراء.

كل يوم يمر يقل خزين البنزين الذي حفظه الناس لاوقات الشدة. اجرة السيارة التي تنقلنا إلى سامراء مرتفعة جداً، لكن لم يك هناك من خيار. فيما عمي ممددا على أرض العيادة لعدم وجود كرسي المعاينة. يقول الطبيب إن حالته خطرة جداً. علينا أن ننقله إلى مستشفى صلاح الدين. نأخذ سيارة أخرى ونصل تكريت. المستشفى هو الوحيد الذي تتوفر فيه الكهرباء، بصعوبة اقنعت الطبيب باخذ اشعة ثم وجدوا انه مصاب بسرطان البروستاتا، وضعوا له انبوب بلاستيكي داخل احليله ونهاية الانبوب ترتبط بكيس بلاستيكي للبول، الادوية. قلت للدكتور، أجاب إنها غير متوفرة. قالوا لنا إنه يجب أن نخرج من المستشفى سريعا. حملت عمي بكتلته البائسة ومضينا إلى المجمع.

كنت أنظرله وهو ممدد على أرض الملجأ وأنا في حيرة. لم أكن استطيع أن افعل له شيئاً. بقينا ننتظر بذهول معجزة. بالرغم من حال

العذاب الشديد التي يعاني منها إلا أن شهيته للطعام والسجائر كانت كبيرة. لم أقل لجدتي انه مصاب بالسرطان. بقينا انتظر أن تتحسن الظروف لعمل شيء ما.

****

الوحدة في الملجأ قاتلة ومدمرة. جميع من معي لا أعرفهم. كل صباح تذهب النساء إلى الشقق لاعداد وجبات طعام سريعة، كل لعائلتها. يستغلون فترة توقف القصف والانفجارات لاعداد اي شئ. الرجال لايستطيعون الخروج أو بالاحرى لايعرفون أين يذهبون. الجميع متحلق حول من ا يمتلكون مذياعا لسماع اخر الأخبار. الأخبار دائماً سيئة. لم نعد نسمع اذاعة بغداد، اقتصر السماع على صوت امريكا ولندن ومونت كارلو. اذاعة مونت كارلو كانت الافضل، وفي بعض الاحيان تمنحنا امل من نوع ما. في اليوم التالي أو النشرة الأخبارية التالية، نكتشف زيف الامل ونجلس للتدخين بشراهة وحيوانية.

****

لم اخرج من الملجأ، عمي يتألم بصمت. لا أعرف وسيلة يمكنني بها تخفيف اله. عندما يريد أن يذهب إلى المرحاض. اضطر لاسناده. بين وقت لاخر نفرغ كيس البول واحاول جاهدا أن لا اتشمم الرائحة.

في الملجأ اخذ الرمد ينتشر بين الأطفال. حاولنا في اليوم التالي أن نخرجهم لساعات من الملجأ. ليس معنا طبيب أو موظف صحي. ليست لدينا ادوية أيضاً. هناك على الارجح بعض الادوية التي يخفيها البعض

لكنها في الحقيقة ادوية لوجع الرأس أو الاسهال فقط.

من بين الموجودين في الملجأ اخذ يبرز شخص يتحكم بالامور – لعنة القيادة – لكنها كانت مهمة. لم يكن في الحقيقة من مسؤول على الملجأ. اول الأشياء التي فعلها القيادي الجديد أن أمر النساء أن يكن في قاعة والرجال في قاعة. اثر هذا القرار السخيف تشتت العائلات. البعض اعترض لكن السلطة الجديدة كانت أكثر قوة.

لم اعر هذا الموضوع أهمية، اذ كنت مشغولا مع عمي. عندما القيت نظرة اخيرة على النساء اكتشف انهن لم يكن جميلات وفي الحقيقة كن قبحات مع الملابس القروية ومع العباءات والحجاب. طرأت إلى ذهني فكرة انه ربما سوف يطلب منا الصلاة، يجب أن لا نناقش ويتحتم علينا لالتزام بالامر. مرت ايام طويلة لم نخرج فيها من الملجأ. السجائر نفدت فأضطررنا أن نلف التبغ بورق مجلات وجرائد. كان طعم السجائر الجديد حادا وقاتلا، لكنا استعملناه بشئ من السعادة. لم تعد الاذاعات تهتم بنا.

مر أكثر من ثلاثين يوما ونحن هنا، في هذا المستنقع. حاولت البحث عن هاتف لاتصل بزوجتي واسألها عن الحمل، لكن لا خطوط هاتفية تعمل. يوما بعد يوم كانت تتقطع وسائل الاتصال بالعالم. معنا في الملجأ حسنين المصري. علمنا كيف نصنع الطعمية من الباقلاء المزروعة خارج الملجأ.

في الصباح كانت بعض النسوة يخبزن الخبز داخل براميل متروكة. طعم الخبز كان لاذعا لكنه خبز على اية حال. كانوا يحصلون على الحطب من بقايا ونفايات الشركات الاجنبية التي غادرت المكان من امد بعيد.

بدأت اذهب إلى الشقة بين الحين والاخر، من حسن الحظ أن الملجأ كان قريباً من الشقة، في الحقيقة لا يبعد إلا عشرة امتار أو أكثر قليلا. كلما ادخل الشقة اطمئن على بعض الطعام الجاف الذي وزعته القيادة قبل الحرب. عندما أجد كمية الرز ذاتها ولم تسرق أشعر بالراحة. بعد أن اطمئن على الغذاء، اتسلل مثل قط إلى غرفة الكتابة. أتلمس الكتب الجميلة وادخن بشراهة، ثم اتمدد على الاريكة ممسكا كتاباً ومحلقا في سماوات من الارتخاء والنشوة اللذيذة. اخترت في ذلك اليوم أحد كتب لطفية الدليمي وقررت أن انهيه في ليلة واحدة.

****

سكون عميق يلف المكان. سكون لا تعكره الطيور الغريبة. اليوم دهشت عندما لاحظت طائر السنونو وهو يحاول أن يبني عشا صغيراً بالقرب من نافذة غرفة الكتابة. السكون الجميل والمذهل، جعلني أشعر باطمئنان غريب واحساس باسترخاء جلب إلى نفسي ذكريات الجامعة وما قبل الحرب. انهض والاحظ النافذة ثم أشعر بوخزات قلبية رقيقة.

من هذه النافذة كنت اتلصص على شباك الشقة المقابل لنا. في المساءات على وجه التحديد كنت امضي ساعات وأنا اختلس النظر إلى امرأة. مذهلة، شفافة. غالباً ما كنت استقرأ جسدها العاري وهو يخرج من الحمام. كنت اذوب مثل قطعة سكر وأنا اشاهد انثيالها البرمائي والشبق الجنسي يلفني بعبائته المظلمة. كنت اطفأ النور وانظر إلى شعرها ووجهها.

في بعض الاحيان المح طريقتها في تنظيف الأرضية. كانت اجمل

وهي طور الانحناء. انتبهت إلى أن هذه المرأة لم تكن معنا في الملجأ. انشغلت وقتا طويلا وأنا ابحث بعينين متوقدتين عنها. في النهاية عرفت أن زوجها ارسلها إلى كركوك.

بعد الاسابيع الطويلة التي قضيناها في الملجأ وبعد أن ضربت المنشأة المجاورة لنا. شعرت انه من الممكن أن أعود إلى الشقة. في الحقيقة لم يعد هناك شيء يستحق القصف. حملت بطانيتي وذهبت إلى الشقة. عمي وجدتي هم أيضاً شعروا بالملل من وجودهم في الملجأ. جدتي قالت إن النوم على الأرض حطم عظامها. توسلتها أن تبقى. لم توافق ولم استطع مقاومتها.

جمعت بطانياتنا وبطانية عمي المليئة بالبول وغادرنا. احتفظ في الشقة بخزين من الماء، اذ ملأت (البانيو) وبعض (الجليكانات). رائحة الماء كانت عفنة. صنعت لنا جدتي حساء العدس وشعرت لاول مرة منذ أكثر من اربعة اسابيع أني اعيش وأن الحياة مع الجوع كفر. التهمت الصحن بأكمله وطلبت المزيد. جدتي برغم تبرمها سعيدة.

اشعلنا بعض الفحم على المنقلة واعددنا شايا. اضطررت أن افتح نوافذ الشقة لخروج غاز الكربون القاتل. مع البرد تدثرنا بالبطانيات ومنقلة الفحم أمامنا. بعد وجبة الطعام، غفوت واخذت أشعر أني انزلق إلى ثقوب بعيدة من خلال ممر طويل مليء بالورود والياسمين والابتسامات والضحكات الرقيقة والشفافة.

لم أكن نائما في الحقيقة واتضح انه نوع من الاسترخاء الحالم وبشكل دقيق، كان انزلاقا ذهنيا إلى مساحات من الحشائش والحدائق. الدماغ كان يلعب لعبة ذكية إلى حد ما. افقت وكانت الساعة العاشرة والنصف

وفيما أنا ابحث عن علبة ثقاب السجائر، صعقت وانقذفت إلى الجدار بعنف. الاصوات كانت مرتفعة جداً، جنونية. المجمع يقصف ونظرت على عجل من النافذة. بهرتني الانفجارات وهي تلتهم كل شئ. صرخت بارتعاب وقلبي يخفق بسرعة. أين أنت ياجدتي؟. أين أنت ياعمي؟. لم اسمع اصواتهم. الأشياء أمامي سوداء ونار القصف الشيطانية تضيء الشقة بين اللحظة والاخرى.

تسللت هلعا إلى غرفة عمي وجدتي. وجدتهم على سرير واحد. اخذتهم مثل أطفال ونزلنا السلم بسرعة. جدتي لم تكن تشاهد شيئاً وعمي تمدد على الأرض و كيس البول في يده، اللعاب يجف في فمي. قلت صارخا، بضراعة. لخاطر الله، انهض. انهض. ويتعثر وامسك يده وباليد الأخرى امسك كيس البول وننزل. نخرج من البناية. عيوننا مفتوحة إلى الافق والانفجارات تتوالى بشدة غريبة. كنت اسمع الصراخ لكن لم أكن أعرف ماهيته. الضياع والخوف والابتئاس كان يغلف خطواتنا.

نتعثر خارج البناية بأشياء لم نتبينها. وجه عمي يتحول مع ضوء الانفجارات إلى اسود ورمادي وابيض واحمر مسود. الشرار يتصاعد أمامنا ونصل الملجأ ونجد البوابة مغلقة. اصوات الانفجارات تقترب. اضرب بقبضتي على الباب. جدتي تتمدد على الأرض لاهثة. أشعر أني تائه في دوامة من الاصوات والشرار والدخان والبرق والصعق.

بعد دقائق طويلة، تفتح بوابة الملجأ واسحل عمي واسنده إلى الجدار ثم أعود إلى جدتي وامسك اصبعها وذراعها واسحبها هي الاخرى. عمي يتمدد بجانب الجدار في القاعة الاولى وجدتي تحاول الحصول على الماء من حنفية الملجأ. الاصوات في الملجأ كانت غريبة.

لمحت في انشغالي وجوه ملتوية ووجوه ملهمة وعيون مرمدة وافواه تصرخ وتطلب العون من الله.

بعد دقائق يقتحم الملجأ شخص ويطلب متطوعين لانقاذ اناس حاصرهم القصف. اتبرع بنفسي ونخرج، بضعة شباب يتراكضون باتجاه الانفجارات. نصل في سواد غريب إلى بنايات محطمة ومشتعلة. ندخل عبر ابواب محطمة واقفاص عصافير ميتة واواني مبعثرة. نسمع في نهاية البناية صراخ مدو وطلب نجدة. القصف يتسارع وبين الدوي الهائل والمسود والمليء بألسنة حمراء غامقة، أجد طفل جريح. احمله بعصبية وأضعه على كتفي. يقول لي بصوت مبحوح انه مصاب بالسكري، جروحه سوف لا تلتئم. أصل بوابة الشقة. أجد شخص هناك. اناوله الجسد المخرب ثم اركض إلى الداخل مرة اخرى.

لا زال هناك انين متصل، لم اتبينه. امرأة بملابس النوم تحاول رفع الاغراض عن جسدها. اقترب منها. احملق في الظلمة المغيبة ثم امد كفي. تلتصق بيدي كف من خلال السواد. لم اتبين الملامح لكن الكف كانت معرقة وطرية. اسحب يدي بقبضة متقلصة وتنهض المرأة من خلال الغبار والسواد. اضع على صدرها العاري بطانية ممزقة ونخرج. أجد أحد الأصدقاء. اسلمه الجسد المائل إلى البياض وأعود مرة اخرى. لم يزل هناك صوت مبحوح يطلب النجدة. من نهاية الشقة المح وجها غريباً يتقدم ممسكا بعصا ومتلمسا الحائط. كانت هذه عجوز. اقترب منها وهي في حالة انبهار وجسدها يرتعش. التصق بها بقوة واحاول أن احملها لكن جسدي ضعيف. نسير بعد أن احطت كتفيها بصعوبة. نخرج إلى الشارع، تطلب العجوز نعالها. أقول لها انه ليس مهما. لكنها تتشبث بالفكرة. امددها على الأرض وأعود، من حسن الحظ أجد النعال

في بداية الشقة. أعود لها مرة اخرى، اضع النعال في قدميها. نسير بسرعة مرتبكة فيما الانفجارات، تكشف لي وجوها غريبة متنقلة بين الشقق وهي تحمل اغراضا وحاجيات.

نصل ملجأ لا على التعيين. الأرضيات مليئة بالدم. ليس هناك طبيب. نحاول استعمال خرق قماش ممزق ونلف الجرحى بطرق غريبة وبدائية ودون خبرة. اترك الملجأ واركض في الشوارع البهيمية. رائحة البارود والدخان تجتاح المجمع. اصوات الانفلاقات المرعبة تسير مثل وحش وتكتسح المساحات الفارغة بين البنايات. أصل الملجأ لاهثا. بعد أن اكتشف من خلال الضوء النازف من مصابيح صفراء كم اوغلت بالدم، أشعر بدوار وغثيان ويلازمني احساس عارم بالتقيوء. تنظر جدتي إلى وجهي بخوف واتمدد. تمسح جبيني المتعرق. ثم اسمع صوتها وهو يئن وحشرجات عمي ترتفع إلى حدود قصوى. أنظر إلى عمي ثم امسك يده فيما عينيه تحملق في السقف.

❊❊❊❊

الأحلام كانت تتمرد على الذهن والذهن يحلق بعيداً جداً. مثل طائر غريب ملون، ليس له اسم. كنت اطارد هذا الطائر وكلما اقترب منه تظهر بحور من الدم والصديد.

افق من غفوة الحلم ولم ازل أشعر أن امعائي تريد أن تهرب وتتساقط مثل علب صفيح. افتح عيني واجد جدتي تضع رأس عمي في حجرها. شعرت فجأة بشئ مخيف. لم تقل لي الأحلام شيئاً. كانت مجرد فوضى وانين متصل واصوات متحشرجة قادمة من مدن وخرائب

بعيدة. مدن غير مرئية. جدتي تنظر في عيني مباشرة واحاول أن انهض. تقول، مات. ثم تسكت ولا تريد جواباً من فمي الذي تقلص وتشنج مثلما يصاب المرء بسلاح كيمياوي. لم أشعر، أنا وهي برغبة في الكلام. بقينا ننظر إلى بعضنا بنظرات فارغة. عين عمي ملوثة بالغبار وثمة ارتجاج خفيف ينتقل من جسد جدتي اليه.

هذه المرة الاولى التي اجلس فيها قرب إنسان ميت. إنسان لم استطع أن اقدم له المساعدة الكافية. داهمني نوع خفيف من الخدر، تمدد إلى وجهي المائل وأنا أنظر إلى وجه عمي ثم اصابعي واقدامي. تفاهة الموت كانت أمامي. تساءلت لماذا نخاف من الموت لهذه الدرجة القصوى. شيء بامكاننا أن نمارسه بدقة غريبة وعجيبة. كنت مخبولا ومصاباً باليأس. يأس مذهل وملتاع. احساس بفقدان القدرة على الكلام. لم استطع أن اتحرك، شلل يضرب رأسي واضم اصابعي إلى وجهي. انفي يبرز من خلال الاصابع ودهشة مريرة تتلوى أمامي.

يا لسخافة الموت. بالرغم من الألم، نهضت وقلت لقائد الملجأ انه مات. هرع هذا ونظر إلى وجه عمي. يجب أن نسرع بدفنه، قال المسؤول. يجب أن نوفر له اولا الكفن، قلت. جدتي تنزوي إلى الحائط. ساذهب إلى الشقة باحثا عن اي قماش يصلح كفنا. د

اجلس في الشقة على الأرض. أشعر أني بحاجة إلى التأمل. منذ متى لم استطع أن احظى بوحدة تامة، فكرت. انه زمن بعيد جداً. الايام التي بدأت بالقصف، كانت مملوء بالنفايات والدنس. شعرت أني بحاجة إلى فنجان قهوة ساخنة وإلى الجلوس زمنا غير محدد بالدقائق والساعات.

فتشت عن علبة القهوة ووجدتها مختفية في عمق الجرار. اشعلت

فحما وسخنت القليل من الماء. القليل جداً في الحقيقة. كنت اشرب القهوة برغوة فائرة، برغبة مقيته في التذكر. هل تعرف مع مذاق القهوة أن الأشياء تتنائى؟. لم أعرف هذا من قبل لكني اكتشفه الآن. اكتشف مغنوليا ميتة على شرفة الشقة مغنوليا ماتت من امد بعيد. في هذا الجدب والارتخاص واللعنة المتولدة من الاشباح الهمجية التواقة إلى الموت. كنت مثل كلب يسحب ذنبه إلى الهاوية.

كنت اتحرك في الشقة تائها. بماذا سوف الفه. لا بد أن هناك قماشاً مخبأ في مكان ما. شعرت أني مدين بحياتي لهذا الشخص ولجدتي التي تشبه تنين كبير قادم من ممالك الادرينالين والغدد اللمفاوية. كنت احقد على ابي. احقد بشكل جذري وأنا اناور في الزمن والمذلة. سوف أجد القماش حتما. في مكان ما، سواء اكان بعيداً ام قريباً.

اجلس القرفصاء مثل عجوز جنوبية تبيع السمك الصغير على قارعة الطريق، ثم ادخل في دوامة الافكار. بهذه الاناقة الزائفة سوف اقتل كلبي الخاص، كلبي الذي يضع ذيله دائماً بين ساقيه من أجل التبول وتحطيم نفسه.

قبل ايام اكتشفت بطريق الصدفة أن قطة تركت صغارها من الجوع. الجوع كافر وفوضوي وعندما تضرب الاندروجينات السائل الفسفوري للجسم تهرب الحيوانات وتهرب الطيور وتهرب الافيال إلى الغابات.

كم كانت دهشتي عميقة حينما اكتشفت أني اتيه في دوامة من المشاعر المضطربة. مشاعر تنازع الألم ومشاعر تنازع الانطباعات الميتة للوحة خلو من التوقيع. أنظر إلى اصابعي. أنظر في المرأة إلى وجهي.

كنت اشيخ مترافقا مع الزمن. كم بقي من العمر لنعيش حياة جميلة؟. أنظر إلى السماء الغامقة، أنظر بحدية عجيبة إلى النجوم المتلالئة ثم اقارن هذا الفوران الهادئ للأشياء. في المملكة السماوية للرب. مع الصمت والموسيقى الانسيابية والملكوت. هناك يعيش كل شيء في صمت موسيقي وهنا على الأرض تنعق الغربان وتحول حياتنا ودموعنا واجسادنا إلى متاهات للدم. شعرت بحب غامر لله..

لم أجد في الشقة قطعة قماش ثم اتذكر الستائر البيضاء وارفعها والفها في كومة وانزل تاركا الدم في عيوني وفي مسارات الايام العصيبة والمرة. هل هناك ثمة لعنة تسير باتجاهنا. لعنة أكثر من هذا الوجع. أصل الملجأ وانفذ من الباب مثل كائن خرافي. أجد عمي أمامي. ليس هناك ماء يكفي لتغسيله. يا الهي. كمية الماء الموجودة لا تكاد تكفي الاخرين. الاخرون الذين ينامون على امل في حلم جميل. نخرج الجميع من القاعة الصغيرة ونبدأ طقس توراتي. الاضاءة الضعيفة في الملجأ ترسم على وجوهنا علامات الموت والدكنة والاصفرار.

بعد حس غريب يهيمن على المكان. يجئ البعض ويشترك في تكفين عمي؟ اية غمامة تمطر الآن. اي عواء قادم من المدن البعيدة. المدن غير المقدسة وهي تصرخ في الظلمة القاتلة. أنظر إلى الوجوه المهمومة والمنشغلة. لم اشترك في عملية التكفين. كانوا أمامي مثل غابة محروقة وهم يلفون الجسد بقماش الستارة. فاجأتنا الحرب وفاجأتنا الفاجعة نفسها. لم احسب حساباً لموتانا. يا إلهي، تفقد الأشياء ملامحها بعجالة. ليس هناك ملامح نهائيا، فقط وجوه بأنوف معقوفة. أنوف صقرية وهي تنكب على القماش تقطعه.

ادخن سيجارة قدمها لي احدهم تضامنا، أشعر باستمتاع غريب.

قالوا لنصل عليه. وضعناه أمامنا.. ستون عاما قضاها على الكرة الأرضية ومات في الحرب، ضائعا. تألم كثيراً وكنت اشاهد المه وبعده الغيبي وحالة الانفراط الموجعة، لكني كنت اتمنى موته. تمنيته يجيء سريعا جداً، ليخلصه من الوجع ومن كيس البول الذي يحمله إلى كل مكان.

يرقد عمي أمامي في دهشة. وجهه متقلص. اسنانه بارزة. للموت دهشة قروسطية مخيفة. قبل أن يموت يكون شيئاً جميلا لكنه بعد الموت يتحول إلى خوف غريب. جثة ماتت فيها الأحلام والذهن والدنو من العاصفة. اردت أن اقبل قمة رأسه. اردت في الحقيقة أن اتشمم الموت. هل للموت رائحة خاصة؟ يأتيني احدهم بكيس صغير من القهوة وماءا ساخنا. أحاول صنع قهوة ثم انجح بعد محاولات.

طعم القهوة رائع، رغم انها تبدو بلا طعم لكن الاحساس بها كان عظيماً. بعد ساعات من البحث، حصل احدهم على بعض البنزين المخلوط بالنفط وغاز الطبخ. احمل الجثة على كتفي مثل لص يسرق الزمن ويخفي اثار الجريمة. جريمتنا نحن وجريمة الامريكان وهذه الحرب اللعينة. الحرب غير المبررة والتافهة. شاهدت نساء بدموع غافية في عواء المكان. بالتأكيد سوف اهجر هذا المكان، لكن إلى أين؟. إلى أين يمكن أن تحملني النواويس والطقوس غير الطبيعية لهذه اللعنة.

كنت اتشمم عراقيتي بدموع مقتولة. دموع تعبر عن الاحساس بالمرارة القتيلة والناعبة. اشاهد في وقفتي تلك، العيون المكروبة. العيون الهائمة، الدامعة، المشغولة بأشياء تافهة. عيون تنام على اضواء الفوانيس والاضاءة الضعيفة والدخان والسجائر والرطوبة والانثيال. كل امرأة في الملجأ كانت نواحاً مريراً. نواح افتقادها للبهجة والانوثة والرغبة.

كنت أنظر إلى النساء بعيون نائمة، غافية، قلقة. متوارية خلف الضباب الكثيف الذي يغطي الاشرعة الممزقة لحياتنا الهائمة. أفكر فيكن كلكن. كنت أقول وأنا أسير حاملا عمي على كتفي. امسك قدم عمي واخرج من الملجأ مثل سفينة قادمة من بحار المجهول.

في الخارج يقف احدهم بجانب سيارته. اضع عمي في حضني وننطلق في اتجاه غريب. اتجاه بلا وجهة. سادفنك، لا تقلق. كل الأشياء تبدو هادئة. لا طائرات في هذه الفسحة من الزمن. ننطلق بالسيارة إلى مقبرة سامراء. البرد يجعلني متقلصا وأنا محشور في السيارة القديمة. صاحبي ينظر إلى الطريق أمامه باندهاش شديد وكأنه غادر المدن من امد بعيد.

لماذا اتقلص إلى الحد الاقصى واتحول إلى علبة من الصفيح الفارغ؟ لم أعرف الجواب. أطلب من صاحبي التوقف للحظات، أشعر أني أريد تنفس الضباب والصمت. صمت ملهم والهواء البارد القادم على ما يبدو من سيبريا يمنحني اضافات عقلية يمكن لها أن تكبر وتكبر. انحشر مرة أخرى في السيارة. ارتعش من البرد واكاد اكسر عظامي واحدا بعد الاخر.

يقترح صاحبي أن نذهب إلى المستشفى لنأخذ شهادة وفاة. أنظر إلى وجهه ببهوت. وحدة غريبة تتلبسني وانسى مخارج الحروف والكلمات. الكلام لم يعد وسيلة السيمياء لحث العقل على التفكير. افتقد الاهتمام بكل شئ. لم تعد تهمني وسائل الحضارة. الحضارة نفسها لا تهمني. يهمني من هذا العالم، الشعور الجميل بالوحدة الكبيرة. التوحد في مأساوية حياتنا كعراقيين. قراءات طويلة في كتب الذات. قراءات مستمرة في كتاب كبير هو كتاب لطفية الدليمي وهو يشرح

شيخوختنا وموتنا. اتذوق الوحدة بملعقة غريبة. ليست هي العيدان الصينية. ليست أيضاً ملاعقنا الحالية، إنما ملاعق مجهولة ومكتشفة من الاثار القديمة لشعوب الهون والغال والنورماند والازتيك. اتوحد بشدة مع ذاتي. لا افهم.

يصرخ صاحبي بوجهي، وأتساءل، لم هو غاضب إلى هذه الدرجة فيما الوطن نثروه على موائد التقطيع والقتل. كنت أموت ميتات متتالية وأنا اشاهد الخراب الملعون. ابنية بكاملها سقطت نتيجة الانفجارات. لم يعد لي وطن بالمعنى الشائع للكلمة. كل شيء ينحدر نحو ماهيات مرتجلة ونهايات قائمة على احقية الموت والقتل.

نصل المستشفى ونبقى بانتظار الطبيب. في هذه الفسحة من الوقت، اضيع في النستالوجيا.. يصل الطبيب بعد انتظار ساعة كاملة ويفحص عين عمي. يسألني ما سبب موته واشرح له بارتباك انه مريض بالبروستاتا. عين عمي لم تغلق. كان متخشباً بالكامل. انها دهشة الموت، فكرت.

يحاول الطبيب أن يغلق عينه لكن الجفن يستعصي. مات في حالة تشنج كبير، يقول الدكتور. نأخذ شهادة الوفاة وننطلق إلى المقبرة. نجد قبراً مفتوحاً ومحفوراً مسبقا. ننزل في القبر ونخرمش باصابعنا التراب من أجل حفر لحد. تستمر محاولاتنا ساعات عدة، في النهاية نستطيع أن نحفر الشق. ننزل الجثة ونضعها في اللحد ونجد حصاة كبيرة نضعها اسفل الرأس. نهيل التراب باكفنا. في المقبرة صمت غريب. لم يكن هناك غيرنا. بعد انتهاء الدفن جلست أمام القبر في حالة من التفاهة.

❊❊❊❊

قال راديو مونت كارلو إن هناك جهودا تبذل ومساع لوقف النار.

مرة أخرى يتاجرون ببهاء موتنا. تغمرني بهجة قلقة. احدهم يتقدم مني فرحاً، يقول ستتوقف الحرب، ابتسم دون حب. يمنحني صحنا من الرز المفلفل وانظر مثل كلب فقد زمامه في زحمة الاصوات. الجميع فرح بالأخبار لكن في قلبي لوعة وبريق منطفئ. امنح صحن الرز لجدتي المتكومة مثل خرقة. تتناول بضعة لقيمات وهي تنظر إلى عيني مباشرة. أشعر بالجوع يسري للمرة الاولى داخل منظومة الاحاسيس واتناول من يدها الصحن والتهم الطعام برغبة شبه مقدسة.

لم تستمر الفرحة طويلا. لم تستمر الاصوات القلقة، أكثر عمقا وتبتلع الأخبار المحزنة شهوة التحليل والتوقع. الوساطة تفشل والحرب مستمرة والسوفيات لا يستطيعون مساعدتنا. كنا اموات نبحر إلى جهة النسيان. كرهت العالم بعد نشرة الأخبار. اربعون يوما أو يزيد من الكره اللاعقلي. من اللاحب ومقت العالم المتفرج. كم قتلتوا أيها الاغبياء. أيها الحمقى.

تقول الأخبار، انهم دمروا كل شئ. جربوا كل شئ. كل اسلحتهم الموبوءة بالوجع والعماء الكوني. مقدار القنابل التي افرغت على رؤوسنا ورؤوس الجيش تعادل عدة قنابل من حجم قنبلة هيروشيما وناكزاكي. اكرهكم. لكن أين الله في معمعمة الحرب؟. توصلت إلى أن الله يكره الحروب حتما وعندما نشبت هذه الحرب، غادر إلى عوالم الألم الخافق بالتنائي. تركنا وحدنا مع الكلاب المسعورة. تركنا بمفردنا ونحن نعاني من الكساح والرهبة والظلمة. تمنيت كثيراً لو كنا نحن يهود. ابناء عيسو ويعقوب. تمنيت أن يكون لنا نحن أيضاً موسى عظيم ينقذنا من نهش

الكلاب. يشق لنا البحر ويطعمنا من رحيق الصحراء العاوية.

لكننا لسنا يهودا. لسنا من ابناء يعقوب، إنما ابناء اسماعيل. الابناء العصاة والمضطربة عظامهم في هذا الوجع. كانوا يقصفونا بحرقة تشبه حرقة التبول الكلي في مرحاض الوقت الضائع. في شهوة طازجة غير مريحة ورائحة الموت تذوب في سوائل اجسادنا. نحن ابناء الجارية الذين نموت كل يوم في بدائية الأوجاع. كل الكره المحتشد في هذا العالم افرغوه على رؤوسنا.

مساكين نحن والقائد مختف في أماكن مختلفة. أين أنت يا صدام؟. كم هو مؤلم أن تشاهد الوطن وقد تحول إلى خراب رهيب. خراب موجع ومثير للسخرية ومدعاة للبكاء. اردنا أن نحيا مثل الاخرين وكنت تريدنا أن نعبر بحار الرمال إلى شهوة الزمن الجميل، لكنهم قتلوا أحلامنا. قالوا انهم سوف يرجعونا، إلى الزمن ما قبل الصناعي. العودة إلى البدائية. العودة إلى الذباب والجوع والعري والامراض. كانوا يريدون اذلالنا، اذلالك وتحطيم حبك. اشفق عليك. اشفق على نفسي وانفسنا معك. اشفق على مكتباتنا وكتبنا وأحلامنا بأن نكون اقوياء ونقتل الذئب البري الذي نشأ بين ظهرانينا.

اتقدم منك لاعزيك في الوطن. كل وطن وانت بالف الف خير. وكل حلم وأنا بألف الف بهجة قتيلة. بنيته صخرة صخرة. بكيته دمعة اثر دمعة. نزفته دما بعد دم. أعرف انك تبكي الآن. أعرف ما يشكله الوطن لك وانت الاب ونحن ابناء الظلمة الوحشية في عالم الرجال الغرباء.

مؤلم جداً أن ترى الوطن يذاب في سائل القصف. كل عمرك الذي

صرمته في البناء، قتل، كل عمرك الذي صرمته في صنع الحب سرقته ثعالب الصحراء. أنا اصغر عضو في هذا المجتمع ومت من الحزن واللاحب فكيف أنت؟. بعض الذين جاؤوا من حضرتك الملائكية قالوا انك نمت على الأرض متنقلا بين البيوت والغدران والمساحات الشاسعة من الوطن. قالوا لنا انك كنت تقول، لا تحزنوا، سنبنيه مرة أخرى اجمل من السابق. كيف يحدث هذا؟. هناك علاقة بيننا وبين ما دمر. كل تكويننا الفسيولوجي مكون من الحب. كل حجر دمر ليس حجراً وليس طابوقا وليس ماكنة فحسب، إنما عيوننا واضلاعنا. كل صخرة هوت تعني أحلام نائمة في موجات البحر الحبي. تعني مساراً راديكاليا بين الاضاءة وشهوة التشهي. كل بناية دمرت، كانت تعني سفح الجنون ومتلازمة الانصهار ومزيدا من الشجن. كنا نجن، نشجن، نتباكى. ننثال. نتهاوى. كل قنبلة تسقط على أرض ابراهيم، كانت تعني مزيدا من الوجع الذي سيمتد إلى الاف الاف السنين.

هكذا نحن، الف واربعمائة عام نبكي الحسين. نبكيه كل ساعة وكل دقيقة وكل عبث وكل اضطرام. نبكيه وكأنه قتل اليوم ولم ننس آلامه وأوجاعه ولم ننس أطفاله الذين شردتهم متواليات قريش.. كل دقيقة ينزف المذياع أخباراً موحشة. قتلوا كل الفرقة العاشرة. حطموا الفيلق الثاني. الحرس الجمهوري لا زال صامدا. أين يصمد ابناء الخايبة تحت سماء من القنابل والكلاب والالهة والرعب والدهشة واللؤم. اكرههم حد اللعنة. اكرههم لانه لم يبق لدي خزين من الحب. كلهم يحاصرونا. من الشرق والغرب والشمال والجنوب، من الاسفل والاعلى.

يا رب انقذ السلاحف البرية والورود في بستان عائشة وفاطمة.

انسف ثأليلهم واحدة بعد الأخرى وقشرهم كما يقشر حلاق صلعة احدهم.

كنا بحاجة مميتة إلى المهدي. كنا نريده أن يخرج من سردابه الايوني ويطلق عليهم الرصاص والقنابل والنبال والكاربون المستنزف. سحر الله الغريب والمدمر. اشعر بابتئاس غريب. ابتئاس مدمر وأنا اشاهد الكل يتخلى عنا. نحن المساكين. هل يعقل أن تدمر بابل كلها من أجل شيء نكرة. غفرانك يا الله، يا جبرائيل، غفرانك يا مردوخ. مردوخ الذي اهرب اليه بعد أن تصحر كل شئ، إلى الفشل والفشل في الحب والدورة الدموية المجروحة على يرقات زهرة ليلك أو قرنفلة في حديقة لطفية الدليمي.

فكرت بهم كلهم. كنت أموت وأنا اتذكر تعريشة العنب في حديقة نهى الراضي وبنفسجات وأشواك أشجار الجوري في حديقة عبد الستار ناصر والدفلة في بيت عريان السيد خلف – الموت هو استحقاق الحقيقة – مثل الذاكرة المحايدة.

لا، ابصق واتفل عليكم أيها المناويك. ابصق بصقات فم متيبس ولا أعرف كيف واتتني الشجاعة وأنا ادخل هذا النفق الرهيب، نفق الظلمة الحالكة حيث لا الله ولا ملائكته ولا الشياطين. اتقدس باسم اينانا وعشتار. اتقدس في مدن المرائي الخيالية على نهر الفرات، بالقرب من صحراء حياتي الشحيحة بالكافور وجفولة الزهر المتلجلج برضاب الباكرات حينما تلمسها ايادي الجبناء..

ثلاثون دولة يا قواويد، يا مناويك. انها خرافة العصر الدنس في شحيح صراعاتنا. من كل العالم جاءوا ليقتلوا براعم حسن النواب

ويفتتوا سكر جان دمو. جان الذي سلبوه نياشين السكر والوطن وقذفوه في وجه الهة النار. مسكين جان دمو، أين ضعت في وسط هذا الكره القيمومي لحبنا. من سوف يسلفك بعد الآن ثمن كأس مترعة من عرق بعشيقة ومرحاض لدفن النكرات. ماتت البارات وماتت الازاهير وماتت زهرة السوسن والغاردينا والليك.. لاول مرة أشعر بالتعاطف مع النمرود. لاول مرة أشعر بالحب نحو تسلسلنا التاريخي الممتد لاربعة الف عام من الحروب والانحطاط والحروب المضادة.

أنظر إلى النساء في القاعة الضعيفة الاضاءة واشاهد بعد أكثر من ثلاثين ليلة مشتركة، اثداءهن. بحكم التقارب والتلاصق والاندثار المعرفي وتلاحق المصير. صارت النساء ترضع الأطفال أمام عيوننا. شاهدت الوزغ والتبعثر والانحطاط الميسمي والافول والاثداء الخاوية. اثداء سمراء خالية من الحليب والمتعة والارتعاش. حلمات صغيرة تشيئت واستحالت إلى خرق بالية. كنت احلم بجوع الاندثار. بجوع الترانيم وتذكرت عيسى وسرجون الاكدي وموسى، حينما وضعتهم امهاتهم في سلة مطلية بالقار وطافوا فوق المياه.

الماء دائماً، الماء أبداً. تلك المخيلة الرافدينية المذهلة وترانيم القس والصابئة باعياد البرونايا. كم اذهلني وجهك ورقيك وسحرك. كم الفتني انزح السواقي وامتح الطيور، في الغبش البارد لشباط ات من مسافات الصحراء حيث مضائق البحار. نتح في وسط الليل ومتح في غرانيق العلى المبيتية على كعبات كينوناتنا.

كنت اهجسك مثل البرد القارص، مثل الاخيلة وأنا أسافر في أرضك العراقية. وطن مصنوع من بقايا العقول والمرارة واللهب والبرد. حتى شتائك دافئ وحتى قشعريرة بردك انية مصنوعة من الدانتيلا

والقرفة. قرفة حياتي. وقرفة السنون العجاف التي نمخر فيها مثل ربابنة اضنتهم العاصفة واتعبهم الهدير. لن يكن هناك إلا هديرك. انصت إلى الثكالى واليتامى والدراويش. يسحرني الحلاج وابن مسكوية والدارقطني. تسحرني تأملات المدن الغارقة في الضباب عندما يصل قطاري. قطار الساعة التاسعة للبطحاء فأتمارى في المدن الشهوة. المدن الليلك وبائعات الروبة واللبن المخفوق. كنت اشرب اللبن تيمنا بمحمد العراقي في مساره السماوي، ارخو على الأرض مثل طائر مسحور. مثل قطة مبللة بماء السماء وازاهير البرد وقرصات اللوعة المسلوقة على دخان القطارات.

لم أعرف كم احب الله هذا الوطن. كم اخرج منه من شعوب وحضارات وافكار. منه خرج ابراهيم و العبرانيون ومنه خرجت قريش ومن قريش خرج محمد وعلي.

البرد لا يدمرني، وهل يدمر الوطن، الابناء، الأطفال، الرجال، المخيلة، الارهاق، الجنوح، التقلص، الاضطراب، التشيوء، الانحلال. كنت مثل سندباد المدن البعيدة. مثل سندباد ياكل الهندباء على بوابات الوطن والوطن لا يفتح ذراعيه للمهلوسين من امثالي.

كنت فقيراً ونزاحاً في مرحاض الرغبة المتتالية البعد. نزاح كبير ينزح غائط الوطن وما اجمله. كل دربونة، كل طرقات، كل انزياح، كل ثاليل. كل دماء. كل نزيف، كل شهوة متأخرة. كنت اهرع إليك وبك ومنك، والى ملامسك القطنية، حيث تدثرني بالبهاء وتنزع عني هدير الامواج العالية وتقول لي. نم أيها العصفور المغادر المدن البعيدة والقادم مثل سفينة محطمة إلى بريق الامومة الخاشع. كم احببتك؟. كم تواريت خلف ضوءك القادم من اعماق الجنائن العلوية في مساءات الجن

وطرقات المتصوفة العذبة وهم يشربون من ضفاف دجلة.

كنت اخاف حتى أن أسير في الشوارع. اخاف أن أسير في شارع الرشيد والحيدرخانة وأن اجلس إلى بائعات الهوى في محلة (أبو السفين)، لأن كل شيء مقدس في هذه الأرض. كل بقعة في العراق متخمة، مملوءة. مترعة. غارقة في تاريخ مائل وتاريخ خفي وتاريخ معاصر. كل بوصة من الأرض في العراق لها عمق تكويني هائل وبلابل وطيور موشاة بالجواهر. كل قطعة أرض سار عليها الحلاج والدارقطني وابن ماجة والفراهيدي وابن رشد والسقطي البغدادي ونهى الراضي وبتول الخضيري وعلي السوداني وعلي بدر وخضير ميري، وعالية ممدوح وبثينة الناصري وحكمت الحاج وياسين النصير واحمد خلف. خضير ميري المجنح بطوق الحمامة. وعالية ممدوح في رائحة النفتالين التي احبها وتذكرني بتبولي في بنطلوني اثناء درس الحساب. الهجرات الوثنية ونحن نحمل الالهة إلى السفاد الموسمي للطيور. حيوانات عاقة في الحروب الهمجية والتعرجات المرجانية لبهاء موتنا. قداس للموتى وصلاة محمدية للنائمين وفي افواههم ملاعق الذهب.

انكر الابتسامة الاولى والثانية وفحيح الافاعي يرميني إلى تدفقات الانهار والغجر واستيلاء هولاكو على منابع الانهار. اغرق إلى الأبد في لجة من الطين. اغرق في السبخ والملح وحروب الشهوات المجنونة. كلهم ضدنا، نحن الممسوسين بحب لطفية الدليمي وغائب طعمة فرمان وموسى كريدي وعبد الستار ناصر ومحمد خضير ولميعة عباس عمار وجليل القيس وليلى العطار - ذات الانوار - وحياة شرارة وعاتكة الخزرجي والسياب وابن جني ورياض ابراهيم وفؤاد التكرلي ونازك الملائكة وبدري حسون فريد ومقداد عبد الرضا ويوسف العاني وعذراً

اذا نسيت الكثير ولم اذكر إلا القليل القليل.

❊❊❊❊

يقول الرئيس إننا ننتظر الحرب البرية. كذب. بماذا سوف يحارب وهو لا يملك طائرات. الافضل أن ينسحب. هناك جنون يوشك أن ينفجر أو انه انفجر بشكل مخيف. البلد كله يحترق. بعض الجنود من اقرباء الرجال في الملجأ حصلوا على اجازات وهم لا يستطيعون العودة الآن. يقولون إن نصف الجيش هرب. بماذا سوف تحارب سيدي الرئيس.

كل مراكز الاتصالات ضربت. كل المصانع والبنية التحتية. الجسور، الطرقات، مصافي النفط. المصانع. المعسكرات. دورات المياه. كل الارث الاقتصادي الذي ورثناه من اسلافنا، احترق. كل التراكم المعماري والاقتصادي دمر. لم يبق هناك شيء نعيش به في الايام القادمة.

الجنود يقولون إن الوضع في الجبهة أكثر سوءا من هنا. البصرة تحملت أكثر القصف عنفا. البصرة المسكينة كتب عليها أن تشهد كل الحروب الغبية في هذا العصر. فكرت في المانيا في الحرب العالمية الثانية. الحلفاء نفذوا مشروع مارشال لبناء المانيا. لكن نحن من الذي سوف يساعدنا.

الجنود يقولون إن الدولة اختفت في المناطق الجنوبية من العراق. لم تعد هناك دولة. الناس هناك تائهة ولا تعرف شيئاً. لا ماء ولا كهرباء ولا اذاعة اوتلفاز ثم لا سجائر. عدنا إلى العصر الحجري والحمير والبغال. أصبحنا نلف التبغ في ورق الدفاتر المدرسية وتحترق افواهنا

من التركيز العالي للقطران والنيكوتين. تبغ سيء للغاية لكنه يمنحنا نوعاً من الاسترخاء والقدرة على تحليل الأخبار. كلنا تحولنا إلى محللين عسكريين وسياسيين.

الف سيجارة واتمدد قرب الجمرات التي اشعلتها وناظراً إلى السقف. بعد ذلك انهض وادخل إلى غرفة المكتبة. فكرت انه لو ضربت الشقة فإن الكتب سوف افقدها إلى الأبد. لم اهتم باغراض الشقة. ما يهمني فعلا هو الكتب. أكثر من عشرين عاما وأنا اجمعها، مثل نملة تنقل إلى وكرها كل يوم حبة من القمح. هل يمكن أن افقدها؟ تساءلت وشعرت باكتئاب حاد يخنقني.

فيما أنا اخرج من الغرفة سمعت طرقا باهتا على الباب. خفت أن يكون الصوت قادم من الوهم. توقفت في منتصف الشقة. مرة أخرى سمعت الطرقات. هذه المرة كان اقوى. اقوى بعشرات المرات. بلهفة متسارعة تقدمت. بخطى مرتبكة تحركت. مددت يدي إلى اكرة الباب ثم فجأة اشاهد ام عباس تقف ازائي ملتفعة بعباءتها.

الصدمة جعلتني اقف مشدوها. نظراتها كانت متحدية، شبقة. عيونها تكشف عن هوس غريب بأشياء غير مفهومة. انزلقت بسرعة إلى الداخل. رمت عباءتها إلى الأرض. قالت إنها شاهدتني وأنا اخرج من الملجأ. لم استطع التكلم. كانت تثرثر بأشياء غير واضحة. لم اسمع شيئاً محددا. شاهدتني من خلال القاعة التي تعيش فيها ومن خلال صراخ الأطفال. تركت أطفالها عند احداهن وجاءت.

كانت قلقة علي على نحو مشوش بعد أن شاهدت عمي وهو يموت في الملجأ. لم تستطع أن تأتي لتعزيني خوفا من القيل والقال.

قرفصت قربها مثل إنسان بائس. قالت وهي تمسكه، انها تريده. وضعت ابريق الشاي على النار فيما هي تمددت ورفعت ثوبها. اقتربت منها وتشممت رائحة الكيروسين والدخان واحماض تترشح من ابطها. لم أشعر بالرغبة في مضاجعتها، لكنها توسلت. امسكت بيدي وقبلتها. انهينا لعبتنا المرة واللاذعة وسط ركام الحروب والدخان والهواجس القتيلة. انهينا لعبتنا الفسلجية وسوائلي المنفوحة في فرجها تفوح بعطر الخدر.

لاول مرة اشاهد امرأة تشبه امومة الأرض فيما السائل المنوي يسيح على افخاذها.. قذفت مرات متتالية وكانت تبتلع الحيمن مثل أرض عطشى. أرض ملتهبة. الانوثة شيء مذهل، شيء غريب حقا. فكرت في لحظات مجهولة الاثر، اننا لسنا بحاجة إلى الحروب فقط، لكن إلى بعض الحب أيضاً. هل اسميه حب. هناك رغبة جنسية وطاقة جهنمية على التماثل الجسدي. لكن هل هذا هو الحب؟ هل هو الرغبة في امتصاص الفرج وشعث الطريق وشعر العانة الذي يغيب الألم فوق ترددات الذات المتأرجحة. قدرة على الضديات، قدرة تمتلك نواح طويل في ليل مجنح بمداريات الخشونة والعوز المناعي. رغم الخوف والجنون والهستريا. لم أفكر في انها امرأة عاهرة، قحبة، تريد ممارسة الجنس فقط. كنت اتفهم التكوين المنصرم للجسد وثورته. اتفهم على نحو واضح الرغبة المتعطشة في تشكيل عبادة متضادة مع الذات. اللهفة والانقطاع عن الحروب. تركنا الحرب للحظات. لدقائق. كانت مجرد دقائق خجولة. طيران بأجنحة موشاة بألم الرغبة القاتل والدموي.

لبست عباءتها وربطت الشعر. قماش ثوبها الاسود كانت ترتسم عليه صورة الجسد. في لحظة واحدة شعرت بقيامة الدينونة وانتهاء

السلام الكوني بعيداً عن جسدها المرن والمخيف. جسدها الغض والمتفجر بتكويناته السماوية. لم افهم الخطيئة بشكل صحيح. لكن هل هي فعلا خطيئة؟

****

القصف يستمر دون توقف. طائرات كثيرة تطير فوقنا. كل طائرة وضوء وخط من البخار والدخان، كان يعني يأسا متطابقا. هل سنبقى إلى النهاية نعيش الخيبة. نريد للمأساة أن تتجذر اكثر، تعيش اكثر. نوع من الاستحالة الذهنية تصدمنا بالواقع ومرارته الاسية. متى سوف يهجمون؟. متى سوف تتقدم جيوشهم ونعبر الضفة اليائسة إلى الضفة الاكثر بؤساً؟.

شعرت بعد أكثر من شهر من القصف. اننا أشبه بحيوانات. أشبه بغربان مبلولة، تجلس على اسلاك التلفون والكهرباء. كل الغربان جاءت ووقفت أمامي. الغربان فأل سيء دائماً. انقضى شهر كامل و خمسة ايام أخرى واخرى، لكن لم يبدأ القتال الأرضي بعد. ربما سوف يبقون يضربوننا بواسطة الطائرات حتى نستسلم.

الرئيس يقول في كل مناسبة إنه لن ينسحب. كيف هذا ثم إلى متى. نحن نجوع ونعرى. كل حياتنا تتحول إلى أشياء رمزية. الطعام شيء رمزي. الملابس بدأت بالتهرئ. توسخت، علاها سخام المدافئ والفوانيس الجامحة وهي تشتعل لتنير لنا العالم، على الاقل لبقعة صغيرة. أتساءل كيف سوف يحارب الجيش؟ هل سننتصر على امريكا وكل دول العالم. المانيا خسرت الحرب أمام امريكا وبريطانيا. المانيا القاعدة

الصناعية الاولى في العالم لكنها خسرت الحرب. هل نحن سننتصر بصواريخنا البائسة وثقافتنا الهزيلة المعتمدة على الابل والبعير وصواريخ محشوة بضروق الطيور.

يوما بعد يوم صرت أشعر اننا نتيه. نضيع في بحر غريب وواسع. لا، ليس بحراً، قل محيطا، قل صحراء بلا نهاية. قل فراغ كلي. قل خيبة امل كبيرة في ذاتنا. نحن مكشوفون لهم. اناس رائعون في حلبة رقص دائرية وهم يسوطوننا ونحن نرقص الحجلة. اي عار. اهتزاز الأشياء أمامي غدا كبيراً وغريباً وملتويا. لم اعد اقوى على النظر إلى نفسي. التحول إلى الحالة الحيوانية شيء غريب. في لحظات معينة قد تبدو دهوراً، تتحول إلى قرد يضحك البعض عليك. هكذا حولونا إلى قرود من أجل التسلية.

لكن ماذا تقول القيادة العظيمة. اننا ننتظرهم هناك في البصرة. ننتظر أن يظهروا لنذيقهم بأسنا وصواريخنا. خراء كلي. خراء اسود ينزل من امعائنا التي صارت تأكل الحنطة المخلوطة بأشياء غريبة. في النهاية نتحول إلى تيوس كبيرة تساق إلى المحرقة من أجل الالهة.

قبل بدء القصف الجوي، عرض تلفزيون بغداد مجموعة من رجال الدين، كانوا يصلون أمامنا ويدعون الله أن ينصرنا في الحرب. احدهم كان أكثر ترنما، أكثر الحاحاً على الله. كان يقول، ربي اجعل سهامهم في نحورهم، ويلهث ويتوسل ويشهق ويعربد. الحرب الآن، فكرت، بين ربهم وربنا. بين ربنا وكبير الالهة اليونانية والرومانية. عندما سمعت دعاء رجال الدين وهم يقسمون على الله أن ينصرنا في الحرب، عرفت مقدار الهزيمة. عرفت مقدار بؤسنا وقلة حيلتنا.

بعد رجال الدين ظهر القائد وهو يبتسم كعادته ويقول انهم عبيد الكومبيوتر. احسست بالتقيؤ وقتها. لم أكن أشعر بالهزيمة لكني كنت خائفا من رؤية غريبة للامور.كنت عصبيا جداً وضربت ابنتي وزوجتي. اشبعتهم ضرباً. مهووسا كنت وأشعر أني اقترب من الهاوية.

كيف يمكن للقائد أن يستخف بتكنولوجيا الغرب. وما نحن إلا بائسين، دولة من دول العالم الثالث التي تعيش على انتاج الغرب. قررنا التدخل في الكويت وعلينا أن نتحمل النتيجة، وها هي النتيجة. لا ماء ولا كهرباء ولا طعام ولا حياة ولا مواصلات ولا دولة. انتهى كل شيء تقريباً لكن القائد الذي لم يستطع التحدث إلى اذاعة عراقية بسبب الشلل، لا زال يقول إننا ننتصر.

ذهبت إلى بغداد. اردت أن اذهب إلى بعقوبة عبر بغداد. كنت أشعر أني أريد أن اتحدث مع اي شخص. الرجال في الملجأ الذي اعيش فيه كجرذ، متوقفون عن الكلام. يشبهون القطط الاليفة والمروضة. كلهم يخافون. قواويد، لا زال الخوف سيدا لحياتنا رغم أن كل شيء تحطم.

في طريقي إلى بغداد، شاهدت محطة كهرباء سامراء المحطمة، شاهدت المرسلات الاذاعية والتلفازية وقد أصبحت هباء. طول الطريق إلى بغداد وأنا اشاهد الخراب الاسطوري والدموي. كل شيء تحول إلى حطام. التراكم الاقتصادي لشعبنا منذ عشرات السنين ذهب هباء.

في بغداد وفي مقهى حسن عجمي تحديدا لم اشاهد اي من الأصدقاء. كلهم مشغولون بأشياء تافهة أو مهمة، لا فرق. هنا تتساوى القيمة المعنوية مع القيمة المادية. عندما تصبح الأشياء كلها بلون

الخراب، تتحول الرؤية إلى مقطوعة موسيقة حزينة. الوجوه في بغداد غريبة. نافرة، مستفزة، سريعة. ثمة شيء غريب كان يتجول حول هذه الوجوه. اردت أن اصرخ بشكل يجعلني ابدو فيه حيوانا جريحاً. لا، ليس الصراخ هو ما يجعلني حيوانا، إنما هم. اتشنج وأقول زاما شفتي، انهم هم. هم الذين حولونا إلى حيوانات الفقمة الحزينة. حيوانات الفقمة التي تنعب مصيرها. دجاج وحيوانات برية لبونة. لقد روضونا بما فيه الكفاية. خضنا كل حروبهم. واحدة بعد الأخرى وفي النهاية ضحكوا علينا.

التقيت في حسن عجمي باحدهم. كان هارباً من الجبهة. حسنا فعلت، قلت له. يجب أن يشعروا بالهزيمة. فكرت باستغراب، لماذا أقول هذا. فجأة ينبجس أمامي كيس الخطايا. كيس مملوء بالترهات والاهانات التي وجهوها إلى وجهي وجسمي. لا زالت ضربات جهاز الأمن الخاص في معمل الادوية حاضرة بالرغم من الحرب وبالرغم من تقاسيم الانهيار الشاحب.

يقول صاحبي انه جاء الآن من مزرعة عدي. نقل إلى هناك شاحنة مليئة بالاطعمة والويسكي. عدي يسكر الآن فيما الطائرات تأكل اجسادنا ومستقبلنا.

عندما خرجنا من الحرب مع إيران غرقنا في ديون هائلة، مليارات كثيرة، ربما تربو على المائة. يتوجب الآن دفعها. كل طفل عراقي يولد سوف يتحمل اوتوماتيكيا ملايين الدولارات كدين. سوف نشحذ أمام ابواب العالم. لكن عدي، يشرب الويسكي ويأكل الكافيار ويستولي على اعراض الناس ويصرف الملايين. لا. لم أكن أريد أن أفكر في هذا. الوطن شيء وعدي شيء اخر. صاحبي كان يتكلم بحرية واضحة. كنت

اخشاه وشعرت أني أريد أن اهرب من أمامه. لم أكن أريد أن اسمع المزيد. أعرف، أعرف انهم يعتبرونا حيوانات تخدم مصالحهم فقط.

اترك صاحبي وامشي سيراً على الاقدام إلى الباب المعظم. انتظرت هناك اي واسطة نقل تنقلني إلى بعقوبة لكني فشلت. صعدت شاحنة نقلتني مع عشرات الجنود إلى ساحة النهضة. عندما وصلت فوجئت بالآلاف من الجنود نائمون في الشوارع. جنود مهلهة ثيابهم، ينامون فوق الارصفة. لم تكن هناك واسطة لنقلهم. تصورت أن الجيش العراقي كله تجمع هنا. الوجوه مائعة ومتقلصة. بائعات الشاي فقط اللاتي كن صاحيات وسط هذا الحس البوهيمي للأشياء. شعرت فجأة بالهزيمة. كل وجبة جنود قادمة كانت لا تعود إلى الجبهة. ترى كم بقي هناك. جلست لاشرب شايا يمنحني بعض الدفء.

الشاي كان سيئا للغاية، محروق وطعمه خراء، لكن الحرارة هي ما احتاجها. بين الجنود كان يدور احساس غريب، لم أعرفه. فقط أشعر به. شعور مزيج من الهوس والسأم والخوف. الخوف شيء غريب فعلا. وجوه الجنود كانت تحتفي بهذا الموت، تحتفي به وتهرب منه. العيون غريبة ونظرات فارغة ويائسة كانت تحيط غلالة الدموع المتساقطة بوهن مذهل. كنت اشرب الشاي وأتأمل المرآى السبيائي للناس.

اخذت الدنيا تمطر بقوة. التف الجنود حول ذواتهم، مثل ديدان تشعر بالرعب من قوة سماوية. الملابس الممزقة والمهلهة للجنود كانت تتحول إلى لون غامق شديد الدكنة. بائعات الشاي يلملمن اغراضهن بوهن. مع اول المطر فاحت الأرض برائحة العفونة والزناخة. أصبحت الرائحة لا تطاق. الازبال في كل مكان. حيوانات الجر تنكس رؤوسها اتقاءا للمطر.

يريد حسين كامل أن ينتصر. يريد أن ينتصر على الكومبيوترات، تفو عليكم ياباعر. احساسي بالفاجعة كان يزداد ومنظر الاوساخ في الشوارع والأطفال الممزقين الثياب والجنود يبعث في النفس الخوف.

وصلت بعقوبة منتصف الليل. وجدت الكثير من اقرباء الزوجة يحتلون البيت. هناك فانوس واحد للجميع. اذا اردت أن تذهب إلى المرحاض يتعين عليك أن تستلف شمعة وربع ابريق ماء. كل شيء مقنن. قال لي الاب، انه سمع أخباراً سيئة للغاية، انه قلق ويرتعش، ابنه الوحيد قرب الحدود الكويتية. يريد أن يذهب إلى هناك.نصحته أن لا يفعل. اقترح أن نذهب سوية، اصر. وافقت وخرجنا في الليلة ذاتها.

من بعقوبة إلى بغداد نقلتنا شاحنة مع بضعة طيارين. قالوا لنا انهم قادمون من ايران. سلموا طائراتنا إلى الحكومة الإيرانية وعادوا. فوضى شاملة. عيون الضباط كانت حزينة، بائسة، تتشمم اي اتصال ذهني مع الاخر لتبرر حالة تسليم الطائرات. من الصعب على الطيار والضابط أن يستسلم. ربما يفعلها الجندي العادي، لكن ليس الطيار الذي يسلم طائرته.

روى لنا الطيارون انهم كانوا يطلقون الرصاص والصورايخ على الطائرات الامريكية والبريطانية التي تلاحقهم لكن الصواريخ والرصاص لا ينطلق. تحولت الطائرة إلى شيء حديدي طائر فقط. لا اتصالات مع المركز ولا اتصالات مع بعضهم البعض. كانوا يطيرون مثل العميان، بلا توجيه.

شعرت بمعنى المعاناة التي كانوا يرزحون تحتها. لم استطع التكلم

طوال الرحلة مع اب زوجتي – عمي –. أين سيبحث هذا المأفون عن ابنه. القيمة التماسية للفعل الشاذ له هو مايطيح بوجداني. الوجدان. الكلمة التي نسيتها في ظل الخراب الشامل. دائماً في الطريق كنت أفكر بالقائد. أفكر بالاستحمار الفظيع لهذه الالية والكلمة المزيفة. كل شيء مزيف في هذا الوطن. كل شيء مزيف في هذه البقعة من الأرض. كلهم يكذبون بطرائق مختلفة. كنت أعرف انهم ينقلون له الآن صوراً زاهية. سيدي، فقط انتظر حتى تبدأ الحرب البرية وسوف نجعلهم يندمون. على ماذا يندمون يا مناويك؟ على البؤس المفضوح والعارم. على الرثاء الغريب والاكتئاب الطويل والمحنة والفقر.

قبل الوصول إلى البصرة، حيث من المفترض أن يكون اخ زوجتي هناك. شاهدنا عالما اخر. انه عالم الجنوب المسحوق. بالرغم من الخراب والفوضى والوساخة والازبال التي ملأت الشوارع في بغداد، إلا انها تبقى أكثر ترتيباً وربما أكثر نظافة من مدن الجنوب. جنود يفترشون الطرق كآبة حادة وضياع وفوانيس تفترش الطرقات وفوضى غريبة تطيح بكل شئ. لن تستطيع التحرك في هذه الفوضى. لن تستطيع التأمل وحتى ادراك المصير.

شاهدت عيونا ذابلة وعيون خائفة وجموع من البشر في حالة من العري الغريب. حالة تصورنا ونحن نعيش في القرون البدائية للبشرية حيث الجميع يأكل الجميع. عالم منقطع من مرحلة تاريخية تشبه مرحلة ماقبل الطوفان البابلي. الباعة في الشوارع والناس يسيرون على الازبال والاوساخ وروائح النتانة والمطر والطين والعباءات الملوثة ونساء كبيرات في السن و عيون متوفزة وخائفة. وجوه طويلة تلتحم بضوء الفوانيس وابتكارات الاضاءة الجديدة المتناسبة مع عصر ما قبل

الطوفان. كيف فقدنا الحكمة؟ كيف تركنا العالم. الأطفال في الشوارع والظلام في كل مكان وفي كل مكان وكل زاوية تشاهد الرجال وهم يتبلون والأطفال يتغوطون. الغائط في كل الارجاء. الروائح المميته والممزوجة بالمطر تنقع الجميع. شعرت بالألم لهذا الخراب. لهذه الحياة التي تعاش على حافة الزمن.

خرجت من البيوت كل اليات التخلف وكل وسائط النقل ما قبل العصر الصناعي. العصر البرونزي وعصر الحمير والبغال. مشهد بانورامي هائل مكون من جنود وعجائز وعباءات وطين وزمهرير وتيهان. فكرت. هل يمكن أن ننتصر بهذه الفوضى العجيبة.؟ هل يمكن أن ننتصر بهذا الخراب والاهمال والمجاري المتقيحة وانابيب المياه الاسنة والمتفجرة والحمير وباعة اللبلبي والباقلاء وجيوش الذباب الذي خرج حتى في اشهر الشتاء دون رادع. كل شيء يختلط، الألم على حال الناس هنا والألم على الانحدار نحو الهاوية التي ليس لها قرار.

شعرت. أني افضل حالا في محافظة صلاح الدين. افضل حالا لأن كل شيء مرتب هناك، ليس من اجلي طبعاً، إنما من أجل التكارتة والدوريين واهل العوجة الذين يعتبروننا ليس أكثر من حيوانات راقصة على صوت رصاصهم. شعرت بالكره من نفسي وبكره كل شئ، ضمنها طبعاً القيادة وضمنها طبعاً القائد الذي سلط على رقابنا أهل العوجة ليمارسوا علينا ساديتهم الفظيعة.

شعرت بالتضامن مع الفقراء. مع هؤلاء المنبوذين الابدين في تاريخنا العراقي القذر القائم على الاستلاب والعار وتصنيف البشر إلى معدان وشراكوه وابن حضر وابن بادية. كم نحن مغرمون في التقسيم. مغرمون في نفي الاخر حتى وأن كان هذا الاخر..... عار

شخصي وعار اجتماعي ومداخلات مجنونة في الاصول والعروق. مدن تموت من العطش والظلمة ومدن تعيش في بحبوبة الأشياء الجميلة، يا لتفاهة والظلم، تذكرت بحثي لشراء طباخ والتوسطات العجيبة للحصول عليه فيما أهل العوجة يغرقون في الأشياء المستوردة.

كل شيء كان لهم. كل شيء كان مصمم لاجلهم، حياتنا وقوانيننا ومؤسساتنا والدولة كلها لهم. كان اكبر قائد في الدولة من غير أهل العوجة يهان من اصغر جندي في حماية السيد الرئيس. لهم الحياة ولنا الموت واللعنة والجوع والكفر. يغمرني في هذه اللحظة. حزن عميق لاجل الاخر الذي تحمل الحروب الجهنمية، ثم ينتهي كل شيء بعد ذلك إلى هذا الوضع الاكثر حزنا والاكثر مأساوية. يجب أن نستمر إلى النهاية في دفع ثمن الجنون وثمن الغباء وثمن ابناء العوجة. إلى الأبد، في حقارة حياتنا وفي حقارة قيمتنا الإنسانية.كانوا مرضى نفسيين. كانوا رعاع الحضارة التي نغرق فيها.

في الطريق إلى البصرة مررنا بمدن عديدة، كلها كانت عبارة عن مشاهد من الدم والفوضى والخراب. طيلة الليل ونحن معلقين ننزل من شاحنة لنصعد شاحنة بصحبة الجنود والعجائز الذاهبات للبحث عن ابن أو اخ أو حفيد. كلهم ماتوا يا خالة. كلهم اكلتهم افواه أهل العوجة ونسيهم الزمن المر.

شاهدنا ونحن في الشاحنة الطائرات وهي فوق رؤوسنا. شاهدنا لا إنسانية الإنسان والمساكين الذين كانوا يموتون من أجل كذبة كبيرة في حياتنا. كذبة الحدود وتجاوز الكويت على حياتنا وحدودنا وسرقة النفط. هكذا كانوا يقولون. لا لم أفكر باي شيء عكس ما قالوا لنا. لكني أفكر الآن. أعرف نوعية الرجال الذي يحيطون بالرئيس، انهم عبارة عن

خريات بائتة. روث ابقار. حمير من النوعية التي تمتاز بالغباء الشامل. لا اثق بهم. لا احبهم، متعجرفون وسطحيون وكذابون. دائماً ينقلون الأشياء على نحو غير صحيح. أشعر أن الاكتئاب يغمرني حينما أفكر بهم. اكتئاب قوي ومدمر يجعلني اتقلص على نفسي مثل سنجاب صغير ومريض.

نصل إلى ضواحي البصرة واشاهد الخراب في كل مكان. الجو كان غارقا في الدخان والموت والسعار والتشيوء. اتحول إلى نوع غريب من الحيوانات الناطقة، ثم تدريجيا افقد القدرة على الحياة والكلام. الاصوات في ساحة سعد كانت تختلط مع صوت الطائرات.

أين يمكن أن نبحث. من أين يمكن لنا أن نبدأ؟ اوجه السؤال إلى عمي والاحظ تحوله إلى شيء متخشب ومتحجر. المح عيونه التائهة فقط وهي تسأل الجنود عن الوحدة كذا والوحدة كذا. لكن الجنود لا يجيبون. كانوا منهارين، تائهين، ضائعين، مشوشين، مكتئبين، لم يصدقوا انهم احياء، ومثل اثول أو صبي صغير، يتوسل عمي الجنود ويصرخ في وجوههم أين يقع اللواء الخامس؟ أين تقع سرية علي بن ابي طالب. فوج الواجبات الخاصة. نعم، نعم هل قلت في الأمام. هل استطيع الوصول إلى هناك. ابني اسمه عمر علي، طويل وتوجد على خده الايسر شامة. لا تعرفه؟. لماذا لا تعرفه وينهار ويبكي وتتلبسني حالة من الاحباط. هو على الأرض وأنا اتوسل وهو يقول، لماذا يا الله، لماذا فعلت بنا هذا، هل هي لعنة الملك الذي قتلناه أو لعنة الحسين الذي خذلناه. نحن كفرة، كفرة يالله لكننا تبنا. واتركه منهاراً إلى الأرض واسأل أنا. كم هي المسافة إلى الوحدة ٥٥٥٥.

اسئلة طويلة ومعقدة وكثيرة. كان علينا أن نتوسل بالجنود

القادمين من الصحراء ومن الكويت، ومن كل الامكنة. كان هناك الآف الجنود القادمين من الموت إلى الموت. جنود هاربون وجنود قادمون وجنود تائهون وجنود ينسلخون عن ملابسهم العسكرية. تقترب الطائرات منا لكنها لا تقصفنا ويحطمنا صوتها. شاهدت دخاناً اسوداً قادماً من الجنوب. دخان داكن ومخيف وعرفت من الجنود انهم فجروا ابار النفط.

اصيب عمي بالذعر. اردت انهاضه من الأرض لكنه استمر في النشيج ولطم راسه. في النهاية استطعت تحريكه. كنا نختنق وبدأت الاف جديدة من الجنود تزحف. الطائرات فوق رؤوسنا وكنا نسمع مئات الانفجارات والانفلاقات وتحول المشهد البانورامي إلى خيبة عظيمة من الألم. خيبة من الجوع والهروب الاسطوري. مئات الالاف من الجنود يبيعون بنادقهم لمشترين طارئين.

كنا نسير عكس التيارات الجارفة. شاحنات مملوءة بالجنود وشاحنات محطمة ودبابات مرمية عليى جوانب الطرقات. شعرت في لحظة الانغمار في الحدث، أني اضيع إلى الأبد في غابة سوداء فيها عواء طويل قادم من الاف الاشداق الحيوانية. تمسكت بكف عمي الذي اصابه العماء الوقتي ودموعه تنهمر. وجدت حفرة على جانب الطريق، ارتميت فيها وشاهدت عشرة جنود متفحمين. جلسنا قرب الجثث ورائحة الشوي لم تزل تفوح. وجوه مشقوقة ووجوه منقلبة واذرع مدماة وعيون شائهة وبطون ممزقة. فجأة شاهدت أمامي الموت في أكثر صورة مأساوية وتحطيما للذات.

من الحفرة كنت اشاهد الجنود وهم يهرولون ويتعلقون بشاحنات عابرة مملؤة حد التخمة بجنود قادمين من عمق الجبهة. قال لنا جنود

توسلوا بنا إن كنا نملك نقودا لتسليفهم أو شراء بنادقهم. أن انهياراً للجيش قد حصل والامريكان بدأوا الهجوم البري. اصبت بالذعر والتيهان. لم أكن أعرف أين يمكن لي أن اتوجه.

واصلت الاختباء مرغما وحينما وجدت أن السماء تحولت إلى كتلة من السواد والدخان خرجت واخذنا نسير باتجاه الشمال. كنا نهرول ساعة ونسير ساعات. فمنا تيبس تماما ولم تكن هناك من واسطة نقل. الجنود يصرخون وهم يسبون الرئيس. تجمع بضعة جنود واخذوا يصرخون إن كان اي شخص يملك ماء لاحدهم لانه يموت. لكن لم يسمعهم احد.

شاهدنا ونحن نسير مثقلين ومحطمين تماما باتجاه البصرة. بنادق في الطريق. بنادق بلا جنود وعشرات من الأطفال يجمعون ما يتساقط من القنابل والبنادق. شاهدنا جنودا يموتون من العطش وجنود جرحى يتألمون لكن لا أحد يسعفهم. كان مشهدا يشابه إلى حدود كبيرة مشهد القيامة. الدخان من كل الاتجاهات والدخان ينزل إلى الأرض نتيجة ثقله. عماء كبير. الهزيمة صعبة. صعبة إلى الدرجة التي تجعلنا نبكي.

كرهت صدام حسين. كرهت فيه هزيمتنا وموتنا وموت الالاف من الجنود نتيجة رعونته ورعونة أهل العوجة. شاهدنا ونحن نركض. جنودا اقعدهم التعب، رؤوسهم مجروحة واخرين بلا اقدام وافواههم مليئة بالذباب. شاهدنا الموت في أكثر حالات التشوه. موت بلا رحمة وموت بلا شفاعة وموت بلا قيمة. كان هناك ضباط أيضاً يصرخون بالجنود لكن الجنود لم يكونوا يعيرونهم أهمية. ضباط برتب عسكرية صغيرة نزعوا نجومهم وتوقفت قلوبهم عن الخفقان فتركوا على الأرض دون مراسيم موت واستشهاد.

وصلنا البصرة بعد ساعات من الهزيمة وشاهدنا شاحنات عسكرية تسير بسرعة وينطلق من فوقها الرصاص. الرصاص في كل الارجاء. رصاص لا على التعيين وبوهيمية غريبة. تتقدم الشاحنات من الجنود وتقطع طريق الهروب ويطلق الرصاص على الرؤوس والاجساد والعيون. سمعنا من الجنود أن هناك ثورة تتقدم من وسط البصرة. انتفاضة لجنود هتك شرفهم العسكري وخانتهم القيادة. اي قيادة يقصدون؟ وفهمنا أن الضباط الكبار هربوا وتركوا الجنود. كانوا يحاربون بلا هدف، يحاربون غولا قادما من المستقبل بأسلحة قادمة من عمق التاريخ.

كانت حرباً بين تخلفنا وبين حضارة استطاعت الوصول إلى القمر. قبل أن يهجم الجيش الامريكي كان كل شيء قد انتهى. انهته الطائرات التي مزقت الجنود والدبابات والمدفعية. مزقونا بشكل مرعب وتوراتي. شوهونا، حطمونا، ملخونا مثلما تملخ الذئاب فريستها. مساكين هم الجنود. كنت ابكي خيبة الامل. ابكي هزيمتنا واجساد الجنود الممزقة والمرمية للكلاب الجائعة وكل وحش بري اضناه الجوع. هناك الكثير من اللحم. لحم مشوي ولحم ممزق ولحم نيئ ولحم مفروم ولحم مائع ولحم ملوث ولحم طازج. لحم شيعي وسني ويزيدي ومسيحي وصابئي وسوراني وبادناني وزرادشتي واشوري وكلداني. كل اللحوم كانت معفرة بالتراب. كل اللحوم كانت تنزف على الأرض. على الأرض التي خلقنا من اجلها. على الأرض التي خلقنا في ارحامها. أرض من النكران والموت والتعب والارهاق والعطش والجوع.

باعونا الخبز بثمن البنادق. باعونا طاس الماء بسعر الرصاص. تراكض الجنود خلف الشاحنات التي ترمي الرصاص. كانوا يلعنون

القائد. يركضون ويهتفون بالموت. بالحياة. باختلاط الأشياء. أشياء كثيرة تفجرت في الصدور. خزين متأجج من النار والشهوة والرغبة في موت الاخر.. الجنود ينطلقون بملابسهم الممرغة بالتراب والطين والسخام وهم يجمعون الاخرين ويطلقون الرصاص على مقرات الحزب والمحافظة. تزداد الاعداد، تتضخم بالأطفال. بالنساء والشيوخ. كانوا ينفجرون بوجه الهزيمة المرة. تذكرت أني صليت في يوم ما طالباً من الله أن ينصرنا. أن ينصرنا في كل الاحوال والمآل. النصر باي ثمن، حتى لو متنا جميعا.

النصر اكبر أهمية من حياتنا البهيمية. النصر شيء مجنون ويعدل امزجتنا ويرفع العار من حياتنا. لكننا خسرنا. خسرنا وعشنا في عار شخصي واجتماعي. عار ليس له اول أو آخر. عار لسنا مسؤولين عنه، إنما مسؤول عنه الحمير في بغداد. الحمير وانصاف بشر غير متعلمين. حسين كامل سائق الدراجة النارية الذي أصبح وزيراً للدفاع وبقية المستشارين.، لا ادري لماذا كان القائد يستشير هؤلاء الناس. اي عار دفين كان يخرج. حسين كامل وعلي حسن المجيد وغيره من الحلقة الضيقة.

عراق بكل هذه الابهة والفخامة والقوة والجبروت والتاريخ يقوده سائق دراجة لا يستطيع كتابة حتى اسمه دون اخطاء. مصيرنا معلق بكلماتهم. مصيرنا معلق بين اسنان حسين كامل وصدام كامل وحجي عبد وبقية زمرة العوجة الهوجاء. الزمرة الغبية التي تقضي حياتها كل يوم بين افخاذ الكيولية – النور – والسكر ودعوات الغداء ونحر الذبائح والهمجية في التعامل مع الناس.

❋❋❋❋

اجفف دموعي ونسير في العماء.

نزحف على بطوننا ونحتمي بالجدران. أنا وعمي البائس الذي تحول إلى شيء هلامي. الناس في الشوارع، مع الجنود. الجميع يهتف بسقوط الرئيس. مجاميع البشر المكونة من الجنود والرجال والنساء والشيوخ والأطفال تهجم على البنايات الحكومية وتنهب كل شئ. نهب على مستوى الفضيحة. فيما الاجتياح المحتشد من الاف البشر يمزق كل شئ، كنا أنا وعمي نعيش نوعاً من النستالوجيا. نعيش نوعاً غائيا من الخطوط المتداخلة. اللونية والمتعرجة. حاولنا أن نعبر شوارع البصرة من أجل ايجاد مخبأ لنا.

اضعنا طرقاتنا في تلك الساعة ودخلنا إلى مستشفى في ظلمة دافقة. ظلمة كانت منارة بفوانيس عجائز وهن يقلبن عشرات الجثث الخالية من الهوية. اصابني ارتعاش حاسم. عظامي كانت تترقق وعيوني تذرف على شكل متلاحق، سائلا يشبه الدمع. حزنت وبكيت وأنا اشاهد ابناء وطني عبارة عن جثث. الموت الذي نؤمن به، يجب أن لا نؤمن به.

عيون النساء لامعة والفوانيس على الأرض وفي الايادي. مشهد قادم من ممالك الظلام البعيدة. أمام المستشفى توقفت العديد من السيارات. كنا نمشي بين الجثث. جثث تتصور بسببها أن العالم كله يموت أو مات الآن. لماذا نحب الموت إلى هذه الدرجة؟. ربما نحن الشعب الوحيد على الأرض الذي ينام مع موتاه. تتساوى لديه قوة الإنسانية مع عدمها. قوة الافراط مع قوة النفي. قوة الجبروت مع التصوف. وحدانية المبدأ مع الالسنية. العبث مع الشدة والاهتياج. قوتنا المهلكة أمام افراط الحب والكره. هناك تناغمات فظيعة. نحن لسنا

متناغمين. ولسنا منهكين. كلما افقدتنا الحروب نوعاً من الخصائص، نبرز بخصائص جديدة. نسير بين الفوانيس والاموات والنساء المتشحات بالسواد، مثل كل حياتنا العدمية واسباب ديمومتنا الحياتية.

لم ادهش وأنا أسير بين مئات الجثث. لم اعجب كوننا مكروهين وقادمين من أمكنة سرمدية ونتجه إلى الفناء الكلي. كنا نسير مثل الموت، مثل الزرنيخ والنورة الموشاة بأحابيل الضياء الهستيري.. كنا مثل قارب مشدود إلى وتد المعرفة المغيبة وكلانية الاستغراق. كلانية اشباه الرجال والوجوه والعظام المتقلصة والمكسورة. من يشرب من كأس البرد القاتل غير الغرانيق الشائهة في متاهتنا الذهنية. أشجار السرو العالية والمنتصبة بخوف في مستشفى البصرة والتي كانت تقرأ : موتى. موتى. مزيد من الانفعالات المضرجة بالخراء. اكاد اختنق أو اكاد اصاب بهلوسة الرؤيا الغيبية.

نحاول أن نتقدم، أنا وعمي، نحو لامكان. نقترب من الجثث، نقلبها مثل قطعة قماش بالية. الموتى يرقدون في ملكوت الدم والملابس الممزقة. عشرات الاشخاص ياتون من خارج المستشفى وهم يحملون جثث الجنود القتلى. جثث بلا اسماء واسماء بلا ملامح، وملامح بلا وجوه. كلهم قتلى. كلهم مزقتهم الطلقات الخارجة من اناس جاءوا من خارج الحدود، من إيران وبدأوا يقتلون الجنود المنسحبين إلى بيوتهم. قلبنا الجثث المكدسة ولما لم نجد ما نبحث عنه. تركنا المستشفى وصرنا نسير في الطرقات مثل مجانين مزقوا برزخ الوحدة المطلقة وتناءوا إلى المجهول.

شوارع البصرة مليئة بالجثث والكلاب السائبة. شاهدنا الضباع والثعالب وشاهدنا طيور الليل الموحش وهي تنعق في سماء اللؤم

والخبث والالتياع والألم. كل شارع تمر فيه ترى اكداسا من الموتى. اكداسا من اللاحب والكره واللعنة.

في الطريق إلى لا مكان حيث نتجه، شاهدنا شاحنات إيرانية صغيرة وهي تنقل نوعاً من الحيوانات البشرية. كانوا يطلقون نوعاً من السم المميت والقاتل بوجوه الذين اماتهم العالم أو اراد اماتتهم رغم هروبهم من أرض المعركة وتخلصهم من طائرات الامريكان. كانوا ينتشرون في كل الشوارع. احيانا بمجاميع واحيانا بمفردهم، جنود اخافهم الرعب والهبتهم المطاردات الجهنمية القادمة من السماء وعلى الأرض.

شوارع البصرة كانت تفوح بروائح المطر. المطر الاسود. لم نعرف أين يمكن لنا أن نتجه. سرنا إلى كراج النقل. لم تكن هناك غير سيارات عسكرية محترقة وجثث موزعة بشكل عبثي. احسست أني اقترب من النهاية. العالم برمته ينفلت نحو جحيم صارخ. جحيم فوضوي وحيث ارادة الله متناثرة ومبعثرة في الارجاء.

في لحظة من الانتعاش الذهني فكرت بالأطفال والارامل والمساكين. فكرت بكتلة الموت التي لا تريد نسياننا أبداً منذ العام ١٩٥٨ وربما قبلها، لكن حتما بعدها. فكرت بالجنون الذي يضرب حياتنا من كل الاتجاهات. فكرت بالحياة لأنها كانت تتحول إلى أشياء مندلقة من عالم الغيبة نحو عالم الاحتضار. مشهد الجنود والموتى والدماء والعيون الشاخصة ولد في روحي نوعاً من البله. نوعاً من اللانهاية لقدرات العقل المغيبة والمدفونة. شعرت بالكره لهذا العالم وتضامنت مع الموتى ضد الاحياء. كنت اتصور أن العالم كله يحبس انفاسه الآن.

عمي لم يستطع الصمود. بدأ ينهار ويتقيأ وهو يشاهد صراع الكلاب على الجثث والرصاص الايراني. شاهدنا معممين وهم يسحلون جنودا ويطلقون عليهم الرصاص.

تركنا الكراج واتجهنا إلى داخل البصرة. تذكر عمي انه يعرف أحد الأصدقاء هناك. كنا بحاجة إلى مكان امن. مكان ننزوي فيه ريثما تمر العاصفة. نسير وفي بعض الاحيان نهرول. عمي يحاول تذكر منزل الصديق. أنا افتش بنظري الشوارع الخالية إلا من المسلحين والقتلة والنهابين والسراق والحيوانات البرية المتوحشة. كانوا ينهشون الأرض، ينهشون كل شيء أمامهم ثم شاهدنا نساء يتم انتهاك اعراضهن وسط الهتافات الاسلامية والثورة الاسلامية والقتل الاسلامي. كانت النساء تصرخ وبعد الاغتصاب كانت توجه إلى رؤوسهن الطلقات. اطلاقات مريرة مليئة بحقد غريب ومجوف. حقد مبثوث في كل الامكنة كما في ثورة الزنج سابقا.

التاريخ كان يعيد نفسه بطريقة حقيرة، قذرة، ملهاة مدونة على الانفجارات الحيوانية للغرائز الميتة. لا تستطيع إلا أن تشعر بالعار، بالحقارة من الجنس البشري وهو يتحول إلى حيوان شره. حيوان لا يستطيع التوقف عن القتل. الحيوانات الجارحة والمتوحشة، تقتل لكنها تقتل مرة واحدة وبسرعة من أجل أن لا تتألم الضحية. الحيوانات البشرية أكثر شناعة، تعذب الضحية بكل الوسائل. ترفعها إلى التقديس ويتحول التعذيب إلى مخرج للغرائز الدفينة والمستورة بوجوه الدين والقذارة والإنسانية.

بصقت في كل الوجوه وبصقت اولا بوجهي، أنا الباحث عن جثة عوضا عن البحث عن الإنسان. نسيت في هول التوجس والخور

المعرفي، الابن الذي نبحث عنه. أصبح همنا أن نغادر إلى اي مكان، إلى اي جحيم، إلى اية مشرحة. كل جثة اشاهدها، كنت ابكيها. كنت ابكي عراقيتي العميقة والتي تجعلني لا استطيع النظر إلى موتانا بغير نظرة الحب القتيل واللاجدوى.

سرنا في طرقات البصرة وعندما خرجت بضعة من الشمس إلى المدار الاهليلجي لحياتنا استطعنا الوصول إلى بيت صديق عمي. طرقنا الباب بارتعاش وكنت أشعر بأني اطرق ابواب مغلقة إلى الأبد في دينونة العالم الميت.

تفتح الباب قليلا وأقول للمرأة التي ارى ربع وجهها وهو ينظر لي بعيون شائهة، جامدة، مرتبكة. نحن قادمون من بعقوبة لرؤية الحاج جمعة. وتختفي المرأة بعد أن تغلق الباب. بعد عشرة دقائق يخرج الحاج جمعة وهو غارق في الخوف والعته. ندخل البيت ونجلس على الأرض. نشرب الماء القليل وننهار.

نمنا في بيت الحاج يومين كاملين وحينما استيقظنا وجدنا انفسنا نغرق في ظلمة عميقة. جاء الحاج ومعه فانوس. جلسنا وتناولنا خبزا مصنوعا من الشعير واستكانة شاي. اخذ عمي يسرد لصديقه سبب مجيئه إلى البصرة وما شاهده أمامه في الطرقات والكراج واكداس الموتى. الحاج كان مرتبكا وخائفا.

اربعة ايام قضيناها في بيت الحاج، كانت نوعاً من البوهيميا والضياع الذاتي. احسسنا اننا مطاردون. الحاج كان ينظر دائماً من النافذة، تحديدا من زاوية، فيما الرصاص في الخارج يؤرجح ملكاتنا الذهنية. رجال دين بصحبة مسلحين كانوا يسيرون في الشوارع

بأسلحتهم الكاملة. كانوا يبحثون عبر قوائم سرية عن اسماء لتصفيتها. قتلوا جار الحاج واغتصبوا امرأته أمام اولادها. احسست أني أموت في تهويمات الزمن الخاطئ. الحاج كان يتقلص أمامنا. قال انهم يبحثون عن البعثيين. الأخبار كانت تاتينا عبر تسرب ابن الحاج الصغير إلى الشوارع والدماء. الايام كانت تمر ثقيلة، ميتة. بلا حياة، بلا روح سوى روح الوحشة والانبهار من الذات الإنسانية.. من الذاتية المفرطة وهي تغلي وتثور وتنزع باتجاه الخوف. كل ساعة ياتينا ابن الحاج بروايات غريبة وبشعة. قبل ساعة قتلوا مدير الناحية، بعد ساعة قطعوا البعثيين من الذين سقطوا أمامهم. بيوت تقتحم وحكايات تقشعر لها الابدان،

اغرق في نهاية اليوم باحواض من الماء الاسن والبرد. النفط في بيت الحاج نفد. فكرت في الله. في هذه الانحاء، في هذه المتاهة، في هذا البعد عن خواص المادة والروح، في الفيض الغامر من الكره والكره المتبادل، في هذه الغرائبية التي تنتشر بعيد كل صلاة يؤديها الحاج متضرعا.

مارست اقوى تأثير على نفسي من أن لا انهار من الخوف. انهار من المحاكم السريعة التي تقام في الخرابات وفي باحات الحسينيات والمراقد المقدسة وتقتل باسم عدالة نسبية. الارتجال في التطور الذاتي نحو القتل يتصاعد بوتيرة مباغتة. بوازع التعطش نحو الدم. الشهق به. شربه، الولوغ فيه. الفيضان من المشاعر المتوغلة في نهايات إنسانيتنا التي نسيناها بشكل عامد ومبرمج. لم اتصور اننا يمكن أن ننفلت من ذاتينا بهذا الشكل.

رجال الدين والاتباع يطبقون عدالة خاصة بهم. السيد واتباعه يطلقون الرصاص على الارجل ثم البطن ويتركون المصاب ينزف بكل

مقدار الألم الممضي والجهنمي. روح سادية عارمة تحرك الأشياء والذوات المتخفية بنوع من ذئبية مباحة. يهاجمني التقلص والقشعريرة وأنا اسمع الحكايات. قتلوا ايوم مائة بعثي بأن احرقوهم بماء النار.

في ساعات النوم القلقة، احلم بأني امسك واجرجر إلى السيد وهناك تمتد نحوي اياد كثيرة واذرع. واحدة تخنقني وواحدة تفقأ عيني وواحدة تلامس انفي وتجدعه. أسير في المدينة مثل كلب اجرب وما أن اهرب من التعذيب المر حتى يطلق علي الرصاص من كل الاتجاهات. لم أكن أموت، لكني كنت احلم بسعادة الروح وهي تفارق الألم وتتوجه نحو الرب الذي ينتظرني في نهاية الطريق اللاذع.

خرج ابن الحاج ولم يعد. الحاج، يولول. لم يستطع التنفس. احساسه بفقدان الابن دمره إلى النهاية القصوى. نقترح عليه أن نخرج للبحث عنه، رغم اننا لا نعرف المدينة. لكنه يرفض. انتم ضيوفي، يقول، عليكم أن لا تخرجوا من المنزل، من يعرف ما يمكن أن يحدث لكم. نقتنع بكلماته. يخرج هو بعد أن يصلي بعمق. كنت أشعر فعلا بالقلق تجاه ابنه. ابنه الصغير والذي هو اخر ما تبقى له في هذا العالم وبعد أن فقد كل ابناؤه في قادسية صدام.

يخرج إلى العدم، إلى الحياة المهانة. يخرج إلى التبعثر والاندثار والصدأ وفي نهاية خروجه إلى الوحشة يتأكل العالم أمام عيوننا. زوجة الحاج تبكي اخر الأشياء الجميلة في حياتها.. بعد ساعات مريرة يعود الحاج. الدهشة تفجرني. بين يديه ابنه. اللعنة. الحاج يشبه كتلة غريبة من اللحم المطهم. فمه مندلق وبين عينه أسى مبعثر لاغتراب كلي و تتفجر صرخة. صرخة عارمة جداً. نتراكض حفاة.

تنهمر آلام على الجسد. يحتضن الحاج وجه ابنه الذي لاكته ماكنة القتل والسيد والجنود والمسلحين المنفلتين في دوامة الهواء اللزج. شعرت بالعار من نفسي. شعرت بالخزي وأنا أنظر إلى الصغير ممدا بين يدي الأم التائهة في ضياع الوجدان واللغو والتماهي. كانت -الأم- تتماهى في جثة الابن. شعرت بالارتباك واللعنة، (برمزية الشر) بانفجار اللحظة الدونية. باشتهاء الريح حينما تسفك مياه الامطار والغيمات والتعريشات المجنونة. كنت مجنونا والتهم التراب. أرض من النسيان، أرض من هالات مبرقعة بالدم والشهوة والمناكفات.

الأم تنهمر على الأرض، أمام الجسد الغض، أمام بهجة التساؤل واللعنات وسموم شيطانية تهب من خلف الحدود. قتلوا الابن لأن عمه كان بعثيا. بعثيا بالفطرة وليس بالانتساب. روح فطرية تعبث بهامات الزمن وتستره وانبهاره وكونيته. أنظر إلى الابن المسجى في الباحة الخارجية وأشعر أن الزمن يتلكأ وهو يشير باتجاه الرياح المغادرة إلى الأبد. اردت فعلا أن اخرج وأن ارمي شباك الليل الطويل، مثل اله، على الخونة القادمين من خلف الحدود. اردت أن اخرج فعلا لكن عمي لم يسمح لي. عمي الذي غدا شيئاً شبيها بذبيحة ملقاة على صرح التوسل والموت والنذور العالقة على بوابات السماء.

فيما أنا مقرفصا إلى الجثة والأم والأب يبكون، سمعنا صرخات قادمة من خارج الدار. صرخات حادة. مبهمة، متعثرة. امراة من البيت المقابل دخلت بيتنا وهي ترتعش بلا عباءة وتلطم وجهها وتقول بارتعاش مبعثر. الجيش دخل البصرة. اي جيش ونتساءل بسرعة ودهشة وتقول، الجيش العراقي. نصاب بتوجع غريب. نشعر أن الزمن المتغاير ينسلخ من ذاتنا الكلية ونتحول إلى أشياء مهترئة في ابدية قادمة من خلف الاموات والاحياء والذين سيموتون.

الفصل الثامن

غريبة هي البصرة. غريبة عندما تسافر الموانئ وتغزو الجهات الاربعة رياح السموم القادمة من ايران. مدينة مصنوعة من حزن النارنج والقرنفل والجوري وطيور البحر. مصنوعة من معدن عصي على التفكك ومن معادلات مرصوفة فوق ابتهالات الرهبان.

من هذه المدينة دخل التاريخ منزلقات العودة المتبعثرة للزمن. في كل مرحلة تاريخية من عودة الألم يعود الزمن دائماً إلى الوراء. إلى الوراء دائماً. من كل صور البصرة العظيمة لم تبق في الذهن غير اشباح الجثث المبعثرة ونساء يرفعن الفوانيس ويسرن في ظلمة الطرقات بحثا عن ابن أو حبيب أو زوج.

مدينة اكلتها الافواه وتآكلتها الرغبات الشهوانية المضطربة. في وظيفة الفلسفة الذاتية، تشهر البصرة رياحها الباردة وتوقظ الزمن المبعثر والنائح على الطرقات. مدينة مصنوعة دائماً من عيون احبتها، وعندما غادرتها الالهة الحارسة، سقط الزمن مضرجا عند بواباتها الغريبة. البصرة مدينة، لا مثل المدن الاخرى. ليست مثل بغداد أو الناصرية أو حتى مثل باريس ولندن. هناك سحر غريب في ذاتيتها

العجيبة. مدينة تنتج لك النثر والشعر والغانيات والرقص والصلاة.

من هذه المدينة انطلق التاريخ والبروباغاندا. انطلقت رحلات الوجع واللذة. مع كل موت في البصرة يولد امل جديد. مدينة غنوصية، لكن غنوصيتها ليست دينية، غنوصيتها عبارة عن اشتهاءات وارتماءات وتوجع. البصرة مثل امرأة جميلة جداً وبالاضافة إلى الجمال هناك احتشاد هائل لنعومة اللفظ ونعومة المفردات ونعومة المعاشرة.

مدينة مصنوعة من اللذائذ والحب، وبرغم هذا الحب فهي المدينة التي نامت على الموت ونامت على التاريخ بغير توجع. اذا عاشت البصرة ايامها حلوة، عاش العراق كله بخير. نوع من التأسي. نوع من التماثل، لم تدرك القيادة أن وجع البصرة وانينها اذا ما شهقت، سيتحول إلى بغداد وينتقل الألم وتنتقل الأوجاع أيضاً..

جاء الجيش. بدأنا نسمع صوت الطلقات الضخمة وانفجارات القنابل والصواريخ. صوت يمزق وحدتي وأنا استمع إلى موسيقى متاحة عن بعد. لك أيضاً أيها الوقت، لك أيضاً أيها الزمن الغريب، القابع على ارصفة الشوارع والحارات والبيوت. مع كل قذيفة تنطلق اندلق معها.

الطلقات الآن بعيدة لكنها تقترب مني، تقترب من البيت الذي نتكور فيه. صديق عمي يرفع بين اللحظة والأخرى رأسه ويلعن إيران والسادة المعممين الذي مزقوا طهر المدينة بايادٍ قذرة وملوثة بالدم. دم الابناء والاخوة والأطفال والنساء الضائعات بين البيوت الطينية. نفرح كثيراً بمقدم الجيش. نشعر أن الزمن يغسل بمياه الطهر القادم مع دجلة

والفرات. سمعنا أن العديد من محافظات الوطن سقطت. الهمجية كانت تتقدم مدوية. شعرنا بالضياع. باللاإنسانية. لكن عودة الجيش وإن كانت بعيدة الآن إلا انها أشعرتنا أن كل شيء سيعود.

لمحنا من النافذة المنتفضون وهم يرتعشون. يهربون باتجاه لامكان. سياراتهم الإيرانية كانت تتحول بين لحظة وأخرى إلى هدف للطائرات المميتة المحلقة في السماء. رعشة القتل كانت عارمة. خرجنا من البيت نحو الشارع بعد أن اصر عمي على العودة إلى بعقوبة. الطلقات لم تزل تدو باتجاهات مختلفة. نحني رؤوسنا ونسير متجهين إلى كراج بغداد الذي هو الآن بيد القوات الحكومية.

في الطريق، شوارع البصرة تتحول إلى كرنفال من الجثث والطين الاسود. مطر خفيف يهطل لكنه لم يكن ابيضا، بل مسودا. طين، طين ومطر ضائع في رؤوسنا التي ضاعت هي الأخرى في الفوضى العارمة والمتجحفلة مثل فيلق عسكري. الطين اسود، المطر اسود، الأرض سوداء، الوجوه سوداء، ويتماهى هذا كله مع نساء يتراكضن باتجاهات غير مفهومة وعباءاتهن ملوثة بالطين.

البصرة كلها تتحول إلى كتلة ملوثة بالسخام. سخام الابار النفطية المحترقة في الكويت وسخام الطائرات والمجنزرات المحترقة وسخام الفوانيس المعلقة في وسط البيوت. عالم من السواد واللاطمأنينة والخوف والتشرد. ضياع تائه في متواليات هندسية تسحقنا وتبعثرنا. ضوء ابار النفط المحترقة بعيداً ينير وجوهنا بنور اسود. ظلمة حتى مع وجود النور. ظلمة في وجوهنا وفي اصواتنا وفي غددنا اللمفاوية والفيزيقية. نزحف مثل ديدان طويلة. ديدان تخرج من الخراء وتزحف نحو نهايتها المعروفة. اثناء ركضنا في الشوارع وهرولتنا الضائعة، اخذت

اتقيأ. شعرت أني اغادر هذا العالم، إلى الجحيم والخراب. عمي كان يحثني بصوته الرجولي، يطلب مني أن استمر. في كل الاحوال، يجب، هذا أمر عسكري. عليك المطاولة، عليك الزحف. ويسحلني مثل خرقة متحشرجه. كنت اتهرأ، اتقلص، اتفجر، ارتعش.

الرصاص فوق رؤوسنا، لم أكن اهتم به. كنت اشاهد غمامات من الموت القذر. قطعات الجيش تقتل في الشوارع المسلحين. تنكل بهم وتصعد البعض الاخر إلى الشاحنات. جنود في كل مكان. زئير وحشرجة في الارجاء. لا، لم يكن زئيراً إنما خوف ورعب ملوث بالخراء. شعرت أني افعلها في البنطلون. ارتعش من أجل اخراج الحيوانات اللبونة من امعائي، حتى المذي كان يسيل وكنت احسه باردا جداً وقشعريرة غريبة تلفظ جسدي وتسير مثل النمل على افخاذي.

اردنا الاستدارة والعودة إلى الوراء، لكنا لم نستطع. اشرت بيدي للجنود. انهمر رصاص على جوانبنا. تجمدنا، تقرفصنا ثم انبطحنا على الأرض، حينما اردنا النهوض انقض علينا جنود الحرس الجمهوري باعقاب البنادق.

❊❊❊❊

اوقفونا في رتل طويل. وجوهنا ملوثة بالطين ومنكسة. ملابسنا مشوهة بالمطر الاسود. كنت ارتعش وأنا أنظر للجنود. لم افهم الوحشة التي ترين على كل شئ.

اردت وأنا اقشعر من البرد ويدي مكبلتان بحبل رفيع لكنه حاد للغاية. أن اتذكر ثمة اغان لفيروز وجوليا بطرس. جوليا الوجه الذي لا

يمكن أن تنساه بسهولة. هذا الوجه كان يضيع مع صرخات الجنود والسباب والضربات. كانوا يحومون حولنا مثل الذئاب المتوحشة. اردت أن اصرخ وأقول لهم انني لست مع هؤلاء، لكن عقب بندقية انهال على وجهي.

مع الوجوه الملتهبة والمرتعشة والتي تشعر انها تقترب من النهاية والموت. ينظفر الموت ويتدلى من مأذن ونواقيس الكنائس التي كانت خامدة وساكنة. وجوه كثيرة، هائلة، متعددة. لم استطع أن اعدهم، عشرات، مئات. تصورت أن العالم كله هنا. قيامة من نوع غريب.. اتشمم رائحتي وأشعر أني عبارة عن كلب مشرد.

انتظرنا طويلا ورؤوسنا بين سيقاننا. اقترب عسكري ملثم واخذ ينهال علينا بكيبلات مبرومة. انهضونا بعد ساعات واصعدونا إلى شاحنات مغلفة. عمي اخذوه إلى شاحنة اخرى. أصبحنا بعيدين عن بعضنا. اردت أن اصرخ من أجل أن الفت انتباهه لكنه غاب في الليل واصوات البساطيل وهي تضرب الوجوه. احس أني أسير في ظلمة عميقة. لم يكن هناك إلا نور المصابيح اليدوية.

اجلسونا على أرض الشاحنة وجلس بالقرب من الحافة جنود بملابس الحرس الجمهوري. شعرت في لحظات غائمة أني اتجه إلى مجهول. مجهول غريب وفوضوي. لم أفكر في زوجتي ولا في عمي. اردت أن انسى كل شئ. الشئ الوحيد الذي كنت أفكر فيه هو أني بحاجة إلى الضوء، إلى الشمس.

مرة أخرى اردت أن أقول لهم أني برئ لكن صوتي كان يضيع مع اشتغال محرك الشاحنة ثم سيرها المتعرج بين سواقي ومنحدرات.

حاولت وفيما الشاحنة تسير أن اغفو. أن ارمي راسي إلى كتف الذي يجاورني. عندما اغمضت عيني حالما بوحوش مصنوعة من الخارصين والنحاس وصرخات مدوية، نهرني صاحبي، طلب مني أن افيق وأن لا استخدم كتفه، اناني. يمنعني من النوم، يمنعني من التماس كتفه. اشتياقي إلى اللحم والعظم كان مدويا.. سارت بنا الشاحنات ساعات طويلة. ساعات مقتطعة من لحمنا الحي.

بعد زمن مجهول توقفت الشاحنات. كنا مبللين. كل شيء يشبه همسا وعواءا. كل شيء يشبه اضطراباً للأمعاء وهي تعوي. ذئاب غير مرئية كانت تحوم حول رقابنا. الجنرالات كانوا يقفون على مبعدة وفي كل الاتجاهات جنود ملونون بلون الظلمة الحالك. تبولت على نفسي عندما سحبوني من رقبتي وانزلوني إلى الأرض. لم أكن احبهم. اكرههم إلى الدرجة التي اردت فيها أن أموت بسرعة كبيرة. معدتي خاوية تماما وكنت ارتعش من البرد. بنطلوني مبلل ودهشة مدوية تعقد لساني. لم يكن يريدوننا أن نتكلم. البعض منا كان يناجي الله. كم بدا بعيداً في تلك الحلقة الصغيرة من البشر المائعين والمتقلصين.

وقفنا مشدوهين أمام الانظار التي كانت تلتهم وجوهنا. اعادوا توثيقنا من جديد ثم انهالوا على رؤوسنا باعقاب البنادق. بكيت. لم ابك من الألم، إنما من أشياء ثانية غير مفهومة. لاول مرة أشعر أني لست عراقي. اردت أن انزع عني هذه الصفة والفعل والذات والكينونة. احسست باني انهار. اجلسونا على الأرض وكيبلات الكهرباء تلهب وجوهنا وظهورنا. لم يكن هناك مكان محدد للضرب. اردت أن أشعر باني شيء اخر. لكن الكيبلات والدهشة والظلمة كانت تضيع في التوسلات.

مع تكرار الضرب اخذنا نتوسلهم. اقسمنا بالله اننا لم نشارك في الانتفاضة. لكن لم تكن هناك استجابة. تمدد الكثير منا على الأرض وانقطع البعض عن الارتعاش تحت الكيبلات. كيبلات كثيرة، من كل الاتجاهات. كيبلات في الضوء الخافت وفي الظلمة وفي النور المغادر وفي الليل وفي البرد وفي وضع التقرفص وفي وضع الجلوس.

توسلتهم أن يكفوا عن الضرب، لكنه يزداد قوة وحقد. في لحظات معينة لم اعد أشعر أني في هذه الأرض. جحيمية الظلمة كانت تغادرني إلى نهاية العالم وأنا اتحسس الأرض بحنكي. تركونا مدة من الزمن دون اسئلة واستفسارات. كلنا ممدد على الأرض. كنا نشعر اننا ننام في وجع متروك إلى النهاية.

جاءوا واخذونا إلى قاعة وهناك حدقوا بوجوهنا على ضوء المصابيح اليدوية. لم أكن استطيع تبين الوجوه التي تحدق في وجهي. اخرجوا هويتي من جيب بنطالي وقرأوا الاسم أكثر من مرة. سمعت بين الانين الصادر من الاجساد اسمي يتكرر. أدركت أن الله كان قريباً جداً من وجهي، التمسته. توسلته. بعد ساعات سحبوني أشبه بجثة خاوية ومتآكلة ووضعوني في شاحنة اخرى. لم أعرف كم قضيت من الوقت. الآلام كانت كبيرة وكنت افتح عيني بين لحظة وأخرى لاشاهد الجثث التي تحيطني والبشر المحشورين معي في حوض الشاحنة.

بعد ساعات من المسير توقفت الشاحنة وانزلونا بتؤدة. شاهدت اصابعهم وهي تلتقطنا من غفوتنا وتنزلنا إلى الأرض. اصابعهم كانت مليئة بالهدوء. هدوء شفيف وكبير وحركات غير عصبية. بعد أن قرفصنا على الأرض انهضونا واخذونا إلى قاعة كبيرة مليئة بقصع الطعام. تناولنا طعامنا بدون ملاعق ثم مسحنا اصابعنا ببناطيلنا. شعرت بعد الطعام

باقل ما يمكن من الارتعاش. وجبة الطعام والاستقبال غير المترافق بالكيبلات جعلني أشعر أن هناك شيئاً من الحب. احسست بحميمية كبيرة مع الرجال الذين كانوا غير حريصين على حراستنا. انتظرنا أكثر من ساعة ثم سلمونا نقودا وبطاطين وقالوا ليذهب كل واحد إلى اهله. لم افهم ما جرى. اردت أن أفكر مرة ثانية بكلماتهم. اردت أن ابقى قربهم. لم اعد أشعر أني بحاجة إلى العالم الاخر.

عندما غادرت بوابة المعسكر قبلني بعض من كان معي. قبلنا بعضنا البعض مثل نساء عاشقات. قبلات على الرأس والجباه والخدود. اردت أن اعيش نوع خاص من الحياة لكني لم استطع.

سرت حتى الشارع الرئيسي وأنا احمل بيدي بطانية خفيفة كانت أشبه بهدية وزوج الاحذية معلق بيدي الاخرى. جلست على الأرض. جلست لاني لم افهم ولا افهم الكيفية التي خرجت فيها من عالم غريب وفوضوي، لم افهم منه شيئاً. مرت العديد من الشاحنات العسكرية والاهلية لكني لم استطع أن امد يدي وأطلب منها التوقف. كنت مذهولا. اردت أن ابقى هنا على الأرض. ابقى لاني خرجت من عالم إلى عالم بسلطة خفية واستيهام كوني. كل العالم لم يستطع أن يخرجني من الفوضى الروحية التي ارزح تحتها. بوهيمية غريبة ونوع خاص من التماهي مع الاخرين ثم وحدة قاتلة. شعور الوحدة كان عظيماً وخرجت من هالة الوجع إلى هالة أخرى هي التشيوء والاضمحلال والانبلاج والتمرد والخصاء.

ما الذي وجدوه في هويتي الشخصية؟. هناك شيء ما، لكني لا أريد أن أفكر.. كنت اشيخ في زمن الاغفاءات والجنرالات والجنود والحروب. لم أعرف أين ذهب عمي. لم يكن معي. ابقوه على الارجح في

المعسكر الاول. معسكر البصاق في الوجوه واللعنات والقتل وتسديد المسدسات إلى الرؤوس. الموت المجاني الذي خرجت منه كان مذهلا. شعور الصدمة لم يزل يحرك شفتي ويجعلها ترتجف وكأني ابتلعت العشرات من حبوب التفرانيل. فكرت بما سأقوله لاهل زوجتي. لم أجد اجوبة محددة..

بعد ساعات من الجلوس اومأت لسيارة عابرة. توقفت السيارة وصعدت. اراد السائق أن يتحدث عن اثر الكيبلات على وجهي لكنني لم أشعر بالرغبة في الحديث. وصلت بغداد صامتا. نزلت في علاوي الحلة التي كانت تغرق بالازبال وباعة الطعام المرتجل. جلست إلى بائعة شاي مطهمة باللحم الغامق. تناولت استكانة الشاي بيد مرتعشة وبائسة. نظرات بائعة الشاي كانت متوترة. لم أنظر في عينيها، لم أشعر برغبة في الحديث مع اي شخص. كنت أريد الصمت المطبق وأن استمع فقط إلى الجنود وهم يسحقون الرؤوس ببساطيلهم الثقيلة. طلبت شايا اخر. اردت أن اشرب كل محتويات (القوري) المسود والقذر. اردت مياها دافئة وحلوة تسير من جديد في عروقي ومن الدهشة لخروجي من الموت.

كل شيء كان حلما كبيراً. حلما مخيفا ومرعباً وقاتلا. بالرغم من شربي الشاي لم استطع التخلص من الصور القاتلة التي كانت تغزوني وتستبيحني. منهار وملغز ومليئ بالعبث. كل شيء كان عبثيا. حتى الموت. مجانيته هزتني. هزتني صور القتل واللاإنسانية وأن تتحول حياتك إلى شيء قذر يجب التخلص منه بسرعة. بسرعة عاجلة، قال لي الجندي الواقف على بوابة المعسكر. اركض، هرول يا منيوك، قبل أن يغيروا رأيهم ويعتقلوك ثانية. وأقول له. لا، لا. أنا لم اعد محكوما عليه.

لا بالقتل ولا بالبساطيل ولا بالموت المجاني، أنا عراقي. ومع هذا عليك أن تركض. يقول، اذهب بسرعة إلى اهلك، أنت في بلاد الف ليلة وليلة. أنت هنا الساعة، لكن من يعلم أين يمكن أن تكون في الساعة القادمة.

هوس الجندي وهوسي الشخصي كان يلتهب. اركض مثل التائه، في الصحراء المغالية بوجع الجنون والبهجة القتيلة. صحراء حياتي وأنا اشد عيوني إلى افق مزدوج من مغيب الشمس وصوت الكلاب العامرة بالوجع والشهوة للالتهام. اتضرع إلى الله، اتضرع إلى عشتار وتموز وننخر ساج وعلي بن ابي طالب والحسين وكل الميثالوجيا العراقية، أن يزودوني بما يسميه الناس، لمحة العقل في غوغائية التمرد. عندما يسحق راسك بسطال الجندي والجنرالات والهوام والتحول نحو فنطازيا الهروب، تشعر انك في رحلة العماء الاخير في هذا الكون. تشعر بقذارتك قياسا لنظافتهم. عندما يغزوك الخبال، تشعر أن العالم كله يتحول إلى شيء قذر ومنهك ومعبأ بمياه الاقذار. اسبح، اغتسل، تمرد، انتحر، موت موتاتك الكبيرة. هروبك إلى العالم ليس هو الهروب نحو النهاية، إنما الهروب إلى المتتاليات العددية حينما خربوا حياتك بثوراتهم النجسة، وتبحث عن اللعنة المختبئه فوق هامتك وفي النهاية لا تكون، غير كلب اجرب في حضيرة الوطن. في اسطبلات الوحدة والحرية والاشتراكية. في ديماغوجية الاهداف. في لعنة الانحطاط الذي تتولاه مجموعة أهل العوجة وهم يحولوك عبر مركبات الكيمياء إلى حيوان للتجارب.

كم هو شنيع هذا الوطن. ابصق عليهم، لانهم حولوني - ابناء العوجة - إلى خراء. إلى كومة جائفة، شيء بلا قيمة. عندما جعلوني

مسخا في حروبهم البوهيمية وهم يغزون العالم بدونيتهم. ابصق عليكم. ابصق من خلال فم لم يغتسل منذ قرون. الزمن الدموي الذي وصمتوه بالعار والدهشة والشهوة واللعنة.

أسير في شوارع بغداد، مثل ارنب. في نهاية كل شارع وبدايته تقبع سيارة نصف مكشوفة عليها الأسلحة. كل الأسلحة كانت عبارة عن سهام طائشة. لو فتحت فمك. لو تنفست. لو اثرت حمية الجندي القذر والمطهم، سوف يرميك. سوف يطلق عليك الرصاص وتسقط في الشارع. لا أحد سوف يركض باتجاهك. سوف تكون طريدة سهلة.

فتشونا في علاوي الحلة. نزعوا حتى ملابسنا الداخلية. وضعونا في شاحنات أخرى وقالوا لنا لا تبقوا في بغداد يا ابناء القحبة. بغداد الآن مدينة ملعونة. مدينة مبعثرة بكينونات مختلفة وشائهة. لماذا لا استطيع البقاء في مدينة شهدت مولدي الملعون والمبارك. كيف اخرج إلى الهباء الكوني من توريدات البعثرة والتناحر. خربوا مدينتي. وضعوا حيواناتهم على بواباتها مثل تعويذة. شوهوا المدينة بملايين الصور لسيدي القائد. الجنرال الذي نزى على حياتنا في ليلة موحشة. لماذا ليالي بغداد دائماً مثقلة بالوجع. زرت في غفلة الوقت نهر دجلة. بكيته مثل عاهرة خسرت جمالها الانثوي. انا أيضاً خسرت زمني وخسرت كل شيء في رحم هذه المدينة. لكني سابقى حبيبها الاول. حبيبها الذي غزته وحوش البادية والصحراء والتكارته واهل العوجة. اكتساح هائل للمرارة وبدلا من أن نلبس البنطلون، لبسنا الدشداشة وصرنا نميل بافوهنا إلى اليمين واليسار لنطق الحروف بلكنة أهل العوجة.

اكتمل العدد في (الباص) وطلبوا من السائق أن يخرج من بغداد بسرعة. لا تتوقف في الطريق. منحوه اوراقا لسيطرات الطريق

ومنحونا اوراقا لعبور الزمن نحو الخراب القادم.

وصلت إلى بعقوبة، ومثل بغداد. عند بداية ونهاية كل شارع انتشر الرفاق. أسلحة من كل الانواع. أسلحة من كل العيارات، أسلحة جاهزة لقضمك وتأطيرك ضمن اطار اللعنة والموت. أسلحة بيد أطفال القبائل والعشائر. وحدة كونية تجمع الهزء والدموع المالحة والمسفوحة على حطام النفس والوطن. كم هو مذهل صوت جوليا بطرس عندما ياتي خارقا، حازا، مطعما، متبلا، قاتلا، مستاءا.

يقف الباص فجأة. يصعد أطفال إلى الباص ويدققوا هوياتنا واوراقنا الرسمية. وجوه الأطفال شائخة وكأنها مطعمة بلعنة المكان. استمر التدقيق أكثر من ساعة. لا شئ. تحرك. قالوا للسائق بلهجة امرة. اصبت بالرعب من اولئك الأطفال. اصبت بما يشبه الكزاز واللوثة العقلية..

نصل المرآب – الكراج – الذي دائماً تجده قذراً. هذه المرة كان أكثر شناعة. تختلط البرودة القاسية مع روائح الجيف والتعفن والخراء. اترك (الكراج) واتجه إلى البيت. شوارع بعقوبة وجدرانها مليئة بيافطات الشهداء. شهداء الحرب الماضية. حتى الآن لم يصل شهداء انهيار الجيش الاخير.

أصل البيت. أجد ضجيجا عارما. يستقبلوني بثرثرات مرتبكة. أسير في المنزل مثل شيء غير مدوزن. بالرغم من البرد، أجد البيت أكثر دفئا. لم يكن لديهم نفط للتدفئة. لا يمتلكون رجالا للتدافع من أجل ليترات بائسة من الكيروسين. يقولون لي، اسرع، حث خطاك باتجاه الغرفة، زوجتك هناك وقد ولدت للتو. لا يفهمون انني كنت بائسا

جداً. بائسا إلى الدرجة التي كنت أسير فيها مهدودا وممزقا.

انتظروني نصف ساعة كاملة ثم ارادوا جواباً لاسئلتهم. أين الاخ؟ هل وجدتموه. زوجته كانت تنتحب مقرفصة على بوابات المنزل. تخيلتها مثل الهة غارقة في الحزن والترقب. أين الاب؟ صرخوا. لم أكن املك جواباً. جلست أمام زوجتي. في الجهة المقابلة لصورة الحسين. دخنت أكثر من لفافة وأنا أمام الطفل. كنت أنظر له كتعبير عن التأسي الداخلي لنفسي. خارج الغرفة كانوا يبكون. كانوا يتناثرون. ينسحقون.

أنت مثل طائر محطم فقد كل اجنحته في العالم الاخر. لم املك اي جديد لأقوله. تلبسني التأمل والصمت والكآبة الحادة. خرجت من الغرفة. وجدت الحزن والبكاء والعويل يملأ الامكنة كلها. كنت أعرف مقدار الحزن الذي يخيم على الارجاء. عندما يمتزج كل شيء باي شئ. البكاء مع العويل والنواح. البرد مع الفقدان.، الانهيار مع التلاشي. يتحول كل شيء إلى ضياع. احساس عارم بالموت. لم احدثهم باني فقدت اثر عمي وانهم اصعدوه إلى شاحنة عسكرية بانتظار الموت. لم أقل لهم اننا فقدنا اثر ابنهم الجندي من زمن بعيد والذي اختلط مع الموات العارم للأرض المحترقة. لم استطع أن اصف لهم القيامة هناك. لم افهم بكاءهم أمام عويل الذاكرة المعبأة بالدونية.

خرجت من البيت بكآبة شديدة. بصمت كوني مطبق. قررت الذهاب إلى الشقة في الدور. مررت مرة أخرى بشوارع بعقوبة وبرك مياه الامطار. صعدت شاحنات متعددة وامتطيت عربات تجرها الحمير والبغال. كنت احسب أني أسير في بلاد الهملايا أو بورما أو بلاد السند والهند. سرت بمحاذاة دجلة مثل قديس يرخي للزمن عيونه التائهة في المكان والزمن. لماذا كان عليهم أن يموتوا. لماذا كان عليهم أن يتناهبوا

الريح وفي النهاية يموتوا تحت بساطيل الغزاة والعراة والمناويك.

في الرحلة البحرية التي سـرتها محاذيـا النهـر وغارقـا في متاهـات الضياع القصديري والزمن الخرب والملامات والانثيالات. كنـت اتـذكر كل حياتي، اتذكر أني ولدت من بضعة غدد وسـرت متنقلا في الارحـام. من رحم إلى رحم. في عائلتي الكبيرة كان اغلبنا يموت من أجل الوطن، كل على طريقته الخاصة لكنها في النهايـة، موتـات مبكيـة وحزينـة تشـبه موت العصـافير الشـائخة في الوقـت والـزمن الخـرب. عنـدما وصـلت سامراء حاولت تذكر الشوارع والقبائـل والعشـائر والمـآذن والترنـيمات المتتالية والمنطلقة من مقام العسـكريين، مـن الحفـرة والسـرداب الـذين اختفى فيهما المهدي. المهدي الذي لا يريد أن يخرج. كنـت ارتعـش وأنـا اشاهد الإنسانية عندما تنزع اغطيتها فنكتشف اننا لم نزل حيوانات فقـط ولا شيء اخر.

أسـير وأنـا اعـاني مـن حمـى مخيفـة. اردت أن أقـول للاخـرين في هذياناتي، انها خدعة حقيقة، فـالثورة في الجنـوب لم تكـن بسـبب تـدخل إيران فقط. ربما تـدخلت، لكـن عمـق الثـورة وجـوهر الانتفاضـة كـان خسـراننا للحرب مع الامريكان. الهزيمة هي الكلمـة السـرية. حولتنـا سـيدي الرئيس إلى نعاج شاردة. متنا من الدكتاتورية. متنا من نظرياتـك وعلمك وقدرتك وافاقك. متنا لاننا لم يعد لنا مسموحاً حتـى السـفر إلى خارج الوطن، وفقدنا الاحساس باننا لم نزل في هذا العالم. لو قدر لك أن ترى هزيمتنا لبكيت. لتوجعت، لانبهرت، لذبت في الأرض وتلاشـيت. الهزيمة مؤلمة سـيدي الرئيس ولا نستطيع تخيل انك تستطيع بعد ذلك أن تنظر بوجه شعبك. شعبك أيها الرفيق القائد الـذي دمرتـه مـثلما دمـرت الحزب، حطمتـه. حولتنـا مـن مناضـلين نحلـم بالحريـة والديمقراطيـة

وبوحدة الامة إلى خراء ومطاردين للناس. كل الشعب كان يكرهنا. كل الشعب كان يتمنى أن نسحق.

كنا سيدي الرئيس نحطم الشعب نجلبهم مثل النعاج للفرقة الحزبية ونسجل اسماءهم ونرسلهم كجيش شعبي إلى الجبهات، حتى لو كانوا مرضى.

كنا سيدي الرئيس نهجم على البيوت منتصف الليل، منتصف النهار وفي الفجر ونلقي القبض على الجميع. لم يكن يهمنا الأطفال ورعبهم، لم تكن تهمنا صرخات النسوة والعجائز ونحن نسوق ازواجهم إلى الجبهة.

نذكر سيدي الرئيس اننا سقنا للجيش الشعبي حتى العرجان واصحاب القدم الواحدة والمرضى النفسيين من الذين لم يستطع الجيش تجنيدهم. لكننا الحزب سيدي. نحن لسنا الجيش. إنما شيء اخر، شيء اقذر.. كنا نتوسلهم. ارجوك أنا المعيل الوحيد لعائلتي. اتوسل إليك، زوجتي مريضة وهي بحاجة لرعايتي. ابوس حذاءك أنا معوق حرب الشمال ولا امتلك إلا يد واحدة.

كان الرفاق سيدي، يتربصوننا في الشوارع وفي مداخل المدن وفي الليل والنهار. في الظلمة كما في النور. كانوا يتربصون بكل عراقي ذكر وكانوا سيدي يدخلون علينا غرف النوم ويقفزون على سطوح بيوتنا. كانوا يكسرون الاقفال ويهبطون علينا من كل مكان. لم تبق بوابة لم تكسر، لم تبق علاقة عائلية لم تدمر. لم تبق زوجة شهيد لم تغتصب. بعض الرجال كانوا يبعثون بنسائهم إلى الفرقة الحزبية، من أجل أن يتوسلوا الرفاق. كانوا يذلوننا، يعاملوننا على اننا عبارة عن ارقام

يتباهون بها وكل واحد منهم يقول للاخر أنا افضل منك لاني جندت مائة ويزاود عليه الاخر.

كنا نكفر سيدي الرئيس. نكفر بااوتو نبشتم وميخا والياس وذو الكفل وصالح والعزير. كان جوعا ملهما لأحلامنا الضائعة. كنا نشاهد الادباء العرب وهم يقدمون إلى بغداد مثل سحالي العصور الحجرية، كل سحلية منهم كانت تبتلع ثرواتنا وهوسنا الطفولي وتستولي على طعامنا وارثنا الرافديني.

كنا نعيش جياع ابديين في عالم المرارة الكثيف والهائل. كانوا يدفعون لهم بالدولار الامريكي، سيدي الرئيس. بالدولار الذي لم نكن نعرفه وكان غائباً من حظيرة تفكيرنا. ليس الادباء العرب فقط، إنما عصابات من الصحفيين قادمة من اخر الكون والى اخر الكون، تأتي بشكل شاحذ وتخرج من بستان بغداد بالهدايا. بالدولارات، بالجنيه الاسترليني، بالمارك الألماني، بالدراخما. كان واحدنا لا يقبض في الشهر إلا مكافأة واحدة، عكس الادباء العرب. المكافأة لا تكفينا لنتعشى زرازير في مطعم الاتحاد ولا تكفينا لشراء قنينة عرق واحدة. كنا نعيش حياتنا مثل الحشرات الطفيلية. مثل البؤس الذي يغرق به سكان مدغشقر ودول امريكا اللاتينية رغم اننا نعيش على اغنى تربة في العالم ورغم اننا نعيش في اجمل وطن. لم نكن نكره الوطن، لكننا كرهنا حياتنا. كرهنا الذل والعار منذ البداية وحتى النهاية. كان الادباء العرب الذين يأتون من من الخارج وهم في حالة هزال، سرعان مايسمنون.

كنا سيدي الرئيس ننظر خلسة إلى موائدهم العامرة وكانت قصيدة واحدة من هذه الحيوانات الضئيلة كفيلة بان تغدق على صاحبها اكداسا من الدولارات وسفرات مجانية إلى مصائف البحر الاسود

وشوارع باريس ومواخير لندن وقحاب نيوزلندا وحارات وارسو وطرقات مدريد. مدريد التي كنا نحلم بها فقط ونحن نخيس ونتعفن في حسن عجمي ويأكل حسن النواب وعلي السوداني وضياء سالم وحميد المختار الخبز الحاف وفي احسن الاحوال الفلافل. الفلافل التي تحولنا دائماً إلى مولدات طبيعية لغاز الميثان وغاز الاعصاب.

كنا نضرط دائماً سيدي الرئيس والحشرات القادمة من كل أمكنة العالم تستنكف أن تتعرف علينا، رغم انها تلتهم طعامنا وطعام أطفالنا واجيالنا القادمة من المجهول.

كنا سيدي الرئيس نغرق في الأحلام والهلوسة ومحمد الاحمد ومصعب أمير وامير الحلاج كانوا يشربون سوائل غريبة عجيبة من أجل رفع حالة الاحباط الدوني الذي نعيشه. كانت اعظم امنياتنا أن نرى قصصا لنا وروايات مطبوعة ومنشورة، حتى لو كانت الطباعة باتعس انواع الورق واتعس دور النشر. كنا نكتفي حتى بالاستنساخ وكنا نشاهد حميد المختار يطبع رواياته على ورق الكلينكس وورق التشطيف. لأن حياتنا كانت مرتبطة ليس بالجوع وحده. إنما بالنشر. كنا نتوسل القواووید من ادبائنا الكبار، الادباء المحسوبين عليكم وعلى حزب البعث من أجل أن يوافقوا على نشر قصيدة لنا هنا وقصة هناك. أما المناويك من ادباء العرب فكانوا يرسلون مخطوطاتهم ورواياتهم واشعارهم وهم جالسون على مؤخراتهم في بلدانهم وتطبع وتوزع ليس في العراق، إنما في كل الوطن العربي، من اقصى الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب والاكثر تعاسة والذي يجعلنا نثور ونتمرد على أطفالنا، أن الدولة سيدي الرئيس، كانت تدفع لهم مبالغ كبيرة لمجرد أن ينشروا عندنا. كانت المكافأت كبيرة جداً حتى اننا عرفنا، أن مكافأة

واحدة كانت كفيلة بأن تجعلهم يسافرون في ارجاء العالم ويشترون السيارات ويبدلون ملابسهم الداخلية بنوعيات من سان لوران وكاردينال. أما نحن فكنا نشتري ملابسنا الداخلية من علاوي الحلة والنهضة وفي الغالب لم نكن نلبس ملابس داخلية من أجل توفير ثمنها لشراء قطعة صغيرة من المارجرين أو قنينة حليب وفي افضل الاحيان اكل كبة السراي الشهيرة.

كنا نشتهي الموطا، نشتهي الايس كريم من صنع مصنع الخاصكي ونشتهي الكباب. مرات عديدة كنت اصاب بالتوعك. اصاب بحالة من الشيزوفرينيا وأنا أسير في الحيدرخانة واتشمم رائحة المشويات. كانت أحلامنا بسيطة للغاية. أحلام عصافير مسكينة تسلطت عليها غائلة الدهر فسحقتها ورمتها والهبتها.

كنا نسير في الشوارع أشبه بتائهين. تركنا العالم خلفنا. تركنا قداسات الزمن والدين وعشنا في هيام مستعبد لذاتنا ونحن نحمل اوراقنا ومخطوطاتنا ونشرب الشاي في حسن عجمي ونتأمل التاريخ. التاريخ العار ونحن العارات على الزمن. لم نكن نفهم كيف تسير الحياة. ولم نكن نفهم تاريخ الأشياء والنكرات. كانت النكرات تطفو على السطح أما نحن فكنا نغرق في التيه الخشبي وفي التيم العارم والجارف.

كنا نتأمل حياتنا بمنظار الهزء، بانفعالات جديرة بالبكاء والتمرد على الذات وكان يبزك كل يوم واحد من المناويك الذين يتاجرون بحياتنا البوهيمية. حياة تشبه الخراب الذاتي وهو يتكور ليستحيل إلى بوهيميا ونحن نتأمل مستقبلنا الضائع. الدهشة كبيرة على وجوهنا. كنا نريد أن نخرج من القفص الهائل لكننا كنا حولان وعوران وعندما نريد

أن نهرب، نجد انفسنا فيه مرة اخرى. من يمتلك النظرة الكونية لابعاد مأساتنا؟ كنا نسأل ودون انتظار جواب نمنحه لانفسنا.

كان المناويك يبشروننا بمشاريع تلحس بؤسنا وعندما كنا ننتخبهم في اتحاد الادباء، سيدي الرئيس، كانوا يتبولون علينا ويخرون على المشاريع الفنطازية التي وعدونا بها. هكذا كان حميد سعيد وعبد الامير معلة و رعد بندر في مساءات الليالي الضاجة بالويسكي، عندما دعانا بعد فوزه مباشرة إلى اضخم وليمة في العالم واضخم طاولة ارتجت عليها قناني الويسكي.

كنا نشرب بحيوانية رهيبة، هي المرة الاولى في حياتنا التي نتناول فيه الويسكي الحقيقي وشئ اخر اسمه المارتيني. شربنا من الليل إلى الليل، ومن النهار إلى النهار. تهنا في اروقة نادي اتحاد الادباء، ضعنا في متاهة الحدائق والليل. شربنا حتى التقيؤ، وبعد أن نزوع ما في امعائنا نعود مرة أخرى إلى الشرب.

تمددنا على الأرض وركبنا خيولا مطهمة وغنينا للبعث ولرسالة امتنا العظيمة. ولك سيدي الرئيس، وسافرنا إلى نجوم العالم الاخر وتمددنا في غابات كولونيا ونمنا تحت أشجار المانجو وموز مدغشقر. وقتها اكلنا مازات عجيبة وقام طباخو الاتحاد باسعافنا بالكبة والطيور المشوية والكباب المشوي على السفود والفحم الحجري وسارت في رؤوسنا القاطرات. نذكر اننا غنينا حتى الصباح، غنينا تاريخ مائع من الجوع المزمن. قشرنا وجوهنا مثل التفاح اللبناني وارتدينا اجمل الملابس و الاساور وصرنا ملوك الدراما الحديثة وزعونا على الفرش والسجاد ودخلت حيوانات حياتنا من كل مكان، ثم اقتحمت القاعة ملايين الأشياء العائمة في الهواء، اسماك نهرية، ثعالب جبلية، موتى في ملابس

الرحيل، خفافيش مموسقة، عشاق مغرقون في الوهم السرمدي. دجاج بحري وحيتان تشبه عبد الامير جرص. وعندما امتطينا حياتنا وبعراننا وجمالنا وسافرنا عبر قصائد نصيف الناصري، طردنا رعد بندر وتقيأ على الستائر وعلى الأرض وعلى الوجوه. نحن بدورنا كنا نتقيئ، لكن على ذاتنا، وبعنف وحشي، برعب مدوزن.

كنا نترنح في تاريخ دموي يسير أمامنا وعرفنا لاول مرة متعة التكبر ومتعة الاستجداء ولذة أن تنام بعد أن تسكر على سلم الاتحاد المؤدي إلى السطح. خرجنا من الاتحاد ونحن نسحب شوقي كريم مثل قطة صينية. مثل رجل دين بوذي يعيش اقصى حالات الوجد الديني والذهني.

كنا ننيك رعد بندر بذهننا، نلعنه على السكرة المقطوعة الاوصال والتي استنفد فيها اصواتنا عندما انتخبناه. كنا حميراً وشعرنا انه غشنا وتمرد على قاعدته الانتخابية لكننا ومرة أخرى لم نكتشف انه رشح من القيادة وفاز باسم القيادة وكان يطلب منا أن نرمي أكثر من بطاقة انتخابية في الصندوق ثم نعود مرة أخرى ونحمل بطاقات جديدة ونذهب وننتخبه مرات عديدة وكل هذا يجري فيما ممثل اتحاد الكتاب العرب حاضر الفضيحة - دون أن يعلق - بعد أن دهنوا زردومه بعشرات الاوراق الخضراء التي تسمى الدولارات.

الفصل التاسع

استطعت الحصول على شاحنة صغيرة متوجهة إلى المجمع، جلست في حوضها الخلفي - مع اصدقائي -. وصلت بسرعة قياسية وتوجهت إلى الشقة التي وجدتها ضائعة في الهواء والريح. النوافذ مشرعة والاتربة والمطر الاسود نفذ من خلال المسامات الدقيقة في الجدار وبلل الأرضية والاثاث. لم يسرق شئ. تأملت المكتبة وتصفحت الكتب وغرقت في تيه هش. الشعب في المجمع لم يزل في الملاجئ.

بحثت عن جدتي. بحثت عنها في مياه الامطار الوثنية وضياعات المدن المهدمة. وجدتها في ملجأ قريب. اختفى من المجمع العديد من الناس الذين اتذكرهم بشكل خاص ومؤثر. اختفى الكثير من سكنة المناطق الجنوبية من العراق بعد ضياع للملامح والاسئلة والوجوه الغائبة في متاهة المكان. وجدت جدتي في قاعة نائية من قاعات النساء بين الاتربة ومثل لعبة ضئيلة الحجم كان جسمها الاسود يضمحل ويتحول إلى غشاء من الاغشية المخاطية. قالت بوهن، ما الذي جاء بك. قلت، من أجل استلام حصتي من المواد الغذائية. قالت بنحول. اسرع، استلم الحصة وارحل. لماذا؟. لم احصل منها على جواب. تركتها وأنا أشعر

بقلق. وصلت إلى وكيل المواد الغذائية. استلمت الحصة وعندما هممت بالخروج من الدكان، هجم علي شباب من أهل الدور وضربوني بعصي وقبضات مسودة، بعد ذلك مددوني على الأرض ورفسني احدهم بقدمه وهو يلهث ويقول، لعنة الله عليكم وعلى من جاء بكم إلى هنا.

في ذلك الزمن والمكان والبعد الثالث قررت أن اهرب. شعرت بالكره للعالم. احسست لاول مرة أني لست عراقيا وأن هذا ليس وطني وفكرت أن أعود نهائيا إلى المدينة الاولى في هذا العالم، إلى بغداد. غادرت المجمع مع حزن الاهانة ورغبة مكتومة بالبكاء.

وصلت بعقوبة في مساء اليوم التالي. عرفت أن عمي – أبو الزوجة – شنق اثر اتهامه بانه شارك في الانتفاضة وأن الابن استشهد أيضاً نتيجة الهروب الكبير من الكويت. كل شيء في البيت كان يعوي. لم تتوقف الأم عن الهستريا وصارت تحلم أحلاما غريبة وخرافية اذ تشاهد القطط وهي تلتهم الرؤوس والكلاب تطير في مناخات باردة وسماءات ملونة بالثلج الناري... كانت تعرف أن فقدان الابن ومن ثم فقدان الزوج سيجعل ألسنة الناس تتحدث. كانت تتخيل سماء مصيبتها وهي تسير في السوق وعلى الارصفة وتحس أن الجيران كانوا ياكلون لحمها الحي. اللحم الذي غدا وحيداً مع اناث مضطربات في الزمن والخيبة والعنوسة.

لم استطع أن افعل لهم شيئاً. كنت أنا أيضاً اعاني من الهوس باني اتجه إلى مصيبة كبرى. الحصار وفوضى الأشياء والعالم والاهانات. الحصار الذي كان يكبر كل يوم. كنت ابحث في الاسواق عن لحوم المعلبات المنتهية الصلاحية – الارخص –، بعد أن أصبح شراء كيلو لحم مجرد خيال، مجرد أمنية عزيزة. في أحد الايام وحينما كنت سائراً

شاهدت قصاباً يعلق لحما طريا، اذهلني السعر. اشتريت بكل ما املك من النقود، بكل اللهفة، بكل الخيبة، بكل اللعنة. كانت كمية اللحم هي كيلوغراما واحدا فقط.

ذهبت حاملا اللحم مثل معوق حرب. مثل جبان يشعر بعار ابدي. دعوت الزوجة بسرعة وطلبت منها أن تسلقه. اردت أن نأكل تشريب اللحم. تشريب مليء بالباذنجان واللحم الحي. وضعت زوجتي اللحم في القدر وانتظرنا ساعات طويلة إلا أن اللحم لم يسلق. اصابني هوس غريب. اخرجت اللحم وقطعته قطع صغيرة لكن النتيجة كانت مشابهة للاولى، في النهاية منحناه لكريم الزبال، لكني بكيت في تلك الليلة، بكيت بحرقة ووجع خيالي، اذ خسرت النقود وخسرت اللحم إلى الأبد.

كنت احلم باللحم، في مشاهداتي الرؤيوية كنت غالباً ما اشاهد انواعا من اللحوم. كنت أتخيل أني اقضم الصوصج ولحم الدجاج ولحم البقر وتكة لحم الغنم وحينما استيقظ من الأحلام اشاهد اللعاب وقد سال على المخدة فيما داخلي تتوهج شهوة غريبة وشبق جنسي لمضغ اللحم وتمزيقه وعضه ولحسه وتنفسه واستنشاقه. الهوس اللحمي هوس غريب ومخيف ونحن أهل العراق، نتمتع بجنون هو جنون مضغ اللحم. في الصباحات البعيدة والنائية كان عمي ياخذني إلى المقهى الذي يعمل فيه بائعا للشاي. كنا نأكل المعلاق المشوي أو التكة بهمجية قاتلة.

العراقيون، كلهم تقريباً لا يفطرون إلا لحوما مشوية. معلاق، تكة، كباب أو باجة من عند مطعم ابن سمينة أو الحاتي، وفي اسوأ الاحوال، الكاهي مع القيمر. نحن شعب لحمي، شعب لا يستطيع أن يعيش حتى ولو ليوم واحد دون لحم. جدتي كانت تنفق ربع معاشها

التقاعدي قبل الحصار على شراء اللحم. بعد الحصار صارت تشتري بكل مرتبها التقاعدي اللحم ولم يكن أكثر من كيلو ثم نصف كيلو ثم ربع كيلو، في النهاية أصبح الراتب التقاعدي لا يكفي إلا شراء عظام مقشوطة من اللحم، وحتى هذه أصبح الحصول عليها صعب جداً. كانت تفرش الدنانير العراقية أمامها وتنظر بحسرة إلى القيمة الضائعة لتلك النقود. لم تكن تفهم ما هو الحصار وفي النهاية اكتشفت انها كانت تبيع ملابسها الزائدة من أجل توفير قطعة لحم واحدة. كانت في غالب الاحيان هستيرية وتطلب مني أن ادبر لها الاموال وكنت أنا اعيش حالة من اللاتوازن. حالة من القحط المزمن ومسؤولية توفير طعام، اي نوع من الطعام للزوجة والطفلة والرضيع. كنت أشعر بالعار الشخصي كوني لم أكن قادراً على الكسب المادي. لم تكن النقود تهمني. كنت اكرهها والمحبة الوحيدة التي اكنها للنقود فقط باعتبارها الوسيلة التي تمكنني من شراء الكتب.

قضيت سنوات طويلة اجمع الكتب مثل دودة. بعض الكتب سرقتها من المكتبات والبعض الاخر اشتريته. كنا ندخل المكتبات الواقعة في الباب الشرقي ونشتري كتاباً واحدا لكن تحت قمصاننا كان هناك كتاباً اخر هو الاغلى ثمنا والاروع محتوى.

مر عام على بدء الحصار. كل شيء في حياتنا كان يتحول إلى فسلجة غريبة وتكوينات من البؤس. فاضت المجارير. أصبحت الشوارع عبارة عن برك صامته واسنة من المياه. بدأ البق يغزو حياتنا، مثل العصور الاولى لتكون الحياة على الأرض. مع البق كان هناك الذباب وولدت حشرات جديدة هي ليست بقا ولا صراصراً أو ذباب، أشياء بين تلك وهذه، نتيجة لقنابل الحلفاء الملوثة بايولوجيا.

اينما تذهب في بغداد تطالعك الوجوه المتعبة والقاسية. كانت الملامح تضيع. هناك تحول بشري نحو النزعات الحيوانية. كل شيء تحول إلى اقتناص. كل شيء تغير بسرعة عجيبة واثبتت بسبب هذا اعمق النظريات الاقتصادية التي تتحدث عن التاثير الاقتصادي على الطبيعة البشرية. الذئاب اينما تسير. الذئاب كانت إنسانية. العيون تستطيع أن تلمح بها الرغبة القاتلة في الاستمرار بالحياة حتى لو تطلب هذا القتل.

كنت أشعر أني اضيع في هذه الدوامة الكبيرة، في توحش المجتمع وتحوله إلى حالة من اللاإنسانية. حينما استلم راتبي الشهري كنت اصرفه قبل الوصول إلى المنزل. وزعوا علينا حصة غذائية شهرية. امست الحصة هي السبب الوحيد لاستمرارنا في الحياة، رغم بؤسها. عندما تريد أن تذهب لزيارة الاقرباء يجب أن تأخذ في الحسبان أن لا تبقى بانتظار وجبات الغذاء. كل شيء يتحول في زمن غريب ومرعب إلى بقايا علاقات اجتماعية بائسة. كنا نتحول إلى حشرات طفيلية تسير على الأرض وهي ليست بحاجة إلا إلى الدعس عليها. لكن من يفعل هذا.

فكرت مراراً في الانتحار. فكرت أن اقتل الابناء اولا ثم الزوجة ثم نفسي وذاتي، لكني فشلت وطردت الفكرة عن روحي. كنت أعرف أني جبان بالطبيعة الفسيولوجية. فسيولوجيتي قذرة وسوف اقتل الأطفال والزوجة لكن ليس هناك ما ينبئ بقتل نفسي. لكننا ننهار كل يوم. ننهار في تسارع غريب ومدو. كنت أتأمل كتبي. اجلس ساعات طويلة بعد أن تركت العمل في المصنع لأن راتبه لا يساوي شيئاً وأمام الكتب. اترك الزمن خلفي وهو يعوي، حتى الاوراق بدأت بقدرة عجيبة تتحول من اللون الابيض إلى الاصفر.

التآكل كان ينتشر في حياتنا. إما أن تتآكل هنا أو تخرج بروح

عدوانيـة إلى الشـارع وتلـتهم الاجسـاد والعقـول والاذرع والاصـابع والخراء. لم أكن اتصور في يوم من ايامنا الماضية، اننـا سـنتحول إلى هـذه الهمجية، حتى ام الزوجة، تحولت إلى إنسانة جديـدة ولـيس بالضـرورة إنسانية، لكن متوحشة.

بدأت الاحظ، بعد أن تركت المصنع ونقلـت اغـراضي إلى بعقوبـة مؤقتا حتى استطيع العودة إلى بغداد، زيارتها الليلية التي تنتهي دائماً عند منعطف الشارع المظلـم والخـالي مـن الانـارة. اكتشـفت في زحمـة الليـل والعبث انها كانت تختفي في الظلمة وكان احدهم يعبث بها وكنت اسـمع الشهقات والتوسلات والغطيط. في اليوم التالي كنت اتسمر أمام زوجتي مرعوبا. كنت اشهق بالخوف وارتعش حينما اتصور عاصفة الخـراء التـي اخذت تنثر اضاليلها في حياتي.

قررت فجأة العودة إلى بغداد واصطدمت بهلع العالم وهـو يـدلني على دروب الخراب. كنت مشوشا لكن كان هنـاك اصـرار غريـب عـلى العودة ثم اصطدمت بعدم قـدرتي عـلى تـوفير ثمـن الايجـار. سـرت في شوارع بغداد مثل تائه. وجدت شـوقي كـريم في البـاب الشـرقي يبيـع السميط، سلفني رزمة مضحكة من الدنانير.

كنت أسير هاربـاً مـن الاضـطراب والدهشـة والخـوف والقـرف لاكتشاف الآلام. جلست أمام دجلة اوقاتا طويلة. كنت اجوع وامـارس طقسا هندوسـيا للصـيام. الشئ الوحيد الذي لم استطع الاقلاع عنه هـو السجائر.

اخذني أحد الأصدقاء إلى بوابة جامع الحيدرخانة وسلمني ملابس ممزقة ودهن وجهي بمادة سوداء وجلست اشحذ. كانت عملية صـعبة. لم

أعرف انها أكثر الأشياء ألماً في حياتي، لكني كنت أشعر بنوع من السعادة. في اليوم الاول حصلت على مبلغ معقول. تناولت كبة السراي وشربت شايا واشتريت احدى روايات غارسيا ماركيز الجديدة.

في الطريق إلى المنزل اجتاحتني حمى غريبة. حمى ليست من هذا العالم، إنما من عوالم اخرى. عوالم بعيدة. وصلت بعقوبة وأنا أشعر بتوعك مزاجي واضطرابي وارتفاع حرارتي إلى الحدود القصوى. طلبت ماءا باردا ونمت في ابدية طويلة. كنت احلم بعصافير ومعالق من الذهب وابنوسات سحرية تمر في أحلامي مثل زهرات عباد الشمس الكبيرة.

كنت أسافر في غيبوبتي إلى المتاهات البعيدة. زرت واشنطن وزيورخ ولكسمبورغ، زرت مساحات مدهشة من حدائق تمتد إلى النهاية وكنت اسمع هسيس زوجتي وخوفها من أن لا استيقظ إلى الأبد وأنا في حالة الحمى الكونية الاصعب في هذا العالم.

استمرت الحمى معي دهراً طويلا اضطرت فيه الزوجة إلى بيع مصوغاتها الذهبية. عرضوني على افضل الاطباء المتبقين في العراق. حملوني إلى كل المختبرات المتبقية من ركام الحصار. نثروني في الطرقات ومجاري الهواء والعواصف. جمعوا لي خلاصة الازهار الهندية وحشائش القط الاسود. حرقوا لي البخور وقرأوا على رأسي آيات من القرآن في محاولة لافاقتي. كنت بالرغم منها اسمع احاديثهم واسمع فوضاهم واسمع تأوهاتهم وادعيتهم وقراءاتهم.

كنت أسافر في تلك التهويمات إلى كل تاريخ العراق. حلمت في رؤى مغيبة وضبابية باوتو نبشتم وحلمت بمدن اور واكد وسافرت مع

ابراهيم الخليل في رحلته العراقية والاسطورية متنقلا على ظهور البغال والحميرمن اور الكلدانيين إلى جبل هرارات وجزيرة الترك وبلاد التتر. كنت اشاهد طفولتي البائسة وصرخات جدتي وهي تنزع النعال الاسود وتهطرني به. نعال مدمر كانت تضرب به الصراصر ثم وجهي.

كنت اعيش افتتان الزمن وخيبة الحاضر واضطراب المستقبل ورأيت في الأحلام أطفالي وهم يساقون إلى الخدمة العسكرية في بلاد السند والهند. شاهدتك سيدي الرئيس وانت محمول على الاكتاف وتسيربين الجماهير. الجماهير سيدي الرئيس التي لم تكن تعرف نهاياتها مثلما لم تعرف بداياتها. كان فضاءا خفاقا من الالتياع والمساءلة المجنونة ونحن معك نبحر في عوالم الوهم الازرق والضباب الرمادي وضوء قمري ينير لنا طرقاتنا.

شاهدت في المنامات أني أسير خببا واستقرء الزمن وبين اجنحة الألماس التي نبتت لي، كنت أسافر في متاهات عميقة لعراقيتي البائسة والحروب الجهنمية وحروب الكفار وحروب قريش التي دفعنا ثمنا باهظا ولم نزل، من أجل السلطة الخرائية وصراع إلى البيت حولها ومن اجلها.

كنا نبحر في قوارب الصيادين سيدي الرئيس عراة في عراقنا الغريب عن السماء. عراق خال من الدهشة والاضطراب واللعنة التي تلاحقنا منذ أن وضع ادم وانبت اول بلد وحضارة في هذا الكون، في العراق الرائع والدموي.

كانت جدتي تضربني سيدي الرئيس ليس بنعالها فقط، إنما بكل البؤس الذي نعيشه. بكل المأساة التي تسير حياتنا من الحضيض إلى

الحضيض. كنت أريد أن أكون كاتباً. يا للبؤس وجدتي تقول لا وتعارض هذا الهوس الغريب في العائلة، هوس الكتابة والحلم والشفافية. كنت الوحيد المتبقي من عائلة خرائية. عائلة لا تعرف إلا الحروف ولا تعرف إلا الحلم والحلم فقط. تنسى الواقع وتنسى مرارته.

كانت جدتي تتعذب وتتقلص اعضائها ووجهها المليء اساسا بالتغضنات كلما أقول لها سوف اترك دراسة الهندسة واتجه للكتابة الابداعية. كانت تضربني بالنعال التوارتي، حتى وأنا بذلك العمر، لأنها تدرك عظمة الحياة وخرائية الزمن. كانت تدرك أن وراء هذه المحنة والمهنة، الألم والبؤس والفاقة والأحلام بعوالم الامجاد الزائفة. كانت تتذكر ابي، ابنها الوحيد، الذي سرقته تلك المهنة اللعينة من الحياة والتمتع بها وحولته إلى حياة غجرية مشتته. سرقته لأنها حولته إلى إنسان تائه لا يهمه شيء في هذا العالم باستثناء وهم الكتابة والشعر. في البدء فكرت أنا أيضاً أن أكون شاعراً، لكن الشعر وخاصة العمودي منه لم يعجبني. كنت اكرهه وأنا احفظ ما مطلوب مني في المدرسة، قصائد الجواهري والبحتري والمتنبي وقصائد أصحاب المعلقات الخرائيين. بعد ذلك صرت اكره الشعر ذاته ولذاته. اعتبره فنا بائراً لا يمكن له أن يلامس الانثناءات المفصلية في الحياة ولا ليبدد الاعماق المنكسرة للنفس ولا اوراجزم الشهقة الجنسية حينما تتفجر في معين الذات وتخرب الوجوه والافواه والاصابع المبتردة.

تحولت أمام كره الشعر العمودي، إلى الكتابة النثرية التي وجدتها رائعة، ملغزة، عاشقة، وسنانة وتنبئ عن امل كبير في الحياة. عن امل وقدرة جهنمية على التعبير الصامت والايمائي لحياتنا المرتفعة من الفقر. النثر الذي يشعرك بخزي الاخر وانهيام الذات وتبلور الفكرة وصعق

التعبير وحلاوة المفردة وتقديسات الجنون، مثل نصيف الناصري و اراغون ومثل عبد القادر الجنابي وعبد الستار ناصر في غزواته الشبابية حينما كان لا يزال يلاحق العصافير الضاجة في حفلات دار الشؤون الثقافية وحفلات اتحاد الادباء.

وجدت النثر أكثر خصوبة ومزاجية من الشعر العمودي الباهت والمقوقع والتافه والغارق بين البحور والعته والاوزان والتيه والاحمرار والسجع. النثر أكثر قدرة على المداورة وحل الالغاز الاسية لحياتنا الواهنة والسريعة والمتفجرة. الكتابة كانت الشيء الوحيد الحقيقي في حياتي البوهيمية، الحياة الحيوانية وأنا أسير في الشوارع حاملا دفتراً صغيراً منتهزا هزال الزمن لاكتب ترنيمات ميتة لموت الإنسان والمدينة. المدينة التي قررالزمن أن يدفنها في هذا الغباء القادم من العوجة وتكريت وسامراء و الدور، الكتابة كانت الشيء الوحيد في هذا العالم الذي احببته بصدق. احببته لكونه أكثر الأشياء شخصانية واكثر الأشياء سرية بالرغم من أني حينما اكتب كنت لا احتفظ بالاوراق في ادراج سرية وفي أمكنة مفرغة من الهواء خوفا من عواء الذئب الذي يتربص بحياتنا دائماً.

كنت اسجل ملاحظاتي عن العالم واخبئ تلك النصوص في الجودلية وفي الفراش وفي الوسادة حتى عندما ارادت جدتي أن تغسل الفراش بعد استعماله لاعوام طويلة اكتشفت ما يشبه الفوضى وتطايرت الاوراق وتحول ماء الغسل إلى بحيرة من الحبر الازرق الملون بتعريشات الأشجار وضروق العصافير ونبوءات مدونة للازمنة الاخرى. الازمنة الغبية والحقيرة التي حولت حياتنا إلى ميلودراما ووجع وحزن وتشرد في ارجاء العالم. كنت اكتب بشكل سري للغاية. لم أكن اعرض كتابتي

على احد، حتى عبد الستار ناصر الاله الفوضوي لازمنتنا اليائسة لم يكن يعلم بها.

كنت اكتب نوعاً من الخواطر، نوعاً من النبؤات التي اكتشفت بعد عشرين عاما انها لم تكن إلا تنبوءات عن الخراب والذل والعار الشخصي والاجتماعي لبؤس الحاضر واسوداد المستقبل المنقوع ببراز..... الذي دمر حياتنا وحياة كل اللذين سيجيؤون بعدنا ولاعوام مديدة وطويلة واسطورية.

كنت اكتب واخبئ كل شئ. اخبئ الافكار والاسلوب والتخيل والاستشفاف والاستشراف لاني كنت أعرف أن مصيبة حياتنا قادمة حتما دون تأخير عندما شاهدت تعملق الأجهزة الأمنية وتطوع كل اصدقائي للعمل فيها وتحول الأطفال إلى طلائع وضربت الحركة الكشفية السلمية وبدأ انهيار سلطة العقل وانفلات هوس الاعتقالات وانحسار البسمة. عالم كان يتكون من الداخل تحت اشتراطات الموت والتحقيقات السريعة والاعدامات المتتالية لكل شيء جميل في حياتنا. كنت أعرف أن الشيوعيين مناويك وقواويد لكني استشففت أن حملة مطاردتهم تنبئ عن شيء مجهول قادم.

كانوا يقولون لنا إن هناك سجن واحد هو سجن (أبو غريب) لكن هذا السجن الرهيب والكبير أصبح مجرد ملهاة ومجرد شيء علني لقائمة طويلة من السجون السرية. كنا نسمع عن السراديب والغرف الخانقة والسوائل الغريبة وحامض الكبريتيك المركز الذي يرمى فيه المعارض للنظام من أجل أن يذوب كل شيء فيه ويتحول إلى العدم.

كنا نضيع بين الحقيقة والخيال ولم نعد نعرف أين يختفى الناس في

زمن كابوسي. تحول الجميع إلى مخبرين سريين وجواسيس ومبلغين وعسس ووشاة وعهرة وقواويد ونكرات ومناويك.

كان هناك فرق بين كل هذه التسميات،كل تسمية تعني شيئاً معينا مخالف للصيغة المعروفة عنها. فالقواد يعني الذي يشهر باعراض الناس من أجل المنصب والوشاة هم الذين ينتشرون في اروقة اكاديمية الفنون والجامعات ومقهى حسن عجمي ليلتقطوا الأخبار ويرفعوها إلى القيادات الثقافية.

كان هناك نوع من الفوضى السحرية والعواء. تحويل الإنسان إلى جهاز غريب وحقير للدس والنميمة والغيبة والايقاع. لم تكن الدسيسة مركزة في الوشاية بك لمكتب وزير الثقافة أو الوكيل الاقدم أو رعد بندر أو لؤي حقي أو عبد الامير معلة أو مديردار الشؤون الثقافية أو عبد الرزاق عبد الواحد أو نوري المرسومي أو خالد مطلك. إنما تشمل كل علاقاتك الخارجية مع ادباء غادروا العراق منذ ربع قرن، ضمنها معرفة محتوى الرسائل التي تنطلق من بغداد لتصل باريس وميونيخ واستوكهولم ولندن وبرلين وكولون حيث يتسامى خالد المعالي ونجم والي وجمال جمعة ومحمد مظلوم والصكار وعبد القادر الجنابي وفاضل العزاوي في صحبة الجميلات الشقراوات من اتباع الاحزاب الشيوعية الاوروبية وحركات الهيبز وعبدة الشيطان وعبدة مخلوقات اي تي القادمة من الفضاء.

كان الاخطبوط يدمرنا، يسحقنا وعندما تكتب إلى أحد الذين خارج الوطن تكتشف انه سبقك احدهم وقال عنك أن هذا عميل للسلطة البعثية والانكى أن من ارسل الرسالة هو عضو في منظومة الشر القائمة على التسقيط والمحاصرة. عندما تسير في شوارع بغداد وانت

تلوك صمونة بالعنبة وهي ارخص شطيرة في العالم، تفاجأ ببعض الصعاليك المفترضين، يشربون الويسكي يوميا ويأكلون في فندق المنصور ميليا ويلعبون الورق ويقامرون بالدولارات ويتسكعون كل بضعة اشهر في شوارع عمان.

كان عليك أن تكتب في كل هذه الفوضى. عليك أن تكتب في كل مكان وأن تخبئ ما تكتب. تخبئ حروفك واقلامك المستعارة من محمد الاحمد، الذي كان يزودنا أيضاً، بورق مسروق من جهاز الكومبيوتر الخاص بشركة نفط الشمال من أجل أن نكتب بعد أن أصبح الورق ثمينا. كنت اكتب قصاصات وافكار واخبئها للزمن القادم، لكن الزمن القادم لم يكن في الحقيقة غير زمن سيء اخر وكأنما كتب علينا أن نعيش إلى الأبد في ظل لعنة اسطورية هي لعنة الحرية التائهة وضياع البراءة والحب.

ليس هناك ادباء في هذا العالم يكرهون انفسهم والاخرين مثل كتابنا. ليست هذه تهمة بائرة، إنما حقيقة كلية وعظيمة. كنت اخاف منها مثلما يخاف عصفور هش العظام من عاصفة الزمن الغبي وهي تجتاح ارواحنا المعذبة. لم أعرف سر الأسرار العميقة الداخلة في حيثيات هؤلاء الادباء الغارقين أيضاً في متاهة الأشياء المبعثرة في حياتنا. كنت أشعر أن الشئ الوحيد المتبقي لي في هذا العالم القذر هو مجرد وريقات وقلم حبر اصيغ به العالم والحياة القميئة التي كانت تنحرنا مثل خراف مسكينة.

غالباً ما كنت احمل دفتري الصغير. اخربش وأنا اجلس في مقهى الشاهبندر أو على مسنيات الزوارق الاسطورية الغارقة في تيه المكان. أو في مقهى البرازيلي الذي اغلقوه بعد أن حطموه تماما. كانت الدهشة

تلفني وأنا اشاهد مقهى البرازيلي وهو يذوي كل يوم ويتحول إلى منظر باهت وضائع في غلالة من الضباب والتراب. التراب، تلك المادة الغريبة التي كانت تتجمع فوق طاولات ومناضد وقهوة مقهى البرازيلي لتومئ إلى الزمن القادم وهو زمن الغربة العظيمة.

كنا نعيش في الوطن، لكننا غرباء عن بعضنا البعض، غرباء بالنسبة للاخرين ولانفسنا أيضاً. لم أجد تفسيراً لما يحدث لكني كنت موقنا اننا نتجه إلى نهاية خرافية. نهاية كل شيء وهي حتما الانفجار الكلي والمدوي في الزمن والضياع.

جدتي كانت تعرف انني امارس الكتابة وكانت تقرأ الافكار المجنونة التي تكتسحني عادة في كل الاوقات وغالباً في الوحدة القاتلة التي كنت اعيشها وأنا في الدرك الاسفل من الانحطاط الروحي. لم استطع أن اشرح لجدتي ما تعنيه الكتابة. كنت اراهن على خيباتها المتتالية في هذا العصر الحقير. الخيبات التي روتها لي في ما مضى من الزمان عندما كان ابي يكتب أيضاً لكنها لا تعرف القراءة ولا تعرف الكتابة ولا تعرف الهوس الغريب الذي يلف المرء حينما تجتاحه تلك الحمى المتطفلة والقادمة من المجهول لتستمر إلى مجهول اكبر.

كانت تعرف أن ابي يكتب أيضاً اجناسا ادبية وعرفت كم كان الثمن غاليا يوم أن داهمتهم الشرطة السرية – شرطة الزمن الملكي ما قبل عام ٥٨ وشرطة الحزب الشيوعي عام ٥٨ وشرطة القوميين عام ٦٣ – وهي تبحث عن المكتبات في البيوت وتقلب الكتب وترمي الاوراق في الطرقات ثم تسحل الذين يكتبون.

كانت تتذكر ايامها التي انصرمت بقوة الالهة الكونية يوم فقدت

ابنها. منذ ذلك الفقدان الكلي للحياة كرهت الكتابة وكرهت هذا الهوس الغريب لفلسفتها والتشيؤ والانحلال والاضطراب والغيوم التي تثقل حياتها العابرة. اكتشفت مع الكتابة، المرض والجوع والدهشة والانسحاب كليا من الواقع وفي ايامها الماضيات اصيبت بخيبة امل كبيرة كون ابنها الوحيد الذي ربته بكل ما تملكه امرأة من عاطفة، انه ليس إلا خراء وفقر وجوع وعري وعدم قدرة على مواجهة الواقع.

كانت الكتابة بالنسبة لها ليس إلا عبارة عن موت معلن. موت مع سبق الاصرار والترصد. موت مع دهشة وعدم قدرة على التواصل وكسب العيش إلا بالقرميط. عرفت من تذكاراتها السابقة أن الكتابة هي عبارة عن مرض وهوس يصيب البشر الاكثر قدرة على تحسس الأشياء ومنها رؤية الجوعى والحفاة والعراة وكان الوطن مليئا بهم ولم تصير هي إلا شبح يسير في هذه الفوضى العارمة من الموت. تعلمت من ابنها بعض أسرار الكتابة وعرفت عن طريق الصدفة، أن الكتابة هي مهنة الذين لا يمتلكون مهنة وانه لوكان حدادا أو حتى نشالا فإنه افضل مائة مرة من مهنة الورق هذه التي تجوع اصحابها وتورثهم الصفاقة والملل والتبطر والتسكع بين المقاهي ومجالسة المشعوذين ومسايرة القحاب ومعرفة الامهن ومتاعبهم.

لم استطع بالرغم من معاناتي العظيمة، أن اوضح لها أن الكتابة ليست مهنة حسب وانما هي شيء اخر، شيء له ملامح البطولة وعدم الزيف والتماهي مع الذات. الكتابة، كنت أقول لها، ليست التسكع بين المقاهي وليس العيش الطفولي على نتاجات الاخرين واموالهم. إنما هي لذة مقدسة انتجتها الطبيعة وباركتها الملائكة وأن الله نفسه عندما فكر في صنع الكون كون افكاره الاولية عن الحياة بالقلم والكتابة.

لم تنفع كل حججي وافتراءاتي في اقناع جدتي عن مغزى الكتابة. وعندما شعرت اننا نفترق فيزيائيا على الاقل، تركتها تحس بغصات مؤلمة وارتياب ودمعة تضطرب وتتكون لتنزل على الخد المجعد والمليء بتغضنات السحر والزمن والخرافة. كنت استذكر، هل أني عندما اخترت الكتابة كنت أشعر بالبؤس وعدم انسجامي مع الواقع. أو أن محاولاتي الكتابية ليس إلا استعراضا كيميائيا لنقص نفسي..

في بعض الاحيان كان يداهمني شعورالعزلة. العزلة التامة والصامتة والمدوية. صمت غريب متأصل في الروح وكنت اتسمع لدقائق الساعات وهي تحفر في الذهن متاهته العظيمة. في بعض الاحيان وعندما تمر بي الازمنة النفسية القاسية. استشعر العار الشخصي الذي انوء به كوني كاتباً وكوني ممتهنا اللامهنة والضياع القرمزي وشارات الخجل تؤطر حياتي. كنت أنظر إلى الزوجة بالم والى الطفلة ببؤس كوني. اردت في يوم ما أن أكون أنا عبر الكتابة واغادر احساسي بالضياع واللاشيئية، فكانت الكتابة هي الشئ الاكثر بروزا وتأثراً في تكويني البيولوجي والقدرة على النرجسية العالية.

كنت أعرف أني مريض بمرض الكتابة وأعرف أني بائس فعلا، لكن هذا الاكتشاف لم يدفعني إلى تبني خيار اخر أكثر مسؤولية. التذكار الجميل الواحد والوحيد في حياتي كانت قصة نشرت لي في مجلة الطليعة الادبية والتي كرستني منذ ذلك اليوم الأكثر بؤساً في حياتي. كاتباً إلى الأبد. عندما شاهد الاقرباء القصة تلك باركوا لي، هم والأصدقاء لكن عندما اتخذت الكتابة مهنة وضياع ذاتي، ضحك علي الجميع واعتبروني الفكرة الاكثر بؤسا في تسلسلنا العائلي. اعتبروه فشلا لمشروع الحياة التي كنت اعيشها بنزق الفكرة وهوس اللوعة وارتعاش اليد.

كنت أشعر مع تلك القصة - البداية - أني امتلك الكون الشاحب حقا. امتلك ناصية مطلة على العالم تغرقني في كلية الحدث المدوي. لكن الكتابة جعلتني فيما بعد متوحدا. ذاتيا جداً. أنظر إلى الاخرين على اعتبارهم توصيفا قصصيا ومشاريع كتابة. كنت استقرأ النساء في الشارع واحلم ببوهيمية وسادية الاستيلاء على اجسادهن وفحصهن وتقليبهن.

كل شيء في المرأة يغريني. انحناءاتها. وقفاتها، تسريحتها. شعرها. قلادتها، عطرها، زينتها، اساورها. سائلها المهبلي، بولها، افرازاتها العرقية. تكويناتها الانثوية الاخرى. النهد، الخاصرة. الكتف، الاباط. الشعر. شعر العانة. الكتابة جعلتني حساسا أكثر من اي شيء في هذا العالم.

كنت الصعلوك الاكثر اناقة من الاخرين. ملابسي مكوية وحذائي دائماً يلمع وربطة عنقي مدلاة وسلسلة فضية في عنقي وشعري لامع ووجهي مغسول بماء الكولونيا.الا أن في داخلي يقبع الصعلوك الابدي. الصعلوك العظيم والاوحد والاستثنائي في هذا الكون. كنت ابصق على المال. اعتبره قوة اسمية فقط لكنه قوة خفية وحقيرة. قوة مبهمة وفلكية وقادمة من مدارات الزمن ولو أن للمال قيمة حقيقية لانبته الله على أشجار اليوكالبتوس والنخيل. كنت اكرهه حتى إلى الدرجة التي لم أكن احتفظ فيها بفلس واحد في جيبي. اذا احتجت سيجارة اخذتها من خضير ميري الذي اخذها أصلا من حميد قاسم، اذا احتجت الجنس ازور وزارة الثقافة وامارس الاستمناء في مراحيضهم واذا احتجت دنانير استلفها من صلاح زنكنة واذا احتجت كتاباً اسرقه من مكتبة عبد الستار ناصر. أما الملابس فكان يكفيني أن أرتي بناطيل

شوقي كريم وقمصان جمال السوداني المهترئة أصلا من الغسل واللبس وارتديها.

كان هذا قبل الحصار، أما في الحصار فقد تغير كل شيء. كل شيء تحول أمام النقود إلى شبح قاتل. شبح رهيب. لم اعد احصل على سيجارتي من خضير ميري ولا الملابس من شوقي الذي اخذ يبيعها وجمال السوداني في الباب المعظم. كنت مصيباً كوني اكره النقود واكره المال لقوته المدمرة والسوداء والحقيرة. لكني اصدمت أن كل شيء مرتبط بالمادة. الكون والحضارة والكتابة والزمن والفن. كل شيء خاضع له، لذلك انهار الاتحاد السوفيتي وانفلتت الرأسمالية تطرح غرائبها وقوانينها البهيمية في كل مكان. تحولنا إلى اشباح راكضة وحيدة في هذا العالم. روح مدمرة تبحث عن مكان لها تحت شمس البرجوازية والنظام الهائل الذي صيرنا ماديين إلى الدرجة السفلى من التكوين الإنساني. لا بل اعادنا إلى الحياة البوهيمية، الحياة الاولية وأصبحنا وحوش ناطقة تمتلك العلم والايديولوجيا والبراهين العلمية والنظريات الاقتصادية والتسابق والهستريا.

حولونا إلى ضفادع نقناقة متوحدة لانفهم من الزمن إلا عدد الساعات التي نعملها من أجل تكوين النقود والنقود فقط. أما المشاعر والحب فهي افرازات قادرين على استجلابها وقتما نشاء عبر التشيوء مع القوة المادية المتجبرة.

كنت اشاهد وفيما الحمى تداعبني بهوسها الهذياني. الزوجة ونثار اهلها وهم يحيطون بي. كنت المح جدتي وشبح من نور متأرجح كان ينطلق منها. صوت يشبه صوت الضياع. كانت الحمى تفتك بي. عرفت في هذيانها أني اسمع زوجتي وهي تقول لامها، بعت اخر قطعة من

الذهب املكها وحملوني مثل تائه إلى مستشفى بعقوبة. هناك، سلموني إلى التيه، إلى ايدي خشنة ومتصلبة وحملتني هذه عبر دروب وممرات المستشفى السرية إلى سرير عار من الاغطية. رموني مثل حيوان صغير بغير اهتمام وتركوني اعاني من تخيلات الحياة واضطراب العالم ودهشة الرؤية المغيبة.

مرت خمسة ايام طويلة.. بعد ذلك جاءت الزوجة إلى المستشفى ووزعت النقود على الاطباء والمعينين. حملني هؤلاء إلى مكان اخر. مكان كانت الدهشة فيه كبيرة وأنا ارى العالم المتحول إلى فضاء جميل من الورود واللوحات القديمة والممزقة، لكن الجميلة. شخص الدكتور على عجل مرضى وقال أني بحاجة إلى الوحدة التامة والى حضور قوي من الصلاة إلى الله.

في اليوم التالي ادخلوني غرفة العمليات ووضعوا على رأسي جهاز الرجات الكهربائية. كنت اشاهد زوجتي وهي تبكي وعرفت أن ضربي لها سابقا لم يمنحها فرصة الانتقام من القدر الجميل الذي جعلني زوجها إلى الأبد.

خرجت من المستشفى بعد عدة ايام، أشعر بضياع تام. بضياع متجبر وهو يسحلني ويدور بي في طرقات العالم اللانهائية. اخر مانملك من ثروة تبدد وضاع إلى الأبد. كنت أشعر في يوم ما، انه بهذه الثروة يمكن لحياتنا أن تستمر بضعة اخرى. بضعة مجنونة توصلنا إلى نهاية الحصار العارم الذي اخذ يلتهمنا مثلما يلتهم الصدأ معدنا. لم نعد نفكر كم سيستمر الحصار. كنا نشعر انه سيستمر إلى الأبد. البعض قالوا إن كوبا حوصرت ثلاثين عاما، فيما فسر البعض الحصار على انه عقاب من الله لمخلوقاته العراقية. كل يوم يمر من عمر الحصار كان يعني

انحطاطا متواليا لقيم الحياة. تحولنا إلى حيوانات ضعيفة. تحولنا إلى عصافير غير قادرة على الطيران. تحولنا إلى سلاحف وضفادع تنق وعضايا تتحرك على الجدران بوضع شأقولي وقد اعياها البحث عن الفرائس. كنت اذهب إلى بغداد واتسمر أمام نهر دجلة. انزل إلى الضفاف واحاول قراءة الزمن وقراءة المستقبل. لم نعد نفكر بالمستقبل.

أسير في طرقات بغداد واستقرأ النفوس. الاحظ كيف تحولت نظرات الناس إلى نظرات شريرة. العيون شيء غريب تفصح ما بداخل هذا الكائن الغريب.

كنا عكس الحيوانات. عكسها تماما. نظرة الحيوان لا تفسر ذهن الكائن. لكن نظرة الإنسان وعينه تشيان بالتحول والتفكير والقرار. بغداد تضمحل. تسير في ظلامات الشوارع وتتجه إلى الغيب المخيف. شوارع بلا اضاءة، بلا نور. اشباح تنداح في المصيبة الجاثمة وتدخل في متاهات. في الشوارع الموحلة وفيضان المجارير والمياه القذرة والروائح القاتلة، تعبر القحاب متاهة الزمن وتصادف النساء المطرودات من المعبد الالهي وهن يذرعن الشوارع بعباءاتهن الموحلة. كل شيء يضمحل. رجال مستعجلون جداً يتعاملون مع القحاب اللاتي ازداد عددهن في الشوارع بعد الحروب وبعد قرار اغلاق بيوت الدعارة والبارات والنوادي الليلية.. شعرت بالشهقات والغصة تتصاعد إلى فمي وأنا اتيه في هذا الملكوت الشيطاني. الملكوت الخارج من قبضة الله نحو دسيسة الامل المضيع والتناثروالتلاشي في مدن غريبة.

لا، ليست هذه بغداد. ليست شارع السموأل ولا الرشيد ولا (أبو نؤاس) كل الضياعات تتجه نحو دواخلنا. مع الضياع المديني لبغداد كنت اتحسس قلبي التائه. اتأكد من انه لم يزل. لم تزل خفقات قلبي ترن

مثل جهاز موسيقي يحاول أن يديم الالحان وأن يديم الاغنيات إلى الأبد.

العيون كانت تتحول وتنشطر إلى نوعين غريبين وغير مألوفين. عيون أصبحت شريرة ومخيفة وعيون ضاعت في هذا الخضم وأصبحت غير قادرة إلا على التأمل. أنا كنت من المجموعة الثانية. نوع من الغباء والاستسلام للمصير. صرت افهم الآن لماذا تستسلم النعاج لسكين القصاب بكل سلطة الرضوخ العارم.

بغداد تتحول إلى نصفين. نصف ضبابي ونصف اخر لصوصي. اللصوص دائماً يعيشون على دماء الاشباح والاشباح كانت تستسلم إلى هذا البيات المدو والبارد. كلما تنتهي الحصة التموينية. كنت اهرب إلى شوارع بغداد. اهرب إلى سوق الحرامية حيث عالم التبادلات المصيرية. كنت أعرف أني في يوم ما سوف اواجه المصير ذاته.

يا للرعب، إما أن اتحول إلى لص أو اتحول إلى شبح راحل مع الاف الاشباح لنضيع في متاهات هذا الكون. كنت أتأمل الله. ليس في الجامع. إنما في المتاهات. ليس في العلن، لكن في السر. ليس أمام الناس لكن في الخفية. أسير وأفكر فيه بعمق الفكرة وتركيز الحواس وبعثرة الاراء. أفكر فيه بقوة، مدركا أن هناك ثمة خطأ حصل في مسيرة الإنسانية. كنت أفكر انه كيف فرضوا علينا الحصار. كيف واتتهم الفكرة أن يدمروا مجتمع كامل بهذه القسوة وبهذه الهمجية. شعب كامل يموت ويتحول إلى نفايات. ثقافة وفكر وعلم وحضارة وتيهان من الاحاسيس. الآلام لم تكن لها نهاية. الآلام ليست ضمن حدود العقل. حياة ليست ثمينة إلى الدرجة التي قرروا فيها نفينا من هذا الكون.

اثناء سيري تائها في الطرقات كنت اشاهد النساء وهن يبعن حليب أطفالهن على الارصفة، يتحول العالم إلى عربات فقط. الاف الشباب الضائع في هذه المتاهة البوهيمية يفترشون الارصفة يبيعون العلكة والشوكلاتة. اسواق عامرة بالبضائع لكن الفاسدة. كل العالم رمى نفاياته علينا. اسواق مليئة بكل انواع الاغذية المقدمة من الدول الاخرة كمنحة لكنها تباع هنا. من هو الذي يسيطر على هذه التجارة المؤلمة. التجارة بحياة البشر والأحلام والحب.

لم اعد قادراً على الحب. الاخرون أيضاً لم يعودوا قادرين على الحب. كلنا تحولنا إلى احجار صماء في ضياع الحب. اكتشفت كم كان الحب عظيماً، مدويا، جباراً. لم أفكر في اي يوم سابق عما يصنعه الحب في افئدة الناس. في الحصار اكتشفت أن كل شيء هو الحب. كل شيء هو الابتسامة الغائبة والضحكة والتيه والغريزة والشهوة. كل شيء مرتبط به. هذا الذي ليس له مكان محدد في جسم الإنسان لكنه يسيطر على العالم بقوة ايحاءاته وجبروته الحديدي.

أنظر للافق بعين التيهان واللاجدوى. ليس هناك امل يلوح في المستقبل القريب. المستقبل تحول إلى اغنية عابرة من زمن ما في مجرى حياتنا.

جدتي كانت الإنسان الاكثر ضياعا في هذا الجبروت. كانت تتحدى الحصار بثورتها على النفس. تأكل اكثر. اكتشفت كم كانت حياتها متكلفة. لم تتأثر بالحصار. دمرته أمامي وعلى صرح الجوع العظيم. تطالبني كلما زرتها بعد أن انتقلت أنا إلى بعقوبة وهي إلى بغداد، بالحليب. الآن افترقنا إلى عالمين مختلفين ومختلقين. لم أعرف كيف سوف اتدبر أمر جلب الحليب لها. أنا شخصيا انقطعت عنه منذ بدء الحصار

لكنها تستمر في استجلابه عبر الزمن واللاجدوى واللاتأثر. لم تكن تريد أن تفهم أن الحصار دمرنا إلى الأبد. في احدى المرات اضطررت أن اشتري نصف كيس صغير من الحليب وخلطته مع الطحين وحليب الأطفال. عندما تذوقته جدتي انكرته وقالت لي بعصبية وتوتر، أنت تريد أن تسممني.

لم تفهم تضحيتي المريرة بحليب الأطفال الذين حرمتهم من شربه واعتمدت في تغذيتهم التمر فقط. عندما يكبر الإنسان ويشيخ، يتحول إلى كائن خرافي. كائن تضيع في حياته الروئ والأحلام. يتحول إلى كتلة كونكريتية من عدم الفهم. دفعتني جدتي إلى الجنون. بدأنا أنا والزوجة في ضياع كلي. لم يعد أطفالي يشكلون أهمية لي. كنت أريد الهرب منهم إلى عالم اخر، ليس إلى الزمن الماورائي، إنما إلى زمن اخر مشوش حتى في أحلامي.

زرت عبد الستار ناصر في مقر عمله الجديد في وزارة الثقافة والاعلام. كنت اشاهده واخرين يشربون البيرة في متاهات الحياة. يشربون بنهم. لم يكونوا يعيرون النقود الصعبة أهمية، ويستمرون في معالجة حالة التشوش الذهني والحصار بمزيد من السكر. قال لي عبد الستار ناصر إن هناك مشروعا لطبع روايات على نفقة الاستاذ عدي. اقترح أن تقدم واحدة.

عدت إلى المنزل في بعقوبة وأنا أفكر في موضوع الرواية. ليست الافكار ما تنقصني، إنما اليات الكتابة. الورق، الاقلام. والوقت وحالة الاختناق الذهني. أمام ضياعي الذي كان يحاول تحطيمي، شعرت أن بالكتابة وحدها استطيع الانتصار على هاجس الخراب والموت البطئ. لكني اعاني افلاسا فظيعا.

زرت أحلام منصور في بيتها الزقاقي في الاعظمية. طلبت منها أمام كولالة نوري وهي بثوب مخردق. أن تجد لي عملا. اقترحت أن اعمل في فندق أحد معارفها. اخذت العنوان وذهبت سريعا إلى ذلك الفندق، كان يقع في الكرادة. خرج صاحب الفندق ذو السحنة السمراء والشعر الاشعث والعينين الداميتين والانف الصقري قال لي إنه لا توجد عنده إلا وظيفة نادل. عليك أن تلوك الخراء إلى الأبد، فكرت. سوف اقبل من أجل تأخير ضياعي فقط ومن أجل توفير كيس حليب غير مخلوط بالطحين، لجدتي.

فكرت بها في تلك اللحظة الجنونية، في لحظة فقدان الاتجاهات. فكرت فيها انها تنام الآن في متاهات النور والظلمة العابقة بروائح النفتالين وروائح المراهم وهي تلوك الزمن غير متفهمة الابتلاءات.لم تكن تفهم ما لذي يعنيه أن تفكر بقتل أطفالك عندما تصل إلى الحافة القصوى من الجوع والعوز ثم الارادة المحطمة. لم تفهم في ملائكية الزمن الرث وسيكولوجية الشيطان ودسه المستمر، أن أفكر بقتلهم واحدا واحد ثم انسف راسي بطلقة نارية مجنونة وانهي سفالة الحياة.

جربت في ضياع الاتجاهات والخراب والاكتئاب الحاد الذي بدا ينخرني. أن ابيع ماتبقى لي من الاغراض. كتبت الرسائل إلى كل الأصدقاء خارج العالم المهلهل الذي نحيا به وفيه. كتبت إلى خالد المعالي ونجم والي وبعض الاخرين. وعندما لم يصلني منهم شيء. كتبت رسائل أخرى إلى كل الادباء في العالم. الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم. طلبت عشرة دولارات فقط. عشرة استطيع أن أسافر فيها إلى عوالم مثلجة من البرد. عشرة دولارات من أجل أن لا اتذلل لعدي وللسلطة. أعرف انها ليست مبلغا كبيراً وانها ربما كانت ثمن واقيات ذكورية في زمن

الداعرات الجميلات في شوارع ستوكهولم ومدريد ومرسيليا. لكن كل الذين كتبت لهم نكروني مثلما انكروا المسيح قبلي.

يا للسماء، كانت جلجلة عظيمة. جلجلة مهيبة وأنا أسير كناصري في هذا العالم واعبر المعابد واعبر الدروب والطرقات، منحنيا للسادة الجدد في العالم التوراتي الذي يذبحني من (الشدق إلى الشدق). واجهت النكران العجيب بما ساعدني به محمد الاحمد ومصعب أمير اخذت اشرب قناني التوسيرام وأسافر في أحلامي المتتالية. حتى سالم قنديل الصعلوك الابدي في مساحات التيه البعقوبية منحني دنانير من أجل قنينة توسيرام..

امتلأت بغداد بالتكارتة واهل العوجة. اخرجونا من بغداد إلى المنافي الداخلية واستولوا على كل شيء.. ذهبت إلى اليرموك وصرت أنظر إلى بغداد من وجهة نظر اخرى. وجهة نظر ورؤية المبعد عن وطنه. المبعد عن مكان ولادته وأحلامه. تحولت في فنطازيا الانثناءات إلى نازح ومبعد ولاجئ. تزور بغداد لكن ليس لك الحق بالسكن فيها. اصابني الموضوع بالدهشة. اصبت بانبعاج وتشوه وتشيء. اصابني نوع من اللوخيميا وامراض غريبة وعجيبة. تحولت إلى يهودي تائه أو فلسطيني ضائع في زمن المرارة العظمى.

شاهدت في اليرموك، التكارتة واهل العوجة وهم ينثرون الاموال من أجل شراء المنازل. في البدء كان هناك بيت واحد صغير لتكريتي، إلا انه ومع صعودك سيدي الرئيس ومن الانفلات المزمجر للحرب مع ايران. تقدم التكارتة واهل العوجة مثل الصراصر الحمراء الكبيرة وهم ينبشون اليرموك وينبشون الاثاث ويسيرون على وجوهنا.

أحد سكان اليرموك اراد أن يحمل بندقية ويدخل على اول عائلة تكريتية وصلت ويطلق الرصاص، لكنهم اعتقلوه وهو يهم بفتح النار. كانوا مثل البراغيث المتطايرة. دمروا العالم وخربوا شبكات المياه بغسل ملابسهم في الطريق وحلاقة شعورهم في البانيوهات وفاضت اليرموك ولم تنفع اقوى شركة فرنسية قادمة من ما وراء البحار في التخلص من الجرذان والفئران وابو بريص الذي اخذ ينتقل مثل حمى من بيوتهم إلى بيوتنا.

كنا ننهار سيدي الرئيس وكل واحد منهم له اربعة زوجات ويتحرش باعراضنا ونسائنا وحفيداتنا. كنا نستغرب لماذا يحتفظون بالحمير مربوطة في حدائقهم الخلفية واكتشفنا في وقت متأخر، في وقت مضت فيه كل النوارس باتجاه الجحيم. انهم كانوا يتوافدون كل ليلة مع نساءهم والحمير والبقر والدجاج. نساؤهم كانت مثل براميل مملوءة بالخراء وأطفالهم يحملون المسدسات الكبيرة والتي هي هدية منك سيدي ويمارسون لعبة القتل في الشوارع وفي الايام المظلمة وفي النهارات الغائمة. كانوا يمتصون حياتنا وهم يسيرون في شوارع اليرموك رافعين انوفهم ويعتبروننا سقط متاع ضائع في هذا البلد الغريب.

كنا نعرف انهم يعتبروننا مواطنون من الدرجة العاشرة وانهم ارفع خلقا منا ولا يسمحون لبناتهم أن يلتقين مع نساءنا لاننا عبارة عن عار وبغادة. عبارة عن شيء مخجل. لكنا فهمنا بعد ذلك وربما بعد قرن كامل من الخيبات واللعنات والتصحر الثقافي والدهشة المعرفية والخيبات المتتالية وزحف الصبار والشوك ورعي الخرفان في الطريق. انهم بالرغم من تمسكهم الغريب بالسلطة لم يكونوا إلا رعاة، ووجودهم

هجمة جديدة، خالية من الطباع الارستقراطية وعادات مجتمع اليرموك المثالية والاكل مع الشوك والملاعق والموسيقى.

كانوا عندما يغزون حياتنا الليلية يحولونها إلى بعثرة للذات. في البداية هجموا على نادي الضباط ثم استولوا على نادي الصيد وبعد ذلك على نادي العلوية وغزوا شارع ابي نؤاس وكل ضفاف الدجلة. كانوا عندما يجلسون في نادي العلوية أو النوادي لأخرى ياكلون مثل الحيوانات البهيمية. ياكلون وتستطيع أن تشاهد عظام الدجاج وبقايا السمك على الأرض والذباب وقناني الويسكي الاسكتلندي مبعثرة ودشاديشهم ملوثة بالخراء وبعد أن ياكلوا كل شيء واي شيء يطلقون الرصاص على السقف والنوافذ ويطلبون سماع الاغاني العاهرة والفاجرة ويستولون في همهمة السكر وتعتعاته الحيوانية على ملابس الندالة ويرقصون على طلقات المدافع الرشاشة ومسدسات كولت وفي احدى المرات ارادوا أن يطلقوا صاروخا مضادا للطائرات على ذبابة مسكينة ليس لسبب معين إلا لأنها ليست من العوجة وتكريت وليست من البو عجيل وناصروخطاب والبو حطة والبو شيله.

كانوا مثل السفلس سيدي الرئيس ومثل الزهري والسيلان الغريب الذي اصاب حياتنا إلى الأبد ولم نعد إلا مومياءات في وطن هو أيضاً غريب وفوضوي وتائه ويسبح في بحيرة من الظلام. لم نعرف كيف كانت تسير الامور. خاصة بعد الحصار الملعون وخاصة بعد أن استولى التكارتة على الرسوم المعمارية ووزارة الدفاع وكلية الأمن القومي ووزارة النفط ووزارة التعليم العالي و تخرجوا في كل هذه الكليات ولانهم عبارة عن عارات اجتماعية، فقد خربوا الطراز المعماري لبغداد بانصبتهم المبعثرة ومبانيهم الخالية من الحس واحتضنوا فنانين هزيلين

ليس لسبب معين، إلا لانهم صنعوا لهم التماثيل الطولية و النصفية وجالوا في بقاع الأرض من أجل أن يمنحوا الاجانب رؤية سعيدة على اننا في الحصار الاسطوري التوراتي والخيالي لم نزل نصنع الانصاب ولم نزل نرسم بالزيت اجمل واعز وارقى لوحة في حياتنا وهي صورتك سيدي الرئيس. أنت الوطن والوطن أنت.

كنا سيدي الرئيس نغني لك واليك دائماً، حتى أن العصافير كنا نجبرها على النطق ونعلمها أن تغني وهي خرساء اغاني النصر والجهاد والانتصار على الامريكان الملاعين، فيما مئات الالاف من الأطفال يموتون يوميا من الجوع والعري وأصبحنا لا نستطيع حتى شراء الملابس المستعملة.

كان التكارتة والدوريين واهل العوجة ينعمون بسفرات جميلة إلى مدن الشرق والغرب ويفتحون الحسابات السرية وينقلون الاموال من هذا العالم إلى ذلك العالم وينظرون لوجوهنا نظرات حقيرة لاننا لانستطيع السفر إلى الخارج - مثلهم - ولانهم أصبحوا الآن نوعاً خاصا جداً من الناس. نوع غريب ومزيج من البوهيميا والاستقراطية والميكانتالية. غرقوا في علب السجائر اللندنية وسيجار هافانا ومواخير زيورخ وبرشلونة وكانوا لايشربون من قناني الويسكي إلا بضع مجات ويرمونها إلى كلابهم العاوية والمتحفزة.

❋❋❋❋

أمام عدم حصولي على موافقة محافظة ديالى للانتقال من بعقوبة إلى بغداد. كتبت إلى خالد المعالي مجموعة من الرسائل والى سمير نقاش عبر

صديق في لندن كان يحول رسائلي اليه و رسائله لي. كتبت عن الغصة التي تخنقني. وكتبت عن عريي الشخصي في أني اعيش ماساة حياتي الكلية مع عدم النشر وعدم الكتابة كما تحب لا بل الخوف من أن تفكر حتى، لو كان الامر في سرك، عن الحصار والجوع.

كانوا ينزعون منا احساسنا بعراقيتنا. يجعلون من الوطن نوعاً من الخبال الذهني حتى تصل إلى المرحلة التي يفكرون هم بها، وهي أن ترحل وأن تهاجر وأن لا تحب إلى الأبد.

كنت اتوسل روحي أن تبقي حب الوطن. اتوسلها أن ترى أن الوطن لم يكن يوما ما عبارة عن تكريتي وعوجاوي. إنما الوطن هو شوقي كريم بجنونه وعبد الستار ناصر بقدسيته ولطفية الدليمي بملائكيتها وخضير ميري بفلسفته وجان دمو بمرحاضه وحسن النواب بعبثيته ونصيف الناصري بشعوذته ومحمد الاحمد بتهوياته وصلاح زنكنة ببهائه وياسين النصير بقداسته.

كنت أفكر بكل هؤلاء بغصص القوة المكبوته واحلم من خلال حفيف الأشجار والنخيل وروائح الدفلة والشبو ليلي، بحلمي العاري. بحلمي المضمغ بالعطور عن بغداد.. فكرت أكثر من مرة بالانتحار. فكرت أن ابتلع العشرات من قناني شراب التوسيرام وأن ارحل إلى عالم الوحدة المطلقة، لكن هذه الفكرة لن تمنحني السلام الداخلي. كنت اعتقد أني سأبقى حتى بعد الموت، مبعدا عن بغداد ومبعدا عن قراءة ترانيمي الحسية عن عالم الوحدة المدهشة والضياع الاسطوري ودخان الحرائق الناتئة من جنوني الشخصي.

كنت أسير في بغداد، كل يوم. - حتى عندما أكون مفلسا تماما -

أشبه بالمسرنم. كل مشهد سماوي واسطوري اشاهده، مغلف بطعنة الابتعاد. مجرد بطعنة القتل الصرف. ابعدني التكارتة واهل العوجة عن بغداد لكني ادور في شوارعها المفقودة في الذاكرة رغما عنهم.

لن يستطيعوا أن يمنعوني من الحلم بالدرابين وهوسها القصديري ومشايخ الطرق الصوفية وعزاءات ال البيت وجنون الركض حول الذات المتفحمة والغارقة في نشوة السكر الاعظم، لن يستطيعوا أن يمنعوني من الركض حول مفاهيمي الغائية وأن اعيش اعتى عواصف حياتي في خرائياتهم الضائعة في الريح والعاصفة والايديولوجية.

كانوا حميراً إلى الدرجة التي جعلوني بالرغم من العاصفة التي دمرت حياتي، اعيش بغداد بهوس غريب. بهوس ليس مثله إلا هوس الصعود إلى الجنائن السماوية ومتعة الافلاك العليا ورخامة الصوت العالق في ذاكرة المكان. كنت أموت لانهم منعوني من العودة، منعوني من أن اجلب أحلامي مرة أخرى واوطنها في هذا الظلام الكلي الذي يحيط ببغداد، لكني كنت اراه مضاءا وملائكيا. كنت احارب نفسي بنفسي.

اكرر في أحلامي ومناماتي تهجئة اسم بغداد. اسمها المغلق وغير المفتوح على فضاءات الوحدة القاتلة. كنت أقول لشوقي كريم ونحن نسير مثقلين بالوجع أن نهاياتي المتعددة لن تكون إلا في بغداد وكان يضحك ويقول لي لماذا هذا الشعور أيها القواد، الست تسير فيها وتأكل وتدخن وتدخل مقاهيها. لم يفهم السر الاعظم. لم يفهم سر هوسي بالمكان. حتى لوقضيت عمري كله وأنا أسير في بغداد فإن هذا لن يكفي ولن يكون بديلا عن النوم على ارصفة الشوارع. كنت احب كينونة بغداد. روحها العظيمة. بغداد ليست قطعة أرض. إنما مكان والتعلق بالمكان فلسفة مذهلة غير مفهومة وملغزة.

كنت أعود من بغداد إلى الغرفة التي منحها لنا أهل زوجتي في بيتهم، مليئا بالموت. مليئا بالاكتئاب. كنت اجلس ادخن فقط. في بعض الاحيان اشرب جرعات من التوسيرام وانهمك في الكتابة. كنت أنظر إلى زوجتي بنظرة شائهة ومجرد أن تفتح فمها كنت انهار. اتحطم وأشعر انها تدمرني. هناك شيء خفي في هذا العالم يعمل لتدميري. انهض على عجل واحاول خنقها باصابعي وذراعي تلتف حول رقبتها مثل الافعى ويبكي الأطفال.

يبكي الزمن حينما تقول زوجتي، اترك الكتابة وابحث لنا عن نقود. نقود، نقود. اصرخ وأقول : اللعنة عليها وعلى من صنعها. النقود التي تحولني إلى عاهر وقواد وابن قحبة سائر في الشوارع بتيهان عجيب، لا أعرف من أين ياتون بها. من أين يصنعونها. كنت اشاهد الاخرين واحسدهم على قدرتهم الشيطانية في الحصول على النقود وأشعر ببلاهة عقلي وانتحاري الجنوني في ترك كل شيء ينهار. ينهار لاني أنا شخصيا كنت متواطئا مع انهياري. أريد أن ادمر العالم. أريد تدمير كل شيء في هذا الكون لانه ببساطة سرقني إلى الأبد من اجمل الأحلام.من اجمل التسميات.

كنت ازداد كرها لها كل يوم. منذ الخطيئة الاولى التي ارتكبتها ومنذ الزلزال الاول الذي هز حياتي وتزوجتها. كانت لاتهتم بالكتابة. تكرهها وتكره الكتب والاوراق.. كنت احسب انها بعد الزواج سوف تهتم بفوكنر و لطفية الدليمي وغابريل غارسيا ماركيز وموسى كريدي، لكن مع الاسف. اخذتها إلى كل المؤتمرات الادبية وكل الجلسات القرائية وزرنا بيت الارواح والمتحف العراقي والبغدادي. كنت أريدها مثلما اشتهي في المرأة التي كانت حلم حياتي. أريدها مثل نساء متبرجات

وقادمات من الزمن الاخر. لم تنفع معها المعأرض الفنية.ولم تهتم بالسينما والخراب الكلي الذي يهز الوطن ونراه قريباً وتراه بعيداً. كنت احب في المرأة الرقص. انثيال الجسد وتمعجه ودورانه. الرقص هو الشئ الملهم الاول في هذا العالم لروحي. وعندما اكتشفت انها لم تكن تهتم باي شيء ضمنا الرقص، كرهت نفسي وشعرت أني اغرق في عالم الوحدة القاتمة..

فكرت فيها مرات كثيرة، في الحقيقة كنت أفكر فيها، كل الزمن الخرائي الذي اكتشفته متأخراً وتذكرت روز وصديقات عمري في الجامعة. تذكرت مقارنا بها، نساء حياتي الماضيات في رعونة الافلاك والسحر. تذكرت بلقيس وبرلين وجنفيف وامية وليلي وهند. روز نصفها من الالهة والنصف الاخر من البشر. ليلى نصف عراقية ونصف انكليزي. بلقيس القادمة من بحور الجنوب اللاهب ومن البصرة بكل حلاوتها ورقتها وانوثتها. هند وهي ترقص على ايقاع الطبلة وصوت ام كلثوم وتلوي حياتها كأنما ثعبان عجيب.

****

بعد أن انهي تسكعي في شوارع بغداد، بثيمة الغريب عن المكان، وبعد أن يزف وقت العمل اهرع إلى الفندق. عملي هو تلبية طلبات الزبائن. اصناف من الوجوه الغريبة المنتفخة تأتي كل يوم وهي ترمي بالالاف الدنانير من أجل قنينة تافهة من البيرة أو عشاء مكون من السمك المقلي وعليه القليل من البهار.

كان من يحضر هنا في الغالب. افراد حماية الرئيس ومسؤولين

كبار في الدولة وقحاب عليهن ملابس الغجريات ونساء مكونات من الق البحر المتوسط. نساء قادمات من بلاد الموسكوف ومن ارخبيلات الخلجان ومن صحارى اذربيجان. كل ما تفكر فيه كان موجودا هنا. بدلات الرقص والواقيات الذكورية والاسماك البحرية التي كانت تشحن مع الكافيار من دول البلطيق وفرموزا و عبر ايران.

عند الساعة الحادية عشرة من كل مساء تطفئ الاضواء العارمة ويتحول المكان إلى بؤرة من الدخان والصراخ الغنائي والموسيقى العفنة. كان بامكانك أن تشاهد هنا حماية الرئيس ومعهم الغجريات وموسيقى بدوية مرتفعة تمزق الحاسة السادسة للإنسان. كانوا يسكرون بجنون وفي نهاية كل امسية نسحبهم إلى (الكراج) ونضعهم في سياراتهم وينطلقون متأرجحين في الشوارع التائهة. كان عالما غبيا وحقيراً.

كنت اتسلم في نهاية كل شهر مبلغا زهيدا من الدنانير انفق نصفها على الموأصلات والنصف الاخر مقسم بين شراء علب الدخان ومصروف البيت. في المطعم. كنت دائماً اتابع الزبائن واختلس في لحظات نوم الزبون علبة سجائره أو قنينة تحوي القليل من الويسكي الانكليزي. وعندما اخرج إلى الشارع وأنا انوء بحمل الصخب والسكر الخفيف. أشعر أني عشت في عالم اخر. عالم حيواني وعندما اخطو في الشارع أحاول استعادة الازمنة القديمة، ازمنة ماقبل الحصار.

في المطعم شاهدت حيوانات الوطن وهي تعربد وتطلق الرصاص في الهواء. شاهدت بعين غريبة متاهات النزق التكريتي وتصلب أهل العوجة وحيوانية الغابة. نساء من ذات الوسط التائه في القاب ونجوم على الكتف وبدلات عسكرية ناضحة بعطور فرنسية رخيصة خدعوا

بها واشتروها بمئات الدولارات. الدولارات الخضـــراء التـي شـاهدتها هنا اول مرة. اوراق ملونة بخضار سنجابي يلفها رجل الحمايـة التكريتـي ويدفعها بين افخاذ الراقصات والغجريات.

كنت أشعر أني سوف اتحول في يوم ما إلى كلب نابح أو كلب طيع، كل ما عليه هو أن يلحس الاحذية والاقدام وعاهرات الزمن الخرب، في المطعم كانت تعقد صفقات عجيبة، صفقات تشبه تلك التي قرأنـا عنهـا في مغامرات علي بابا والاربعين حرامي لكن علي بابـا كـان هنـا ويختفـي خلف الوجوه المنتفخة والملهمـة بحـب الغجريـات والـرمس والقـرص والتفخيذ والمناورات القذرة.

كـان التجـار الكبـار يـأتون ويجلسـون مسـتعطفين التكارتـة وال العوجة بان يمنحوهم اجازات استيراد وعن كل اجازة كان يحصـل فـرد الحماية على ثروة طائلة والـثمن المرتفـع للبضـائع ندفعـه نحـن، الغلابـة والموسوسـين والمضطهدين والمنهوكين إلى الأبد في خرائيات حياتنا.

كان عدي صـدام يسـيطر في هـذه الازمنـة عـلى تجـارة السـجائر والمشـروبات الكحولية والسكر والشاي والصابون وعلي حسـن المجيـد على تجارة الدجاج والاسماك وحسـين كامل على كل مـواد البنـاء وحتـى الخال خير الله الطلفاح، المعوق الذهني، كـان يبتلـع البسـاتين والاراضي الزراعية مثل حوت ضخم وديناصور اسطوري. حولت بغداد إلى متاهة من الرشاشات والأسلحة الموجهه إلى الوجوه.

كـان بامكانـك أن تسـير في المتاهـة والشـوارع وتصـطدم دائـماً. بممنوع التصوير. ممنوع المرور. ممنوع القيء، ممنوع التبول. ممنوع السكر. حياتنا المهملة امتلأت بخرائياتهم المدوية واساطير ملهمة عـن عـلي بابـا.

كان عليا يكبر ويكبر وهو يبتلع كل شيء أمامه. كنت أسير في الوطن مثل تافه لا احمل من هذا العدم إلا هم الكتابة. كنت فعلا أريد أن اخرج من هذا العالم إلى الأبد واكتفي من كل هذا البناء العربيد والتضخم الحيواني بغرفة صغيرة وبائسة احفظ فيها نوعي البشري ومن مميزات هذا النوع وخصائصه، أن اجلس إلى منضدة صغيرة واكتب كل القصص التائهة في حساء حياتي.

كنت احس أمام خرافية ابتلاع الوطن أني الحقير الوحيد في هذا العالم الذي ما عاد يهمه أن ينهب الوطن وأن تناك العذراوات وأن يمتصوا حتى نخاع عظامك. لم أكن أريدهم. لم أكن أريد حتى هذا العالم الذي غرقنا في متاهاته العارمة. فقط اوراق وقطعة من صمون ابيض مع الشاي واقلام كثيرة لادون الخراب والتيه والمتاهة والفوضى.

بعد أن انهي عملي في الفندق اذهب - احيانا - إلى امسيات ادبية. كنت ابتعد عن امسيات اتحاد الادباء الذي تحول إلى خراب متقدم. احضر امسيات بيت الخضيري فقط، الواقع على ضفة نهر دجلة.

كنت احضر قبل أن تبدأ الامسية بقليل. اجلس في ضياع النهر وادخن سيجارتي وأفكر. بعد أن انهي سيجارتي وتمنحني بتول الخضيري بضعة اقداح من القهوة الداكنة. تبدا الامسية. غالباً ما يكون هناك الدكتور بهنام أبو الصوف أو أحد الرهبان. كانت امسيات مذهلة نبحر فيها مع التاريخ، نبحر في ضحالة الحاضر لاكتشاف غنى الماضي وانثياله وانبهاره بواقع عاجز.

النكسة الوحيدة التي دمرت هذه الاماسي الحميمة هي حضور أحد التكارتة ويدعى ارشد ياسين الذي يهتم بالتاريخ وسرقة الاثار.

كان يطارد الدكتور بهنام واخرين من الذي يهتمون بالاثار لمعرفة أماكن اللقى الاثرية من أجل أن يستولي عليها كان يحضر بحيوانيته المقرفة وهو يرتدي عمامة تشبه عمامة هارون الرشيد وخواتم مرصعة بالألماس واصابع مدهونة بالعطور ومعه اثنان من الحرس الشخصي.

كان يدخل الامسية بعد أن تبدأ دائماً، ودائما يحدث التشوش نفسه والارتباك والرعشة الخفية من أن صرصاراً دخل إلى بناطلينا الداخلية، في برد المكان والزمان واللعنات. تتشوش الجلسة كلها. ينهض البعض وهو يقدم كرسيه ويقبله ارشد ويجلس أمام المحاضر، عينا بعين وانفا مقابل انف. هكذا تسربوا بوخزة من الضمير، حتى إلى منزل الخضيري فتحولت الامسيات إلى ضياع ثان وخوف من أن تتكلم في حضرة الغباء العظيم والحيوانية المبهمة.

تركت الاماسي المذهلة هناك، شعرت مرة أخرى أني اتيه في دوامة الضياع القاتل. بعضا من الاماسي والجلسات على سبيل التذكار تمنحك نوعاً من الديمومة الحياتية، بأنك لم تزل في مكمن الاسطورة.

اترك الحب في بيت الخضيري وأعود مرة أخرى شاقا طريقي إلى بعقوبة. الطريق إلى هناك يتطلب أن تصعد باصا مراوغا. ومثل اي حيوان في غابة اللامبالاة، تتدافع وتضرب بعكسك وقبضتك الاخرين من أجل أن ترتقي. غالباً ودائما تفقد إنسانيتك وكينونتك في لحظة صعود الباص، إلى الأبد.

كنت أشعر أن كل شيء يتأمر عليك. كل اللحظات والزمن والملكوت التائه واللاإنسانية تتمرد عليك. يجب أن تضرب بكفك وتتدافع معلنا الموت أو الحصول على مقعد. لم نكن نمارس إنسانيتنا حتى

في اجمل ايام ما قبل الحصار. والان. نحن مهزومون من الداخل، مبعثرون، تائهون في ارباض المجد الخالد والذي غرس فينا حيوانية ابدية.

يسير الباص داخل وعيي الشارد، في وحول المطر المقدس. أكثر الأشياء اسى، هو أن تجلس في باص عراقي حيث ياكلون الحب ويرمون القشور على سترتك وبنطلونك واذا ما تجرأت واعترضت تعرضت للضرب المبرح وربما الانزال من الباص. دائماً أنت مهزوم مع الاخرين الذي يعتقدون أن قدرتهم على قهر الناس انتصارا. البشر عندنا غرباء عن ذواتهم. حيوانية الناس تجعلك أشبه بعليقة تائهة في البرية. لم انتم إلى هؤلاء الناس المليئين بالانحطاط الاخلاقي والمعرفي وأن اكملوا غالبيتهم الدراسة. المحو الكبير للذات وانعدام الاخلاق العامة، هو سبيل إلى الانحطاط الكامن بين عقولنا وذات الاخرين الضائعة.

أصل بعقوبة بعد مسير خرافي عبر المدن التائهة في الضباب والخريف والخراء والوضاعة والابقار الفالتة والحيوانات الطائرة. أصل لأن المسير لا بد له أن ينتهي إلى عرفان ذاتي كبير. تواجهني في البيت نزوات حماتي الاكلينيكة. نزوات وقدرة على دس السم عارما في كل الاوقات. هل استأجرت بيت ام لا؟ متى سوف ترحلون؟ ابنك حطم اعصابي وكسر كل شئ. اللعنة عليكم، اخرجوا من البيت.

وكل هذا الكذب الجبار الذي يحيط باغشية العيون المأساوية. كنت أعرف انها تكرهني إلى حد اللعنة. في بعض الاحيان أكون لا أبالي. لكنها تصرخ معربدة مثل شاة. كلما تشاهدني تعيد علي تلك الاسطوانة الفارغة، إلى الأبد. كنت اعيش مخيلة بائسة. مخيلة اتعبتني طيلة الاعوام الماضية بأن اتحرر من كل شيء واتحول إلى صعلوك تائه في بحار الضوء

الابيض، لكن الجوع عراني تماما من اغشيتي الحسية وحولني إلى تافه وجرذ صغير ووضيع يتيه في مدن الرب السماوية. قلقي المتواصل ورعونة العزاء الاخير الذي تمارسه حماتي بطقوسية ملهمة، اضاعا في نفسي اي امل للحياة. لم يكونوا يفهمون أني أريد التفرغ للكتابة واني هزلت إلى الدرجة التي أصبحت فيها مجرد ممارسة جنسية واحدة تحت افرشة خشنة تعني لي الكثير من الارهاق والتعب والتقزز.

يوما بعد يوم بدأت ابتعد عن زوجتي. في الاساس لم أكن اقترب منها إلا لممارسة الحب فيما تشنجات بطني تتيه في سماء الجوع الكافر والعوز المدمن. كنت اداري هذا الجوع بسرقات بسيطة من الفندق الذي اعمل فيه. كنت اسرق بكرات الكلينكس وبعض قطع الصابون وابيعها في سوق الحرامية أو عند بوابات الاسواق المركزية.

في بعض الاحيان كنت ابيع قطع الصابون واشتري حليباً كامل الدسم لجدتي. احيان أخرى لم أكن احصل على شيء سواء من الفندق أو من بيت حماتي فابيت في الفندق اياما حتى تتوفر لي فرصة النشل جيدا ولأعود مرة أخرى إلى السير والتوقف أمام ابواب الاسواق المركزية. شوقي كريم اقترح علي طريقة للحصول على بعض المال وذلك بتشغيل النقود عند احدهم وسيدفع لي هذا التاجر كل شهر مبلغا معينا. فرحت بعد أن اكد لي شوقي انها طريقة مضمونة وعملية.

اخر ما تبقى لنا أنا والزوجة هو بعض الاسرة ومكواة وبعض قدور الطبخ، بعتها في بغداد وسلمت النقود لشوقي الذي سلمها بدوره إلى التاجر. بعد مرور شهر سلمني التاجر مبلغا من المال. سعدت كثيراً. شعرت أني لست ضائعا. مبلغ المال منحني فرصة أن أطلب اجازة من الفندق لاتفرغ لكتابة روايتي. الايام الاولى قضيتها في الغرفة التي

منحتها لنا حماتي ، حيث اسقي الأطفال ملعقتين أو ثلاثة من التوسيرام وادعهم ينامون كليا ومخدرين فيما أنا اكتب.

بعد عدة ايام داهمت حماتي نوبة أخرى من الصراخ والشكوى والتضرع إلى الله من أجل أن يميتني لأنها منحت ابنتها لفاشل في الحياة وفقير وعاجز عن اطعام أطفاله. كنت لا اكل إلا القليل من الطعام من أجل توفيره للأطفال. لم أكن اهتم بالتغذية، همي الوحيد هو الكتابة وبعد مرور ايام أصبح جلوسي في المنزل يعني الما غريباً وأنا اسمع السباب والشتم و أقاويل الزوجة و امها وتقولات الاخرين وهم يغمزوني بانني مجنون وتافه.

اخذت اوراقي ورحلت إلى بغداد. في الصباح اخرج من غرفة جدتي إلى الشارع واستقل الباص إلى حسن عجمي. هناك التقي بعض الأصدقاء الذين يعانون خيبة امل مثلي. اكرع بعض استكانات الشاي ثم اخرج في الغالب، مع شوقي كريم لرؤية مسرحية تافهة أو الذهاب إلى مقر الاتحاد في ساحة الاندلس للاستماع لمحاضرة تافهة أيضاً.

الحرب انتهت منذ اعوام. حرب إيران ومن ثم حرب الكويت، لكنها تبقى في الأحلام، تبقى في عهر حياتنا العارمة والمستفزة. تبقى تستفز كينونتنا الإنسانية. محاضرات عديدة. مناشدات مختلفة، نسينا الحروب الآن ونبحث عن فك الحصار. لكنه كلما اردنا فكه زاد الخناق على رقابنا.

الاغنياء وضباط الجيش بدأوا باهانة شرطة المرور وشرطة المرور بدأت باهانة الناس واهل العوجة باهانة الجميع. عندما تسير بسيارتك فسيوقفك حتما شرطي المرور وسيطلب منك أن تمنحه

نقودا من أجل الفطور أو الغداء أو العشاء ، أو ستحصل على مخالفة مرورية. كل شيء ينهار بسرعة غريبة. المضحك هو عندما تريد أن ترفع قضية ضد أحد ما، عليك أن تشتري الاقلام والورق وكل شيء وتقدمه لكاتب الشرطة - بالاضافة إلى دفع رشاوى هائلة - من أجل استحصال شيء تافه.

كانت الجلسات السرية في المطاعم النائية تعقد من أجل الدفع إلى القضاة وكان عتاة المجرمين يخرجون من السجن. كانوا يدمروننا من الاسفل. كل شي أمامك رائع، دولة ومؤسسات ونظام قضائي وشرطة وجيش، لكن من الداخل، كان خراء وتقزز وتسيب ورشاوى. افتتح وطبان وسبعاوى، اخوة الرئيس، مكاتب متخصصة يعمل فيها العشرات من الاتباع، مهمة هذه المكاتب ابدال المحكوم عليهم بالاعدام بشخص اخر مكانه يؤتى به من مستشفى المجانين المساكين.

عندما تسير في الشوارع، من شارع ٥٢ والى ساحة النصر أو التحرير، تصادفك المتاهات وتصادفك نوعية خاصة من البشر. مختلفون جداً عنك. سيارات اخر طراز وملاهي جديدة ومطاعم رائعة ونوادي خمسة نجوم. انها الطبقة الجديدة التي تكونت في الحصار. طبقة عبارة عن ذيل لطبقة اخرى. الطبقة الاولى هم التكارتة واهل العوجة والطبقة الذيلية الأخرى هم التجار الجدد ومتملقو السيد الرئيس من كل الاجناس. من الحيوانات الناطقة والحيوانات الصامتة والحيوانات المتوحشة. العجيب والمذهل انها كلها تنهش في اجسادنا، نحن ابناء القحبة وابناء الحظ الاتعس في العالم وابناء طرقات موحلة ومجاري طافحة ورعب في الشوارع. ماالذي يمكن أن نفعله للشعب.

ما الذي يمكن أن نفعله مع هذا الحصار المنيوك والدموي. غالباً

ما كنت أفكر. كنت اتمنى لو اننا نملك قنبلة نووية من أجل رميها باتجاه الجميع وتخليص حياتنا من وهم الموت البطئ هذا. اينما تسير في الشوارع. اينما تسير في متاهات علاوي الحلة والفضل والحيدرخانة، يعيش اناس أشبه بالصراصر مع البؤس الطافح إلى الأبد ومع الذباب والبق والامراض التناسلية ومع العاهرت الجديدات والقديمات.

كنت اتيه في هذا التكوين الهائل لخيباتنا. أشعر مع عاري الشخصي بعار اخر هو تفاهة حياتنا. اينما تسير. اينما تقع عينك على متاهة من اللاحب، تصطدم بممانعة قاتلة للحياة. ذوب من الوجع والضباب يغلف حياتنا فيما السيد الرئيس يستعرض قواته الهزيلة بشاحنات ومدرعات تتعطل كل لحظة.

ما هذا الهوس بالقوة. هوس غريب وملهم وسوداوي وشائه. كل عام يستعرض الرئيس تلك الحشود العسكرية، لكن كل الأسلحة صدئت وكل الأسلحة ما عادت إلا عبارة عن أسلحة قادمة من التاريخ ولم تعد إلا مجرد ذكرى في قوانين التطور الصارم. اعجب وأفكر مليا محاولا ايجاد كينونة التركيز العالي على مظاهر القوة الغريبة. الاحساس بانك محاط بالأسلحة مع اننا خراء كلي وكل شيء مزيف.

كثيرة هي المرات التي اردت فيها أن اقف أمام القصر الجمهوري وانادي السيد الرئيس لأقول له.سيدي الرئيس كل شيء يضيع أو في طريقه للضياع. الدولة والجيش والشرطة والحياة نفسها، لكني كنت اتراجع عن الفكرة لاني أعرف السيد الرئيس أكثر مما يعرف هو عن نفسه.

في حسن عجمي تشاهد المناورات الغريبة والعجيبة لكتابنا الذين

تحولوا إلى شيء يشبه العماء. كل يوم يظهر اديب جديد من انصار السيد الرئيس ويتقلد الاوسمة والشارات ويصعد سيارة حديثة وكل هذا بفعل قصيدة أو ابيات شعرية أو قصة. ثم يذهب في غفلة من الزمن إلى الحضيض. مر في حياتنا عبد الامير معلة وحميد سعيد ولؤي حقي ورعد بندر ثم خالد مطلك. كل واحد من اولئك كان عبارة عن نزوة ومسدسات. لم افهم العقلية البوليسية الجديدة لهؤلاء الكتاب. كانوا كتاباً وشعراء من رجال..... يمكن أن يكون صحفيا رجل أمن أو مخابراتيا. لكن أن تكون شاعرة عبارة عن عميلة للمخابرات شيء مستحيل. شاعرة تحمل مسدسا وهذا المسدس هو ضمن دائرة الادباء. بتعبير اخر أن هذا المسدس موجه إليك. أنت الشاعر والكاتب والروائي والقاص.

حسنا فعل موسى كريدي عندما مات. عندما كفر بهذا العالم وسافر إلى حيث لا نفاق ولا عاهرات ولاملاهي ليلية. حسن فعل عندما تقيأنا واحدا بعد الاخر وهكذا فعلت الدكتورة حياة شرارة. في اللحظة الدموية التي علمت فيها بانتحارها، شهقت وتدثرت بعاصفتي وخذلاني. تدثرت باخر الأشياء المتبقية في جسدي وهو القليل جداً من الحب. لم اصدق. لم استطع أن افتح ذهني لاستقبال الخبر الشنيع. تفاهات حياتية تمر في حياتي أشبه بحلم الليلة الاخيرة (قبيل وصول البوليس).

تفاهتي كانت تفاهة هشة ولذلك بكيت في ذلك اليوم أكثر مما بكيت أحلامي وضياعاتي. انتحار حياة شرارة زرع للابد نقطة مظلمة في خلفية مسرحية هي أكثر دكنة من ظلمة اليأس. حلمت بحياة شرارة في اليوم الثالث بعد موتها المدوي. شاهدت وجهها بين سرخسيات

وزهور روحية واثر مما تركه الملاك. بحور من النور وبحور من الحشائش الخضراء وورد الجوري والدفلة، اه الدفلة، تلك الشجرة التي لها ازهار تشبه حياتنا العارمة والضاجة بالموت. ها أنا ارقد تحت سماء مليئة بالخوف. لماذا الخوف؟ كنت اسأل نفسي، هل الخوف من الضياع؟ ام الخوف من المجهول؟ ام الخوف من اللاشئ؟. ربما اللاشيئية هي الثيمة الاكثر ابهاراً في حياتنا المعدمة. ربما اللاشيئية هي التناص الوحيد في حياتنا المعربدة. سوف احب سرخسياتك يا حياة شرارة في الايام القادمة طبعاً وسوف أقرأ واعيد قراءة كل كتبك التي دونتها بمزيدا من الحب واقرأها تائها في الدوامة التي ضربتنا اليوم على سطح باخرة ايلة إلى الغرق. احسست بموت حياة شرارة بمثل ما تحس به الحمامات والطيور الناعمة.

لم استطع تخيل الذاتي ولا العالم في هذا الموت اللعين الذي اتفقت واياه على غزو العالم وعلى الانتقال السلس إلى عالم الارواح المعذبة. حتى في الموت، حتى في تلك الحياة الاخرة، دائماً يخيل لي أن لا استراحة هناك، فياللعنة. أين يمكن أن يهرب الواحد في هذا الرزء العائم والملطخ بالخراء والحناء وبيوت ومحاجر ناتئة وعيون تمحضك الموت كل يوم في متاهة الاسواق المركزية. هل مت فعلا يا حياة شرارة؟ ام انها كانت عبارة عن لعبة هشة ومدوية تمارسها الساحرات وابطال الف ليلة وليلة من أجل التفاهة المدوية في حياتنا.

كنت أشعر مع موتك أن العالم تغير فعلا. تغير بدورة١٨٠ درجة. دار دورة كاملة حول محوره. فغابت الزوايا والمستقيمات وتدخل الزمن بمراراته ليضيعنا في الابدية المستحيلة.

فكرت فيك في كل الاوقات. فكرت فيك واهنا ارتشف فنجان

قهوة مرة في نادي الجامعة التكنولوجية وأنا انتظر حبي التائه مثلي. فكرت فيك وأنا اطارد نساءا غريبات قادمات من اكوان بعيدة جداً لكنها واضحة.

فكرت فيك وأنا اضع العطر الذي تحبه النساء ويتغافل عنه الرجال وتضيع في هواه وتأثيره المراهقات. كنت فتيا لم ازل، لكن زوجتي ارجعتني إلى عالم الصحو المخيف. كل لمسة لباص وكل خطر ضئيل في الشارع كان يصرخ بوجهي. أن انتحر واهجر هذه الماساة والقادم من الايام وموت الوطن. لكن كيف سأنتحر وأنا لم اكتب حتى الآن روايتي.

كانت تشرب القهوة المرة في نادي كلية الاداب في بغداد. عرفتها من لون بشرتها ورائحتها القادمة من المغاور البعيدة والمحفورة في الجبال. قالوا لي انها الدكتورة حياة شرارة، فتقدمت لاتعرف عليك وجها لوجه ومنذ ذلك اليوم الفائت من بين الجروح صرنا اشكالات ثنائية في هذا الزمن. كنت أعرف زوجك وأعرفك أنت ايضا.

كنت وانت تقرأين في كتبك أتأملك. أتأمل هذا الجبل الذي يتنفس. لم تكوني امرأة فقط. كنت إنسانة أخرى في هذا الوجود. إنسانة تعاني من تورم إنسانيتها وانت تسيرين في ممرات الكلية وتضعين شعرك في قلنسوة وتبدأين مع ليرمنتوف دائماً.

عندما انتحرت إلى الأبد تذكرت وجهك. تذكرت معاناتك العظيمة في الجامعة ومحاربة الاخرين لك. محاربة البعثيين ومحاربة الشيوعيين أيضاً وأخوات القحبة والمتصيدين والغوغاء وابناء الافاعي والجهاز الحزبي والجهاز الوظيفي وجهاز الأمن. يالهي، كل هؤلاء

اعدائك. كنت وحيدة جداً. وحيدة إلى الدرجة التي كانت فيها روحك عبارة عن حجر صلب. حجر لبناني قادم من غابات وجبال وبهجة الارز وحرائق الغابات وخمبابا. كنت أتساءل في سري وأنا اتابع خطواتك في الجامعة عن العلاقة بينك وبين شخصيات قادمة من ازمنة الملك سليمان وداود وشخصيات قادمة من اسفار كلكامش ونبوخذنصر وعشتار واوتو نبشتم ومدن سومرية وبابلية واشورية. من اشنونا واور الكلدانيين وضفاف الفرات ومعابد اليهود الابدية في بلاد ما بين النهرين.

هناك علاقة غريبة بين المعادلات الثلاثة، بين الشخصيات الثلاثة. بين الضياع و الفقدان. بين التيه والسماء. حياة كنت تلعنين عزلتها الصارمة. في الحصار فقدت شيئاً فشيئا إنسانيتك وحينما اكتشفت ضياع الإنسانية في الوحول وحول الموت والى الموت. اخترت أن تموتي بكل ابهة الصرخة الصارمة. بكل ابهة الخفقان المتورم، بكل الهيجان الاسطوري للويثان.

لم اتصورك شجاعة إلى هذا الحد ولم اتصورك قادرة على قتل نملة فاذا بك تميتين نفسك وتختاري أكثر الأشياء جمالا لتنتحري إلى الأبد.

❊❊❊❊

اضطررت للعودة إلى بعقوبة. اشتقت إلى الأطفال. بدأت حماتي من جديد مناكداتها. في البدء كانت تدمدم مع نفسها وفي لحظة ملعونة تجاوزت فيها الزمن، علا صراخها فجأة في هستريا غريبة وهي تشتمني وتقول لماذا تجعل ابنتي تموت من الجوع ياابن القحبة؟ لماذا أنت تعيش في

شكل حقير تاركا العالم ينهشك وانت مثل ابله. أنا ابله؟. أتساءل؟ أجل وتقول أبله. نصف. لماذا لا تكون مثل حسين الاكرع أو مثل دلشاد الخوشي أو مثل ابراهيم تاتلسس، عليك أن تملا بطن ابنتي بالطعام.

كنت استمع إلى تقولاتها وأنا صامت، ساكت، مدوزن على نغم الانفلات الحر في سوء اللحظة المأتمية. قلت لها بعد أن افرغت كل ما في امعائها من الكلام. أنا كاتب، اديب. واصدرت صوتا من فمها. صوتا يشبه الضراط. اخرج من هنا. احمل اغراضك واغرب عن وجهي. خرجت من بيتها مثل موسى.

خرجت وكأني اغادر هذا العالم. كنت اختنق. تمنيت أن أموت لحظتها إلى الأبد، لكني فكرت بالأطفال، فكرت بالمأساة التي ستتراكم على وجوه أطفالي. فكرت أن ابنتي ستباع في سوق النخاسة وابني سيبيع الحب (البزر) أمام الاسواق المركزية.

كنت أشعر وأنا ابكي سائراً في شوارع بعقوبة أن نهايتي تقترب. أريد الموت، أريده بالصورة القصوى. أريده الآن وحتما وحاضراً ومسودا بشرائع السنين المتعبة. اضيع مع صوت ام زوجتي الذي يرتج في اذني. صوتها الهائل والفم المفغور والذي يطلق الرصاص على جثتي المشوهة. كان يجب أن تموت في الجبهة الحربية من امد طويل. كان من المفروض أن اشهد مأتمي واذوب مرة أخرى في التراب. كان ضروريا أن لا اتزوج واحمل هذا الهم الثقيل والمؤلم. ليس مهما أن تكون لك عائلة، ليس مهما أن تصنع الأطفال وتلبسهم آلام الفقر والخذلان لاب ضائع في متاهة الكتابة..

هربت مرة أخرى إلى بغداد، نمت في شارع الرشيد. سكرت بنقود

نصيف الناصري. عشت في متاهة الأحلام. نسيت أو تناسيت الزوجة والأطفال. تناسيت طعامهم وشرابهم. جدتي تقول انه لايموت أحد من الجوع. هل هذا صحيح؟. ليست اللقمة هي المشكلة الوحيدة في هذا العالم.

تركت العمل في الفندق بعد أن طردني المدير عندما اخبره أحد العاملين أني اسرق اطعمة أهل العوجة وتكريت، حتى الفضلات كان ممنوعا علينا تذوقها. ضعت في بغداد مع نصيف الناصري، كان مفلسا دائماً، لكنه يحصل على الطعام والخمر مثل الاله باغوس. طيلة تسكعي مع نصيف لم اكتشف طرقه في الحصول على الاموال. زيارات صلاح زنكنة لبغداد كانت تعني لنا الكثير. كنا نحصل منه على رزم من الدنانير لكنها لا تكفي إلا للتمرد المؤقت على حالة الافلاس.

زرت جدتي مرات متعددة وفي كل مرة كانت تمنحني بعض الدنانير ووجبة غذاء صحية. هي أيضاً كانت تحصل على النقود ولكنها لم تقل لي كيف يكون هذا. كلهم يحصلون على الاموال، إلا أنا. مناويك، تعلمت أن لا اسأل عن مصدر الاموال التي يحصل عليها غيري. ليس مهما بالنسبة لي، الشئ الاكثر أهمية هو أن اكتب. أن أجد مكانا ولو صغيراً أو باردا من أجل أن ادون على الورق مسير ابطالي.

الكتابة كانت تحميك من البرد، الكتابة كانت تمنحك الخلاص مثلما حمل عيسى صليبه وسافر في الزمن الاخر. نحن أيضاً لنا ازماننا المتتالية. ازمنتنا المصنوعة من ماساة سالم قنديلة وهو يضيع في طرقات بعقوبة وحسين مردان في صعلكته الادبية المثمرة قصائد لاتضارع. وضعت صورة جان دمو أمامي و هو يشرب كل يوم قنينة من الويسكي ويمارس الاستمناء كتعويض رمزي عن الجنس. يجب أن تعيش كما تعيش

الصراصير في هدوء اللحظة الشعرية من أجل كتابة فصل واحد ثم تموت إلى الأبد.

اكتشفت مكانا سريا رائعا للكتابة. يقع في عمق مقهى التجار. هناك كنت اجلس إلى النافذة. أتأمل، اكتشفت أني بحاجة إلى التأمل أكثر من الكتابة. الكتابة كفعل ذاتي ينطبق على نتائج التماثل البهيمي مع السماء والنهر والضفاف. كنت بالرغم من الجو الرائع للكتابة، أشعر بالهزيمة. أشعر أني هارب من المعركة وأن البوليس السري سوف يكتشفني اجلا ام عاجلا. أفكر مع كل حرف اكتبه أن يلقى علي القبض وتصادر اوراقي وتعرض على لجنة من ادباء السلطة لتمحيصها. اللعنة عليكم. أريد ذرة من الحرية. أريد مكانا امنا لاتقيئ كلماتي. أريد أن تبتعد عني العيون وأنا انكب على الورق مثل ساحر. من منا سوف يستطيع أن يقاوم هذا الخزي في حياتنا العارمة؟

كنت أفكر احيانا وأنا أحاول التماس نوع من أحلام اليقظة في زمن الخرافة الضائعة. وجدت لي مكانا جيدا للنوم أيضاً يقع في نهاية سرداب لعمارة تافهة في شارع الرشيد. السرداب الذي انام فيه كان ملكا ليهودي غادر العراق في الخمسينات إلا أن عمارته بقيت تمنح النوم لاشخاص مثلي. هكذا هم، دائماً اوفياء. في الصباح كنت اغسل وجهي بماء بارد من ماسورة المرحاض ثم اخرج إلى المتاهة البشرية وأنا احمل قطعة خبز هي بقايا وجبة فطور أحد الخياطين تركها في باب الدكان. ادخل مقهى حسن عجمي لتناول الشاي ثم استعير جريدة احدهم واقلب الصفحات.

عاد شوقي كريم من الناصرية بعد أن تمت استضافته في جلسة ادبية. التقيته وطلبت منه أن يمنحني بعض النقود لمراجعة أحد الاطباء

النفسيين. ناولني الدنانير وانطلقت سريعا إلى الطبيب. كنت أشعر أني أموت في كل لحظة تمر علي في هذا الزمن. كنت مخنوقا واقف على الحافة القصوى من البكاء. في الطريق، سيراً على الاقدام، من حسن عجمي إلى الباب الشرقي. توقفت أمام دجلة، تسللت بين العمارات القليلة وهناك اجهشت في عواء متوحش. لم أكن استطيع التوقف. كان بكاء غريباً، حتى عندما اقتربت وتشممتني كلاب تائهة مثلي. لم أكن أعرف لماذا كنت ابكي بمثل هذه القوة وبمثل هذه الحيوانية. كنت ابكي مثل طائر مخنوق. كل لحظة مرت على وجودي الكوني في الحياة كانت تجعلني ابكي إلى النهاية، لكن لم تكن هناك نهاية.

بقيت في مكاني المنعزل خلف العمارات وبين الازبال، ساعات طويلة وفي النهاية استطعت السيطرة على البكاء وانحدرت إلى الشارع بقوة واهنة واقدام عجولة واصابع تريد أن تفتح في الكوة الهائلة للغيم منفذا للشمس. وصلت إلى الباب الشرقي وصعدت سريعا للبناية، و عندما انزلقت إلى عيادة الطبيب النفسي، شاهدت العشرات مثلي، كلهم يبكون في صالة الانتظار.

❊❊❊❊

جاء دوري وحملت نفسي الباكية ودخلت غرفة الطبيب. جلست على الكرسي المقابل له. تحدثت مع سيجارة قدمها لي عن زوجتي القادمة من عالم غريب، حدثته عن ام زوجتي وصراخها ولعناتها. حدثته عن التيه الذاتي الذي اغرق فيه. حدثته عن الجوع وانفلات الرغبة في عدم التلذذ بالحياة. حدثته ومن خلف دخان السيجارة المرتعشة في

فمي واصابعي التي تتقاتل في ثنيات الوجه عن العري الغريب وعن ضياع القيمة وضياع الفكرة. قلت له. أني تائه في هذا الكون الابدي. تائه في هذا الوطن الكبير والضيق حد الموت.

سردت له روايات مجنونة وقصص مائعة عن افراس رائعة تخب فوق مروج سوداء من الدناءة. شرحت له عن المسيح القادم من خلف البنايات الهرمة لبغداد القديمة. افضيت له حكايات حائلة عن، الشاعرة الشابة وكيف ناكوها في جريدة الجمهورية من أجل أن تنشر لها قصيدة واحدة. قصيدة عارمة وخالية من الحس القومي والحربي ولأنها امرأة مفعمة بالدناءة الجنسية، كانت تقضمنا، تلسعنا، تنهبنا وتتركنا للعاصفة الغارقة في شقوق المستشفيات الوسخة.

حكيت له عن الحصار الرهيب والمدمر. حصار الامريكان وحصار الاخرين السيئيين الذين كانوا يمارسون في حقنا اعتى تسلط في الكون بستالينية مذهلة، وكانوا يستثمرون مكانتهم الدونية ويلعبون بالاموال.

حكيت له حكايات الفندق حيث عملت وحكيت له قصص مجنونة، عن ذلنا الكبير والهمجي. تذكرت وأنا ادخن سيجارتي العاشرة واصابعي ترتعش وأشعر أني اقترب من النهاية، عن خالد مطلك ولؤي حقي ورعد بندر وعبد الامير معله وعبد المنعم حمندي وحميد سعيد وبقية صلادة ثقافتنا الهزيلة التي انجبت نكرات وقبضايات ومتزلفين ودودكية ولمبجية وتنكجية وقوادين وقوادات.

رويت له حكايات الزمن الضائع والزمن الكلب وهو يشحطنا مثل نعال ويرمينا في التيه الاسطوري لافلاك الزمن الغريب والقاسي

ونحن نتوسل احدى القحاب من بغايا المعبد وعاهرة رئيس التحرير أن تنشر عنا خبراً في الصحافة. كنا نلوذ بالصمت والخفة والضحك. نضحك من مقدار الألم الممض الذي يحيطنا شائها مثل ازنرة تقبض القلب والروح. كنا أرواحاً هائمة في سماء الدكتاتوريات. سماء لم يكن لنا فيها متسع ولم يكن لنا فيها اغنية. كنا نكره الحب ونحب القسوة. نحب القسوة لأنها ضرورية لحياتنا البوهيمية والوضاعة المتركزة فينا. كانوا يقولون إن القيادة هي التي تشتري الادباء ليكتبوا عنها لكن تبين اننا ابناء قحبة وأن الادباء هم من كانوا يكتبون دون تكليف، اجمل واعظم القصائد إلى القائد والزمن الجميل والفوضى الاخلاقية، بكيت والسيجارة في يدي وأنا اصف حال الشوارع وحال الوطن الزائف أمام عيني. اصف الازبال التي تتراكم أمام البيوت وهي تفيض وتفيض وتؤسس لمرحلة البعوض والفئران والدزنتري. كنت اشاهد الازبال والزبالين المنهكين. الجميع يفر من لعنة الوظيفة. الجميع يفر إلى المتاهة، لم نكن نعرف أين نتجه في هذه الفوضى المخيفة. كنا عراة في مهرجان العري والعار الشامل وكنت أموت وأنا اشاهد الشيوخ يذوون مثل قرنفلات بائسة في عاصفة الحصار. لم يكن الشيوخ وحدهم إنما الأطفال والنساء.

قالت لي زوجتي إن نساء المحلة ابتكرن طرقا للتحايل على الالتهابات المهبلية بأن يحقن انفسهن بحقن الماء والملح لعدم توفر الدواء.كنا نعود بدرجات مخيفة إلى الوراء. لم نستطع أن نصنع حقنة للالتهابات المهبلية ولم نستطع أن نصنع قنينة صغيرة للدواء. أصبحت الحبوب الطبية لا تعطى بالعلب إنما تلف بورق الجرائد وورق الكتب. يا للسماء.، اوراق الكتب. إلا يوجد شيء اخر. لا، لا. لم نكن نستطيع صنع

علبة للدواء ولا قنينة ولا حقنة ولا ابرة. وتعجبت سيدي الرئيس. تعجبت، كيف صنع حسين كامل صواريخ العباس والحسين وفرحة الزهرة وكيف صنع العابد والاقمار الصناعية وتفليق الذرة ولم يستطع صنع أشياء تافهة.

اكتشفنا في عاصفة الاهوال التي تهب علينا اننا كنا عبارة عن عار على الحضارة. عار يتمثل بحسين كامل وصدام كامل و سيد حميد والحجي وابو الابطال خير الله الطلفاح سيدي، خير الله الذي استولى على كل شيء في هذا الوطن. وقيل أيضاً إنه دخل في صراع من أجل الاستيلاء على عقد تأجير مرحاض الباب المعظم العمومي.

كل شيء سيدي الرئيس، كل شيء وكنا نعرف أن السيد الرئيس لم يكن يرضى. نعرف انك نزيه ولم تنقل المليارات إلى الخارج إنما من نقلها هم سبعاوي وعباوي وعلاوي ووطبان وضرطان وخريان وبزركان.

نعرف سيدي الرئيس أن لك فكر استراتيجي ولذلك لم تهتم بصناعات تافهة مثل قناني الدواء والحقن المهبلية ولقاحات الأطفال، لأن المعركة المصيرية وهي بالمناسبة على الابواب تتطلب صنع السلاح والسلاح فقط أما صنع الحفاضات النسائية والطفولية فهي أشياء تافهة ولكن اتضح سيدي الرئيس أن حفاضات الأطفال أكثر أهمية من صاروخ العابد ولانه بدون هذه الحفاضات أصبح الأطفال يخرون في سيارات النقل العالم وامسينا نعيش في حضيرة حيوانات وعادت بشريتنا إلى خطاها الاولى يوم كنا وحوش إنسانية والشعر يغطي اجسامنا.

في أحد الايام وعندما اقتربت من مستشفى السلام، شاهدت مجموعة من الكلاب الضالة – مثلنا – وهي تتصارع من أجل التهام ساق مقطوعة. تقيأت، تهت، ضعت في ارخبيل من اللامعنى وأنا اشاهد الماساة أمامي.

المستشفى لم يكن يستطيع حرق الاذرع والسيقان المقطوعة لأن حارقة البقايا البشرية كانت بحاجة إلى برغي صغير لا يمكن الحصول عليه إلا من امريكا أو زيورخ أو هلسنكي. كل يوم حينما تخرج إلى الشوارع تفاجأ بتحول الحياة إلى تفاهة عارمة. حالات حيوانية تتكرر وتزداد أمامك وانت مثل حمار وحشي. مثل قرد تتشبث بسيارات وباصات النقل العام. مشوارك من الباب الشرقي إلى منطقة اليرموك على سبيل المثال يقطع سابقا بساعة، اليوم يتطلب منك اربع ساعات وربما ليلة كاملة للوصول إلى مكانك.

كل وجوهنا التي تتعب يوما بعد يوم تتحول إلى سماد بشري. إلى فضلات. عمال النظافة لايعملون. عمال الاسالة لايعملون. عمال المجاري لايعملون. عمال الكهرباء لايعملون. كنا نفيض سيدي الرئيس في وحل الحاضر وتفاهة المستقبل وخرائنا. احدهم سيدي الرئيس اقترح أن لانعود لاستعمال المرحاض بسبب انسداد المجارير. علينا من الآن وحتى اشعار اخر أن نعملها في الحديقة الأمامية للبيت أو في اية خرابة مجاورة. وكانت تلك عودة إلى سيرة السلف الصالح.

اليوم اعلن في التلفزيون وكل وسائل الاتصال انه يجب أن نلتحق بخدمة عسكرية جديدة – خدمة احتياط – لمدة شهر واحد. ذهبت إلى مركز التسويق واخذوا دفاتر الخدمة العسكرية سريعا، سوقنا في نفس اليوم. وحدتي الجديدة في منطقة ابا غريب. تسلفت من عبد الستار

ناصر ثمن الباص وذهبت إلى المتاهة الجديدة. لم يستقبلنا احد. جلسنا مثل جنود تائهين في معركة كبيرة وكنا نشعر بالخصاء والعار. بعد ساعات طويلة جاء عريف وقال لنا. كم تدفعون مقابل عدم حضوركم. بهرتنا الوقاحة. قلنا له كم تريد، قال بضعة الاف، احسبوها جيدا أيها السادة، لا تترددوا. كم ستدفعون مقابل اجور المواصلات وقدومكم إلى المعسكر. اتفقنا على المبلغ. حاولت اقناع العريف أني لا املك اية دنانير. قال الامر متروك لك. يجب أن تحضر يوميا وتجلب معك طعامك لأن لا طعام في المعسكر ويجب أن تشتري ملابسك العسكرية والبسطال. شعرت بالحيرة، بيأس قاتل،. قمت بمساومة وضيعة، اشرت إلى ساعتي اليدوية. تفحصها جيدا بعيون وقحة ونظرات هزيلة ومتكدرة. قبل المساومة. نزعت الساعة ومنحتها له. قال : عليك أن تأتي في نهاية الشهر لاستلام اوراق تسريحك. شكرته، هربت مثل ضبع.

مررت بالمقهى ووجدت شوقي يهرج كعادته، اقتربت منه وطلبت أن نذهب إلى بيته لاني اكاد أموت من الجوع. اقترح أن يشتري لي صمونة. قلت له لاتنفع أني بحاجة إلى بيض مقلي. شيء فيه طعم من مذاق غريب، حامض أو مالح. مع كمية من الهذيان. نهضنا، هو بتثاقل، لكني كنت أعرف انه لم يزل ذلك الإنسان الذي يمنحك في غاية الذل بعض الترياق و.. الامل. مررنا بالباب المعظم وسرنا بين تلال الاوساخ والمجاري الطافحة. ثم تعلقنا مثل قرود افريقية باحد الباصات. التصقت بامرأ ة وشعرت أن اعضائي الذكورية لم تعد إلا زوائد لحمية. وصلنا الشئ الذي يشبه البيت. انزلقنا مثل اسماك صغيرة إلى مدخل تافه وضائع في الحياة. لاول مرة أشعر أني ادخل بيتا لي. وجدنا أحلام داخل الوكرمع سامية، الصحفية والشاعرة.

قال شوقي بشكل مفاجئ، اني لم اعد كاتباً. انتفض. يقشعر بدني. الشئ الوحيد في العالم الذي اخاف عليه واضمه إلى مخيلتي واحشائي هو الكتابة. أنت تقتلني، أقول لشوقي ويضحك و يرتشف الشاي وأحلام تصرخ من المطبخ وانهار واغرق في حزن عميق وبكاء طويل. تتدخل أحلام التي تهرع إلى الصالة وتضمني إلى دفئها الامومي، لكني لا استطيع أيضاً التوقف.. تعربد أحلام وتطلب من شوقي أن يجلب حبوب المهدءات والكآبة من الجرار. يهرع شوقي مصطدما بالحائط والكرسي وتنقلب سفرة الطعام لكنه يجد طريقه، وحتى تأتني الحبوب أكون منهك ومفكك وضائع وقدرتي على المقاومة صفرا.

يجيء شوقي بالحبوب وابتلع كومة منها وبعد نصف ساعة أشعر بتراخ لعضلة القلب وتباطؤ نبضي- واحساس اخر من استرخاء الفم وسيلان اللعاب على الحواف. تجلس أحلام أمامي وأقول لها أني الآن افضل حالا من اي وقت.

وتتساءل، لم لم اذهب إلى طبيب نفساني واشرح لها، أني ذهبت واني بكيت أمامه واني اعترفت. اعترفت على خمسة اخماس حياتي وفي لحظة خوف، تركت العيادة وهربت بعد أن خيل الي أن الطبيب سوف يطلب رجال الأمن السري. منذ تلك اللحظة الديماغوجية بدأت في تيهان فكري. تمسك أحلام اصابعي وتقول لي انها سوف تمنحني بعض الاقراص لكنها لا تستطيع أن تمنحني اياها دائماً، انها مرتفعة الثمن وهي تحصل عليها من سوق مريدي.

عليك أن تدبر امرك بسرعة، يجب أن تحصل على العلاج باسرع وقت، وفيما أنا ابربر واتكلم بشكل تائه. تنهار سامية فجأة وتدخل في نوبة من البكاء العارم ويدب الهرج وتتراكض أحلام في المنزل وتحاول

ايجاد اقراص مهدئة اخرى، إلا انها لم تجد وتستمر سامية في البكاء الـذي يتحول إلى نشيج متصل وشهقات. تحاول أحلام أن تضـمها إلى صـدرها والتخفيف من البكاء إلا أن المحاولة تفشل ويستمر النشيج وتبدأ سامية وهي تبربر وتهذي وتقول، أريد أن انتحر، أريد أن أمـوت، ومـن خـلال الشهقات المخيفة والغصة، عرفنا انها حملت سفاحاً مـن وكيـل عـدي في اللجنة الاولمبية.

الفصل العاشر

تركت منزل شوقي وأنا في المرحلة الاخيرة من اليأس..اردت أن ابول على العالم. اخرب النكهة الذكورية لتوحش بغداد في متألفات المكان والزمن. حين يتحد الكابوس مع الزمن مع المكان، تخرج حشرات مخيفة، تجتاحنا من الأمام والخلف، حشرات غريبة بدات تظهر في بغداد. انواع جديدة من الافاعي والتيوس والصراصر، والجرذان. كل شيء يتحول إلى التوحش. الجرذان لم تعد تهتم بنا على اعتبارنا من فصيلة وارقى.

نحن وهم حولنا الحصار إلى اعداء نستقتل من أجل لقمة الخبز أو دينار اردني أو ريال سعودي. سمعت انهم أصبحوا يتفاخرون بنكاح الماجدة العراقية. ابناء القحبة سوف يأتيهم يوم لا بد أن يتقيئوا اماكنهم العالية ويسجدوا للمارد الفارسي. سوف يندمون على شرائهم الماجدات بسعر التراب وقبضات الدولارات.

الدولار يجتاح العاصمة. يجتاح وجوهنا الرمادية. اكرهك أيها المقمل والخايس. أكثر العملات التي كرهتها في هذا العالم هي هذه الورقة اللعينة. انها تذلني حد العار. العار الجنسي والشبقي. يجب أن

اكل ويجب أن يأكلون. لكن لا خراء في الثلاجة. كل شيء يتحول إلى ضروق عصافير بائسة. من حسن الحظ أن هناك الله. لو لم يكن موجودا لانتحرت..

سمعت أن هناك ثورة دينية ستبدأ. حملة ايمانية. لقد خسرنا كل شئ، لذلك يتجه السيد الرئيس إلى الله هذه المرة من أجل أن نصبر، أن نصلي للسماء من أجل أن تمطر ومن أجل الحيوانات الضائعة والجائعة. الحمير في بلادي تموت يا ابناء القحبة وأنا أيضاً أموت مستهلكا طاقتي الابدية. سنموت مثل النعاج. مثل القنادر القديمة وسيراكمنا الاله فوق تلة مرتفعة ويحرقنا وسيحرر عقولنا من الجسد والاحتياجات المادية.

احب السيد الرئيس لانه دائماً يفكر بنا. يفكر بالحيوانات والبشر والشجر والكون. اليوم حلمت به. وكل الايام السابقة كنت احلم به. مرة اراه حيوانا صاخباً ومرة اراه عبارة عن طائر مخيف يحط في أرض فلاة ويستصرخنا أن نموت. حكيت لجدتي واحدة من الرؤى التي اعتدت أن أشاهدها كل ليلة. رويت لها وأنا التهم ما تقدمه لي من مسلوق الباقلاء. أني خرجت إلى برية واسعة وهناك حلقت فوقنا ملايين الغربان وكانت شمس المغيب الحمراء تغرق الأرض براحة العطش. وضعت جدتي يدها على فمها لتكتم شهقة ثم قالت. سنموت من الجوع ومن العري ومن الخيبة المصيرية التي تلحس عقولنا فنغدوا مجانين.

كل شيء سيتجه إلى الجنون. ستناك النساء وتدمر الأرض وتتحطم المباني وسوف تخرج دودة الأرض لكن ليس المهدي وليس المسيح الدجال. انها تراخوما الميتيين. دود الأرض وهو ينهش وجوهنا ويجعلنا في عاصف الريح عبارة عن اغشية مخاطية. سوف نسلق الاحذية،

هذا فيما اذا بقيت، سوف نقتات على الجراد وسيكون هبوب الريح من جهة مجهولة. حتى الارواح الكونية، حتى الاشباح الفضائية سيعتريها الخوف. وتنظر في وجهي المشوه وأنا فاغر الفم مثل اتام بلعام لاسمع صيحة الخراب. الخراب الكبير وتغول الناس وانفضاح الأسرار.

ادور في شوارع بغداد دون أن أصل إلى جهة معينة. الاتجاهات تضيع في زحمة الوجع والاندهاش والجوع المجحف والخالي من الرحمة. سمعت من بعض الاقارب أن زوجتي تقتات الآن على الحشائش المزروعة في حديقة بيت امها مع بعض البصل والخبز الأسود. الآن هي تتحول إلى شبح خرافي. إلى شبح قادم من بين القبور المحطمة. قبور متروكة. الزمن ينهشني وأشعر أني أسير نحو النهاية. فلتذهب إلى الجحيم. أشعر بانتصار داخلي عليها. انتصار مرده إلى انها ابنة تلك العاهرة امها. لكن الأطفال، اه الأطفال. انهم اللعنة المغلفة بالنزوع إلى الحضيض.

لاول مرة أشعر بعار شخصي. بعار مسؤوليتي الخلقية في أني خلقتهم من العدم وجئت بهم إلى هذه السخافة الكونية. توسلت وأنا اذرع الشوارع، أن ينهيهم الله بطريقة ما. أن يميتهم وأن يرحلوا من هذا العالم إلى عالم الموسيقى والالوان والرحمة. لست ابا جيد. لست شيئاً يذكر في هذا الوطن الذي يبتلع فيه عدي ارواحنا وقصي انفاسنا ووطبان خرائنا وسبعاوي نظراتنا.

تعبت من السير في الشوارع وحينما وجدت نفسي قريباً من الباب المعظم انسللت إلى الفندق الذي ينام فيه محمد تركي النصار. وجدته بعد أن دخلت غرفته التي تفيض منها رائحته الكلبية وضوء المصباح الوحيد المتدلي من السقف. متدثراً ببطانية مليئة بالقمل تفوح

منها رائحة تشبه رائحة نصيف الناصري. لم يتكلم، شاهدني وكأنما كان يتوقع حضوري.

بعد أن جلست على شيء يشبه الكرسي نهض وذهب إلى النافذة وهو يريد أن يأكل بيضة مسلوقة لوحده. نهضت بسرعة ولحقته، ثم ارغمته على مشاركتي. رائحة محمد كانت خانقة واستطيع القول انه لم يغتسل من اعوام الحرب العراقية الايرانية. كنت انظف منه بدرجات. محمد من النوع الذي لا يهتم بمظهره الشخصي. الشيء الوحيد الذي يهمه، أن تكون قصائده طويلة جداً. طويلة إلى الحد الذي تتفوق على قصائد كزار حنتوش، الجميل والإنسان الذي ارادوا تخريبه. الإنسان الوحيد الذي لم يهزه الحصار. الإنسان الرائع الذي يمنح الاخرين فرصة للانفلات من همجية الأشياء. نعومته دمرتني. احالتني إلى هشيم محترق. انه الرجل الاكثر ذكاءا في هذ العالم لانه لم يتزوج واكتفى بالمداعبة.

بعد أن اكلت نصف البيضة شعرت أن محمد سينفجر بوجهي لتطفلي على طعامه. أنت اكبر قواد في التاريخ. ستضربك الهة الشعر. قال وضحكت وأنا ادير لساني في فمي بحثا عن بقايا غير مبتلعة. لا اهتم بسخافاتك يا محمد تركي النصار. لقد التهمت نصف طعامك. قلت له انه يجب أن ينشر واحدة من قصصي التي ارسلتها له باعتباره مسؤول الصفحة الثقافية لعدد من الجرائد. بدأ يلوي عنقه ويخن بطريقته المعهودة في الكذب. قال إن القصص لم تصله لكنه وعدني أن ينشر اية قصة تصله مني. سوف يوصي لي بمكافئة كبيرة. قلت له ارجو أن يكون كلامك صادقا ولو لمرة واحدة. أنا بحاجة إلى النشر. لا أفكر في النقود. لتذهب المكافئة إلى الجحيم وعلى اية حال فهي لا شئ ولن تكفي لشراء علبة من السجائر.

طلبت من محمد أن يسمح لي بالمبيت في غرفته حتى اتدبر اموري. بعد مشاكسات متعددة وافق. منحني نصف بطانية ووسادة كان يمارس عليها الاستمناء. لم استطع تلك الليلة النوم. كان البرد يتسلل من ثقوب البطانية والبرغوث يهرش وجهي وفروة شعري. محمد كان يشخر برغم البرغوث.

في الصباح استيقظت خلسة لاشاهد محمد وهو يدخل إلى الفراش وبيده صمونة يحاول تمزيقها تحت البطانية. كان منظره جميلا جداً. رائعا، ملهما. تخيلته وهو قادم من أماكن بعيدة في الذاكرة. من مناطق موحشة وغريبة. هذا المحمد يكتسح عري بغداد باسلحته الغيبية ودهشته من العاصمة. لا أعرف كيف يستطيع هؤلاء المتوحشون من الامساك بمنافذ النشر بهذه السهولة والقوة. لم يكن وجوده في بغداد يتعدى العام الواحد أو العامين ثم فجأة يصبح مسؤول صفحات ثقافية. أريد أن اخري عليهم واحدا بعد الاخر. واحدا قبل الاخر وفي النهاية اهرب من هذا الجوع والعبث.

كل الامكنة التي سكن فيها محمد تركي النصار هي أمكنة موبوءة. أمكنة سحاقية. قيل أيضاً أن محمد مثلي الجنس. استغل وجودي في غرفة محمد للخروج إلى الشرفة التي تواجه بيت عاهرات. عواء الكلاب يعلو في الشوارع. في الحقيقة ليس عواءا.

منذ ثلاثين عاما تحديدا، لم اسمع نباح كلب لأنها كلها مخصية، كلها ذهبت إلى الأمن العام وهناك اغتصبوها. اتذكر امي وهي في غرفة التعذيب. لم أستطع تذكرها وهي في حالة الاعدام، إنما اتذكرها وهي ممددة في غرفة التعذيب فيما فوقها يرتعش كلب من كلاب السيد الرئيس. كلب من كلاب العوجة وتكريت. ابصق عليكم أيها المناويك.

أيها العاهرات، أشعر أني برغم البرد اتعرق والبصاق يتناثر من فمي.. أفكر في محمد وممارسته العادة السرية. انه يمارس الاستمناء لانه غير قادر على اقناع حتى اقبح قحبة من أن تنام معه. مرة واحدة فقط استطاع أن يحصل على قحبة وحينما هم بها فتح باب الغرفة فجأة وهجم عليه شخص، قال انه زوج المرأة. دفع محمد ومن أجل تسوية الاموركل ما كان يحمله من نقود وهي مكافأة سنة كاملة وخرج إلى الشارع وهو يشعر بارتعاش مهبلي واعضاءه التناسلية غدت اصغر بعشرات المرات من حجمها الطبيعي.

زرت بعقوبة قبل اسبوع. منحني مصعب أمير بعد أن شخص حالتي حبوباً هي مزيج من حبوب معالجة الصرع والاكتئاب. ابتلعت عشرة حبات دفعة واحدة واحسست بعد قليل بتيهان واضطراب النبض القلبي. بقي مصعب أمير جالسا قربي وأنا اعاني من انسلاخ اعضائي التناسلية وذوبانها في المجهول. قلت له إني أموت، اهذي، اتورد، انحط في عوالم من الميوعة الشخصانية. شعرت أني اتحول إلى خروف واردت أن اجري خلف دجاج الجيران، لكنه منعني. في البداية بالكلام. بعد ذلك بالضرب.

انهمرت على راسي قبضات تشبه قبضات رجال الأمن. كل هذا من أجل منعي من العواء. هل يستحق هذا كله. قلت له أني أريد أن أعوي حقيقة. بقيت في بيت مصعب فترة قصيرة من الزمن.. بعد ايام من تجارب الحبوب المخدرة الممزوجة مع جزيئات الكاربون والحرمل لبلوغ النرفانا، فشلنا في أمر السيرتونين. احتاج إلى قطرة صغيرة من هذا السائل السيبيائي. احتاج إلى الله فعلا في هذا المشهد الغريب والراعش. اخذت تنتابني نوبات غريبة من الكفر. فجأة اكتشف نوعاً من الخبال

وارفض كل شئ.

كنت اخاف الموت بشكل مرعب. أنا اعاني من انزلاق روحي. اضطراب ذهني. لم اعد اشاهد أطفالي. كانوا يبتعدون من أمامي. حاولت أكثر من مرة أن امسك يدي عن ضربهم لكني لم استطع.، كانوا يحطموني وأشعر بعار شخصي كوني اب ويجب أن أكون كذلك حتى النهاية. لكن دوري في الحياة انتهى. أنا اغرق الآن في انسلاخات ذهنية واغرق في التساؤلات المريرة عن أصل العالم. اغرق يوما بعد يوم في هالة من الضياع والبحث عن الله. اعترف أني لم اجده. لكنه موجود حتما، فعلا. للضرورة القصوى. انه في مكان ما في هذا الكون المخيف. يطلق رياحه ويسوق الامطار والغيوم ويرفع أمامي سقف التخيل لانهار.

قطرة واحدة هي فقط ما احتاجه في هذا العالم. قطرة من السيرتونين الممزوج مع النورادرينالين وربما الدوبامين أيضاً. لكن المهم هو قطرة السيرتونين التي افقدها ومع هذا الفقدان ادخل في دوامة النكران وانغلاق العالم وتيبسه مثل ذبابة فقدت اعضاءها التناسلية وغدت حماراً كبيراً. واحد من الادوية التي عالجني بها مصعب، مركب استحلابي مكون من ملعقتين من البلوموكودين مع قرص واحد من مادة التافرانيل وملعقة من التوسيرام وحبوب مهروسة جيدا لا أعرف اسماءها. وضعنا كل شيء في ملعقة كبيرة وابتلعتها. مرت ربع ساعة وبدأت اخيلة هائجة تنبلج أمامي وادخل تلك الغرف المضاءة جزئيا واتشمم روائح البيض الفاسد واخرج من جيوبي اوراق تالفة تختلط الوانها مع كدرة الضوء الاصفر في الغرف الضيقة والمسودة الجدران.

كانت هناك افاع غريبة. نساء يحملن سماور من الشاي وخبز العباس. نهود عارية. اصابع بلون الحناء اوالخراء. كل ما يمكن تقيؤه

كان موجودا. نصيف الناصري برائحة شعره النفاذة واللعينة وفاضل بتماثيله النصفية وهو يضعها في واجهة الدكان الذي يسميه (الاستوديو). كنا ننام في دكان فاضل ونتقيأ قرب العيادة الشعبية، تحديدا على الجدران وفي كل يوم توزع فيه ادوية الامراض المزمنة. اذهب إلى هناك من أجل رؤية النساء واصاب بالصمم واصاب بلعنة. اذ تفوح روائح النساء المسترجلات والعجائز. فاضل يحب العجائز، يشتهيهن، يتوسلهن، لكنه دائماً يشعر بالاحباط ويدخن سجائره ويحتسي المحرمات في الدكان بانتظار فجر جديد يشرق. لكن هذا الامل مات اذ صحا في يوم غريب ووجد نفسه وقد تحول إلى جرذ كبيريبحث عن اعقاب السجائر في العيادة الشعبية وفي القسم الميكانيكي لمستشفى بعقوب حيث يقف هناك ابراهيم البهرزي بكل عنفوانه الشعري وبكل اهتزازاته المؤلمة وهو يشرب الكأس الاخير من الحياة وبأنتظار فجر اخر أيضاً.

❊❊❊❊

كانت ليلة غريبة ومجنونة. هناك عاصفة. العاصفة في عظامنا وفي انوفنا. لا لا، هي في السماء تعربد وعلى مسافة مناسبة من قاماتنا المحنية وعظامنا المشوهة. قررنا أنا وشوقي أن نزور حميد المختار في المستشفى، مضى عليه شهر وهو يزداد انفعالا. فكرنا بحميد سوية. حملنا له كيس من كعك السيد وبعض الكتب.

وصلنا المستشفى في ذلك الجو الماطر والعاصف. رشقات المطر كانت تجعلنا أشبه بسعالى خرافية قادمة من حكايات مجهولة. عيوننا في ذلك الجو تحولت إلى اصداء باحثة عن حميد. في النهاية. عبر الممرات

المحلزنة والقذرة والتي لم تنظف منذ عام تقريباً بسبب عدم وجود مواد التنظيف.

وجدنا حميد ممددا على سرير بشراشف قذرة. قال لنا مريض مجاور. يبدو أن صديقكم مصاب بضعف استقلابي وذهني ثم انفجر ضاحكا باسنان محطمة ثم اخذ طائرة ورقية وبدأ محاولات لطيرانها. مريض اخر بالجانب المقابل لحميد قال لنا وهو يصرخ من سريره الذي ربط عليه بسيور جلدية. اننا ابناء قحبة ويجب علينا أن نلحق الشرطة في الجانب الاخر وأن ندع حميد يلحس القدر.

شعرنا بخيبة امل كبيرة. تركنا كيس الكعك عند المساكين وخرجنا إلى الممر ومرة أخرى بدأت اصوات معربدة تصل اسماعنا من قاعة مجاورة. الممر مظلم. خوف ينتشر في الارجاء. كنا نسير بخطى بطيئة.. مسكين حميد.

قلت والبصاق يتناثر من فمي المرتعش. انه يجب أن نقابل الدكتور من أجل أن نخرجه من هذه المتاهة. لكن فكرنا انه من الافضل أن يبقى هنا، على الاقل يجد بعضا من الحبوب المهدئة وأن ينام دون أحلام بانتظار الفجر الجديد. كنا نشعر بتأنيب ضمير من أن حميد كان ضحيتنا جميعا. ضحية خائبة بعد أن جرب المتاهات الفكرية وليصل إلى قناعة حاسمة وهي أن الهنود الحمر هم اجمل الشعوب على الأرض. فهم على الاقل ضحية مثلنا لهمجية عالم لئيم.

****

استيقظت هذا الصباح اثر رؤية غريبة شاهدتها وأنا اتقلب في الفراش الذي منحني اياه حسن النواب مع بعض القمل والبرغوث وحشرات غير معروفة. اسيقظت وأنا أشعر أني اتحول يوما بعد يوم إلى شيء غريب. وجهي يتحول إلى نسخة ثانية من وجه بدر شاكر السياب.

تلمست وجهي بارتعاش وشاهدت قبحاً خلقيا وفمي من اثر الحبوب التي اتناولها يرتعش رعشات غير منظورة لكنها مؤلمة. لم اعد اسيطر على البصاق الذي يخرج من فمي. أحاول كثيراً من الوقت أن لا اتكلم أما اذا اثارني خالد مطلك بقصيدة (يومية) من قصائده فإن البصاق يتناثر في وجوه الاخرين.

اعتقلوا اليوم عشرات التجار تم اعدامهم جميعا دون محاكمات.. بالامس وفيما كنت سائراً بالقرب من المكان الذي يسمونه البورصة. هجم رجال الأمن من كل الاتجاهات. اي شخص كان موجودا في تلك المنطقة كان مشبوها. استطعت بقدرة توراتية، الهروب. لكنهم اخذوا العشرات. جياع هذه الأرض الذين يبيعون ويشترون الدولارات. اعتقلوهم كلهم. حينما هجموا علينا كانوا يحملون العصي والكيبلات الكهربائية. كانوا يضربون كل إنسان أمامهم. ليس مهما أن تأتي الضربة في القدم أو الرأس، مات أحد الشباب أمام عيني نتيجة ضربة كيبل على رأسه. مدير الأمن العام طلب من رجال الأمن أن يحطموا كل شئ. أن يحطموا الاثاث والشوارع والارصفة. الشاب الذي سقط أمامي مضرجا بالدماء وسيلانها من فمه. انحنوا عليه واخذوا دولاراته وتركوه مرميا على الرصيف.

مذيعة ارادت أن تشاهد اغانٍ غير اغاني السيد الرئيس شاهدها ابنها فبلغ الرفاق الحزبيين ومنذ ذلك اليوم لم نسمع أخبارها كما اننا لم

نشهد جنازتها. كنا نختفي بكل سهولة. نختفي في أماكن مجهولة في هذا الوطن الغريب والمدوي. الوطن الذي يبتلع ابناءه بسرعة عجيبة ومخيفة. لم نكن نملك قبوراً. لا ندري أين تختفي الجثث. هناك اخصاء غريب. حيوانات قادمة من ازمنة متوحشة تسير في الشوارع،تتسلقك. تدمر الخصيصة الإنسانية لك وللاخرين. أنت في نظرهم لست إلا حيوان، بلا قيمة اسمية ومعنوية. بالحاح يريدون التخلص منك.

شاهدت فيما كنت أكل الفلافل في علاوي الحلة، الشرطة وهي تمسك احدهم وتضعه في الصندوق الخلفي لسيارتهم ثم اخذ الضابط يشرب الشاي ببرود عجيب. بقيت هناك ساعة كاملة والرجل في الصندوق الخلفي دون أن يأخذوه إلى اي مكان. هناك شيء غريب في هذا الوطن شيء مخز ولعين، انهم يعاملونا على اننا أشياء زائدة. كلهم هكذا، بدءا من اخوة الرئيس ووصولا إلى حسين كامل. هذا السلوك الحيواني والوحشي انعكس على علاقات الناس ببعضها. القيم الإنسانية تتبدد في متاهة الفوضى. رجال الأمن والمخابرات، اطلق لهم العنان في الشوارع. في البوهيمية المتفجرة. في الغرائز المتوترة، في الوحشية المفرطة، في الأشجار الذاوية، في الوجوه العقيمة والادمغة الفارغة إلا من النهب.

كانوا يعتقلوك لاي سبب ثم تتم المساومة على راسك المسكين، رأسك الحزين ووجهك.البائس. القبضة التي انفلتت في تكون الفوضى العملاقة كانت تنتف ريشنا، كانت تحولنا إلى مخلوقات باكية. قصص قبو البصل الألمانية كانت تتراءى أمامي.

❊❊❊❊

سمح لي حسن النواب أن اقضي في غرفته ليلة اخرى. عندما انهيت طقس غسل الوجه صباحاً وعدت إلى الغرفة، وجدت حسن يجلس على الأرض ويعبث بجهاز المذياع. قال الأخبار تنقل لنا أن اليوم هو يوم بيعة الرئيس. على الجميع التوجه إلى مراكز الاستفتاء. مسخرة. فكرت بيني وبين نفسي أن اكتب لا في ورقة الاستفتاء. تلبستني هذه الفكرة تماما.

عندما نزلت إلى الشارع وتوجهت إلى بعقوبة للتصويت. سمعت أن من لم يصوت للرئيس تقطع عنه الحصة التموينية. شعرت بالخوف. احسست بالهزيمة الساحقة. الجميع يمارس معك الحيوانية والترفع. الجميع يهين الجميع. الجميع يبصق في وجه الجميع. اننا مجانين وبلهاء، عليك أن تبرز موقفك دائماً من الخدمة العسكرية والا قطعوا عنك بطاقة الغذاء. عليك أن تنتخب الرئيس والا قطعوا عنك الغذاء عليك أن تقدم حسن سيرة وسلوك والا قطعوا عنك الغذاء. عليك أن تستمع إلى اغاني الرئيس والا قطعوا عنك الغذاء. الغذاء، الغذاء. ابناء القحبة حولونا إلى حيوانات تعاقب اذا ما اخطأت أو ارادت أن تعبر عن إنسانيتها بقطع الغذاء. انهم يأكلون افضل انواع الغذاء فيما نحن ترمى لنا حصص بائسة ورغم ذلك يهددوننا بها دائماً.

بمرور الوقت أصبحنا نأكل الحمص باستمرار - من أجل الحصول على البروتينات -. بطوننا أصبحت منفوخة دائماً. أصبحنا أكثر الشعوب التي تصنع الضراط. شيء مؤلم و مزعج هو الضراط خاصة اذا كنت مصاب بامساك وتعاني من عدم القدرة على تفريغ امعائك بشكل جيد. محمد تركي النصار كان واحدا من أكثر الناس معانا ة من هذه الظاهرة. كلنا أصبحنا نسير في الشوارع ونحن نفرغ امعائنا من هذا

الغاز. باستثناء الرئيس وحاشيته. كل يوم كانت تصنع في قصور الرئيس الاف الوجبات الغذائية على اعتبار أن الرئيس سوف ياتي واذا لم يأت يرمى الطعام إلى المزابل.

هناك عشرات القصور الرئاسية في العراق وعليك أن تتصور مقدار الطعام الذي يرمى. لماذا أيها القائد لا تمنحنا هذا الطعام. لماذا لا تدعو إلى قصورك، الفقراء الذين اكلوا الخرة بنهم عجيب. نحن نموت من الجوع والعري الحزن والمأساة واللوعة. اذا ما حصلنا على مائة دولار بطريقة ما، كأن بعث بها احدهم من وراء الحدود. نذهب إلى سوق البورصة وعندما نجد من يبدلها لنا بسعر ممتاز يهجم رجال المخابرات ونعتقل جميعنا وتصادر المائة دولار وتصبح ككلب، تتوسل فقط أن يطلقوا سراحك، أما المائة دولار، فإلى الجحيم.

رجال الدين من اتباع حزب السلطة يقولون لك، اصبر أيها البعير، كن مثل الجمل، تحمل الضربات، لأن الله سوف يفرج عنك حتما. ومنذ الحرب العراقية الايرانية، لا بل منذ الجمهورية الاولى في بلادنا الغريبة ونحن ندعوا الله والله لا يستجيب. رجال الدين حينما نسألهم لماذا؟، يقولون لنا، اعلم أيها المتبطر أن الله اذا لم يستجب لك في الدنيا فإنه سيرحمك في الاخرة.

لكن أيها السادة أنا اعيش في هذا العالم ولا أريد الاخرة. أريد فقط الدنيا واذا كان حظك بائسا للغاية فإنك سوف لن تحصل حتى على الاخرة، يا للبؤس. نحن مساكين وحيوانات اليفة، نهاجم من قبل المناويك. نهاجم من قبل المتوحشين وليست في اصابعنا مخالب، لانهم قطعوها لنا، لانهم انتزعوها منا مثلما تنتزع الجلود من الحيوانات البائسة. نحن أقل قدرة حتى من الحيوانات الاليفة. ذهبنا إلى الحروب وذهبنا إلى

الغزوات وذهبنا إلى الحصارات وفي النهاية يأتي منيوك ليقول لنا انكم شعب وغد وشعب متبطر ولو كان الله يحبكم لما فعل كل هذا بكم. اللعنة وماذا فعلنا نحن لنستحق كل هذا العذاب ويقول احدهم انه ابتلاء وعلى المؤمن أن يصبر. وحتى متى نصبر؟. إلى اي مدى؟، إلى اي حد؟.

لقد تركت الحيوانات صغارها لأنها غير قادرة على اطعامها. مسكينة هي طيور بلادي وحيواناتنا وقططنا. مسكينة هي الجرذان والفئران لأن احدا لم يعد يرمي فضلات الطعام وحتى الديدان لم تعد تعبث بخرائنا لأن خراءنا لم تعد فيه بقايا مواد غذائية. نسينا القهوة. القهوة،، ياللر وعة. كم أنا مشتاق لفنجان احتسيه في مقهى البرازيلي. كم أنا مشوه. كم ارواحنا متعبة ومنهكة ومدمرة ومسامية وهشة. وجوهنا هي أيضاً وجوه بائسة. وجوه تشبه وجوه الخيول المرتعبة، الخيول المريضة والتي يجب قتلها.

سمعت من يقول إن السيدة الاولى قالت، اذا اردنا أن نعيش مثل أهل الامارات، فعلينا التخلص من ثلاثة ارباع الشعب العراقي. علي حسن المجيد يقول أيضاً، من أجل رفعة الامة، أنا على استعداد أن اضحي بعشرين مليون ويبقى لنا فقط خمس ملايين. حسين كامل يضربنا بالكرباج والسادة جنرالات العوجة يريدون أيضاً أن نموت في حروبهم المضحكة من أجل رفعة العراق. أقول ما هذا أيها السادة وما نفع الوطن بدون شعب.

اننا أمام فوبيا عجيبة وحيوانات ترتدي ملابس الجنرالات تقودنا في حروب مضحكة. حروب بدائية وهم يواجهون امريكا بأسلحة الهنود الحمر. مناويك حولتمونا إلى حشرات نوضع على الطاولة ويتم

تشريحنا. حولتمونا إلى فئران تجارب. ما من سلاح جديد في العالم إلا وتتم تجربته علينا وكل هذا من أجل العراق ومن أجل الامة. نحن نموت وتقصف اعمارنا وياتينا المناويك من كل بلدان الخراء ليقولوا لنا، اصمدوا وفي نهاية المقابلة مع السيد الرئيس، الذي نحبه جداً، يأخذون الملايين من الدولارات.

مدن بالكامل تم بناؤها في الخارج للصحفيين والكتاب العرب والاجانب فيما محمد تركي النصار ونصيف الناصري ومحمد الاحمد يعانون من العنن الجنسي لانهم لا يملكون نصف دولار يفرغون بواسطته مثاناتهم من الحيمن. مسكين محمد تركي النصار. بالاضافة إلى خنة صوته اصيب بالاكزما وأصبحت اصابعه عبارة عن مرتع للجراثيم. حتى غرفته البائسة في الفندق تحولت إلى نفايات. كومة من البراغيث الطانة.

توسلته أن يغتسل لكنه يخشى الماء، منذ اعوام طويل لم يغتسل وأصبحت رائحته تشم من مسافة امتار. صلاح زنكنة هو الاخر توسله. منحه نقودا من أجل أن يذهب إلى حمام السوق. لكنه ادخر المبلغ من أجل يوم اسود ربما ياتي متأخراً وأقول له ما هذا أيها المنيوك؟، هل تعتقد أن هناك ايام أكثر سوءا مما يحصل الآن.. اذهب إلى حسن عجمي واشاهد صلاح زنكنة. اقترب منه ودون أن اشرح الموضوع الخاص الذي أريد التكلم به، يخمن ويسلمني حفنة من الاوراق النقدية. أشياء ورقية بلا قيمة. يناولني رزمة أخرى وافرح.

اذهب إلى جريدة الجمهورية حيث التقي حامد، الشاعر والصحافي والذي تربطني به علاقة خاصة. ما أن يشاهد المبلغ المالي الذي احمله حتى يبدأ بالحديث والثرثرة ويطلب مني أن اسلفه بعض

الاوراق، لكني ارفض ويقول لي بخبث ظاهر ولؤم انه على استعداد أن يفاتح (س) من أجل ليلة حمراء وأقول له لا، لا أريد (س) لأن مؤخرتها حقيرة ويقول لي مرة أخرى وبسرعة، فقط اختار اية واحدة، (ل) أو (ع) أو حتى (و).

اسمع يجب أن تمنحني النقود لاني أريد أن اشتري لاولادي احذية. انهم الآن بدون احذية، لا يوجد في البيت غير حذاء واحد يتناوبون على لبسه. يا إلهي. امرأتي أيضاً مريضة، مصابة بعاهة مستديمة لأن حماراً تائها رفسها وهي تسير في مدينة الثورة اقصد مدينة صدام. ابي أيضاً مصاب بالسيلان والعائلة كلها تعاني من الدبق واللوثة العقلية. حتى أنا اذا اردت الصراحة مصاب بالعصاب والسفلس والبربوغندا الجوعية. أني احلم منذ شهر تقريباً بالكباب. احلم بالكبة والدولمة. امي المسكينة تعمل الآن في بيع الخضراوات وزوجتي تعمل في تنظيف البيوت، عليها أن تعيل كومة المجانين في البيت. قبل شهر ادخلوني إلى مستشفى الامراض العقلية، سلطوا على راسي عشرات الفولتيات لكني لم اشف وما أن انتهى العلاج حتى ضربت شرطي في الشارع واخذوني إلى القسم والمحاكمة وفي النهاية عفى عني الحاكم لاني مجنون. أنا افعل هذا او اتقمص هذا الدور من أجل الحياة، من أجل أن استطيع مفاتحة النساء في الجريدة وأن اعرض عليهم خدماتي. خدماتي متنوعة، استطيع أن افاتح نصف نساء الجريدة ونصف نساء النقابة واستطيع أن اعمل لك حوارات مع كل الفنانين والفنانات، الوسط الادبي والفني يعرفني جيدا ومتى ما خرجت الامور عن السيطرة أقول بصوت مرتفع، أيها السادة أني مجنون وخرجت من مستشفى الامراض العقلية قبل شهر. هذه المستشفى انقذتني من كثير من المهالك لكنها لم

تنفع عندما اردت أن أصبح موظفا في اللجنة الاولمبية وتحت رئاسة الاستاذ. أنا اكره كل شيء في هذه الحياة. اكره زوجتي التي تعمل عشرين ساعة في اليوم واكره امي لأنها خلفتني في هذا العار واكره ابي واكره كل اخوتي.

نحن عائلة من المجانين واذا منحتني بعض النقود سوف ندعوا لك الله بكل جوارحنا، بكل جوارح المجنون، لا تنسى أن المجنون مستجاب الدعاء. وأمام حال الهلع والفنطازيا واللؤم والخباثة واللوعة وكل المؤثرات الفيزيقية، ينتزع مني، هذا القواد، نصف المبلغ وبعد أن أسير بضع خطوات، أشعر بمقدار الكارثة التي حلت على رأسي والعن اليوم الاسود. أني اعجب من هذه القدرة الحيوانية على البقاء والصراع من أجل الحياة. أشعر بالعار الشخصي كوني لا استطيع أن اعمل ربع العمل الذي قام به هذا النذل واحس بالعار والرعب والخسارة لاني منحته النقود دون مقابل ودون الحصول على امرآة أو حتى نصف امرأة، ويبدو أني ساستمر في ممارسة العادة السرية إلى الأبد طالما أني اعيش مع محمد تركي النصار، أو بسبب أني اشاركه الاغطية والقمل والاكزيميا التي تنزف الدماء عندما يكون الجو باردا وعندما يكون محمد، عاجزا عن كتابة قصيدة افضل من قصائد عبد الزهرة زكي وحسين الصعلوك ووسام هاشم وربما نصيف الناصري أيضاً.

❊❊❊❊

بعد تسكع تائه في شوارع بغداد، أعود للجلوس في مقهى حسن عجمي. كنت اعاني من نقص حاد في مادة الدوبامين. كل اعضائي تهرشني. منذ يومين لم اتذوق الفلافل. اردت أن اكل حذاء حسن النواب لكني فوجئت انه قد التهمه قبلي. كلانا الآن بدون احذية. نحن نسير في الزمن الخطأ ونتجه إلى النهاية الخطأ. حيواناتي المنوية على وشك الجفاف. مارست العادة السرية في فراش حسن أكثر من مرة لكني لم استطع أن اقذف. حسدت جان دمو لانه رغم البرد والجوع واللؤم المختبي في العيون، يجد له مكانا في الوطن، ثم باراً يمارس فيه تخيلاته. جان دمو يجلس في بار ساحة النصر يحيط به دائماً نصيف الناصري وحسين الصعلوك ومدارات حزينة من الوجع تبتلع اهاته المجردة من اللامتعة.

لم اشاهد جان ولو لمرة واحدة حزينا. هو قانع ومستسلم إلى المصير، رغم انه يخفي جراحات كثيرة وكبيرة. قلبه مصنوع من سيراميك الحمامات والمراحيض. كلمته الاثيرة -اذهب أيها المرحاض-. ترتاض في الذهن والعاهرات والزمن الخبيث والخسيس. احسدك يا جان دمو لانك تجد في اكوام الجوع الغريب والذي يزحف على سماء المدينة، جرعة عرق ومزة وبعض اللبلبي وربما الحمص بالطحينة.

على مبعدة امتار من بار ساحة النصر حيث يعربد جان دمو، المح استاذا جامعيا يبيع اغراضه المنزلية. عرفت هذا الاستاذ. انه الدكتور صالح الرفاعي، استاذ مادة التصميم الصناعي. اقترب منه ويعرفني في الحال ويقول بارتباك : أن لديه اغراض زائدة عن الحاجة وعوضا عن أن يرميها هاهو يبيعها. يكذب. انه ينزل إلى الدرك الاجتماعي الاسفل. اساتذة اخرون شاهدتهم وهم يبيعون ملابسهم. لم تعد هناك حاجة إلى الملابس الاضافية ولا إلى المكواة ولا إلى جهاز طحن القهوة. كل شيء

أصبح فائضا عن الحاجة. بكيت باحتلام مختلج. بكيت بنور غريب يختفي من وجهي وأنا اشاهدهم يذوبون في خضم الوهم الاتي علينا من محيطات العالم الاخرى. نحن ننحدر، بلا توقف، بسرعات كبيرة. باصات نقل الركاب الحمراء تقل في الشوارع. اغلبها أصبح خارج الخدمة. لا ادوات احتياطية ولا سواق لهذه الوسيلة الجميلة.

أصبحنا أكثر حساسية من اي وقت اخر للحفاظ على ملابسنا. أكثر الأشياء التي نخافها أن يتمزق القميص اثناء غسله أو اثناء التدافع لصعود الباص. أشعر اننا نتكوم. تصرفاتنا غابت في اللاإنسانية. نتحول إلى مخلوقات باكية. مخلوقات متوترة.

البكاء لم يعد ينفع في تفريج الهموم (اذا ضاقت الصدور عليكم بزيارة القبور) مسكينة قبورنا. حتى هذه مر عليها الحصار بوثنيته ورعونته وفجاجته ولؤمه. القبور أصبحت مبولة عامة. انها تتهدم. لم نعد نملك اموالا لايقاد الشموع ولا قراءة الفاتحة ولا شراء البخور أو صيانة الشواهد. الموتى يختلطون مع بعضهم البعض. تضيع الحدود بين القبور وتتفتت الشواهد وتصبح الذكريات صور وهمية فقط. من يعرف الآن موتاه. لا احد. مع اختلاط الاموات لم يعد منكر ونكير قادرين على تميز الاموات ولا تميز الطالح والصالح. انهم هناك في الاسفل، تحت التراب، يرتعشون بانتظار قرار الهي يعفى عن الجميع لأن العظام اختلطت والاسئلة ضاعت والملائكة احتارت.

في غضون عشرة اعوام قادمة سوف ينتهي كل شئ. لن يعود في الوطن أمكنة شاغرة لدفن الموتى. الوطن تحول إلى مقبرة غريبة وشاسعة وامتدادية في استطالاتها. هل تعلم؟ نحن الشعب الوحيد في العالم الذي يعيش مع امواته. الموت بالنسبة لنا نحن سكان بلاد الرافدين، له معنى

مقدس. نحن الشعب الوحيد الذي كفر بالموت والاخرة. كل انثروبولجياتنا تلعن الموت. تكرهه. نحن نحمل في نواحنا معنى الموت المستمر. فكرة حساب الاموات في القبر - الواردة في القرآن - هي فكرة رافدينية صرفة. نعم، تتناسل الافكار عن الموت مثلما تتناسل الثعالب والارانب.

في كل افراحنا نبكي، حتى في أحلامنا المفترض أن تكون سعيدة. حتى في ارتعاشات الاوراجوم كنا نحسب أن الشريك ذاهب إلى الموت. عندما تنتهي من ممارسة الحب مع امرأة عراقية، لا تشكرك على اللحظات الجميلة التي قضتها معك، إنما تطلب من الله أن يطيل عمرك. كل شيء في حياتنا هو الموت، كرهه، مأساته.

في الاعياد نذهب إلى الموتى وفي الكوارث نذهب إلى الموتى و اذا ولد لنا مولود جديد نذهب به إلى المقبرة. المقبرة تشكل هاجسا اخلاقيا لنا.. كل الشعوب في العالم جعلت من الموت بداية أخرى للخلود الكوني. كل الشعوب في العالم كتبت ميثالوجيتها من أجل الاستمرار الروحي في حياة أخرى سعيدة. أما نحن فعلى العكس. صورنا الموت موتا. صورناه وحشا. ابتكرنا الالهة التي تحاسب الموتى في قبورهم وهي تعبير عن ياسنا من حياة جميلة. حتى ديانتنا حولناها لعبادة الاموات. اغانينا عن الموتى والحزن. ضحكنا نخاف منه على اعتبار أن مايأتي بعد الفرح هو الحزن والبكاء حتما.

شاهدت شوقي كريم وهو يسير مثل ثعلب ماكر وحزين، لحقته. قال لي بعد أن توقفنا بمحاذاة دكان الحاج زبالة. أن هناك أخبار ممتازة لي. أنا أعرف شوقي، هو من النوع الذي يجعل ضرطة ثعلب صغير، عاصفة. قال - مع القسم - انه وجد عملا لي. عمل رائع وفي مجال

الكتابة. صوت شوقي يتدافع إلى الاذن مثل موجات من الهواء العنيف. قال انه وجد متعهد يشتري منا انتاجنا الثقافي. اسعار جيدة وخاصة عن التمثيليات والمسرحيات والقصص والريبورتاجات.

هل تريد أن تكسب ام لا. قلت له مع خوف دفين، طبعاً. قال اكتب اذن وعندما تنتهي من الكتابة اتصل بي أو خذ، هذا عنوان المتعهد. مددت يدي النحيلة ومثل افعى تلتف على حيوان صغير ابتلعت ريقي وازحت بعض الانفعالات جانباً. قبل أن يذهب شوقي مثل عاصفة وهمية. استلفت منه اجرة الذهاب إلى بعقوبة.

درت قبل أن اذهب، على المكتبات في الباب الشرقي. لم تكن هناك كتب جديدة. لكني شعرت أني استعيد نوعاً من التأمل الخاص. اخذت فيما اقلب الكتب، ابحث في ذهني عن فكرة الكتابة. كل لافكار كانت عبارة عن افكار موسقة. افكار تصلح لقصيدة نثرية. أما كقصص قصيرة، فلا. فكرت انه ربما بعد شرب فنجان من القهوة وتدخين سجائر سوف أجد الفكرة.

مرت من أمامي اخيلة واوهام عن عصابات وشقق عاهرات وملاهي ليلية، لكن في النهاية كنت أجد نفسي دائماً في معسكر حربي وجيوش وهمية وغارات حقيقية. اتجهت إلى النهضة لاخذ من هناك باصا إلى بعقوبة. الكراج مقفراً.

باعة الشلغم واللبلبي يفترشون الأرض. ظلام المكان وقذارته وانفلات الفروخ في الساحات صعد في روحي الاكتئاب. شعرت بصدق أني أريد أن ابكي، أن ارتعش. عادت الي في لحظات روئ غريبة عن كراج النهضة يوم كنا نتدافع للحصول على باص ينقلك إلى الجبهة. مشهد

كراج النهضة يشكل بالنسبة لي نوعاً غريباً من الألم الممزوج بالخوف والترقب واللامعنى. أكثر الكراجات كرها إلى روحي هو هذا الكراج بظلامه وسواد أرضه وروائح الجيف التي تنتشر في كل مكان.

عندما صعدت الباص ووجدت لي مكانا اجلس فيه، احسست فجأة أني ابكي بصمت. كنت أشعر باختناق غريب. صدري يؤلمني. اتذكر سنوات عمري التي ذهبت هنا. هناك من يقول لي لماذا الخوف، أنت لم تزل شاباً، لم تتجاوز الاربعين. صحيح. لكني محطم. مهزوم. مجوع، معذب، متلاشي. مندثر، مخوف، مهموم. مكمم.

عندما نذهب إلى طبيب الاعصاب، نكتشف انه غير قادر على معالجتنا. لأن حالتنا أصبحت من الخراب والتشابك والتماثل والاضطراب ما يستعصي علاجها. نحن متشابكون، ملونون. نعاني من عقد غريبة. نعاني من انسحاق كلي. نحن مدمرون أكثر من شعب هيروشيما ونكازاكي. مدمرون وكأن الأرض ارتجت. تقلصت. حتى محمد تركي النصار وجان دمو اختلت في عيونهم المقايسات الضرورية للحياة. أصبح جان دمو يفكر في الهروب من هذا العالم المتوحش. من عالم حسين كامل وصدام كامل وحجي عبد وعدي وقصي وباقي الشلة. ما افهمه أن الانتصار في الحرب هو الانتصار فيما وراء الحرب، ووفقا لهذا الشئ نحن خسرنا كل حروبنا. خسرنا كل آلامنا. كل الوجع الذي عانيناه كان حماقة تافهة. كل تفاهة كانت تجر خلفها تفاهات اخرى. ملايين الانواط والشارات والاوسمة في المرحاض.

الشهداء ضاعوا. الاحياء والمعوقون وحملة شارات الحروب باعوا انواطهم في ساحة التحرير. كل شيء أصبح مباحاً. أصبح مباعا. أصبح خراباً. الخراب ينمو مثل الفطر على الأشجار والأرض وفي العيون وفي

العقول. من قال إن الحصار ليس حرباً. انه اشنع من الحرب. اشنع من الموت. اشنع من وجوه الرفاق الحزبيين الذي أصبحوا مثل حيوانات نافقة. الحزب ولى إلى الخراب. لم يعد هناك من حزب، إنما قتلة ومسعورين. كل الحزب تحول إلى اناء يبول فيه القائد والتكارتة واهل الدور والعوجة.

انهم يبولون على حياتنا. على سقمنا. على خفة عقولنا. زرت المحافظات الجنوبية عندما دعيت أنا وشوقي لقراءة بعض القصص. شاهدت هناك الموت واللاامل واللاحب.

شاهدت عالما يعيش في القرون الماضية. قرون التوراة والاضاحي وماذن الرب القديمة والمتصدعة ورجال الدين. شاهدت اناسا قادمين من عوالم بعيدة جداً عن الحضارة. شوارع مليئة بروث الحيوانات. حمير وبغال. شوارع مليئة بالسخام ومياه المجارير. كانوا ينظرون إلى وجهي، أنا القادم من بغداد ويحسبوني مثل ملاك قادم من وراء المحيطات الملونة بالعبث، الغارقة في رائحة التاريخ.

شاهدت السبغ الغريب وهو يجوس الوجوه والجوع الكافر واللامعنى.

شاهدت الاهمال المخيف لإنسانية الإنسان. تكريت فقط هي التي تعيش. فقط تكريت تسلبنا بغداديتنا. تسلبنا لب الحياة وتضعنا في المرحلة ما قبل التاريخية. السيد الرئيس ابتلع كل شئ. ابناؤه واعمامه واقرباؤه واخواله التهموا كل شئ. لقد صادروا الاعظمية والباب الشرقي والكورنيش وابا النؤاس والدورة والكرادة خارج. سرقوا اجمل الأشياء في حياتنا. سرقوا كل شيء بما فيها احذيتنا وتركونا حفاه،

عراة، نواجه العاصفة والريح والغباء واللامعنى واللا حياة.

بغداد أصبحت مخيفة، مرعبة. اينما تمضي تشاهد رجال المخابرات. سيطرات عسكرية في كل مكان. اننا نختنق. لا نشعر اننا نعيش إنما نعوي في قفص كبير. سجن هائل. المدهش انه حتى العواء ممنوع. حتى البكاء مصادر. حتى التألم يعتبر خيانة. ما الذي نفعله للعواطف والألم المكنون في الذات اذن؟.

أفكر فجأة في ضياء سالم. ضياء عنوان كبير لضياع الاديب من الإنسان. اتذكر كيف ضاع في هذا العالم، نسي الطرقات، نسي نفسه. اخذ يعمل حدادا ثم انتقل للعمل في فرن خبز. عندما نزور ضياء نجده مملوءا بالطحين، مملوءا بالعجين. لايريد أن يستسلم مثلنا. يعمل ويكتب ويرينا بين الاستراحات، عندما نغزوه في المطر. مسودات القصص ومسودات الكتب التي كتبها بين الفئران الباحثة عن قطعة خبز أو عجينة تائهة.

نجلس أنا وشوقي كريم وحميد المختار نأكل الخبز والعطايا فيما ضياء يقرأ في مسوداته.. كثيراً ما شكا لي حميد من ابنوسة حياته. من التشيوء والضياع في متاهات العالم.نترك ضياء و نتجه إلى مسميات غريبة في هذا الكون. نحن الثلاثة، نتجه إلى مسميات يمكن أن تعزوها إلى المرض أو الانسحاق.

شوقي يحمل نصف العالم على راسه. يا للهول، لكنه صلب. قوي. لا يدمره الحصار. لا تدمره الكآبة ولا الوجوه الملتوية التي نجدها في الشوارع. انه يغني ويصفر. في نزله الذي هو عبارة عن مغارة عميقة. يكتب. يفعلها في الحمام، وهو يمارس الحب، وهو في المرحاض. انه يفكر

دائماً. موبوء بالكلمة. بالكتابة. دائم البحث عن الفكرة. ليس مهما بالنسبة له الثمن. الحصار لا يحطمه. يقف أمام جمعية الصحفيين ويستلم حصته من البيض وفي اليوم التالي يقف أمام جمعية المحاربين القدماء ليحصل عل بعض اقراص الجبن. يقضي اوقاتا رائعة وهو يقف بالدور ولا يهمه أن يمر الزمن كله. انه يفكر وهو واقف. يفكر وهو نائم، يفكر في كل الاحوال، حتى عندما كان يهرب من الخدمة العسكرية ويدور في طرقات بغداد. انه مفكر عظيم، شيء منزوع من فكرة الألم..

حميد المختار يكتب بعد أن ينام الأطفال في غرفته. هناك عشرات من الأطفال والزوجة طبعاً. عليه أن يجد التوقيتات الملائمة وأن يعرف نزوات الأطفال في البكاء والصحو والانفعال. انه يمارس هذيانا غريباً. يجلس على سريره بين الاوراق وينهمر ضالعا في المتاهة، على عكس خضير ميري الذي يوحي شكله بانه يعيش اخر القرون الجميلة والمخبؤة بالفلسفة. لم أعرف كيف يكتب، عرفت فقط نوعاً غريباً من الطقوس يمارسه. انه يهذي ويزبد ويضيع اذا واتته الفكرة، عكس حكمت الحاج. يشعر خضير، انه معزول عن العالم حتى لو كان هذا المكان حسن عجمي. انه يتشيء، أو يضمحل. الالهام بالنسبة له مثل النبؤة، مثل الفلسفة. غالباً ما أشعر أمامه بالاندحار. انه يفكك كل شيء أمامه. مثل حميد،القصة والكتابة والفكرة والضياع والابداع.

أنا أعرف انه يكتب أشياء سرية لذلك اعتقلوه في يوم عاصف، ثم افرجوا عنه وهو يتيه في بحيرات من الضوء القصديري ويضحك.

❊❊❊❊

أصل بعقوبة واتوجه مسرعا إلى البيت، مثل كلب اجرب مليء بالقيح والجروح، انبح، ولا يرمي لي أحد عظمة. اقترح علي محمد الاحمد أن اعطي مبلغاً من المال لاحد التجار مقابل أن يمنحني نسبة من الارباح. خيار جديد في حضرة الخراب واللامعني.

بعت مبردة الهواء والطباخ وبعض الكتب وحملت النقود إلى التاجر. كنت ابكي في حقيقة الامر. منحني التاجر ايصالا بالمبلغ ووعد أن يمنحني اول دفعة من الارباح عند نهاية الشهر. ارجع إلى بغداد وادخل مقهى حسن عجمي مطهما بالراحة لأن هناك نقودا سوف احصل عليها من التاجر. اشرب استكانة الشاي ولاول مرة في حياتي الحصارية أشعر أني إلى حد ما إنسان استطيع التفكير بوجبة من الكبة اكلها في مطعم السراي ثم أطلب قطعة ثانية من الصمون دون خوف..

فجأة يدخل شوقي كريم وهو يرتجف ويقول: السوق (خرط). ما الذي تعنيه؟. ويجلس مرتعشا ومرتبكا ويشرح لنا اليات انهيار الاسعار وأن العراق وافق على تصدير النفط. اخرج مثل اعمى واصطدم بالاخرين وطاولاتهم.

صرخة شوقي كريم في اذني. اذهب مباشرة إلى التاجر واشاهده وهو بحالة من الفزع والذهول. لم استطع التفاهم معه. يقول لي لقد خسرنا اموالنا. أشعر باهتياج غريب. واحس في ثورة الغليان والاضطراب أني مثل ثور مجنح. مثل فأرة محاصرة. مثل يعسوب فقد اجنحته. أعود إلى الشارع. عماء كلي. لا استطيع وأنا أسير أن ارى الاخرين. الاف الحيوانات. كل المخلوقات تحولت إلى كتل ضبابية. أسير في العماء. اضرب بساقي على الارصفة.

أصل إلى بعقوبة وأنا في تيه كلي. اذهب مباشرة إلى مصعب و يمنحني اقراصا مهدئة. الاكتئاب يتحول إلى هلع. أعود إلى البيت واندس في السرير. تصحو الزوجة وتمطتيني، ثم تطلب أن نمارس الحب. انزع ملابسي وفيما نحن نمارس الكره، أفكر في أحد اسنان جدتي المصنوع من الذهب واتحرى في ذهني المكان.

في اليوم التالي اخرج من البيت وأنا مصم على عمل شيء لا على التعيين. اذهب مباشرة إلى باب المعظم واقف أمام مصرف الدم. تصورت أني الوحيد الذي خطرت له فكرة بيع الدم، لكني فوجئت بالعشرات.

استطيع بعد الوقوف ساعات طويلة من بيع قنينة واحدة. اقبض الثمن وأسير مترنحاً. مهدودا، ممزقا. اشتري طماطة وبطاطا وبعض علب السردين وارجع إلى البيت. اشاهد الأطفال وهم يلعبون في الشارع، لا تستطيع تميزهم بسبب الطين والتراب العالق بوجوههم.

ادخل البيت واجد الزوجة وامها بانتظاري، مثل آل كابوني والأم تتهيأ لضربي. اذهب إلى معمل ابراهيم حيدر واحتسي بقايا قناني الفودكا المتروكة. أريد أن أبقى سكرانا. أريد أن اتوهج من جديد. أن تعيش كاتباً فتلك ماساة اشنع من مأساة موت الحلاج. اذهب إلى أمير الحلاج في المركز الصحي واجلس هناك. يطلب لي النسكافيه التي يحبها. احتسي اكواباً متتالية واشاهد طنين البشر وهم يتدافعون من أجل الحصول على الدواء.

في نهاية الزيارة يقدم لي الأمير بضعة دنانير اخذها بعجالة وتلهف ثم اخرج من العيادة وأنا أنظر إلى السماء الملبدة دائماً وغير الممطرة.

أتساءل أين تذهب كل هذه الحيوانات عندما تضيع في السماء صرخة قادمة من المجهول.

بالقرب من العيادة الشعبية يقع، نادي الادباء. صلاح زنكنة يحشر سيارته الماليبو في زاوية خطأ. ادخل إلى الاتحاد واقترض من صلاح بضعة دنانير أخرى لا أعرف ما الذي افعله بهذه الدنانير القليلة. اشتري علبة سجائر وامضي- إلى البيت. كالعادة تتلقفني الزوجة مرة أخرى باضطراباتها النفسية – اخذت تشاهد، منذ عام اشباحاً وملائكة تطير وتستقر فوق النخلة الموجودة في الحديقة الخارجية– بدأت تصلي وتتضرع إلى الله أن يخلصها مني – دائماً ترفع صوتها اثناء الصلاة من أجل اسماعي دعائها – كلهم مضطربون نفسيا. كلهم يتجهون إلى النهاية القصوى في هذا الخراب.

ابنتي الصغيرة تريد شراء بعض الايس كريم، ارفض واوفر المتبقي من النقود لشراء العرق من محل مقابل الشاخة. عندما يأتي المساء. اترك المنزل وأنا في حالة اشتياط. اردت أن اكتب كتاباً للمتعهد الثقافي، لكن صراخ الأطفال والزوجة يمنعني. كلما أكون في البيت أشعر أن صحتي تتدهور وتلازمني كآبة حادة. لم اعد اهتم بالأطفال. أشعر أني اكرههم إلى الأبد وأشعر أني اخطأت خطأي الكبير عندما تزوجت، لكن الخطأ الاكبر هو أني صنعت أطفالا في هذا الزمن.

اشتري قنينة العرق واختبأ بين الأشجار مجاوراً نهر خريسان. اشرب العرق دون مزة و يقول لي محمد الاحمد عندما يمر ويراني مختبأ بين الأشجار، انك تقتل نفسك. بعد مرور ساعات طويلة من اختبائي وشربي العر ق اخرج من بين كومة الأشجار مترنحاً واتجه إلى البيت.

في الطريق اشهد وجوه لأصدقاء وهي تومئ لي. أعرف انهم يوجهون لي التحية، لكني اعيش حالة غريبة من السكر المضاف اليه حالة من الاكتئاب الشديد. أصل المنزل والزوجة لا تفتح الباب اضطر إلى تسلق الجدار والقفز إلى الحديقة الداخلية. بعد أن اطرق الباب الداخلي، اسمع ام الزوجة وهي تهددني بأنها سوف تتصل بالشرطة. اتوسلها أن تفتح الباب لأن البرد قارص وشديد، لكنها تمانع. اجلس متقوقعا وناشفا إلى الأرض وبعد دقائق تدخل الشرطة وتسحبني خارجا. أقول للشرطي الذي يجرني من ياقتي، أني أريد البقاء قرب أطفالي لكنه لا يهتم.

أشعر أني بحاجة شديدة للأطفال. كنت أريد أن اضمهم إلى روحي لكني اتقيأ ويلوث القيء ثيابي. نصل إلى الشارع وهناك اشاهد سيارة الشرطة بانتظاري،. يدفعني الشرطي دفعا ثم يرفعني ويضعني في الصندوق الخلفي كأني خروف أو دجاجة برية. الاضواء الصفراء للشارع تلف وجهي ثم تبدأ ظلمة قوية ومرعبة مع اغلاق الصندوق. اثناء سير السيارة اتذكر خالد مطلك وليث الصندوق وعبد الزهرة زكي. لا أعرف لماذا اتذكرهم وأنا بمثل هذا الوضع الحقير. دائماً تأتيني الافكار وأنا في وضع سئ وملعون.

عندما أبدأ بالكتابة بعد معاناة طويلة مع الورق والاقلام، تأتي زوجتي لتوبخني. دائماً عندما تشاهدني اكتب، تدخل وتخرج إلى الغرفة مرات عديدة، ثم تجلس في النهاية و تتأفف ثم تبدأ بالكلام عن تفاهات. في هذه الحال، أكون أنا مركزا تفكيري على الورق لاني لا أملك طابعة مثل عبد الستار ناصر. تبدأ هي من اخر كلمة تفوهتها باللعن وانني اضيع وقتي بالتفاهات. ثم عندما لا استطيع الكتابة واتوقف مجبراً

واعصابي منهارة وأنا اقترب من حافة الهستريا اضربها وتبدأ من جديد معركة عارمة يتدخل فيها الجميع واخرج من البيت تائها في الشوارع ثم اذهب إلى مصعب أمير أو معمل حيدر حيث اتناول بعض العرق على نفقة ابراهيم حيدر.

أصل مركز الشرطة ويخرجني الشرطي من الحقيبة الخلفية للسيارة ويدفعني إلى الداخل، يلتقطني ضابط الشرطة الذي يهجم علي مثل خنزير و يضربني بعصاه وكانما هناك حفلة خاصة وفي النهاية يقول لي اذا ضربت عمتك مرة أخرى اجعلك (تخيس) في المعتقل. اخرج من مركز الشرطة والتيه أمامي والضياع خلفي. ومثل كلب اجرب اضع ذنبي بين ساقي واعوي. أنا دائماً اعوي واذا عويت بصدق فإن السماء تسمع صراخي، تسمع المتاهة التي اضيع فيها والسبخ والطين الذي اغرق فيه. أعود إلى المنزل. ام الزوجة تقف في باب الدار الداخلي وهي تبتسم مثل ضبع.

الحيرة كبيرة. كبيرة جداً. اغير اتجاهي و اذهب إلى صلاح زنكنة من أجل استلاف بضعة دنانير - بحدود ثلاثة الاف دينار وهي ثمن نصف كيلو بطاطا -. صلاح وبمجرد رؤيته لي يهرب وهو يصرخ، مناويك تتصرفون على اعتباري بنكا.. اترك مقر الاتحاد وادور في شوارع بعقوبة حيث الدجاج والأطفال الذين يبيعون الخبز بعد أن تركوا الدراسة والنساء القادمات من الريف والبلهارزيا.

اثناء سيري المح كريم حسن علو واتوسله أن يمنحني بضعة دنانير لكنه يهرب هو الاخر. كلهم يهربون بعد أن خرط السوق. نساء عاهرات وأطفال ضائعون وطين ووحول وعربات تجرها الحمير وخيل متعبة. مشهد قادم من عمق كابوس التاريخ والدزنتري. عيادات الاطباء

مليئة بالمرضى والمصابين بسوء التغذية والمستشفى الوحيد في بعقوبة حيث يتواجد هناك سالم قنديلة الذي يعمل كفتى مصعد، يموت فيه المرضى لأن لا ادوية والدماء ملوثة والمياه ملوثة والشئ الوحيد الذي لا يحتوي على الامراض ولا على الجراثيم هو البراز.

سالم قنديلة يقف أمام المشهد الكوني وهو في مصعده حيث يتدافع الناس إلى الصعود. ازوره واتوسله أن يمنحني بضعة دنانير. يرفض ويقترح علي أن يعلمني الطريقة السرية لصنع الاكياس و بيعها لامير الحلاج. أشعر بعد محاضرة سالم قنديلة الطويلة عن ضرورة الكفاح من أجل قطعة الخبز، أني استثنائي. الحياة كلها عبارة عن استثناء في هذا التسلسل البشري.

أعود إلى المنزل واذهب مباشرة إلى مكتبتي. كابوس، ام الزوجة تلعنني وهي تعوي خلفي مثل كلب، سالم قنديلة قال لي انه باع كل مكتبته لمعمل حيدر من أجل تحويل الكتب إلى اكياس لبيع الحب (البزر)، يقترح أن اعمل الاكياس بنفسي وليس مثله بعد أن اتضح انه خسر الصفقة مع ابراهيم حيدر.

أطلب من الزوجة أن تتسلف من امها مبلغا من المال لشراء الصمغ. يأتي الصمغ وأشعر بحيرة ورعشة حينما أفكر بالكتب التي علي تمزيقها. في البدء اخترت المجلات القديمة والتي تضم اجمل قصص امريكا اللاتينية. الغصة تصعد إلى فمي. تخنقني لكني اتماسك أمام الزوجة، أحاول أن ابدو كرجل. استهلكت كل المجلات واستطعت صناعة كمية مهمة من الاكياس. ذهبت إلى أمير الحلاج. اشترى أمير كل الكمية واتفقت معه على كميات اخرى. المهمة الآن اعقد.

اخرجت كتب حزب البعث. حتى الآن لم أشعر أني امزق مكتبتي إنما اجري محاولة للترشيق. استهلكت كل الكتب السيئة. كل كتب حزب البعث وكتب خيرالله طلفاح وكتب الحزب الشيوعي واصدراتهم القديمة. كتب الحزب الشيوعي لها طعم ومنزلة خاصة. ليس لأنها كتب جيدة، إنما لكونها كتب ممنوعة وبذلت جهدا مضاعفا وخوفا في سبيل اخفائها. حولت كل الكتب إلى اكياس حب ودواء ثم حملتها إلى أمير الحلاج.

بعد أن بعتها واستلمت النقود وفيما أنا اهم بالخروج من العيادة الطبية اشاهد الأمير وهو يرمي الاكياس في برميل الزبالة. اللعنة، فكرت، كان يعطف علي اذن وأنا كنت اتصور أني وجدت عملا.. يبقى استجداء الدنانير اشرف من العطف.

في اليوم التالي حملت مجموعة من الكتب إلى شارع المتنبي. درت على جميع الباعة وشاهدت عقيل علي وثلة من البؤساء، كلهم يبيعون كتبهم. كلهم كانوا عبارة عن جمرات متوقدة وكلنا نتبول على الحيطان ونرسم وجوه أطفالنا المتعبة. بعت نوستراداموس وغابريل غارسيا والمتنبي والجاحظ ثم بعت بارتعاش ليس له مثيل، الطواسين وعودة اتونبشتم إلى الحياة. لم تكن كتبي ثمينة ضمن قياسات السوق.

بعت كما هائلا بدنانير حقيرة. لكنهم لم يشتروا تولستوي. أنظر إلى الدنانير وابكي في ضياع، فوات، ارتهان، تبعثر، انشراخ، الذهن المضطرب والتائه في هذا الضياع الاقيانوسي. بيع الكتاب، الضمير، العقل ليس مثل بيع مروحة سقفية وليس مثل بيع العصافير في سوق الزرازير المؤنفلة بطعم الزهر المر. بيع كتبك يمثل اجتراح الوجع المضاء بملايين الشموع. يشبه تطويباً كنسيا. يشبه شهقة متلفعة بطريق

الصدفة. كهنوت وقراءات متوحشة لكتب العهد القديم والجديد. ترسيما توراتيا. انشراخ في الذاكرة وعطب كل الحواس المنغلقة. كل شيء يمكن أن نبيعه بلا حسرة. لتذهب المكواة والبناطيل المتهرئة وطقم اسنان جدتي. ليذهب كل شيء إلى كل شئ. طالما أن الكتب موجودة. طالما أن المكتبة لم تمس، العالم لم يتغير بعد. في اللحظة الحجرية التي تمتد فيها يدك لبيع الكتب، سينتحر العالم. أنت تذوي، مثل شمعة محترقة، مثل عاهرة فقدت رغبتها في المضاجعة. مثل مكتئب اضاع اوصاف المركبات الفضائية.

اشاهد حسن النواب وهو يبيع خلسة، كتباً سرقها من نصيف الناصري. اشاهد نصيف وهو يبيع كتباً سرقها من عبد الامير جرص وعبد الامير جرص يبيع كتباً سرقها من صلاح زنكنة. كلنا نبيع الكتب. المناويك باعة الكتب لا يشترون مني تولستوي، اتوسلهم. ابوس احذيتهم، اكاد اعرض عليهم مؤخرتي. لكن بلا فائدة. أعود إلى البيت واضطر أن امزق تولستوي واصنع منه اكياس لبيع الحب وابيعها إلى معمل ايراهيم حيدر.

عندما نفدت الكتب من المكتبة، جعت، تعريت. اصابتني جولات مرتبكة من الخوف والقلق، قلق مشع، قلق كبير وطاحن، كنت اجلس متوحدا أمام رفوف المكتب الفارغة غارقا في الحظ العطن، الحظ البائس وأنا اعيش ارتحالات غبية للعودة إلى الزمن ا لباهي لكن في الحقيقة لم يكن هناك زمن باه ولم يكن هناك اي زمن جيد بمعنى الكلمة.

****

انجزت اول مجموعة قصصية في الفترة التي حولت فيها الكتب إلى اكياس. المخطوطة أمامي، لكني أشعر أن طاقتي على الاستمرار في الحياة تقترب من الصفر. أنظر إلى المخطوطة وأفكر، كم احتاج من الزمن، كم احتاج من اللواكة، كم احتاج من المداهنة وكل كلمات التزلف من أجل اقناع وكيل الوزير أو رعد بندر أو لؤي حقي أو كل الدهاقنة والديناصورات والرفاق الادباء، من أجل طبع المجموعة. مجموعتك القصصية السيئة الحظ، لأنها ولدت لاب سخيف مثلك. اب فقير وبائس ومتصعلك حقيقي.

اشاهد الاخرين. اشاهد سخافتهم وتزيفهم. اشاهدهم وهم يطيرون في السماوات عندما اعلن عدي صدام حسين انه سيطبع الكتب للادباء في سلسلة اسمها ضد الحصار. كانوا يقبلون حذاء عدي. ليس مهما من الذي يطبع هذه الكتب. المهم أن يخرج الكتاب إلى النور وبعد ذلك فليذهب الجميع إلى الجحيم.

كنت اكرههم وأنا اشاهدهم يركضون بمخطوطاتهم إلى اللجنة الاولمبية. هناك كانوا يتزلفون، يناورون، يتملقون. يتمسحون. كل هذا من أجل كتاب بائس. طفيليون، مثل بق الفراش ومثل القراد، ومثل دودة الانكلستوما عندما تتمدد في الأمعاء وتنكح نفسها. كنت احدق بهم من ارتفاع اصطنعته وهم يتلذذون بالعظام المرمية لهم. يتشممون العظم ثم يلحسونه وبعد الانتهاء ياخذون بالصراخ. بالعويل. كل واحد منهم عبارة عن عقرب خطير. افعى طويلة وضخمة. قرد كبير من سلالة غير معروفة. قملة كبيرة. ضفدعة تبق في جيفة وبيئة سيئة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد.

كنت أعرفهم واراقبهم. كانوا سريعوا النسيان. سريعوا

الـوهم. انـانيون إلى حـد اللعنـة. لايمكـن أن يكونـوا ادبـاء و مثقفـين. لايمكن أن يكونوا منورين لهذا العالم.انما منحطين نفسـيا. مرضى بحاجة إلى العلاج السـريع. بحاجة إلى زرقهم بسائل الموت من أجـل الخـلاص. وحده محمد خضير والبعض لم ينجروا إلى هـذا المشـهد الخـرب. إلى هـذا السعار الجهنمي واللهاث والدسـيسة والاغتياب والنميمة.

****

أموت مثل كلب بائس. كـل يـوم. في السـاعات الوثنيـة لطهـارة الأشياء. في النزف المعرفي. لم تعد هناك كتب في المكتبة. الرفـوف فارغـة. حتى السماءغائمة، لكن لامطر أتساءل لماذا لاتمطر هـذه السـماء وتغسـل الادران والشهوات والتمرغ في التراب. لماذا لانتحول إلى طـين مـرتعش تدهسه العربات والحيوانات والبغال والحمير. عـالم مـن النوسـتالوجيا. عالم من الارتعاش وأنا أسير في تيه الطرقات.

اصـابعي تـؤلمني وشـوقي كـريم يقـول لي انهـا اولى علامـات الشيخوخة. لكن عمري لا يتجاوز الثلاثين. ليست مشكلة، نحـن نتجـه إلى الشيخوخة. يقول شوقي. تعبت. تعبت جداً. جسمي يرتعش وفمـي أيضاً وحالات البصاق على الأرض تدهشني بشكل غريب.

اتوسل شوقي أن يساعدني. يقول، مـاذا فعلـت بالمشـروع الـذي حدثتك سابقا ، مشـروع بيع كتابك؟ أقول، انه جاهز. اعيش نوعـاً مـن الزخم البائس. احمل اقدامي واجوب متاهـات متعـددة. في اليـوم التـالي اجئ بمسودة المجموعة القصصـية إلى شوقي. نذهب سـوية إلى الناشـر الذي يستقبلنا في مكتب مهيب. بعـد مقدمـة طويلـة مـن شـوقي يوافـق

الناشـر، بصعوبة، على اخذ الكتاب. يطلب لي شوقي شيئاً على الحساب. يوافق الناشـر ويمنحني بضعة دنانير.

نخرج من المكتب و أسير في دهشة عظيمة. شعرت بعد أن منحت الناشـر الكتاب. بقوة جهنمية. قـوة خارقـة. شـعرت أني اغـادر منطقـة الاكتئاب إلى منطقة الفعل الخلاق. قـررت أن اشـتري ورقـا وأن اكتـب المزيد من الكتب. وصلت البيت وسط معنويات عاليـة. كتبـت في ذلـك اليوم أكثر من قصة – الكاتب الحقيقـي هـو الـذي يكتـب عشـرة الاف كلمة في اليوم –.

في غضون شهر، كتبت مجموعة ثانيـة. كانـت الافكـار تـزدحم في ذهني. ما أن انتهي من قصة حتى تولد اخرى. أمامي تكدست الاوراق، عندما اكتمل المشـروع، حملتـه إلى شـوقي حيـث ذهبنـا مـرة أخـرى إلى الناشـر. عندما وصلنا البناية التي يقبع داخلها المكتب. ترددت. شعرت أني اعيش حال من الزهو كونك أصبحت كاتب حقيقـي. كاتـب يعـيش من كتبه. أنت الآن في طور الاختلاف والاحـتراف. الاحـتراف يمنحـك طاقات متمردة. يمنحك زخما راديكاليا. الافكـار بالعشـرات. الافكـار تنهمر من أماكن مرتفعة. لهذا يقولـون إن للكتابـة الهـة. امنـت في تلـك الساعة أن الالهة ولاول مرة في هذا العالم تعيش نوعـاً مـن التصـالح مـع ذاتي.

نصعد السلالم سـريعا، مثل ارانـب. شـوقي اجمـل إنسـان ضـمن الـدائرة المعرفيـة لي. اتـذكر الناشـر في المـرة السـابقة وكيـف سـحب المخطوطة من يدي. كان يتعامل معها على اعتبارها نصا فقط. كومة مـن الورق. شـعرت بـالقلق مـن طريقتـه في معاملـة الـنص. نصـل المكتـب ويطرق شوقي الباب بعجالة. ننتظر بضعة أخـرى مـن الـدقائق ونطـرق

ثانية.أقول لشوقي بعد ربع ساعة من الانتظار البائس. اعتقد انه يمارس الحب مع احداهن.

دخنا من الوقوف ثم جلسنا إلى السلالم. بعد ساعة من الانتظار، فكرنا أن العاهرة سوف تخرج الآن وهي تمسح اعضائها بخرقة. لكن العاهرة لم تخرج. الريح لم تغادر. العاصفة لن تأتي. الامكنة تناور. السلالم تتوسع. الافواه تندلق، المطر يغادر، الوجوه تنفطر، الالسن تهذي. عندما سألنا حارس البناية، قال إن الشرطة القت القبض على الناشر قبل يومين بتهمة الاحتيال.

****

منذ القاء القبض على الناشر وأنا اعيش نوعاً من البله والعته. احساس دفين باني أريد أن اعوي وحيداً معبراً عن توحدي مع القمر. المسافة بين الروح وخاصية الجنون تقترب من كونها نوعاً من المقايسة الوهمية. اذ ليست هناك مسافة بالقدر الذي توجد فيه افكار تائهة. لاادرك نوع الألم الذي حل في جسمي. إلا انه الم ممض. أشعر برغبة قاتلة بان اعض كل إنسان اواجهه.

لا شيء يمكن أن ينقذني من هذا الهباء. إلا النقود. نقود و دنانير. أنا بحاجة ليس إلى الحرية. أنا بحاجة ماسة إلى بضعة دنانير. اتسول سجائري. الأصدقاء الاغنياء ينهارون كل يوم. كل يوم نسمع أن فلانا انهار. خسر امواله. الية السوق تجري على نحو غريب. ليست هناك ثوابت. ليست هناك اصول. يحدث دائماً وانت تحمل نقودا لشراء الصمون أن تفلت الاسعار. ترتفع فجأة حيث لن يعود بامكانك شراء

صمون كفاية.تكتفي بصمونتين أو ثلاثة. وجولة أخرى من اللهاث والجوع. او التوسل.

استعير من أمير الحلاج بضعة دنانير واشتري سجائر. في المرة التالية يهرب أمير من لقائي. يهرب من لقاء اخرين. كلنا نريد الاستلاف. كل يوم هناك شيء ينهار. انهار سالم قنديلة. في يوم اخر انهار كريم حسن علو ثم انهار ادباء اخرين. لم يبق أحد يملك نقودا باستثناء صلاح زنكنة. شوقي كريم أصبح يعيش على بقايا الخبز، مثل جرذ.؟ ثم غادرتنا الفئران والقطط والكلاب.

الحياة تتحول إلى موسيقى باخية. موسيقى جهنمية عن حياة متغيرة بسرعة جنونية. لم نعد نستطيع ملاحقة ايقاع الحياة. انها تثرمنا. تلتهمنا، ثم ترمينا إلى الجوانب، منهكين، عورات مكشوفة. ابصق على الحياة. نحن نسحق كل يوم والاخرين يضحكون. كلهم يضحكون. ابناء العوجة وتكريت، يضحكون علينا أيضاً. كلهم يبكون على جسد لم يعد موجودا. التحول الغريب في الاخلاقيات يتجذر، ينغرز، يتأصل.

في الحيدرخانة يبيع حسين الصعلوك المصاصات وشوقي كريم يبيع الشلغم في منطقة رأس الحواش. يجب عمل شئ. يجب أن يوجد ما يؤكل. لكني مثل فأر كبير. فقط ابيع اغراض المنزل. قطعة بعد قطعة، وماذا اذا انتهت الاغراض؟. سوف انتحر. كنت أقول لنفسي. يجب أن انتحر ويجب أن اقتل الأطفال أيضاً.

سمعت وأنا في مقهى حسن عجمي أن أحد الرجال باع اخر ما يملك من اغراض المنزل واشترى بثمنها سمكة كبيرة ودس السم في الطعام وبعد الانتهاء من الاكل ماتوا كلهم. مات الأطفال والزوجة

لكن الاب لم يمت، وعندما استطاعوا انقاذه وشاهد الماساة التي حصلت جن وصار يسير في الشوارع ويخرج اعضاءه التناسلية الباهتة لكل من يطلب.

المجانين يزدادون في بغداد. اينما تسير واينما تولي وجهك فثمة خرافة مائعة وسائلة على الأرض. المجانين يملاون الطرقات والشوارع الرئيسية وهم يبيعون أشياء مضحكة. احدهم يبيع اطاراً ممزقا للسيارات واخر يبيع قلوب أطفاله واخر يبيع كل شيء بدءا بالهواء والعاصفة والكلى واخرون ينبثون مثل الصراصر البائسة في الدروب والازقة. كل حي تدخله. كل شارع وزقاق ودربونة هناك مجنون واحد أو اكثر. هناك تنتشر الحكايات، تنتشر التنبؤات عن مجانين فتح لهم الغيب ابوابه، فكانوا يصرخون فجأة ويبكون ساعة ويضحكون لحظات والاخرين يركضون خلفهم من أجل التنبأ بالمستقبل ومعرفة مصائرهم الرهيبة.

المشكلة انك حينما تجن لا تعرف انك جننت. أصبحت أفكر أني ربما أكون مجنونا دون أن أعرف وأن الاخرين يشفقون علي. كيف ابدو؟.

كنت أتساءل وأنا اشاهد الشحاذين والمؤلفة قلوبهم والبائسين تحت نصب الحرية وعند ابواب المستشفيات والعيادات الشعبية هل ابدو مثلهم. هل ابدو بائسا. احس بانكسار روحي عظيم. الاكتئاب الشديد يمنعني من أن افعل اي شئ. طاقتي على الاستمرار في الحياة تقترب من الصفر.

أحلام منصور تقول لي انه يجب أن اواجه. يجب أن اصارع. يجب أن اتغلب على الاكتئاب، لكنها هي أيضاً مضطربة وتشعر باكتئاب حاد.

اعتبرت نصيحتها مزيفة. الزيف ينتشر في كل مكان. انه يهددنا ونحن نغرق عميقا.

تقول أحلام منصور انه يجب أن لا انتحر ويجب أن اكمل رسالتي في الحياة. كل كائن له قصة يجب أن يكملها ورسالة يجب أن يؤديها. ماهي رسالتي أنا؟. كنت أتساءل وتقول لي يجب أن تكتب وتكتب إلى النهاية. إلى أن أموت وأنا امسك الورق والاقلام. كل حياتي يجب أن احولها إلى هذه الباخرة التي يجب أن تحملني في يوم ما إلى ضفاف الخلود. أنا اكتب ليس مثل الاخرين. أنا اكتب من أجل الخلود. يجب أن اخلد وأن ابقى في الذاكرة الإنسانية. لكني تنازلت عن أحلامي. لم يعد يهمني الخلود. أريد أن امحى من هذا العالم. اكره شيء إلى نفسي أني سوف ابقى في هذا الكون الابدي دائراً إلى ما لا نهاية.

يجب أن ابقى. هكذا تقول أحلام. نعم يجب أن ابقى من أجل أن ادخل كل الحروب والوصايا والابتلاءات والحصارات. يجب أن ابقى وأصل برسالتي إلى الجهة الأخرى من العالم وهذه الرسالة هي بقائي حتى وأن كنت مجرد عظام منخورة وبائسة. حتى وأن تحولت إلى جيفة. يجب أن ابقى. هذا هو التحدي الكبير. لكني يائس وأعرف أن وجودي لا يعني إلا أن اذهب وانتخب الرئيس، مرة وثانية وثالثة والى ما لا نهاية.

أشعر أني اغتصب كل لحظة وأمام القنوات الاعلامية يجب أن ابكي ويجب أن اضحك وأنا اعيش عرس انتخاب السيد الرئيس. عندما قالت لي ابنتي انهم سيقطعون الحصة التموينية عني اذا لم انتخب الرئيس. شعرت بعار كامل، بعار أني عبارة عن حيوان تائه في مجموعة من المجارير المتشابكة وعندما تصل إلى كل نهاية يخرج لك وجه الرئيس. يخرج لك وجه أهل العوجة وهم يضحكون ويتاجرون بك. اننا مهمون

لهم. مهمون لاننا نشتري بضاعتهم واحتكاراتهم للسوق. كانوا يتاجرون بكل شيء واي شيء ويستولون على كل شئ. حتى مصاصات الأطفال التي يبيعها حسين الصعلوك هم الذين ينتجونها في مصانعهم.

ضاعت الدولة. ضاع كل شيء والرئيس يتحول إلى شيء هلامي وخرافي. لا أعرف كيف سمحوا لرواية خريف البطريرك بالتوزيع في بغداد. كنت أقرأ هذه الرواية الغريبة واجد تشابها رهيبا بين هذا الجنرال وبين السيد الرئيس. في كل شئ. في الهلوسات وفي الغيبيات وفي الدجل وفي السحر وفي الابراج وفي التنبؤات المستقبلية والتاريخ والجينالوجيا.

يوما بعد يوم اتحول إلى ضفدع وأنا أسير في الشوارع دون عمل. الاكتئاب كان يجعلني تائها في المتاهة. هذا القفص المذهل من الموت المتحشرج. عندما تتحول إلى يائس تشعر أن العالم يكرهك. يدمرك. الأحلام والروئ والجياع كلها تركض خلفك فيما السيد الرئيس يغرق في متاهة الوحدة الكونية وهو يحلق في فضاءات الغرابة والنسيان والمتاهة. عندما ذهبنا لزيارة حميد المختار في مستشفى الامراض العقلية فوجئت بالمئات وهم يفترشون الحدائق الذابلة. يأكلون الأشجار والفنطازيا و الجذور. عالم من اللامعقول، عالم كبير ومترام ولا نهائي من المجانين والمكتئبين والصرعى والممسوسين. كل هذا الكم الهائل من العظام والمشاعر كونته الحروب. دمرته الحصارات. الحصار اشنع من الموت. الحصار اشنع من الحروب الكلبية. أن تسقط بالرصاص في معركة وتضيع رفاتك افضل الف مرة من أن تتعفن في مزبلة تكبر وتكبر.

الازبال في الشوارع. الروائح العفنة تنطلق من كل الأماكن، حتى منطقة العلوية وسبع بكار واليرموك والمنصور والكرادة تتعفن. تنوء

بالقاذورات. أين يمكن أن يتجه الواحد دون أن يشم الروائح المدمرة وهي تحطم قدرتك على الاستنشاق. عندما تسير في الشوارع والدروب والساحات وهي تتحول إلى همجية وعالم غريب بتركيبات غريبة. تحس أن الوطن يحتضر. تحس أن الوطن يتجه إلى النهاية. حتى السماء تفتقد الزرقة العظيمة. تفتقد شفافية المشهد. لا ترفع رأسك. لانه اذا رفعته ستصاب بانحطاط عقلي. يجب أن تسير وانت منحني. أن تسير وانت شبه مخدر وشبه مجنون وشبه عاري.

الوطن يتفكك، قطعة بعد قطعة. ومساحة بعد مساحة ومع الوطن، نحن أيضاً نتأكل، عضلة بعد عضلة وعظما بعد عظم وحلما بعد حلم. تجلس في حسن عجمي وتتأمل السقوط الدقيق لقيم الحياة. و في حسن عجمي وانت تقلب جريدة تركها احدهم تقتحم المقهى وجوه غريبة.

أطفال يستجدون، نساء يعرضن المتعة. شحاذون محترفون. ضفادع بشرية في طور التكوين. رجال أمن ينتشرون في زوايا المقهى. شوقي كريم ينزع حذائه البالي ويعري قدمه الخالية من الجواريب. حسن النواب يتحول إلى شيء مائع واثار الضربات التي وجهها له ضابط التحقيق بارزة بشكل بائس.

جو المقهى خانق والاضاءة ضعيفة للغاية. عندما تدخل المقهى تشعر انك تدخل إلى مغاور علي بابا والاربعين حرامي. لكن لا كنوز ولا ذهب، مجرد أرض بائسة تغسل بالماء فقط دون منظفات، مصابيح معلقة لكنها لا تضيء. يغفو حسن النواب العجيب على أريكه بعد أن ينزع حذائه. ويا للرائحة العفنة. وشوقي كريم أيضاً، ينزع حذائه ويتحول المقهى إلى شيء شبيه ببالوعة من بكتريا الروائح والانزيمات وتحولات

العرق. لكن شوقي لا يشم رائحته. لا يشم الدونيات القاتلة.

ومؤيد عبد القادر يأكل سندويشا خبأه في جيب البنطلون و يخرجه وهو ينظر إلينا ويريد التأكد من أن احدا لم يلمحه. يدخل نصيف الناصري إلى المقهى فجأة وهو يلهث وافرازاته الغددية تغطي وجهه وانفه تحديدا ويقول لنا إن صلاح حسن هرب وزاهر الجيزاني أيضاً. اللعنة. ونفتح افواهنا واحاسيسنا تريد أن تلتقط الكلام وتحلله إلى اولياته البدائية. ولا افهم. ولم استطع هضم الخبر ويتكلم نصيف مثل اله سقط من السماء. ويعم الهرج في الاتحاد. كلهم اصيبوا بنوع من الهستريا. الهستريا الذاتية والتي تشبه إنسانا استفرغ الآن كل امعائه.

وتدور في الاتحاد الهمسات واللغط ويدخل رعد بندر وهو موشى باللعنات ويرتعد ويستفسر والتلفونات ترن في مكتبه. ثم يصل الامر إلى الاستاذ عدي في اللجنة الاولمبية. يجب أن يسد هذا الثقب بأي شيء. ويقولون إن صلاح حسن وزاهر الجيزاني عقدا مؤتمراً صحافيا في دمشق وكشفا ما تحت اللحاف من سرقات وعهر ودكتاتورية. ويرتعش الاستاذ ويزبد ورعد بندر يتحول إلى ذليل جرذي، شيء دوني وذيلية كبيرة. يقف أمام الاستاذ مثل عاهرة مسكينة وأمامنا مثل طود شامخ ويزبد ويهدد ويعقد اجتماع للبعثيين ودياصورات الثقافة القومية، ثم يرفعون الامر إلى الاستاذ عدي، يقولون في تقريرهم أن سبب هرب صلاح حسن وزاهر الجيزاني هو المال والنقود فقط. ويصدر قرار عاجل بمنح الادباء راتب فوري. منحة من القائد ونلحس اصابعنا ونذهب إلى اللجنة الاولمبية ونفاجأ هناك بقوائم تحدد نوع الادباء وتقسمهم إلى كلاب وضفادع.

نخرج من اللجنة الاولمبية وجيوبنا مليئة بالدنانير ومن اللجنة

الاولمبية نذهب إلى اقرب مقصف ونسكر، حسين الصعلوك وأنا. وعلي السوداني يشتري طبقة بيض. وما أن نجلس في المقصف ومع الانتهاء من اول قنينة بيرة يسكر حسين الصعلوك ويتقيأ في ممر البار الداخلي وياتي الجارسون وصاحب البار ونطرد ونريد أن نكمل التهام المزة، لكنهم لا يسمحون لنا. ونتبول على حائط المقصف أو البار. وعندما نصل إلى حسن عجمي يحدث انهيار سريع للسوق وللدينار، تصبح المنحة محنة كبيرة، اذ لا تعود تكفي ثمن اجرة السيارة التي توصلنا إلى مقر اللجنة الاولمبية لاستلامها.

مع انهيار الدينار السريع لم نعد نرى ادباء المحافظات البائسين والمساكين والمحرومين من نعمة التسكع في شوارع بغداد ومصاحبة محمد تركي النصار الذي يضحك دائماً بصوت مخنوق وخلاعة وخبث. ومثل الثعلب، أو قل مثل ضبع يمسح اصابعه بعد أن يأكل طعام أهل المحافظات.

الادباء المساكين من المحافظات كانوا يستلفون الاموال ويرسلون احدهم كمندوب إلى بغداد من أجل ايصال قصصهم واشعارهم إلى الجرائد وفي الجرائد وتحت الاسرة وتحت الطاولات كانت تنتشر الرشاوى والتملق والاحتيال والمساكين لا يعرفون اصول اللعبة ويبقون ضائعين بين الديناصورات السمينة والديناصورات الهزيلة وهي تلتهم كل شيء من أجل التزود بالطاقة، الطعام والطعام فقط ومن أجل القيمر والزبدة وحليب الالبان كنا نتحول إلى كائنات خرافية وكائنات قادمة من خلف الاسوار والمدن البعيدة النائية والمضطربة.

كل شيء يتحول إلى بحث عنيد من أجل الحياة وكل شيء يصبح مشروعا وفيما نحن نجلس مثل المعتوهين في مقهيى الشاهبندر نشاهد

اللصوص وهم يسرقون السيارات ونشاهد أصحاب السيارات وهم يصرخون في البرية مثل رسل الهية ويضربون على رؤوسهم وعندما تصعد اية سيارة في شارع الرشيد أو السنك تشاهد الزمن وقد تحول إلى غيمة كبيرة راحت تظللنا بخفوت ومودة واحيانا باجتياح صارخ.

بغداد تتحول إلى متاهة كما في روايات غروب غريبه وكلما يقترب المساء تضيع الشوارع وتتيه المنايا وتنفعل الحناجر وبسرعة غريبة يختفي الناس، لانه اذا ما خرجت وخاصة بسيارتك فانه أمر محتم أن تسرق. فجأة تحولت بغداد إلى مدينة كابوسية يعبث بها اللصوص ويمكن في اية لحظة أن يسطو عليك جارك أو اي سارق اخر، لايحتاج الامر إلى خبرة وكل ماتحتاجه هو مسدس صغير وبعض الجرأة.

كنا نجلس في مقهى حسن عجمي وننظر إلى السماء ونحاول أن نستقرء القادم من الايام وكل يوم بعد هروب صلاح حسن وزاهر الجيزاني، يهر ب اخرون. ما أن يغادر احدهم ويصل إلى الحدود الاردنية حتى يعم الهرج والمرج في الوسط الثقافي. الوسط الخراء والعبثي وتسمع الموسيقى الكونية وهي تعزف وتشاهد التماثيل والاصنام الخزفية والحديدية تتكاثرمثل الازبال.

كل يوم يهرب احدهم، نباشر في التساؤل وتنقل لنا الأخبار أن فلانا حصل على عقد مع جريدة فلانية بمبلغ مائة دولار وعلان حصل على عرض بنشر روايته مقابل مائة دولار أيضاً. مائة دولار دفعة واحدة. ورغم أن المائة دولار خارج القفص الحيواني الذي يسمى الوطن لا تعني شيئاً، إلا اننا كنا مبهورين، مخذولين وكانت تكتسحنا التساؤلات ومن يعرف احدهم خارج الوطن صار يراسله.

كل الذين يهربون كانوا بالنسبة لنا مثل اشباح غريبة. مثل طائر الفينيق وهو يولد من جديد. يولد من الضياع والتسربل والمتاهة الكبيرة. لاول مرة نشعر أن المقهى ومقصف اتحاد الادباء والجرائد لم يعد عالمنا. عالمنا هو المكان القابع خلف الحدود والتساؤلات. كل واحد في الوسط الادبي كان يملك مشروعا للفرار وخاصة جيل الثمانينات وأطفال جيل التسعينات.

كل مشوار في هذا الزمن كان يكتسب معان مختلفة وبحار من التساؤلات المجنحة تنمحي في متاهة الغربة المؤجلة. لكننا في الوطن أيضاً نعيش غرباء. نعيش في ضياع ذاتي وتوحد مصيري. لم نعد نمتلك الرؤية وغادرنا العالم إلى مالانهاية. كنا نعيش خارج السياقات المعرفية وخارج الزمن المتولد في كونيات ونونيات العالم الاخر. يتحول العالم خارج الوطن ويكتسب المعارف والفنطازيا ونحن نغرق هنا في الظلمة. لم نعد نعرف كيف يعيش العالم خارج اسوار الوطن ولم نعد نعرف باخر الاصدارات والكتب الجديدة والموضة واربطة القمصان.

كنا نخرج من حسن عجمي إلى ضياع الزمن ونسير خارج الوطن في تفعيلات الوحدة المضطربة. وحدة غريبة وكانك المخلوق الوحيد في هذا العالم. كنا نرتعش لسماع أخبار الخارج. لسماع الحكايا وروايات الخرائب التي نغرق فيها وليس هناك من مزغل أو ثقب نطل منه على نور العالم. كل حياتنا تتحول إلى ظلمة شبيهة بظلمة حسن عجمي. عندما ياتي أحد ما من الخارج. مراسل جريدة اجنبية أو مراسل مجلة عربية. كنا نحس أمامه بعري نشعر، بالخجل. بالافتراء. بالدونية. مثل صراصير انفلتت من مجرور كبير. اينما تسير، اينما تتمشى، اينما تحملك قدماك، هناك جرحى الحروب والمعاقين مضافا لهم اللصوص المقطوعي الايدي

والمقطوعي الالسن. بقايا بشرية تسير في الشوارع. لم نعد نستطيع الحصول على شامبو لغسل رؤوسنا.

الحروب انهكتنا والحصارات دمرتنا. حصارات متنوعة وغريبة. حصار العالم لنا وحصار العرب وحصار أهل العوجة وحصار أهل تكريت. لم ارى المشاهد السريالية إلا لاني بائس في هذا الوطن الكبير والمغلق. كنا نريد أن نتنفس. أن نخرج بانوفنا إلى العالم. الدواء شحيح والموتى يكفنون بخرق قديمة. حتى لباس الموت لم يعد ممكنا. كل يوم وكل ساعة ولحظة، نحمل جنائزنا وموتانا ونرحل معهم إلى العالم الاخر في دورية الموت العاجل والاجل.

أينما ترتحل وتسافر وتمخر وتجوب وتتدحرج في الشوارع تصادف أحد الادباء والصحافيين أو استاذ جامعي يبيع كتبه. في كل زاوية من زوايا الوطن نقعد في الشوارع والارصفة ونبيع علب حليب الأطفال وبضعة كيلوغرامات من زيت القلي وبيض فاسد وامكنة موبوءة بالموت. غالباً ما كنت أفكر، ما الذي سوف افعله اذا ما تأكل الحذاء أو ثقب البنطلون. شوقي كريم سبقنا في معاداة الزمن وبنطلونه يحوي العشرات من الثقوب والغرزات.

أفكر في هذا الخراب العميم وأنا اجلس إلى منضدة فارغة في نادي الاتحاد. يأتي عبد الستار ناصر، قادما من الريح. ملابسه بدأت تهترأ وأقول له انهم يغادرون ويقول لي بعد انفاس لاهثة بفعل الربو. أنا الذي رأى كل شيء ولن ارحل إلى العالم الاخر. سابقى في هذه القمامة إلى الأبد. لن استطيع أن اهاجر. تكويني الافينولوجي يمنعني من عبور الحدود إلى العالم الاخر. أنا الآن اتقدم نحو عمري الغريب ولا أريد أن اقضي بقية حياتي خارج الوطن وأقول له ليس اغتراباً لكن لنذهب

ولنشاهد العالم، ويحلق في تكوينات الأحلام، لكنه يعود ويقول لي، لا، لن استطيع المغادرة، لن استطيع أن اترك الطاطران وطيور الحب وغرفة مليئة بالكتب والمشاريع وصور الفنانات. رأسي مملوء بالكتابة والزمن لا يعمل لصالحي. اعرف هواجسه واستقرأ الرجل الذي ولد في هذا الطين اللازب والمكون من حيثيات العراق.

صرت أفكر في الخارج بشهية غريبة. ساترك هذا الوطن إلى التكارتة واهل العوجة. هنيئا لكم هذا الخراب المبجل وهذه الفنطازيا الكونية التي تتناثر على وجوهنا مثل زغب الشمس ونجوم الشعرى.

❊❊❊❊

مثل صرصار متخم بالجوع كنت أسير في طرقات بغداد. بالتواء، بتعرج. جوع وغيوم لاتمطر وغيابات تمنعني من الانزواء المتوحد على ذاتي. أسير جاراً اقدامي على الأرض. في الممرات المليئة بشيخوختنا المبكرة. في رمس النجوم القهرية ومراتب الآلهة المغادرة نحو سحب الاستمطار الروحي لذواتنا المتلبدة.

من ينقذ النوتي من ظهر سفينته وناؤسات الرغبة الميتة في مساءات مندفعة. عضوي التناسلي يموت في عالم مكون من ارتعاشات الجوع والعري التوراتي. هو يشبه الصلصال المشوي. يشبعه عظاءة نائمة في موج البحر. في الغفوات المطاردة في الأحلام. في عشرية النجوم الغارقة في صلاة معبدة بالطين. لا أحد في سفينة الموتى هارب من الأحلام. كل أحلامي عبارة عن رؤى غريبة. كلاب تنهش الضفادع وضفادع تنهش الاسماك وعوسج اخضر يشرئب نحو السماء في دعاء لغوي غير

مفهوم. نحن شعب بابل بعد سقوط الملائكة، بلا ملامح. لم تعد لنا اشكال انسوية ولا نساء يغادرن الحطام. كل التبعثر في حياتنا يهرب إلى مملكة العدم، مثل الساحرات في اوذيسة اليباب، نهرب أيضاً إلى أرض الغفوات. ليس هناك من ينقذ البطريق المسافر على اشرعة الأحلام.

لم امارس الجنس منذ اشهر، نسيته، مثلما تنسى امرأة علاقة عابرة. عندما يحدث اتصال جنسي مع صرصار اخر من جنسي، لا ينهض المدك فاديله نحو النهر عله يتنفس الزوبعة والشناعة. أكثر من مرة تقترب مني زوجتي فابعدها بصراخ مهووس ومجنون ثم اهرب إلى مصعب أمير احتسي معه اخر ابتكاراته في الكيمياء.

لم أعرف منذ متى أصبح عضوي عبارة عن زائدة لحمية متدلية. لم يعد ينهض في مواجهة العالم ولا بمواجهة التكارتة. أنظر اليه باشفاق غريب. اتوسله، أن يكافح تحت وابل الخراء، لكنه لا يستجيب. لم أعرف منذ متى اعلن عصيانه على النساء. لم أعرف اسراره الكونية ولا لاءات الحروب وهي تعصرنا مثل غربان قيظ في سهوب الجوع المرمري. وجوهنا امتلأت بالاقذار والعاصفة تقف أمام الابواب. اينما تحملك القدم، هناك العبث. العبث ينتشر في كل حياتنا. ينتشر مثل مرض الكوليرا والسفلس والزهري.

امراض غريبة اخذت تظهر. المستشفيات مملوءة. الاطباء يصرخون. لا دواء ولا مطهرات. قاعات العمليات ملوثة بالدم وليس هناك سوائل تنظيف تغسل الدم ولا ضمادات للجرحى ولا خبال للمكلومين. عيادات العلاج النفسي تمتلئ وتلفظ المرضى إلى الشوارع. في وطننا عندما تذهب إلى طبيب نفسي، يعني الشئ الكثير. نحن من الشعوب الغريبة التي تعتبر مراجعة طبيب النفس نوعاً من السخرية

والجنون والعار الشخصي والاجتماعي، لذا لم نكن نذهب للعلاج. نستنكفه، نزدريه، نكرهه، نلعنه. أمام الحروب الهمجية والحصارات والانظمة البوليسية وأمام أهل العوجة وتكريت والرفاق الحزبيين والجيش الشعبي وجيش القدس وفدائيو صدام ومطاردات عدي للنساء في الشوارع، تنهار مقاوماتنا.

أصبحت الامراض النفسية الاكثر انتشاراً وشيوعا وهمجية ورعونة. شباب في مقتبل العمر يعانون من العنة. شيوخ من الخرف، ابقار من الجنون، عصافير من مرض المتلازمة. نساء يكابرن في متاهة الاخصاء الذكوري. أطفال يولدون مع امراض نفسية ومجانين يكتسحون الشوارع. لم نعد انفسنا، غدونا ذوات تائهة ومنفرطة.

شدة الألم والجوع والتوسل والمكابرة تمنعنا أن نمد ايادينا إلى الاخرين. اساتذة جامعيون، يعانون من الشظف ويصارعون بين رغبة الحياة ورغبة الواجب الاكاديمي. عيادات الامراض الجنسية تنتشر ومحلات الطب الشعبي تكتسحنا مثلما تكتسح العاصفة كومة من الازبال. اعلانات، اعلانات لموت الينبوع، موت الدمعة وجفاف الافاق وانحصار المتعة وهرم الاصابع وتشقق الجلد وانبعاج الحاضر وارتماس المسالك الكونية. كنت اذهب في بعض الاحيان إلى مراقد الائمة لا تعلم فلسفة التوسل.

لم أشعر أن الله يستجيب لي فاثرت المراقد اتوسلهم، ابث ضحكاتي الهستيرية عل الأمام يبعث رسله لهذا العالم المخفي والفارغ من الرحمة. يتلقفني في المراقد رجال الدين الذين تحولوا إلى امعات وطفيليات غريبة. يخدعوننا. يمارسون النذالة أمامنا. كنا نلوذ بالخيبة والصمت والجدب، نستسلم لهم بروعة المخذول واليائس. نستكين بالألم القهري

الذي ينشر احابيله في اجسامنا الملغاة. كنا نعرف انهم يدجلون. لكننا نتبعهم بهوس غريب ومرضي.

يبيعك رجال الدين خيوطا خضراء تصلح لكل شيء إلا خيبتنا. عندما تدخل الضريح المقدس يلتصق بك احدهم ولا يفلتك إلا بعد أن يأخذ نقودك. تخيلت في هذا المشهد الميلودرامي عيسى عندما اصابته هستريا النبؤة في الهيكل وضرب المعبد وضرب اقفاص الطيور ولعن المتاجرون. لكننا مهزومون من الداخل.

استغرب كيف يسمح الإمام أن يحولوا بيته ومقبرته وهيكله المقدس إلى باحة للدعارة والتجارة. الدين غريب ومذهل في تكنيكات استلابه لعقولنا. لكني مجبر على الصلاة في هذا المعبد والمرقد. مجبر لاني لم اعد امتلك الحياة. بلسمها، قصديرها. حديدها، اي شيء حتى لو كان هذا الشئ غراب محلق في سمت السماء أو انفلاق الفجر التكويني لروحي المنهكة. كنا منهكين. متعبين، مهزومين. نساء يحطن الضريح المقدس ويبيكن خيباتهن. تكوين الإنسان الرافديني مذهل غريب. هذه الأرض تحملت ملايين الغزوات. عشرات الانفلاقات المعرفية. كل حرب تنتهي، تخلف بعدها كما هائلا من المغيبين والارامل والمبعدين والمهجرين والايتام والمسوسين والمجانين والعميان والمخصيين.

تمر بك وانت واقف سيارات (فدائيو صدام) وهم مقنعون. ميثالوجيا جديدة تضاف إلى الكم الهائل من البؤس والازبال التي تجتاح الشوارع.

التقي قرب دجلة وكهولته، جمال السوداني، شاردا ويشعر بخيبة امل ويبربر، انهم هناك والبصاق يتطاير كل لحظة من فمه. انهم هناك.

امشي معي بسرعة حتى تشاهد (فدائيو صدام) وهم يذبحون امرأة بالسيف. نهرول مثل قمل يزحف على مؤخرة تكريتي قادم من عمق الجينالوجيا.

نصل إلى محلة قديمة وطرقات مسكونة باشباه بشرية. نشاهد الدماء، وعلى الأرض جثة امرأة ممدة وقائد فدائيي صدام يقول : هذا مصير كل قحبة. لقد انطلقت الحملة الايمانية. هلاهل وزغاريد ورجال دين يكبرون ويهللون. ارتعش في غيبوبة العقل.

نهرب. لا ادري ما مشكلة الدين مع المرأة. أشعر أن اقدامي ترتعش وأطلب من جمال أن ندخل حسن عجمي. ارتمي على اريكة، يدخل شوقي فجأة ويقول. قواويد. تم اعدام سامية في حملة اعدام القحاب. سامية، ما هذا الخبال؟، ونتفجر بالابتلاء. نتفجر بدودة غريبة وهي تحفر عميقا في امخاخنا. مستحيل أن تكون سامية عاهرة، انها اشرف الاشكال الإنسانية وجودا. المسكينة دفعت ثمن كبير لتحررها المعرفي في زمن عودة الابن الضال.

نشرب بعض الشاي ثم ننطلق، محاولين ايجاد مساحة للتقيؤ. نشاهد أنا وجمال الملاهي والبارات المغلقة. كل حياتنا هي عبارة عن مساوئ حسن عجمي ومساوئ العاهرات والفكرة الغيبية أو الدينية التي تلبست السيد الرئيس. في طريق التسكع والبحث عن بار يمكن أن يكون قد افلت من قبضة الحملة الايمانية، نلتقي حسين الصعلوك وهو يحمل قنينة عرق ملفوفة في ورق الجرائد. يدلنا على بار يقع خلف متاهة كبيرة من الشوارع الفرعية. في الطرقات المظلمة وخارج الجغرافيا، نتجه إلى هذا البار ونشاهد العاهرات والقحاب اللاتي انزوين إلى اسكفة الدور المهملة. عاهرات من كل الاعمار. عاهرات (طفوليات) وعاهرات

طاعنات في السن. كلما تتقدم خطوات في هذه الازقة الملتوية تشعر انك تغرق في وحول الذاكرة ومدن سحرية قذرة ووجوه عاهرات مسودة وعابرون في لوثة عقلية.

من خلال متاهة الدروب الموبؤة بالكدرة، تفاجأ ببوابة البار الصفيحية وتقتحم المكان مثل صرصار منتفخ وتسحب مقعدا هو عبارة عن علبة كبيرة من الصفيح وفانوس يضاء بخرائيات الزمن المر. تكتشف هنا، أن العديد من الوجوه الملعونة تعرفها وغالباً مالمحتها في ضياعات الايام ومتواليات الزمن. هنا كانت ترقد البقايا البشرية وهي تحتسي بقسوة مرة آخرفرصة من حثالات الزمن والإنسانية الغريبة التي تحولت إلى فقاقيع وحيوانات مغمغمة. يطلب جمال أن نغادر المكان بسرعة لكني كنت بحاجة إلى السكر. كنت بحاجة أن انسى وجه حميد المختار وسامية والسيوف وقطع الالسن والايادي والاذان والاختناق المعرفي والكوابيس.

الفصل الحادي عشر

اقف في محطة الباصات مرتجفا من البرد. لم اعد امتلك شيئاً من هذا العالم الغريب. طردتني ام زوجتي من المنزل. احتفظت بالزوجة والأطفال فقط. الهواء البارد يجتاحني من كل الجهات. أنا مثل جندي مهزوم في معركة. لا أصدقاء في الطريق.

اترك المحطة واتسلل إلى حسن عجمي. لا أجد في المقهى غيرغربان تائهة في افق مسود بالسعال. لم اغتسل منذ شهر. صور أطفالي يمحيها البرد ويقشرها. شوارع داكنة وأنا اكره الليل والطرقات العبثية.

اتسلل من حسن عجمي إلى الشارع. أعود لأقف في محطة الباصات مثل فزاعة الحقول. تيه في السماء والأرض ولا أجد منيوكا واحدا من الأصدقاء يمكن أن يمنحني مكانا للمبيت.

في نهاية الامر، استسلم لفكرة المبيت عند جدتي. أفكر بالجوع الكافر وقرقرة المعدة، تتوقف أمامي سيارة وتهبط منها امراة بمعطف اسود. لم اعر الموضوع أهمية. اهرش شعري وابحث في جيبي عن سيجارة ربما تركتها في مكان ما. تتوقف المرأة أمامي وتصرخ فجأة : ماذا تفعل هنا يا منيوك. ارفع وجهي واصيح، روز، مستحيل.

****

مضى شهر كامل وأنا في بيت روز. العمل الوحيد الذي كلفتني به، هو الاجابة على التلفونات الكثيرة التي تدوي على مدار الساعة.

- نعم سيدي انها في الحمام الآن، اتصل بعد نصف ساعة. الو، مساء الخير، انها غير موجودة، ستعود بعد منتصف الليل. الليلة عيد ميلاد الاستاذ عدي. الو. نعم سيدي، الخانم نائمة، عادت في الساعة الرابعة صباحاً وكانت موجودة في بيت صباح مرزة مع الفرقة. الو اهلا سيدي الجنرال. انها في بيت وطبان الآن. نعم نعم سوف ابلغها حتما. اسمك لو سمحت، ماذا، عفوا هل قلت سبعاوي.

ابصق عليكم أيها النكرات. زمن مدو وغريب.امسح بمناديل معطرة منيكم المسكوب على الأرض وأطفالي يجوعون.

حاولت الاتصال ببعقوبة من أجل رؤية الأطفال لكن ام الزوجة دمرت كل شئ. شهر كامل بايامه وساعاته وأنا اكذب في كل الاتجاهات. تصورت أن العالم كله والحكومة والدولة تركع أمام العضو التناسلي لامرأة.

كل يوم تعود روز وهي محملة بملايين الدنانير. اكياس محشوة حتى اخرها بالورق المطبوع في مطابع حسين كامل وعدي وقصي. دولارات خضراء. مارك الماني. كل مساء بعد الساعة العاشرة تأتي سيارة خاصة تابعة للمخابرات وتأخذ الدنانير العراقية الورقية وتمنح روز عوضا عنها، دولارات واسترليني. ثم يذهب كل شيء إلى الاردن ومن هناك إلى بنوك سويسرا.

ادوخ في هذا العالم المريب. عالم من العصابات والنزوات والابتلاءات. اضافة إلى عملي في الرد على التلفونات وتنظيم المواعيد، اعمل

على ايصال النساء المطلوبات إلى بيوت حسين كامل ووطبان وسبعاوي وباقي حرافيش أهل العوجة. شاهدت عالم كامل من النساء وهو يسير في طرقات الصخب. انتظرهن كل يوم لاوصلهن إلى بيوتهن – بعد انتهاء عملية الاغتصاب –. كن نساء رفاق حزبيين ونساء جنرالات وبنات رجال دين وعضوات في اتحاد النساء. عالم منفصل عن العالم الذي يعيش فيه محمد الاحمد وخضير عبد الامير ومحمد خضير. عالم شهواني مليء بالرغبات الحيوانية والشبق والأوجاع والصراخ واللؤم.

غالباً ما كنت اشاهد المرأة وهي تخرج من وكر الذئاب وهي مليئة بالضربات. ضربات على وجهها وكتفيها وعندما اسألها عن السبب تقول انهم بعد الانتهاء من الحب يضربونها لكنهم يمنحونها النقود. نقود ودنانير في زمن ملعون. نقود غير حقيقية فيما أنت تمنح الاخرين كل أشياءك الحقيقية.

روز مشغولة دائماً، المسكينة تعمل ليلا و نهاراً. مهمتها تلبية الاذواق المختلفة وإن كانت كلها اذواق بائسة ومريضة لاهل العوجة. تذهب كل يوم إلى الجامعات في بغداد حيث تلتقي بوكيلاتها اللاتي يجندن الطالبات مقابل النقود ومن أجل ترقيع غشاء البكارة بعد ذلك.

نزوات أهل العوجة غريبة. حيوانية، كريهة. اتصورهم وهم يلتهمون الاجساد مثل الهة متوحشة تفتك بالارواح. عندما تقترب من أهل العوجة تصاب بالكزاز ويتوقف قلبك عن النبض وفمك عن الحركة، لانك تكتشف تفاهتهم وتكفر بالسماء لأن الوطن يقاد من قبل هذه الحلقة الحيوانية البائسة والغبية، ملايين الارواح والمصائر. ملايين من الذين ولدوا والذين سيولدون، كلهم سيقادون من قبل هذا القمل المستشري في حياتنا إلى الجحيم. الجحيم دائماً وابدا.

يتصل بي صلاح زنكنة ويقول انه يجب أن تحاول الرجوع إلى بعقوبة باي شكل. وأقول له، مستحيل. مستحيل. الوردة التي نامت على ضفاف الانهار تقتلعها الريح. تعاندها العاصفة، تسفعها الشمس والغبار والضياء (الاسود). وابكي في سري. ابكي بشكل جحيمي وأنا اتذكر الأطفال. وجوههم تبزغ من خلال الألم ومن خلال السماء. صلاح يقول، إن أطفالك يضيعون في الشوارع. تفو عليكم أيها المناويك، لا ارد. لا ارد ولا أريد أن أقول لصلاح أني ضائع في بحار من اللزوجة الصرصارية. اغلق فمي و اغلق كل منافذ التحسس مع العالم.

❋❋❋❋

كل يوم صباحاً، عندما يغني العصفور فوق بهجة الزمن الوحشي. احمل الابريق الوردي واغسل اقدام روز. شعرها متموج. بشرتها سمراء داكنة تتحول إلى لون الحنطة الغامقة. احب أن اتيه في المتاهات. تضحك عندما امس اصابع قدميها مثل ميموزا العصور الحربية والسفن القادمة من بحار الشمال. احب أن اضيع في الطرقات التي تخلت عن الوانها وتحولت إلى اللون الاسود والرمادي.

كل صباح احمل ابريقي مثل عبد جليل، مثل ثريا مطاح بمصابيحها وأقول للسيدة التي تطعمني في الانفلات المعرفي والوحشة الدارجة على مسالك الانهار. أنا عبدك في الضياع. أنا عبد اعضائك الخرافية التي قلبت العالم وحولت أهل العوجة إلى بق فراش يطير بين الانثيالات. وتضحك روز واعجب من الضحكة

❋❋❋❋

يوم من أجل الصفاء ويوم من أجل المرأة الموصوفة في الكتب المقدسة. يوم من أجل اشبيلية ومدن الضياع البوهيمي وأنا امسد جوعي الغريب إلى الجنس. امارس العادة السرية كل يوم من أجل أن تمطر السماء قواقع بحرية واتربة قادمة من الصحراء الغربية الواقعة شرق جنة عدن.

الجنون يقتلني. أشعر أني على مشارف النهاية. النهاية أيها الكلب المبلول والذي يضع ذيله بين ساقيه. امارس العادة السرية بعد أن اذلتني روز. بعد عار كامل من الحشرات الموصوفة في الكتب المقدسة والنار هائلة. انها تحرقني.

كل يوم ادور بالسيارة الخاصة واجمع النساء. من الدرابين والطرقات والمغاور حيث الكهنة يمارسون علوم السحر الاسود والعاهرات يحملن قداديس ملونة للالهة الوثنية الناشئة بين العيون والمخالب.

عالم كامل من الوحوش الاسطورية. عالم من التمرد واللوعة والاندهاش واللامعني، انتظر القحاب بعد أن ينكحهن وطبان وسبعاوي وبرزان وكل أهل العوجة، ثم امسح عضوهم بماء الكولونيا واشارك في نزوات الارتعاش المفصلي لحياتي المتجذرة في الأرض. اعمل على مدار الساعة، مثل يعسوب، مثل حشرة طليقة في زريبة الابقار. مثل دودة طويلة تتلوى على نفسها بانتظار بصقة احدهم. عندما انتظر القحاب في الغرف الجانبية يأتيني احدهم ويطلب مني بسفالة واوامر عسكرية أن انزع بنطلوني. انهم ينيكون كل شيء في حياتنا. ينيكون النساء والعرجان والخلان والرجال والانعام والمصلين ورجال الدين.

في هالة سوداء من العدم. انزع بنطلوني ويغتصبوني أمام النساء. أشعر بالشفقة على نفسي واتحسس مقدار الألم الفظيع الذي تشعر به

النساء. بعد انتهاء الحفل احمل دموعي وانين متصل وغابة من المشاعر المضطربة واغادر إلى الله.

❊❊❊❊

بالرغم من العمل الهائل مع روز وبرغم اتصال الليل مع النهار، إلا أني جائع. جوع مخيف يتوسط حياتي. بعد انتهاء حفلات المضاجعة. يجيء العشاء الخرافي. أهل العوجة مخيفون في طريقتهم بالتهام الطعام. انهم ينحدرون من الوحوش البدائية التي جاعت في بدء الخليقة وورثت جيناتها إلى الكلاب الاسطورية.

أنظر وهم يلتهمون الطعام مع النساء. احمل اباريق الخمر والميسر والدهشة وادور، بين الغطيط وبين التقيؤ، اسقي الاخرين من مدامع الزهر، ويسكي وبيرة بافارية وترياق اصفهاني. اقف مثل عبد مسكين. مثل بائس وأنا أنظر إلى الطعام الغريب والفوضوي والمتطاول والمليء باصناف من الزعفران واللوز والفستق والذي لم اشاهد مثيلا له من قبل. عندما وصل الجوع واللعاب إلى مستويات مجهولة من الانثيال وبعد أن نهض أهل العوجة من مائدة الطعام وذهبوا لينكحوا الحمير المربوطة خارج الصالة.

هجمت على دجاجة مشوية محشوة بغرائب الأشياء. لمحني احدهم وركض باتجاهي ولم أشعر إلا والعصي تنهال علي وعويل النساء ينداح في المكان.

❊❊❊❊

خرجت من معسكر الضبط الذي رميت فيه، شهرا. كانوا يوقظوننا في الصباح الباكر ويعروا اجسادنا باستثناء البستنا الداخلية

وتبدأ حفلة من الضرب والركض والفلقة والرش بالماء البارد. حلقوا روؤسنا وشواربنا وحواجبنا.

كنا مجموعة من الرجال الذين لم يعودوا رجال. كنا منزوين على انفسنا ونعيش في توحد غريب. لم استطع المطاولة. كنت بعد كل وجبة ضرب واغراق في مياه ثقيلة وقذرة. أعود إلى حالة من التوحد البائس والغريب والدهشة من مصير يشابه مصير حكايات الف ليلة وليلة. الغريب أني لم أكن أفكر في أطفالي. اردت أن أجد وسيلة لتخليصي من العذاب فلم أجد إلا أن اعرض نفسي على أحد العرفاء الذي اخذ ينيكني خلف مطبخ الضباط. في ظلمة الليل والاتربة والبرد العاصف وشهوة التدمير.

تم نقلي إلى مطبخ الجنود. بعد انقضاء الشهر، سلموني ملابسي ومنحوني اجرة باص وانحدرت إلى حسن عجمي. عندما دخلت المقهى كنت اعاني من ارتعاش يدي. حالة الرذاذ المتطاير من فمي تزداد بشكل مرير. وجدت صلاح زنكنة في المقهى. عندما شاهدني ركض باتجاهي واجلسني وقال دون مقدمات. أين كنت. كنت ابحث عنك في كل مكان. زوجتك اخذت تعمل مع الام، شاهدتهن وهن يحولن البيت إلى ماخور.

كان وجهي مدمى. اثار ضربات العصي في معسكر الضبط لم تزل طرية. عندما كان صلاح يتحدث كنت أشعر بذهول. ذهول مرير. اسمع الكلام لكني غير قادر على التأثر، جامد. مدو، رعديد. سخيف. قواد. قلت لصلاح فجأة هل تريد أن (تتونس). يسكت صلاح وانظر في عينه مباشرة. زوجتك يا رجل. أنظر في وجه صلاح بدهشة وأتساءل لماذا هذا الحيوان لا يمارس معي اللواط.

اترك حسن عجمي وادور في الشوارع تائها، مثل يوم القيامة. الناس تدفعني في كل الاتجاهات. ورقة تائهة فوق كومة من الازبال. أفكر بالذهاب إلى أحلام منصور. اذرع الشوارع. أريد أن اذهب إلى أحلام من أجل أن تمنحني بعض اقراص الكآبة. عواء ينطلق من داخلي. اكرهك ايتها الحيوانات النافقة. انتم هنا تبحثون في اكوام الازبال عن قطعة خبز وعظام مقشوطة من اللحم واهل العوجة يبيعون النفط ويقبضون ثمنكم. هراء. لا تعوي اكثر. عواء أكثر يعني العودة إلى معسكر الضبط. اقف في محطة الباصات مذهولا. العواء في داخلي يحطمني. صوت مدمر يريد أن يخرج من داخلي ليبدد ظلمة العالم.

أصل بيت أحلام. اطرق الباب. تخرج. أحاول فتح الاقفال والسلاسل، تصرخ برعب. ارتعش، تهددني بانها سوف تستدعي صاحب الشرطة. خراء. كلكم عبارة عن بقايا إنسانية مدمرة. لماذا لا تصرخين معي يا أحلام منصور. أنت الامومة المفتقدة في كدرة السماء التائهة في الضياع. أطلب من أحلام حبوباً مهدئة. لكنها تنكرني. أنت أيضاً يا أحلام.

أعود إلى حسن عجمي سيراً على الاقدام. أجد محمد تركي النصار. يقول لي إن حميد المختار هرب من المستشفى وعبد الستار ناصر هاجر إلى الاردن. اتوسل محمد أن يمنحني بعض النقود. يرتعش محمد، يزبد، ثم ينهض. اجري خلفه مثل كلب. أطلب منه مرة ثانية أن يمنحني نقودا لكن هذه المرة بثمن. خدمة مقابل نقوده. المس بنطلونه. المس مؤخرة سرواله. يهرب محمد سريعا ويتعثر بباب المقهى اللعين. كلكم مناويك. لا تعرفون ما يفعل أهل العوجة في الزمن الخطأ والمكان الخطأ والإنسان الخطأ.

أفكر في عبد الستار ناصر. أفكر في السوس الرهيب الذي غزا حياتنا. أين تنام الآن يا حميد المختار. هل تنام في غرفتك الباردة مع كومة أطفالك ام تنام وحيداً مثل كركدن تائه في زخم الامطار. الليل والدهشة يفتكان بي. أنا الضياع المتأله بين كومة الجنرالات المشوهين. الجنرالات المزيفين الذين وضعوا النجوم على اكتافهم دون استحقاق، و يمر الزمن بوحشة غريبة. بوحشة مدمرة. التقط سجائري من الارصفة. مثل وحش كسير. مثل اله صغير انكرته الالهة الام. لكن امي تاهت في الضياع. تاهت لأنها منحت نفسها في سجون الغرابة والخراء الازلي.

أفكر في امي وتلتمسني الغصة. تلتمسني قشعريرة غريبة ومدوية. هل يستحق هؤلاء المناويك موتك. هل تستحق افكار فهد وباقي الخريات أن يموت الواحد من اجلها. من أجل تشردي. أنا المكروه الازلي في هذا الكون الهائل والصغير.

وفيما كنت اذرع الشوارع بأمعاء مجوفة وجوع قهري ورغبة عارمة في اللواط. اشاهد شوقي ويلمحني هو أيضاً من بعيد. اهرع اليه بسرعة. أطلب منه أن يمنحني نقودا. ويفر من أمامي مثل سعلاة كبيرة. لماذا يا شوقي تترك الغربان تنعق في وحشة الحقول الدائمة السواد. حتى أنت يا شوقي. كل المناويك يهربون من أمامي. كلهم يلوون وجوههم المسودة في ضياء الحشرات المغيبة للوعة.

اذهب إلى محطة باصات بعقوبة واستجدي اجرة الركوب إلى سفينة الابحار. أصل بعقوبة واذهب مباشرة إلى مصعب أمير. اقبل يده وأطلب منه أن يمنحني بعض الحبوب المهدئة. حبوب لموت الكائن الوحيد في هذا الكون الذي اكتشف تفاهات الحاضر وتفاهات التكارتة واهل العوجة. تفاهات من أجل الجميع وصمت ضوئي،

صمت من أجل الاموات والشهداء والخريات وصمت من أجل الدراويش والمعممين واللوطيين ثم دهشة كبيرة. دهشة بكبر التواءات الافواه المعذبة والمغسولة بحامض التنتريوك، والفازللين من أجل المضاجعات المؤاتية.

يفكر مصعب بوصفة جديدة. بوصفة خارقة لهذا الوجع المسكون بالابتلاءات والسقم. ابصق على الأرض مرات متعددة. يالهذا الوطن الجميل الذي حولنا إلى عاهرات ذهبيات ومشعات بنور الالهة الاولمبية فوق جبال حصاروست والبيرنية والالزاس. ابحر في مراكب النزوات. ابحر في قداديس بابلية ونور هائل ونور مغبش مضاء بالنيوترونات المشعة من أجل التكارتة واهل العوجة والقحاب المعذبات في سجون الوحدة المريرة وعدم توفر الكلينكس لمسح الاعضاء. ابحر لأن الزمن يغيب في متاهة اللاسؤال والسؤال في متاهة الاخر والضياع بلون الحناء الدامي ولون الليل المسود بكدرة حياتنا الضائعة في طرقات العالم.

يمنحني مصعب خلطة غريبة من الدواء. اصرخ بوجهه : أيها الرعديد والمستنزف. احتاج إلى قنابل من عيار خاص. احتاج لمدافع تبعد الارق والدود المتوحش من طرقات الدراويش الذين ضاعوا في متاهات الصحراء. يمنحني مصعب الخلطة السحرية وهي عبارة عن مزيج من ادوية الصرع والكآبة والدزنتري والرهاب والبرافين والسوس الأصلي ومركبات قادمة من مدن غريبة وغير موجودة على الخارطة الإنسانية. ابتلع كل شئ، دفعة واحدة.

وتمر دقائق مدوية، دقائق كونية في مقايسات الايام السماوية والثيران المجنحة والالهة والملائكة والله نفسه. احبك يالله لانك منحت التكارتة ملامح الانذال وهم يعبرون الافلاك ببواخر الزمن البدائي.

الزمن الآن. اواخر كانون اول من عام ١٩٩٦. عفن في روحي يتلقى هشاشة العظام وهي تتكسر على موائد القصابين. ارتمي على مقعد جانبي في غرفة مصعب. احلم بنوارس تائهة في دروب البحار. زمن بدوي ووحشة غريبة تنطلق من افتتان اللاهة بنواقص الجنس البشري. أشعر باختناق ونبضي يزداد سرعة.

اغادر غرفة مصعب وكاني اغادر هذا العالم إلى النهاية. الادوية التي تناولتها تجعلني أسير خفيفا مع نبض مرتعش وحركة غير موسقة للسيقان. اهرب في طرقات بعقوبة. ازور الساحات المظلمة وانعى الزمن الهمجي. كل خطوة اخطوها تعني نهاية الأشياء عندما تذوب في سائل سحري.

منذ أن سقاني مصعب تراكيبه السحرية وأنا اجول في الطرقات. زرت بوابات تاريخية هائلة وزرت معابد سحرية وكانت الجيوش المتوحشة تمر من أمامي وهي تحييني. كنت أشعر أني ابن الله الذي تركته الاقدار هشا أمام حالة فقدان الوطن. الوطن أيها المناويك. الوطن عندما يموت تحت سلطة الخراء الهمجي واوامر الجنرالات المزيفة والسيد الرئيس والدروع البشرية والدموع والموتى. الوطن يمور بالأوجاع والالام. أنحني واضع اذني على الأرض. اكاد اسمع صراخ اليتامى. صراخ المعذبين والتائهين والعرجان ومشوهي الحروب الجهنمية. أشعر بتوحد غريب معهم. توحد يجعلك تشعر انك ابن الله فعلا. أن وجودك على هذه الأرض ليس محض خطأ شهواني متولد من رغبة الاستيلاد والتناسل بداعي البقاء. الأحلام والروئ تستنزفني وأنا اتطلع اليها بمشهد بانورامي.

اقترب من نهر خريسان واعبر قنطرة خليل باشا وادخل في كومة الأشجار. اثناء رؤيتي للأحلام وهي تمر من أمامي بوجع السنين التائهة والضياع ووجوه الأصدقاء الذين اكلتهم الحروب. اتناول قنينة العرق

المغشوش. عرق من أجل الموتى. عرق من أجل الشهداء. عرق من أجل العاهرات الشهيدات. امج مجات واشاهد زوجتي مع الأطفال وهم يسحبوني نحو متاهة في نهاية الأرض. اضحك بقوة العربدة القتيلة. أحاول ابعاد اصابعهم الطويلة وهي تسحبني نحو المتاهة. أريد ابعادهم عني لكنهم يلتصقون بي غير عارفين أن جسدي ماعاد جسدي وروحي ماعادت إلا خراب الحروب والحصارات. فجأة اشاهد مصعب أمير بقضه وقضيضه و اشاهد محمد الاحمد وهو ينثر على وجهي عالم من الاوراق المسروقة والمجلوبة لاقلامنا المتكسرة. شكراً محمد وشكراً لاغنيات الغابات السوداء والمطر المتلالا بكائنات النار. أمير الحلاج يحضر أيضاً. انهم يشيعوني إلى نهاية المشوار حيث زريبة الفكر الكلاني والدكتاتوريات والهمجيات والحملة الايمانية المتألفة مع القهر الكوني. محمد الاحمد ينثر الاوراق على وجهي وحميد المختار يختار دروب الهجرات الوضيعة في زمن الاستجداء العظيم. أفكر في أطفالي. أفكر إلى الأبد في هروب عبد الستار ناصر. أفكر في لطفية الدليمي وحياة شرارة. أفكر في موسيقى القرب والعصي والحروب وموسيقى جنائزية.ثم اضحك إلى الأبد. اضحك وأشعر متقززا باصابع سوداء قادمة من المستحيل ومتجهة اليى اللامعني. ابصق لاخر مرة في حياتي. ابصق مثل جان دمو الجميل اذ لم يعد هناك وطن إنما مرحاض يحرسها القادمون من العوجة إلى الأبد.

انتهت

٢٩ ايار ٢٠٠٨

هاملتون – اونتاريو – كندا

المؤلف في سطور

- مواليد بغداد ١٩٦٢
- انتمى إلى الحركات القومية في العراق عام ١٩٧٢
- انتمى إلى جبهة النضال الشعبي الفلسطيني وسافر إلى بيروت عام ١٩٧٩ وعمل محرراً في مجلة النضال الشعبي
- ابتدأ النشر الادبي في مجلة النضال الشعبي الفلسطيني وبعض المجلات العراقية
- في العام ١٩٨٢ دخل الجامعة التكنولوجية لدراسة هندسة المعادن.
- في العام ١٩٨٢ ألقي القبض على والدته وتم اعدامها بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي العراقي
- بدأ النشر الادبي في مجلة صوت الطلبة ومجلة الطليعة الادبية
- ترك دراسة الجامعة في مراحلها الاخيرة بعد تعرضه لازمات نفسية قاتلة وضغوط من البعثيين في الجامعة
- شارك في الحرب العراقية الإيرانية كجندي وعمل في جبهة الفاو – المملحة
- تسرح من الخدمة العسكرية واكمل دراسة الصحافة بمنحة خاصة من اتحاد الادباء في العراق
- عام ١٩٩٢ انتمى إلى اتحاد الادباء في العراق

- العام ١٩٩٣ نشـر مجموعته القصصـية الاولى تحت ظل المطر
- العام ١٩٩٤ عمل مراسلا صحافيا لمجلة فلسطين الثورة من بغداد
- نشـر وكتب في العديد من المجلات والجرائد العراقية والعربية.
- في العام ١٩٩٤ تم استثنائه من التعيين في الجرائد العر اقية اسوة بالادبـاء الآخرين بحجة انه غير موال للحزب والثورة في العراق ولم يكتـب عـن قادسـية صدام وام المعارك
- في العام ١٩٩٤ لوحق من قبل الأجهزة الأمنية لكتابته قصة عن الحصـار ونشـرها في مجلة الناقد البيروتية
- العام ١٩٩٤ فازت احـدى قصصـه القصـيرة في مسـابقة راديـو فرنسـا الدولي وترجمت إلى اللغة الفرنسـية والألمانية والايطالية.
- العام ١٩٩٥ وأمام اشتداد الحصـار الاقتصـادي عـلى العـراق وتضـييق الحكومة العراقية على الحريـات، سـافر إلى عـمان – الاردن حيـث عمـل عتالا وحمالا وكناسا في المركز الثقافي الملكي
- نهاية عام ١٩٩٥ عمل مصححاً في جريدة المجد الاردنية وكاتبـاً لعمـود شهري
- عام ١٩٩٦ انتقل للعمل في مؤسسة انترميديا للاعلام وعمـل سـكرتيراً للتحرير ونشـر العديد من الاعمال الادبيـة في الجرائـد الاردنيـة وبعـض المجلات والجرائد العربية الصادرة في لندن والخليج العربي
- نهاية ١٩٩٦ رجع إلى بغداد واسس مكتباً صحافيا وراسـل العديـد مـن الجرائد العربية
- هرب اواخر عام ١٩٩٦ إلى شمال العـراق مـع عائلتـه وعمـل محـرراً في جريدة الاتحاد التابعة لحزب جلال الطالباني وبعد دخول قوات الحكومة إلى اربيل بمعية مسعود بارزاني تعرض لمحاولة اغتيال.
- في اواخر العام ١٩٩٨ ترك مدينة زاخو بعد المضايقات المكثفة من حزب

مسعود بارزاني وسافر إلى تركيا حيث قبل كلاجئ سياسي بسبب كتاباته السياسية والادبية

- في اواسط عام ١٩٩٩ تم حصوله على موافقة الحكومة الكندية للدخول إلى كندا والاستقرار فيها
- انتمى إلى اتحاد الادباء في العراق ١٩٩٢
- أصبح عضوا في اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٩٤
- منح الجنسية الكندية عام ٢٠٠٣
- منح عضوية اتحاد الكتاب الكنديين عام ٢٠٠٥
- فاز بجائزة ناجي نعمان للابداع ٢٠٠٧
- يكتب حاليا في جريدة المغترب العربي الكندية وموقع نوافذ عربية الالكتروني

العنوان الالكتروني
Salah352@hotmail.com
Salah12_ca@yahoo.ca

اصدارات للمؤلف:

تحت ظل المطر ١٩٩٦ قصص قصيرة – طبعة خاصة

مكان لممارسة الحلم ٢٠٠٢ قصص قصيرة – دار المغترب العربي – تورنتو

تحت سماء الكلاب ٢٠٠٥ رواية – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – تم منعها من التوزيع في الدول العربية

قيد الاصدار :

اوراق الزمن الداعر – رواية

كائنات النار – نصوص

فهرس المحتويات

الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ٦٣
الفصل الثالث ١٢٥
الفصل الرابع ١٦١
الفصل الخامس ٢١٥
الفصل السادس ٢٣٩
الفصل السابع ٢٧١
الفصل الثامن ٣٣٣
الفصل التاسع ٣٥٣
الفصل العاشر ٤٠٩
الفصل الحادي عشر ٤٦٣
المؤلف في سطور ٤٧٥
فهرس المحتويات ٤٧٩